الإِعْجَازُ البَلَاغِيُّ

فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

الاستاذ الدكتور

حميد النجدي

ميتاول للطباعة والنشر

يصدر عن:

دار ميتا بوك
للطباعة والنشر

الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم

أ.د./ حميد النجدي

الطبعة الأولى، 2022م
****
التجهيزات الفنية والطباعة

METABOOK
Publisher
002 01013121217
darmetabook@gmail.com

- رقم الإيداع: 13901 / 2022
- الترقيم الدولي: I.S.B.N . 978-977-6990-45-0

- الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الدار، بل تعبر عن رأي المؤلف في المقام الأول.
- حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه أو تحويله رقمياً أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

قبل أن نبتدئ بالحديث عن الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم سنتناول حالة العرب قبل نزول القرآن الكريم وأثناء نزوله، من حيث حالتهم السياسية والاقتصادية والأدبية واللغوية والاجتماعية والدينية، والتعرف على حالة العرب في تلك العصور يبرز الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم والفوارق والميزات التي ميّزت القرآن عن بقية كلام العرب، وكيف تلقى العرب هذا القرآن بتلك المواصفات وتلك المميزات.

إنّ الحالة السائدة عند العرب في ذلك الوقت (قبل نزول الوحي) كانوا العرب يمتلكون تراثاً في جزيرة العرب من آبائهم وأجدادهم، فهناك عادات وتقاليد وبداوة سائدة، وكذلك كانت هناك أمية منتشرة، ولا يوجد نظام سياسي يسود العرب في ذلك العصر خلافاً للامبراطورية الرومانية والفارسية، وخلافاً أيضاً لما كان من نظام حكم في الهند والصين، حيث كان نظام القبيلة هو السائد فالشعوب والقبائل العربية كان يسودها هذا النظام من الناحية السياسية. ويكثر عند العرب الغزوات فيما بينهم، فيعتمدون الغزوات كأسلوب من أساليب معيشتهم واقتصادهم.

أما من الناحية الدينية فتسود العرب عدة ديانات منها اليهودية والنصرانية والصابئة وهناك أيضاً الوثنية التي كانت سائدة في المجتمع العربي حيث أن المشركين في مكة والمدينة وفي اليمن وكذلك في اليمامة والحجاز ونجد، وهناك أيضاً الموحدون أي الأحناف الذين بقوا على دين إبراهيم الخليل (ع) والذين انحدروا أيضاً من ذريته، فسلالة النبي محمد (ص) من ذرية إبراهيم (ع)، فدين التوحيد والأحناف وهم قلة جداً في ذلك الوقت كانوا يقطنون مكة المكرمة.

أما بالنسبة للغة فكانت اللغة العربية تسود الجزيرة العربية بلهجات مختلفة، وهذه اللهجات تسمى في ذلك الوقت باللغات كلغة تميم ولغة قريش ولغة طي ولغة حمير... الخ، والتي نصطلح علينا الآن باللهجة ولكنها بأجمعها ترجع إلى لغة واحدة.

اللغة العربية كبقية اللغات نشأت ثم تطورت ووصلت إلى أوج تطورها وبلوغ القمة في هذا التطور عند عصر النزول، فالقرآن الكريم

حينما نزل كانت اللغة العربية قد تطورت إلى أعلى مستوى فيها. وبما أنّ العرب كانوا أمة أمية فلذلك أرهفت احساساتهم في كلامهم، أي أنّ كلامهم وأصواتهم قد برعوا فيه نتيجة لأميّتهم حتى أحصوا في مكة المكرمة أنّه لا يوجد أكثر من سبعة عشر قارئاً وكاتباً.وكانت الأسواق تُعقد وتحتوي على قضيتين: قضية مادية من ناحية اقتصادية، وقضية لغوية حيث يجرى في تلك الأسواق المباريات اللغوية في الشعر والخطابة وما شاكل ذلك.

امتازت لغة العرب في تلك الحقبة من ناحيتين: ناحية الألفاظ حيث أنها وعاء للمعاني فكانت منها ألفاظ مترادفة ومنها مختصة، والناحية الثانية الأسلوب حيث يصور الإعراب التغيّرات الطارئة على الجملة العربية فالتغير في أواخر الكلمات من حيث الرفع أو النصب أو الجزم أو الجر، كلها تصور المعاني التي يريد أن يبوح بها العربي. فالعربي اعتنى عناية فائقة في الأسلوب وبرع فيه، ومن هذا المنطلق تنطلق البلاغة في الكلام العربي.

تطورت البلاغة من خلال الحلقات التي كانت تُعقد في الأسواق كسوق عكاظ، فهذه الحلقات في الأسواق التي كانت تُعقد في موسم الحج كانت فيها تجارة لأجل البيع فكل يعرض ما عنده من الأشياء للبيع، وأيضاً كان فيها زاد الروح حيث كان الشاعر في ذلك الوقت يمثل وسيلة الاعلام في أيامنا هذه. فكانت تحدث المباريات الشعرية والأدبية وهناك حكّام يحكمون على مَن يتفوق ويفوز في هذه المباريات كالنابغة الذبياني وأمثاله من النقاد. ومن خلال هذه المباريات ظهرت المعلقات، وقد سُمّيت بذلك لأنّها كانت تُعلق على أستار الكعبة لامتيازها وتفوقها في تلك المباريات. وكذلك ظهرت القصائد الحولية التي كانت تُكتب بحول كامل.

من هذا المنطلق تميّز العرب على غيرهم بالأدب (الشعر والخطابة) وهذا الأدب تجسّد باللمح السريع والنظر الخاطف وفي خيالاتهم جمال وقوة اللحظ وسرعة الادراك. ومقارنة للمجتمعات غير العربية كاليونان مثلاً كان أدبهم يسوده القصص حيث تكثر القصص في الأدب اليوناني، بينما تقل القصص في الأدب العربي ويكثر الشعر ويأتي بعد الشعر في الدرجة الثانية الخطابة.

الفصل الأول

نزول القرآن الكريم

المبحث الأول: أحوال العرب قبل نزول القرآن الكريم

يقول القاضي عياض في وصف حالة العرب اللغوية: «قد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فضل الخطاب ما يقيد الألباب جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون بديهاً في المقامات وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون، ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويذهبون الإحَن، ويهيجون الدِّمن ويجرئون الجبان، ويبسطون يد الجعد البنان، ويصيرون الناقص كاملاً ويتركون النبيه خاملاً. منهم البدوي ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنزع القوي. ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول القليل الكُلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية»[1].

في مثل هذه الأجواء نزل القرآن الكريم، كان الرسول الكريم (ص) قد مكث فيهم 40 سنة لم يتكلم خلالها عن شيء من الإسلام إلا بعد نزول الوحي وأن يقوم بالتبليغ حيث نزلت الآيات: **(اقرَأ باسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)**[2]، **(فَاصدَع بِمَا تُؤمَرُ وَأَعرِض عَنِ المُشرِكِينَ)**[3]، و**(وَأَنذِر عَشِيرَتَكَ الأَقرَبِينَ)**[4]، فصدع النبي (ص) في تبليغ دعوته وأخذ يتلو عليهم آيات القرآن الكريم. وعندما سمع العرب بالقرآن الكريم انبهروا وتحيّروا، فهم ألفوا من جانب النثر والخطابة والشعر ولكنهم فوجئوا بالقرآن الكريم لأنّهم

(1) عياض، القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 2008. ج1/ ص 258.

(2) العلق،1.

(3) الحجر،94.

(4) الشعراء،214.

لم يألفوا أسلوب القرآن الكريم حيث أنّه ليس هو من النثر ولا من الخطابة ولا من الشعر، فأسلوبه فريد جديد في نوعه فتحيّروا ماذا يقولون؟! فهم لديهم إحساس وشعور بالبلاغة فعندما قارنوا قوّة بلاغة القرآن الكريم مع ما لديهم من البلاغة تحيّروا واضطربوا في ذلك، فما يدعوهم القرآن الكريم يصطدم مع ما ألفوه من العادات والتقاليد والأديان والعقائد. وما يحمله من البلاغة يجذبهم ويحيّر عقولهم فهو ليس من الكلام الذي اعتادوه وألفوه وعرفوه.

المبحث الثاني: أحوال العرب بعد نزول القرآن الكريم

بعد نزول الوحي ونزول القرآن الكريم نذكر أقوال بلغاء العرب وفصحائهم عن القرآن الكريم وما هي الأقوال التي أثرت عنهم. لقد تحيّروا فيما يقولون فهو ليس بالرجز ولا بالقصيد الذي عرفوه، لذلك استسهلوا أن يحاربوا الرسول (ص) على أن يقولوا في القرآن الكريم شيئاً يخالف سليقتهم وطبيعتهم البلاغية واحساسهم المرهف. فاستباحوا أذية الرسول (ص) والطعن به (ص) ولم يستبيحوا لأنفسهم الطعن في مقام البيان القرآني. فكم هي عظمة القرآن من الناحية البلاغية والبيانية التيأسكتت العرب وحيّرهم في أن ينالوا من القرآن الكريم كلمة واحدة.

حينئذ بدأت اجتماعاتهم تعقد لأجل أن يأخذوا كلام بلغائهم في القرآن الكريم، فماذا يقولون عن القرآن الكريم ؟! فهو في طياته يحمل عنصر التحدي وهم لم يفلحوا بشيء كما أفلحوا باللغة، فقد تفوّق العرب في اللغة على كل مجتمعات وشعوب الدول في ذلك الوقت.

كان أوّل مَن قال في القرآن الكريم قولته هو الوليد بن المغيرة حينما خشي أبو جهل عليه أن يرق قلبه إلى الإسلام وأن يسلم فبدأت المحاورة بين أبي جهل وبين الوليد فقال له أبو جهل: أنّه لابدّ أن يقول قولاً في القرآن الكريم، ولكنه لم يستطع أن يقول في القرآن شيئاً، فحينئذ ألحّ عليه أبو جهل، فقال الوليد قولته: «والله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه مني، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا،

ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن اسفله لمغدق، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه»[1].

نقف عند هذه الأوصاف التي ذكرها الوليد بن المغيرة، فيقول (بما معناه): ما هو من كلام الإنس (الأشعار والقصائد) ولا من كلام الجن ماهو ولا بالسحر ولا بالكهانة بالشعر، فالقرآن الكريم ليس كما ألفوه من الشعر والنثر.

ثم يقول: «إنّ له لحلاوة» فالكلام القرآني كلام شهي جذّاب يخلب العقول لبلاغته وترتاح له النفوس. «إنّ عليه لطلاوة» أي أنّ القرآن محلى بالألفاظ الجميلة والأنغام المقبولة التي تنسجم معها الأذن ولها موسيقى خاصة وإيقاع خاص للمستمع.

«إنّ أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق»: يعني شبّهة القرآن الكريم بالشجرة المثمرة الكبيرة الممتدة الغصون والتي تحمل هذه الغصون الثمر، فأعلاه لمثمر، واسفله مغدق أي أسفل الشجرة الجذور ممتدة وراسخة في الأرض، فالقرآن معطاء ولذلك وصف تعالى كتابه الكريم: **(إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ)**[2]، أي كثير العطاء.

هكذا وصف كبيرهم في اللغة القرآن الكريم، فلم يستطع أن يقول شيئاً يمس فيه بلاغة القرآن واعجاز القرآن الكريم.

أيضاً هناك نصوص نقلت ومحاورة جرت بين الوليد بن المغيرة وبين القوم الذين ترأسهم أبو جهل في ذلك الوقت فقال لهم: «إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه (يعني النبي (ص) رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً». فقالوا: نقول كاهن، قال: «والله ما هو بكاهن، ولا هو بزمزمته ولا سجعه». قالوا: مجنون، قال: «ما هو بمجنون ولا بخنقه، ولا وسوسته».

قالوا: فنقول شاعر، قال: «ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه». قالوا: فنقول ساحر، قال: «ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده».

---

(1) الطبري، محمد بن جرير: تفسير الطبري، دار المعارف، الطبعة الأولى، القاهرة– مصر. ج24/ ص 24.
(2) الواقعة،77.

قالوا: فما نقول؟ قال: «ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق، وإن أقرب القول إنه ساحر، وإنه سحر يفرق به بين المرء وابنه والمرء وأخيه، والمرء وزوجته، والمرء وعشيرته»[1].

فمن خلال هذه المحاورة تبيّن لنا كيف أن هؤلاء بهروا بالقرآن الكريم وحتى أنّهم قالوا أنّه (ص) بساحر فإنّهم لم يجزموا بذلك وإنما أرادوا أن يقولوا شيئاً كي يردوا به على نبي الله محمد (ص).

نذكر خبراً آخر لبليغ آخر من بلغائهم وهو عتبة بن ابي ربيعة فقد سمع القرآن وهو على الشرك وهو أيضاً من كبراء قريش فأدرك بذوقه البياني مقام القرآن الكريم وعظم نظمه وبلاغته ودقّة معانيه وانسجام ألفاظه مع هذه المعاني، فبدأ قومه يطالبونه أن يقول شيئاً في القرآن الكريم، وقال مقالة الحق: «والله لقد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة»[2].

«وفي حديث إسلام أبي ذر، ووصف أخاه أنيساً، فقال: والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس لقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية، أنا أحدهم، وإنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي (ص). قلت: فما يقول الناس ؟ قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، وإنه لصادق وإنهم لكاذبون»[3].

حيث أن الشعر في مجمله يحمل الخيال والكذب، فكيف يُقاس القرآن الذي ينطق بالحق والصدق بالشعر، وذلك قوله تعالى: **(وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ* أَلَم تَرَ أَنَّهُم فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ* وَأَنَّهُم يَقُولُونَ مَا لا يَفعَلُونَ)**[4].

هناك أيضاً كثيرون قالوا في القرآن الكريم لا نريد أن نطيل بذكرهم ولكن نذكر حقائق ننتهي إليها من خلال كلمات هؤلاء البلغاء فننتهي إلى حقائق ثابتة نتوصل إليها من خلال كلمات هؤلاء البلغاء.

---

(1) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مصدر سابق، ج1/ ص 282.
(2) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مصدر سابق، ج1/ ص 282.
(3) المصدر السابق، ج1/ ص 282.
(4) الشعراء، 224 – 226.

الحقيقة الأولى أنّ قريشاً مع شدة ملاحاتها للنبي (ص) ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون وسفّه أحلامهم وأعاب عقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم وذكر أوثانهم بغير ما يؤمنون به فلم يتحركوا لأن يقولوا قولاً في القرآن الكريم، فلم يستطيعوا أن يردوا على القرآن ولا أن يجاروا القرآن فعمدوا إلى حرب الرسول (ص) فلعجزهم لم يتحركوا في مجال الرد وأذعنوا لبلاغته وقوته، وقد أسلم الكثير منهم لهذه البلاغة.

الحقيقة الثانية أنّ القرآن الكريم جذب العرب إلى الإيمان بما فيه من روعة وقوة وبيان، يعني ليس فقط أن القرآن الكريم أعجز هؤلاء وإنما جذبهم إلى الإيمان. فمنهم مَن جحد وقلبه آمن وتيقن ومع ذلك جحد عناداً واستكباراً، ومنهم مَن انجذب إلى القرآن وآمن به وآمن بقوة بيانه وأنّه معجز وأنّ أقواله محكمة وأنّ ما فيه من قصص تطول وتقصر مملوءة بالعبر فلا يدع صغيرة أو كبيرة إلا أوفاها بالعبارة الناصعة والإشارة الواضحة.

الحقيقة الثالثة أنّهم أدركوا أنّ هذا الكلام ليس بوسعهم أن يقولوا مثله وأنّه فوق طاقتهم وهذا ما بيّنه القرآن الكريم بقوله تعالى: **(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)**[1].

نضرب مثالاً آخر[2]: كان رسول الله (ص) في المسجد الحرام وحده فنادى عتبة: «يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد وأكلمه وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا ؟» وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله (ص) يزيدون ويكثرون؛ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله (ص) فقال: «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع

---

(1) الحديد،25.

(2) ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري: السيرةالنبوية،تحقيق: طهعبدالرؤوف سعد، دارالجيل، بيروت– لبنان، 1411هـ. ج1/ ص 293 – 294.

مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها؟» فقال له رسول الله (ص): قل يا أبا الوليد، أسمع؛ قال: «يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له».

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله (ص) يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني؛ قال: أفعل؛ فقال: **(بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ* حم* تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ* كِتَابٌ فُصِّلَت آيَاتُهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لِّقَومٍ يَعلَمُونَ* بَشِيراً وَنَذِيراً فَأعرَضَ أَكثَرُهُم فَهُم لا يَسمَعُونَ* وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدعُونَا إِلَيهِ وَفِي آذَانِنَا وَقرٌ وَمِن بَينِنَا وَبَينِكَ حِجَابٌ فَاعمَل إِنَّنَا عَامِلُونَ)**[1] ثم مضى رسول الله (ص) فيها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه؛ ثم انتهى رسول الله (ص) إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: «ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش،أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه،فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به» قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: «هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم».

نلاحظ من كلام عتبة أنّه نفى عن القرآن الكريم أن يكون شعراً، سحراً أو كهانة، كما أقرّ واعترف بأنّ هذا الكلام ليس كبقية الكلام، لا من ناحية النظم ولا من ناحية النثر ولا من ناحية الشعر وتأثر حتى خشي عليه قومه أن يميل ويدخل في الإسلام.

---

(1) فصلت،1 – 5.

إنّ هذا دليل قاطع على أنّ قريش لم تتجه باتجاه معارض للقرآن الكريم وتأتي لو بسورة من مثله وإنما عرضوا على رسول الله (ص) مغريات لكي يترك هذا الأمر، ونزلوا وتنازلوا حتى وصل بهم الأمر أنهم عرضوا عليه: أن تعبد آلهتنا مرة ونعبدُ إلهك مرة، وتعبد آلهتنا مرة ونعبدُ إلهك مرة، فنزل قوله تعالى: **(بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ* قُل يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ* لا أَعبُدُ مَا تَعبُدُونَ* وَلا أَنتُم عَابِدُونَ مَا أَعبُدُ* وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّم* وَلا أَنتُم عَابِدُونَ مَا أَعبُدُ* لَكُم دِينُكُم وَلِيَ دِينِ)**[(1)]، لذلك نزل القرآن الكريم جواباً على الكافرين وقد كرر جواباً كما كرّروا، فلاحظوا الآيات المباركة كيف أجابت على عرضهم.

هذا دليل على أنّهم تنزّلوا مع رسول الله (ص) ورضوا بأن يعبدوا الله تعالى مرة وأن يعبد الرسول (ص) آلهتم مرة – حاشاه – فردّ عليهم القرآن في هذه السورة.

الخلاصة التي نستخلصها من محاورة قريش مع عتبة ومع الرسول (ص) أنّهم كانوا عاجزين على أن يأتوا بسورة من مثل القرآن.

كما ذكرنا سابقاً بأن قريش لم يستطيعوا أن يردوا على القرآن ولا أن يجاروا القرآن فعمدوا إلى حرب الرسول (ص)، والبعض الآخر دخل في الإسلام وسنأخذ نماذج من هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام بفعل تأثير القرآن الكريم. وسنأخذ تأثير آيتين وهو ما ذكره الشيخ السبحاني في كتابه «الإلهيات»:

كان بين الأوس والخزرج حروب طاحنة، وكانوا لا يضعون السلاح لا باليل ولا بالنهار، وكانت آخر حرب سجلت بينهم «يوم بعاث»، وكان النصر حليف الأوس على الخزرج، ولأجل ذلك خرج أسعد بن زرارة وزكوان الخزرجيَّينْ، إلى مكة في عمرة رجب، يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد بن زُرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه، فقال له: «إنّه كان بيننا وبين قومنا حرب، وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم».

فقال عتبة: «بعدت دارنا عن داركم، ولنا شغل لا نتفرغ لشيء». قال: «وما شغلكم وأنتم في قومكم وأمنكم ؟».

---

(1) الجحد (الكافرون)،1 – 6.

قال له عتبة: «خرج فينا رجل يدعي أنّه رسول الله، سَفّه أحلامنا، وسَبّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا». فقال له أسعد: «مَن هو منكم؟».

قال: «ابن عبد الله بن عبد المطلب، من أوسطنا شرفاً، وأعظمنا بيتاً». فلما سمع ذلك أسعد، قال: «فأين هو؟». قال: «جالس في الحجر، وإنّهم لا يخرجون من شِعْبِهِمْ إلاّ في الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلّمه، فإنّه ساحر يسحرك بكلامه».

وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب.فقال له أسعد: «فكيف أصنع وأنا معتمر ؟ لا بُدَّ لي أن أطوف بالبيت». فقال: «ضع في أُذُنَيْكَ القُطن». فدخل أسعد المسجد، وقد حشا أُذنيه من القُطن، وطاف بالبيت، ورسول الله (ص) جالس في الحجر، مع قوم من بني هاشم. فنظر إليه نظرة، فجازه. فلما كان في الشوط الثاني، قال في نفسه: «ما أجد أَجْهَلَ مني. أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أعرفه، حتى أرجع إلى قومي فأُخبرهم»، ثم أخذ القُطُن من أُذنيه ورمى به. فلما وصل إلى رسول الله (ص)، قال له: «أَنْعِمْ صباحاً».فرفع رسول الله رأسه إليه، وقال: «قد أَبْدَلَنا الله به ما هو أحسن من هذا، تحية أهل الجنة: السلام عليكم».فقال له أسعد: «إنّ عهدك بهذا القريب. إلى مَا تدعو يا محمد؟».

قال: «إلى شهادة أنّ لا إله إلاّ الله، وأنّي رسول الله».ثم قرأ هاتين الآيتين:(**قُل تَعَالَوا أَتلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم أَلاَّ تُشركُوا بِهِ شَيئاً وَبالوَالِدَينِ إحسَاناً وَلاَ تَقتُلُوا أَولاَدَكُم مِّن إملاَقٍ نَّحنُ نَرزُقُكُم وَإِيَّاهُم وَلاَ تَقرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقتُلُوا النَّفسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ ذَلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَعقِلُونَ* وَلاَ تَقرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ حَتَّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوفُوا الكَيلَ وَالمِيزَانَ بِالقِسطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفساً إِلاَّ وُسعَهَا وَإِذَا قُلتُم فَاعدِلُوا وَلَو كَانَ ذَا قُربَى وَبِعَهدِ اللهِ أَوفُوا ذَلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ**)(1).

فلما سمع أسعد، قال: «أشهد أن لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، وأَنَّكَ رسولُ الله. بأبي أنت وأُمّي، أنا من أهل يثرب ومن الخزرج، وبَيْنَنا وبَيْنَ إخواننا من الأوس حبال مقطوعة، فإنْ وصلها الله بك، فلا أجد أعزّ

(1) الأنعام،151 - 152.

منك، ومعي رجل من قومي، فإنْ دخل في هذا الأمر، رجوت أن يُتِمَّ الله لنا أمرنا فيك... فالحمد لله الّذي ساقنا إليك، والله ما جئت إلاّ لنطلب الحلف على قومنا، وقد آتانا الله بأفضل ما أتيت له».

ثم أقبل زكوان، فقال له أسعد: «هذا رسول الله الّذي كانت اليهود تبشرنا به، وتخبرنا بصفته، فَهَلُمّ فأسلم». فأسلم زكوان. ثم قالا: «يا رسول الله، إبعث معنا رجلاً يعلمنا القُرآن، ويدعو الناس إلى أمرك». فأمر رسول الله مصعب بن عُمير وكان فتى حدثاً مُتْرَفاً بين أبويه، يكرمانه ويفضلانه على أولادهم، ولم يخرج من مكة، فلما أسلم جفاه أبواه، وكان مع رسول الله في الشعب حتى تغير وأصابه الجهد، وقد كان يعلم من القرآن كثيراً أمره بالخروج مع أسعد وزكوان، فخرج معهما إلى المدينة، وقدما على قومهما وأخبراهم بأمر رسول الله وخَبَره، فأجاب من كلّ بطن، الرجل والرجلان[1] وأيضاً هناك حالات أخرى ظهرت لكثير من الصحابة الذين تُرجم لهم بدخلوهم الإسلام عبر سماع آيات من القرآن الكريم.

المبحث الثالث: الوسائل التي اتخذها قريش للصد عن سماع القرآن

بعد أن شاهدت قريش دخول جماعات وأفراداً للإسلام فبدأت تخطط بثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: منع الناس، وخاصةً الشخصيات والوجهاء، من سماع القرآن ومقابلة الرسول الأكرم (ص).

الاتجاه الثاني: عزو القرآن إلى السحر، فكانوا ينشرون بين الناس أن هذا كلام ساحر.

الاتجاه الثالث: أخذوا يدعون القصاصين لسرد أخبار الأمم، لشغلهم عن القرآن الكريم.

(1) السبحاني، العلامة الشيخ جعفر: الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مؤسسة الإمام الصادق (ع)، الطبعة السابعة، قم – إيران، 1430هـ. ج3/ ص 249 – 252.

الاتجاه الأول: منع الناس من سماع القرآن الكريم

ذُكر هذا الأمر في القرآن الكريم بقوله تعالى: **(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسمَعُوا لِهَذَا القُرآنِ وَالغَوا فِيهِ لَعَلَّكُم تَغلِبُونَ)**[1]، أي عارضوه باللغو حتى لا يُعتد به من الكلام وحتى لا يصل كلام القرآن إلى أسماع الآخرين.

إنّ ثلاثة من بلغاء ووجهاء قريش ومن أشرافهم وهم: أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شبيب خرجوا ليلة ليستمعوا إلى كلام رسول الله (ص) وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كلٌّ رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر، تفرّقوا، فجمعهم الطريق فتلاقوا وقال بعضهم لبعض: «لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً» ثم انصرفوا.

اتفقوا على ألا يستمعوا إلى القرآن وألا يستمعوا إلى كلام الرسول (ص) ولكنهم لجاذبية القرآن الكريم وشدّة تأثرهم به كل على انفراد ذهب يستمع إلى كلام الرسول (ص). حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كلٌّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثلما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كلّ رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: «لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود»، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرّقوا.

«فلو كان القرآن كلاماً، يشبه كلام الإنس ويوازنه ويعادله، لم يكن هناك أي وازع لهؤلاء الصناديد الذين يعدّون في الطليعة والقمة من أعداء النبي، أن يهجروا فرشهم، ويُقلوا دفء دُثُرهم، ويبيتوا في الظلام الحالك على التراب، حتى يستمعوا إلى كلامه ومناجاته في أحشاء الليل في صلاته ونسكه، وما هذا إلاّ لأنّ القرآن كان كلاماً خلاّباً، لعذوبة ألفاظه وبلاغة معانيه، رائعاً في نظمه وأسلوبه، لم يكن له نظير في أوساطهم، ولا في كلمات بُلّغائهم وفُصَحائهم، وهم الفُصحَاء والبُلغاء ومن يشار إليهم في تلك العُصور»[2].

---

(1) فصلت،26.
(2) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 253.

ومن الطرق التي سلكوها لصرف الناس عن سماع القرآن الكريم، فكلما جاء شخص من خارج مكة يريد الحج أو التجارة فإنّهم يحذرونه من الاستماع إلى رسول الله (ص)، ومن تلك الشخصيات الطفيل بن عمر الدوسي، فقد قدم مكة ورسول الله بها، فمشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا له: «يا طُفيل إنّك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الّذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرّق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنّما قوله كالسحر، يفرّق بين الرجل وأبيه، وبينه وأخيه وزوجته، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا، فلا تكلّمَنَّه، ولا تَسْمَعَنَّ منه شيئاً».

يقول الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أَجْمَعْتُ أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلّمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفاً، فَرَقاً من أنْ يَبْلُغني شيء من قوله، وأنا لا أُريد أنْ أسمعه.قال: فغدوت إلى المسجد، فاذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة.

قال: فقمت منه قريباً فأبى الله إلاّ أن يُسْمِعني بعض قوله فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: «واثكل أمّي، والله إنّي لرجل لبيب، شاعر، ما يخفى عَلَيّ الحَسَن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل. فإن كان الّذي يأتي به حسناً قَبِلته وإن كان قبيحاً تَرَكْتُه».

فمكثت حتى انصرف رسول الله إلى بيته، فاتبعته، حتى إذا دخل بيته، دخلت عليه، فقلت: «يا محمد إنّ قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوّفونني أمرك حتى سددت أُذُنَيَّ بكُرسف، لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلاّ أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض عَلَيَّ أمرك». فعرض عَلَيَّ رسول الله (ص) الإسلام وتلا عَلَيَّ القرآن. فلا والله ما سمعت قولاً قطّ أحسن منه ولا أمراً أعدل منه. فأسلمت وشهدت شهادة الحق(1).

هكذا تلقى العرب القرآن الكريم منهم مَن تيقّن بأنه بليغ ومعجز ولكنه جحد، ومنهم مَن تأثر وفتح قلبه للإيمان ودخل في الإسلام.

ومن جملة الشخصيات التي حاولت قريش منعه من لقاء الرسول (ص) وسماع القرآن الكريم الأعشى، أحد شعراء العرب، الطائر الصيت، بلغ إليه الإسلام.

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام، مصدر سابق، ج1/ ص 382 – 383.

فلما ورد الأعشى مكة، اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره، فأخبره أنّه جاء يريد رسول الله ليسلم فقال له: «يا أبا بصير، إنّه يحرّم الزنا».

فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر مالي فيه أرب.فقال له: «يا أبا بصير، فإنّه يحرّم الخمر». فقال الأعشى: «أمّا هذه فوالله إنّ في النفس منها لعلالات، ولكني منصرف فأتروى منها عامي هذا ثم آتيه فأسلم»، فانصرف.

فمات في عامه ذلك، ولم يعد إلى رسول الله[1]. وكان قد أعد قصيدة ليلقيها عند لقائه برسول الله (ص) وهي:

ألم تَغْتَمِض عيناك ليلة أرمدا	وبتُ كما بات السليمُ مُسَهَّدا
أغار لعمري في البلاد وأنجدا	نبياً يرى ما لا ترون، وذكره
فإياك والميتات لا تقربنها	ولا تأخُذَن سهماً حديداً لتفصدا
وذا النُّصب المنصوبَ لا تنسكَنَّهُ	ولا تعبد الأوثان، والله فاعبدا
ولا تقربن حرّة، كان سرُّها	عليك حراما، فانكحن أو تأبّدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنّه	لعاقبة ولا الأسير المقيّدا
وسبّح على حين العشيات والضُحى	ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا

الاتجاه الثاني: عزو القرآن إلى السّحر

أدرك فُصحاء قريش وبُلَغاؤهم أنّ القرآن لا يشبه كلام الإنس، وهو فوق كلامهم، ولما كان مقتضى العجز، اعتناق الدين الّذي كان النبي يدعو إليه، خدعوا عقولهم وعقول قومهم بتفسيره بالسحر، بحجة أنّ السحر يفرّق، والقرآن أيضاً فرّق بينهم. وهذا هو ريحانة قريش، الوليد بن المغيرة، وقد اجتمع مع رؤساء قريش في دار الندوة، فقال لهم: «إنّكم ذوو

(1) السيرة النبوية لابن هشام، مصدر سابق، ج1/ ص 386.

أحساب وذوو أحلام، وإن العرب يأتونكم، فينطلقون من عندكم على أمر مختلف، فأجمعوا أمركم على شيء واحد. ما تقولون في هذا الرجل؟».

قالوا: نقول: إنّه شاعر.فعبس عندها وقال: «قد سمعنا الشعر، فما يشبه قوله الشعر». فقالوا: إنّه كاهن. قال: «إذاً تأتونه فلا تجدونه يحدث بما تحدث به الكَهَنة». قالوا: إنّه لمجنون. فقال: «إذاً تأتونه، فلا تجدونه مجنوناً». قالوا: إنّه ساحر.قال: «وما الساحر؟» قالوا: بشر يحببون بين المتباغضين، ويبغّضون بين المتحابين. قال: «فهو ساحر». فخرجوا لا يلقى أحد منهم النبي إلاّ قال: «يا ساحر، يا ساحر»[1].

واشتدّ على النبي ذلك، فأنزل الله تعالى قوله: **(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً* وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً* وَبَنِينَ شُهُوداً* وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً* ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ* كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً* سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً* إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ* فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ نَظَرَ* ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ* إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ)**[2].

وفي رواية، بعدما وصف الوليد ما سمع من كلام محمد، بقوله: «ما هو من كلام الإنس الخ..» ذهب إليه أبو جهل، فقعد إلى جنبه حزيناً، فقال له الوليد: «ما لي أراك حزيناً يابن أخي». قال: «هذه قريش يعيبونك على كبر سنك، ويزعمون أنَّك زيّنت كلام محمد».

فقام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه، فقال: «أتزعمون أنّ محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق؟»

فقالوا: اللهم لا. قال: «أتزعمون أنّه كاهن، فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك ؟»

قالوا: اللهم لا. قال: «أتزعمون أنّه شاعر، فهل رأيتموه أنّه ينطق بشعر قط؟»

قالوا: اللهم لا. قال: «أتزعمون أنّه كذّاب، فهل جَرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟»

قالوا: اللهم لا. فقالت قريش للوليد: ما هو؟

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 256.
(2) المدثر،11 – 25.

فتفكّر في نفسه، ثم نظر وعبس، فقال: «ما هو إلاّ ساحر. ما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله، وولده ومواليه؟ فهو ساحر، وما يقوله سحر يُؤْثَر[1].

الاتجاه الثالث: دعوة القصاص لسرد الأساطير

عمد رؤساء قريش، لإحباط تأثير القرآن الكريم ـ بعد أن رأوا أنّ الناس يدركون بفراستهم وفطنتهم أنّ للقرآن جاذبية غريبة لم يسبقه كلام في الحلاوة، ولا حديث في العذوبة، ولا عبارات في العمق، يتقبّله كل قلب واع، وتسكن إليه كل نفس مستعدة عمدوا إلى تخطيط تدبير آخر، ظنّاً منهم بأنّ تنفيذه سيصرف الناس عنه، ألا وهو معارضة القرآن الكريم، بدعوة النضر بن الحارث ليسرد للناس أخبار ملوك الفرس وقصصهم وحكاياتهم وأساطيرهم، وما طلبوا منه القيام بهذا العمل إلاّ ليلهي به الناس عن الإصغاء إلى القرآن الكريم.

فقام بهذا العمل ولكن كانت خطتهم، خطة حمقاء إلى درجة أنّها لم تدم إلاّ عدّة أيام، لأنّ قريشاً سئمت من أحاديث النضر، وتفرّقت عنه[2].

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 257.
(2) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 257.

الفصل الثاني

المعجزة وعناصر الإعجاز

تعريف المعجزة: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي ودعوة النبوة مع عدم المعارضة. فهذه الأمور الأربعة هي التي تشكل العناصر الرئيسية للاعجاز

والمقصود من الخرق للعادة أنّه يأتي بشيء غير مألوف بأسبابه المتعارفة ويشمل السحر كذلك والكرامة أيضاً. فالعادة أنّ الماء يأخذ شكل الإناء الذي يوضع فيه فإذا جاء شخص وجعل الماء واقفاً خلافاً للعادة فيكون قد خرق العادة أي خرق الناموس الطبيعي. فالذي يتحكم بعالم الطبيعة معنى ذلك أنّه مؤيد من قبل الله تعالى وأنّه سفير لله.

فالنار تحرق وهذا شيء مألوف فإذا لم تُحرق النار، معنى ذلك أن القانون قد خُرق فمَن الذي يخرق القانون ؟

إنّ واضع القانون فقط يمكن أن يخرقه، وهذا هو سر العلاقة بين النبي وبين الخالق الخارق للقانون. وهذا الخرق يشترك فيه المعجزة والكرامة والسحر، فكيف نميّز بين المعجزة وبين السحر وبين الكرامة ؟

الكرامة لا يوجد فيها عنصر التحدي، فصاحب الكرامة الذي يكون عادة من الأولياء والصالحين فيكرمه الله تعالى بأمر خارق للعادة ولكنه لا يدعي النبوة ولا يتحدى غيره، ومن الممكن أن يكررها ولي من الأولياء. فمثلاً مريم بنت عمران (ع) ذكر الله تعالى في القرآن الكريم: **(.. كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيهَا زَكَرِيَّا المِحرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزقاً قالَ يَا مَريَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَت هُوَ مِن عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرزُقُ مَن يَشَاء بِغَير حِسَابٍ)**[1]، فمجيء الطعام والغذاء إلى مريم بدون وجود الأسباب الطبيعية فهو خرق للعادة ولكن ممكن أن يتكرر هذا لإنسان آخر.

كما أن مريم (ع) لم تدعي أنّ لها منصباً إلهياً كالنبوة أو السفارة، فهذه الكرامة فيها عنصر خرق للعادة ولكن لا يوجد فيها عنصر التحدي ويمكن تكرارها من قبل ولي من الأولياء.

أما المعجزة فيوجد فيها عنصر التحدي كما أنها لا تتكرر ولا يمكن لأحد تكرارها.

---

(1) آل عمران، 37.

وأما السحر فلا يوجد فيه عنصر التحدي ولا ادعاء منصب إلهي، ومن الممكن تكراره من قبل ساحر آخر. والسحر يمكن أن يُعارض من قبل آخرين.

والمعجزة ليست مستحيلة وإنما داخلة في دائرة الإمكان، فالمستحيل ممتنع عقلاً، ولكن المعجزة تأتي بأسباب لا يمكن لأحد أن يأتي بها إلا بمَن له ولاية بذلك الشيء.

المستحيل هو مثلاً القول بأن للمثلث أربعة أضلاع، فالعقل يقول مستحيل ولا يمكن للمثلث أن يكون له أربعة أضلاع لا في الدنيا ولا في الآخرة، وكذلك وجود معلول بدون علة مستحيل الوجود. فالمعجزة لا تلغي قانون العلية وليست مستحيلة ولكنها ممكنة للذي يقدر على هذه المعجزة وهو الخالق تبارك وتعالى.

إن الاعجاز لابد أن يكون مقترناً بالدعوى، ونحن نعلم بأن النبي الأكرم (ص) عندما جاء بالقرآن الكريم، وثبت أن القرآن الكريم خارق للعادة وخرقه للعادة ليست فقط أنّه بليغ وإنما بأمور كثيرة، ولكن بما أن موضوعنا هو «الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم» وأن بلغاء العرب وصفوه بالسحر وعنصر السحر فيه عنصر الخرق للعادة، ولكن القرآن الكريم فيه أمور أخرى خارقة للعادة كإخباره بالمغيبات كقضية غلبة الروم في قوله تعالى: (**غُلِبَتِ الرُّومُ* فِي أَدنَى الأَرضِ وَهُم مِّن بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغلِبُونَ* فِي بِضعِ سِنِينَ للهِ الأَمرُ مِن قَبلُ وَمِن بَعدُ وَيَومَئِذٍ يَفرَحُ المُؤمِنُونَ* بِنَصرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ**)(1).

«ينقل التاريخ أنّ دولة الروم وكانت دولة مسيحية انهزمت أمام دولة الفرس وهي وَثَنيّة، بعد حروب طاحنة بينهما سنة 614م، فاغتمّ المسلمون لكونها هزيمة لدولة إلهية أمام دولة وثنية، وفرح المشركون، وقالوا للمسلمين بشماتة: إنّ الروم يشهدون أنّهم أهل كتاب وقد غَلَبهم المجوس، وأنتُم تزعمون أنّكم ستغلبوننا بالكتاب الّذي أُنزل عليكم، فسنغلبكم كما غلبت الفرس الروم.فعند ذاك نزلت هذه الآيات الكريمات تنبئ بأنّ هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار لهم في بضع سنين، وهي مدّة تتراوح

---

(1) الروم،2 – 5.

بين ثلاث سنوات وتسع. تنبّأ بذلك، وكانت المقدمات والأسباب على خلافه، لأنّ الحروب الطاحنة أنهكت الدولة الرومانية حتى غزيت في عقر دارها.

ولأنّ دولة الفرس كانت دولة قوية، منيعة، وزادها الانتصار الأخير قوة ومنعة. ولكن الله تعالى أنجز وعده، وحقّقَ تنبؤ القرآن، في بضع سنين فانتصر الروم سنة 624م، الموافقة للسنة الثانية للهجرة. وفي الآية تنبّؤ آخر، وهو البشارة بأنّ المسلمين سيفرحون في الوقت الّذي ينتصر الروم فيه، وقد صدق الله وعده حيث وقع في ذلك الظرف ظفر المسلمين في غزوة بدر الكبرى، فتحققت النبوءتان في وقت واحد»[1].

جميع الأمور التي أخبر بها القرآن الكريم تحققت في القضايا التي أخبر بها وهذا يدلل على الاخبار بالمغيبات ومعنى ذلك أن القرآن الكريم صادر من علام الغيوب وهو الذي أخبر بما يجري.

المسألة الأخرى هي عجز الناس عن مقابلة القرآن الكريم، بتعبير آخر نحن نعلم بأن القرآن الكريم لم يُعارض أي يُؤتى بمثله.

الأمر الآخر أن الرسول الأكرم (ص) الذي جاء بهذا القرآن الذي لم يُعارض وادعى النبوة وأيضاً كانت دعواه مطابقة لما جاء به.

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 415 – 416.

المبحث الأول: عناصر الاعجاز

بعد هذا السرد في قضية عناصر المعجزة نلاحظ بأنّ القرآن الكريم قد توفرت فيه هذه العناصر الخمسة وهي:

الأولى: خرق للعادة، وقد تم الحديث عنه.

الثانية: التحدي، وقد نزلت أربع آيات في مكة وواحدة في المدينة المنورة، والآيات التي فيها عنصر التحدي هي كالتالي:

(أ) **(وَإِن كُنتُم فِي رَيبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادعُوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ)**[1].

(ب) **(أَم يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُل فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادعُوا مَنِ استَطَعتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ)**[2].

(ج) **(أَم يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُل فَأْتُوا بِعَشرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفتَرَيَاتٍ وَادعُوا مَنِ استَطَعتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ)**[3].

(د) **(قُل لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيراً)**[4].

الثالثة: دعوى النبوة، فلا يوجد أحد من الناس يجهل بأن شخص اسمه محمد (ص) ظهر في مكة ادعى النبوة.

الرابعة: عدم المعارضة، أي بأن يأتوا بمثل القرآن الكريم، فأيضاً لا يوجد أحد تمكن واستطاع من أن يعارض القرآن الكريم، وليست القضية متوقفة على ذلك العصر وإنما إلى الآن لم يستطع أحد أن يأتي بمثل القرآن الكريم، وحتى في المستقبل لن يتمكن أحد أن يأتي بمثل القرآن الكريم.

الخامسة: مطابقة المعجز للدعوى، فمثلاً مسيلمة الكذاب (الذي ادعى النبوة) جاء ليبارك طفلاً له شعر كثيف فأصبح الطفل أصلعاً وذهب

---

(1) البقرة،23.
(2) يونس،38.
(3) هود،13.
(4) الإسراء،88.

شعر رأسه فهنا مسيلمة جاء بشيء خارق للعادة ولكن لم يطابق ما أراد مسيلمة وهو مباركة الطفل فمسح على رأسه فذهب شعر رأس الطفل وأصبح أصلعاً. بينما النبي (ص) ما كان يأتي به يطابق لدعواه، وهذا التطابق في الدعوى هو من عناصر الاعجاز، فليس كل خارق للعادة يُسمى معجزة.

المبحث الثاني: الإعجاز لا يخالف قانون العلية

قانون العلية يقضي بأن يكون لكل معلول علّة، وهذا القانون هو شامل لكل المعلولات ولا يُستثنى منها أي معلول.

وهناك أشكال يرد على موضوع الاعجاز هل أن المعجزة عندما تحدث تجري بدون قانون أو أنها خرق لقانون العلية أم أنّها لا تخرق هذا القانون ؟

فمثلاً أن النار من عناصرها الاحراق ولكنها لم تحرق نبي الله إبراهيم (ع)، والماء يأخذ شكل الإناء الذي يوضع فيه بينما نبي الله موسى (ع) عندما فلق البحر إلى شطرين وقف الماء فهل هذا خرق لقانون العلية ؟ أم أنها تجري بدون قانون ؟

الجواب: إنّ قانون العلية لم يُخرق في قضايا المعجزات وإنما هناك نوعان من العلل علل معروفة لدى الناس ويستأنس بها الناس وألفوها، وعلل يجهلها الناس. وقانون العلية شامل للمعجزات وغير المعجزات ولكن المعجزات فيها علل خفية لا يعرفها الناس ولم يألفوها.

الأمور الطبيعية التي اكتشفها الناس عرفوا عللها وعرفوا ما يُسبّب هذه الظواهر الكونية من أمور، والمعجزة علّتها أمر خَفيّ عن الناس وليس في مقدورهم معرفتها ولا يعني أن المعجزة تحدث دون علة أو بدون سبب ولكن علة المعجزة تكون معروفة لدى الأنبياء والمرسلين (ع).

إذا عرفنا هذه القاعدة وكان للمعجزة علة فما هي العلة المحدثة للمعجزة ؟ هل هي الله تبارك وتعالى ؟ هل هي العلل المادية غير المتعارفة لدى الناس ؟ هل هم الملائكة والموجودات المجردة أم أنّها نفس النبي (ص) وروحه ؟

نذكر لكم الآراء التي طرحت لمسألة المعجزة:

الرأي الأول يقول إنّ الله تبارك وتعالى هو العلة (السبب) في إحداث المعجزة بشكل مباشر بدون تدخل سبب آخر يكون واسطة بين الله تبارك وتعالى وبين المعجزة وهذا الأمر يخالف ما سنّه الله تعالى من أنّه جعل لكل شيء سبباً، والمعجزة هو شيء وحادث فلابد أن يكون له سبب، فحينئذ هذا الادعاء أو الرأي لا يوجد دليل عليه هذا أولاً والأمر الثاني أنّ

القانون العام الذي سنّه الله تعالى في كل المخلوقاتلكل معلول علّة لابد من وجود سبب بين المعجزة وبين الله تبارك وتعالى، وهذا السبب هو المخلوق كأن يكون النبي أو الملائكة أو الموجودات المادية الأخرى أو علل غير معروفة لدى الناس. فهذا الرأي يخالف قانون العلية العام وأنّ الله تعالى جعل لكل شيء سببا.

الرأي الثاني القائل أنّها علل مادية غير متعارفة، وهذا الرأي بعيد عن العناصر الأساسية للاعجاز لأنّ صاحب هذا الرأي يضرب مثالاً على ذلك «كما أنّ الشجرة عندما تنمو من بذرة إلى نبتة صغيرة إلى شجيرة إلى شجرة فتمر بمراحل مختلفة، فكل هذه المراحل لها أسباب وهي معروفة لدى المختصين في علم النبات وعلم الزراعة. فالمعجزة عندما تحدث تمرّ بمراحل تكون معروفة لدى المختصين وغير معروفة لدى الناس العاديين، فالمعجزة تكون معروفة لدى الأنبياء والمرسلين».

فمثلاً عصا موسى التي تحولت إلى حية (أفعى) فالعصا هي مادة عضوية قد اقتطعت من الشجرة وماتت والحية جسم عضوي حي تتحرك بالارادة بمعنى آخر أنّ فيه حياة فكيف ينقلب الجسم الميت إلى جسم حي.

فالقوانين الطبيعية التي سنّها الله تبارك وتعالى هناك عدّة مراحل يمر بها الكائن حتى يكون كائناً حياً فالوالدان يأكلان الطعام النباتي والحيواني وتتكون النطفة من ذلك الطعام لدى الرجل بفعل مواد حية في جسم الإنسان ويتكون البويضة في رحم الأم ومن خلال تلقيح الحيمن– الذي أصبح حياً بمروره بعدة حالات – للبويضة ويتكون البويضة الملقحة وهذا الوجود الجديد لم يتكون ولم يكن طفلاً وإنما سوف يمر بمراحل طويلة تصل إلى تسعة أشهر كي يخرج طفلاً. وأما انقلاب الحية من العصا فقد

اخترق كل هذه القوانين، فكيف اخترقت كل هذه القوانين المادية الطبيعية بهذا الشكل المباشر ؟

فهذا الرأي أيضاً لا يوجد عليه دليل وكذلك لم نعثر على أحاديث شريفة أو آيات كريمة تؤيد وتدعم هذا الرأي ولذلك لا يمكننا أن نثبت هذا الأمر.

الرأي الثالث يقول بأنّ الملائكة والموجودات المجردة اللامادية، فالوجود الممكن على قسمين: الوجود المادي وهي الموجودات التي نتعامل معها مثل السماء، والوجودات المجردة عن المادة والتي هي وجودات لا مادية غير محددة بالمكان وغير محددة ب والأرض الزمان ولها مواصفات مختلفة عن صفات المادة وتسمى بالجواهر البسيطة مثل النفس والعقل والروح بالإضافة إلى وجودات أخرى لا نعلمها **(.. وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)**[1]، فالإنسان مركب من وجود مادي ووجود لامادي وهو الوجود المجرد. وأصحاب هذا الرأي يقولون بأن الوجودات المجردة أو الملائكة. هي العلة للمعجزة وهذا الرأي مردود أيضاً لعدم وجود دليل عليه، وثانياً أنّ الآيات الكريمة لا تدعم صحة هذا الدليل بل تُدعم أدلة أخرى.

الرأي الرابع يقول إنّ العلة المحدثة للمعجزة أنّها نفس النبي وروحه، فسبب المعجزة هو نفس النبي وروحه ولكن بإذن الله تعالى، وهذا الرأي ذهب إليه كثير من الفلاسفة والمتكلمون والمحققون من أصحاب العقائد الإسلامية.

هذا السبب يحتاج إلى شرح ففي العالم هناك أمور متعارفة لدى الناس يقوم بها بعض المرتاضين أصحاب الرياضة الروحية كما يُشتهر في الهند وفي بعض المناطق الأخرى من العالم وهو أنّ بعض الناس يقومون بأعمال خارقة عن العادة كأن يرفعون شيئاً ثقيلاً جداً فوق طاقة الإنسان أو ينامون على المسامير وعلى السكاكين ولا يُجرحون وتوضع عليهم الأثقال الثقيلة أو يسحبون أشياء ثقيلة جداً بحيث لا يسع وزن الإنسان لهذا السحب، أو يدفنون تحت التراب أو يبقون تحت الماء لعدة أيام، فيقومون بهذه الأعمال نتيجة لرياضة روحية خاصة يروضون أنفسهم من خلالها ليؤثروا

---

(1) النحل، 8.

في أجهزة جسم الإنسان إلى أن يؤثروا في المادة التي حولهم، فمن خلال هذه الرياضة يوسعون ولاية دائرة النفس، وكلما اتسعت هذه الرياضة كلما ازداد التحكم في تأثير المواد التي حولهم.

هذه السيطرة من الروح والنفس يتحكم الانسان في تنفسه وفي قلبه، وربما شاهدتم ذلك عبر التلفاز وهي من الأمور المشهورة حتى أن بعضهم يستطيعون القراءة عبر الحجب فيضعون ستاراً على أعينهم فيمكن أن يقرأ مع عدم الرؤية.

فكيف يخرقون القانون مع أنّهم ليسوا أنبياء ولا أولياء وقد يكونوا من الملل الأخرى غير الإسلامية – والأغلبية هكذا – ومع ذلك يقومون بمثل هذه الخوارق ؟!

فما بالك بالأنبياء (ع) الذين هم تحت رعاية الله تعالى وخالق القانون وهو سبحانه الذي يؤيدهم وينصرهم، فهذا التحكم من قبل الأنبياء هو باذن الله تعالى.

هذا الرأي هو الراجح الذي تدلّ عليه الآيات الكريمة وتثبته، هناك قول للشيخ الرئيس ابن سينا: «إذا بلغك أن عارفاً أطاق بقوته فعلاً أو تحريكاً أو حركة يخرج عن وسع مثله فلا تتلقه بكل ذلك الاستنكار فلقد تجد إلى سببه سبيلاً في اعتبارك مذاهب الطبيعة. وإذا بلغك أن عارفاً حدّث عن غيبٍ فأصاب متقدماً ببشرى أو نذير فصدق ولا يتعسرن عليك الإيمان به فإن لذلك في مذاهب الطبيعة أسباباً معلومة»[1].

ورد ذلك في الحديث القدسي «عبدي أطعني تكن مثلي تقول للشيء كن فيكون»[2]، فهذه الطاعة والتقوى تقرّب للإنسان إلى أن تكون نفسه قوية بحيث يتحكم بهذه الأشياء، هذا للإنسان المؤمن البسيط فما بالك بالأنبياء والمرسلين أو الأئمة المعصومين (ع).

---

(1) ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله: الإشارات والتنبيهات، شرح نصير الدين الطوسي، تحقيق د. سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة الثالثة، مصر. ج2/ ص 150.

(2) الحكيمي، محمد رضا: سلوني قبل أن تفقدوني، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، 2006. ج2/ ص 256.

وقد ذكر الله تعالى السحر أيضاً ونسب هذا التأثير للسحرة، قال تعالى: (.. **وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَينِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِن أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحنُ فِتنَةٌ فَلاَ تَكفُر فَيَتَعَلَّمُونَ مِنهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَينَ المَرءِ وَزَوجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِن أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُم وَلاَ يَنفَعُهُم وَلَقَد عَلِمُوا لَمَنِ اشتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلاَقٍ وَلَبِئسَ مَا شَرَوا بِهِ أَنفُسَهُم لَو كَانُوا يَعلَمُونَ)**[1]، وطبعاً كله باذن الله سواء كان الساحر أو المرتاض أو النبي، فالله تعالى هو الذي أودع هذه الخاصيات في هذه الموجودات كما أودع للسكين قابلية القطع. وكذلك في الآيات التي تصرح بأن الذي جاء بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين في لمح البصر، وكذلك العفريت من الجن الذي أراد أن يأتي به قبل أن يقوم مقامه، قال تعالى: (**قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُم يَأتِينِي بِعَرشِهَا قَبلَ أَن يَأتُونِي مُسلِمِينَ* قَالَ عِفرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ* قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلمٌ مِّنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبلَ أَن يَرتَدَّ إِلَيكَ طَرفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُستَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضلِ رَبِّي لِيَبلُوَنِي أَأَشكُرُ أَم أَكفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشكُرُ لِنَفسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)**[2].

فكما تلاحظون قول الذي عنده علم من الكتاب (**أَنَا آتِيكَ بِهِ**) فلم ينسب الفعل إلى الملائكة أو واسطة أخرى وإنما نسب الفعل لنفسه وطبعاً هو باذن الله تعالى، فالله تعالى أذن لهذا العبد وعلّمه ما يتمكن أن يقوم به، وهذا ما نسمّيه بالاصطلاح «الولاية التكوينية»، بمعنى أنّ لهذا العبد الولاية والحكومة والسيطرة على هذه الموجودات المادية بحيث يستطيع أن يحرك ذرات هذه المواد. كذلك هناك آية كريمة تدل بأن كل هذه الخوارق هي من عند الله تعالى، قال عزّ من قائل: (**فَلَمَّا أَلقَوا قَالَ مُوسَى مَا جِئتُم بِهِ السِّحرُ إِنَّ اللهَ سَيُبطِلُهُ إِنَّ اللهَ لاَ يُصلِحُ عَمَلَ المُفسِدِينَ)**[3].

من الدلائل على أنّ نفس النبي هي التي تقوم بهذه الأمور في الهيمنة على الأمور المادية من المرض والنار والهواء، فالله تعالى عندما ذكر

---

(1) البقرة،102.
(2) النمل،38 – 40.
(3) يونس،81.

ولاية سليمان (ع) على الريح في قوله تعالى: **(وَلِسُلَيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجرِي بِأمرِهِ إِلَى الأَرضِ الَّتِي بَارَكنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيءٍ عَالِمِينَ)**[1]، وولاية داود (ع) على الحديد في قوله تعالى: **(وَلَقد آتَينَا دَاوُودَ مِنَّا فَضلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ)**[2]. وأكثر من هذا قول نبي الله عيسى بن مريم (ع): **(..أَنِّي أَخلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيراً بِإِذنِ اللهِ وَأُبرِئُ الأكمَهَ وَالأَبرَصَ وَأُحيِي المَوتَى بِإِذنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُم إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ)**[3]، والله تبارك وتعالى يخاطبه فيقول: **(..وَإِذ تَخلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيرِ بِإِذنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيراً بِإِذنِي وَتُبرِئُ الأَكمَهَ وَالأَبرَصَ بِإِذنِي وَإِذ تُخرِجُ المَوتَى بِإِذنِي وَإِذ كَفَفتُ بَنِي إِسرَائِيلَ عَنكَ إِذ جِئتَهُم بِالبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُم إِن هَذَا إِلاَّ سِحرٌ مُّبِينٌ)**[4]، إنّ الآية تنص على أنّ عيسى (ع) يخلق طيراً من الطين ويشفي الأكمه والأبرص ولكن بإذن من الله تعالى.

وكذلك في قوله تعالى: **(اذهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلقُوهُ عَلَى وَجهِ أَبِي يَأتِ بَصِيراً وَأتُونِي بِأَهلِكُم أَجمَعِينَ)**[5]، وهنا أيضاً رد على مَن يعارض التبرك بقبور الأولياء، لقد بارك الله تعالى بالأرض وجعلها مقدسة وذلك في قوله تعالى: **(إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخلَع نَعلَيكَ إِنَّكَ بِالوَادِ المُقَدَّسِ طُوًى)**[6].

من خلال هذه الآيات نلاحظ بأن الله تبارك وتعالى قد جعل الولاية للأنبياء (ع) حتى عن بُعد كقميص يوسف (ع) وأثر على عين والده يعقوب (ع) فارتد بصيراً. وهذا كله لا يخالف قانون الطبيعة ولا يخالف أمر الله وإنما هم يفعلون ذلك بإذن الله تعالى وبأمر من الله وبقدرة من الله تبارك وتعالى.

---

(1) الأنبياء،81.
(2) سبأ،10.
(3) آل عمران، 49.
(4) المائدة،110.
(5) يوسف،93.
(6) طـه،12.

لقد ثبت للنبي (ص) معجزات كثيرة منها مؤقتة كالتي حدثت في عصره كتسبيح الحجر أو الحصى في يده وبركة الزاد والطعام وغير ذلك من المعجزات التي تعد بالمئات، وهناك المعجزة الدائمة وهي القرآن الكريم باقية بقاء الدهر.

الفصل الثالث

هل عُورض القرآن الكريم؟

السؤال المطروح هنا هل عُورض القرآن الكريم ؟ هل هناك معارض للقرآن الكريم حيث أراد أن يجاري ويحاكي ويباري القرآن الكريم أم لا؟ قبل الجواب على هذه الأسئلة لابد من أن نعرف ما معنى المعارضة.

المعارضة: أن الشخص إذا أنشأ خطبةً أو قال شعراً فيأتي متكلّم آخر أو شاعر آخر يجاريه في معناه ويباريه في لفظه ثم يأتي حكم آخر يوازن بين الكلامين ويحكم بالفوز لأحدهما.

إنّ القرآن الكريم معلوم بالتواتر عند جميع المسلمين فهل هناك معارضة للقرآن الكريم أم لا؟

ذكر المؤرخون أنه لم يُعارض القرآن الكريم وذكروا نتفاً من معارضاتهم، وممّن ذُكر في هذا الموضوع هم كالتالي:

المبحث الأول: مسيلمة الكذاب

هو مسيلمة بن حبيب الكذاب، وهذا قد ادعى النبوة في زمن رسول الله (ص) وأرسل كتاباً إلى رسول الله (ص): «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: سلام عليك؛ أما بعد، فإني قد أشركتُ في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون. فقدم عليه رسولان له بهذا الكتاب. فلما وصل الكتاب إلى رسول الله (ص) فقال لهما حين قرأ كتابه: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، فقال (ص): أما والله لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما.

ثم كتب (ص) إلى مسيلمة: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإن **(الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِن عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ)**[(1)]»[(2)].

ذكر الطبري: «أن وفد بني حنيفة أتوا رسول الله (ص) وخلفوا مسيلمة في رحالهم فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا: يا رسول الله إنا قد خلفنا

---

(1) الأعراف،128.
(2) ابن هشام: السيرةالنبوية،مصدر سابق. ج2/ ص 601.

صاحبا لنا في رحالنا وفي ركابنا يحفظها لنا، قال فأمر له رسول الله (ص) بمثل ما أمر به للقوم وقال: «أما إنه ليس بشركم مكانا». ولما انصرف الوفد عن رسول الله (ص) وجاءوه بما أعطاه ولما انتهوا إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وتكذَّب لهم، وقال: إني قد أُشركت في الأمر معه.

وقال لوفده الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذكرتموني له أما إنه ليس بشركم مكانا! ما ذاك إلا لما كان يعلم أني قد أشركت في الأمر معه! ثم جعل يسجع لهم الأساجيع ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: «لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى». وأحل لهم الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله (ص) بأنه نبي، فأصفقت معه حنيفة على ذلك»[1].

إنّ كلام مسيلمة واضح حيث جعل النبوة هدفاً وسبباً للسلطة وبسط السيطرة على الأرض بينما كلام رسول الله (ص) في جوابه كان قوله تعالى: **(إِنَّ الأَرضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِن عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ)** فلم يجعل (ص) النبوة هدفاً للسيطرة والحكومة والولاية.

أما معارضة مسيلمة للقرآن الكريم ومما نقله المؤرخون: «الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيلله ذنب وبيل وخرطوم طويل» ليجاري به سورة القارعة. إن الله تعالى ذكر هذه الآيات **(القَارِعَةُ* مَا القَارِعَةُ* وَمَا أَدرَاكَ مَا القَارِعَةُ* يَومَ يَكُونُ النَّاسُ كَالفَرَاشِ المَبثُوثِ* وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالعِهنِ المَنفُوشِ)**[2] للتهويل والتعظيم فلاستعظام الأمر عندما يقول تعالى: **(القَارِعَةُ* مَا القَارِعَةُ)** ثم ينتقل سبحانه إلى أمور منسجمة مع عظم تلك القضية.

أما ما استعظمه مسيلمة من الفيل فكان ذنبه وخرطوم طويل فهذا الأمور لا تنسجم مع «الفيل وما الفيل» لا من الناحية البلاغية ولا من الناحية اللفظية ولا من الناحية المعنوية.ومما ينقله المؤرخون قوله: «يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا

---

(1) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت – لبنان، 1988. ج2/ ص 200.

(2) القارعة،1 – 6.

الماء تكدرين، ولا الشراب تمنعين»، ومثل هذه الكلمات تُنبأ عن جهل وعن حماقة فهي لا ترقى إلى قصائد الجاهلية وخطبهم فضلاً عن أن تُجارى في كلام الله تعالى.

ونقول فيه ما قاله أحنف بن قيس فعندما «ذهب الأحنف مع عمه إلى مسيلمة، فخرجا من عنده، وقال الأحنف لعمه: كيف رأيته ؟ قال: ليس بمتنبئ صادق، ولا بكذاب حاذق»[1].

أي أن مسيلمة لا هو نبي صادق، ولا هو كذاب حاذق فلا يعرف كيف يكذب بفن وحذق. وهذا ما نقله المؤرخون بشأن مسيلمة وبعض ما يُنسب إليه من المعارضات في القرآن.

ونجري الآن تطبيقاً على بعض المعارضات في قصائد الشعراء المهمين ومنهم النابغة الذبياني: «يصف ليله في أشعاره المعروفةالتي يعتذر فيها للنعمان:

كليني لهمٍ يا أميمة ناصبِ ... وليلٍ أقاسيهِ بطيءِ الكواكبِ
تطاولَ حتى قلتُ ليسَ بمنقضٍ ... وليسَ الذي يرعى النجومَ بآنبِ
بصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همهِ ... تضاعَفَ فيه الحزْنُ من كلّ جانبِ

ونرى أنّ امرئ القيس يقول في نفس الموضوع:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... عليّ بأنواع الهُموم ليبتلي
فقلت له لمّا تمطّى بصُلْبه ... وأردف أعجاز وناء بكلكلِ
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ
فيا لكَ من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدّت بيَذْبُلِ

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، المصدر السابق، ج3/ ص 354.

هذه هي حقيقة المعارضة، فقول النابغة متناه في الحسن، بليغ في وصف ما شكاه من همّه وطول ليله، ويقال إنّه لم يبتدئشاعر قصيدة بأحسن من هذا الكلام. وهو كلام مطبوع سهل يجمع البلاغة والعذوبة. إلاّ أنّ في أبيات امرئ القيس من ثقافة الصنعة، وحسن التشبيه، وإبداع المعاني، ما ليس في أبيات النابغة، إذ جعل لليل صلباً وأعجازاً وكلكلاً، وشبّه تراكم ظلمة الليل بموج البحر في تلاطمه عند ركوب بعضه بعضاً، وجعل النجوم كأنّها مشدودة بحبال وثيقة، فهي راكدة لا تزول ولا تبرح، وجعل يتمنى تَصَرُّم الليل بعود الصبح لما يرجو فيه من الرَّوْح، ثم ارتجع ما أعطى واستدرك ما كان قدّمه وأمضاه، فزعم أنّ البلوى أعظم من أن يكون لها في شيء من الأوقات كشف وانجلاء»[1].

عندما نورد هذه التفاهات من مسيلمة وغيره من أمثال الذي عارضوا نعرف مكانة القرآن الكريم وسمو معانيه.

ونأخذ مثالاً آخر:«نرى أنّ جريراً يمدح بني تميم ويعرفهم بأنّهم كل الناس، في قوله:

إذا غَضِبَتْ عليك بنو تميم   حسبت الناسَ كلّهم غِضاباً

ويقول أبو نواس في هذا الصدد:

ليـس على الله بـمستنكَر   أن يجمعَ العالَم في واحد

وقد زاد عليه أبو نواس زيادة رشيقة، وذلك أنّ جريراً جعل الناس كلّهم بني تميم، ولكنّ أبا نواس جعل العالم كلّهم في واحد. فكان ما قاله أبلغ وأدخل في المدح والإعظام.

إذا ظهرت لك حقيقة المعارضة، فانظر إلى قوله سبحانه: (**الحَاقَّةُ * مَا الحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ**)[2] وقوله سبحانه (**القارِعَةُ* مَا القارِعَةُ* وَمَا أدراكَ مَا القارِعَةُ**) ثم ما أَتبَعَ قوله هذا بذكر يوم القيامة وبيان أوصافها وعظيم أهوالها بقولــه: (**يَومَ يَكُونُ النَّاسُ كَالفَرَاشِ المَبثُوثِ* وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالعِهنِ المَنفُوشِ**).

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، المصدر السابق، ج3/ ص 356.
(2) القارعة،1 – 6.

فأين هو من قول القائل: الفيل، ما الفيل وما أدراك ما الفيل، له ذنب وبيل، وخرطوم طويل». فإنّ مثل هذه الفاتحة تجعل مُقَدِّمَةً لأمر عظيم الشأن متناه الغاية، فإذا بالمعارض يجعله مقدمة لذكر الذَّنَب والمشفر، ويتصور أنّه تحققت المعارضة، ويا ليته أتبع تلك المقدمة، بما أعطيت هذه البهيمة العجماء من الذهن والفطنة الّتي به تُفْهِمُ سائسها ما تريده، فلعلّه كان أقرب إلى مقصوده»[1].

هناك اتجاه يشك بصحة هذه المعارضات، يقول الشيخ السبحاني: «وممّا يثير الشكّ في كون مسيلمة قائل هذه الجمل التافهة، ما أثر عنه من بعض الكلمات الّتي هي في البلاغة بمكان عال، كقوله عندما اجتمع مع سجاح التميمية: «هل لَكِ أن أَتَزَوَّجُكِ فآكلَ بقومي وقومك العرب؟». فإن هذه الكلمة تدلّ على مكانة الرجل في الفصاحة وجميل التأتي لما يريد. فخيّل لسجاح أنّه سيأكل بقومه وقومها العرب، وهل كانت تقصد سجاح غير هذا؟ وهل كان يقصد من اتبعوها إلاّ أكل العرب والإستيلاءعليهم؟

فإذا قارنّا بين كلمته هذه، وما عزي إليه من المعارضات، وجدنا فارقاً كبيراً بينهما في الأسلوب والروح. فهذه الكلمة صادرة عن نفس جادة حازمة تتطلب أمراً عظيماً، وأمّا ما نسب إليه فصادر عن نفس ماجنة عابثة، لا تدرك ما وراء هذه المغامرة من المخاطر.

هناك كلمة أُخرى نسبت إليه حين استحرّ القتل في قومه، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل مكان، وقد سأله قومه ما وعد به، فقال: «أمّا الدين فلا دين، قاتلوا عن أحسابكم». فأي إيجاز، وأي قوة وأيّ إيحاء وتحميس أقوى من هذا: قاتلوا عن أحسابكم؟ والمنصف لا يشك في أنّ صاحب هذه الكلمات الموجزة ليس صاحب هذه المعارضات الركيكة المسهبة»[2].

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، المصدر السابق، ج3/ ص 357 – 358.
(2) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، المصدر السابق، ج3/ ص 358 – 359.

المبحث الثاني: طليحة بن خويلد الأسدي

«قدم على النبي (ص) في وفد أسد بن خزيمة سنة تسع، فأسلموا. ثم لما رجعوا تنبّأ طليحة، وعظم أمره بعد أن توفي رسول الله (ص) وكان يزعم أنّ ذا النون يأتيه بالوحي.

ومن كلماته: «إنّ الله لا يصنع بتعفير وجوهكم، وقبح أدباركم شيئاً. فاذكروا الله قياماً، فإنّ الرغوة فوق الصريح». فهو يريد بكلامه هيئة الصلاة من الركوع والسجود، فكانت الصلاة في شرعه قياماً.ومنها: والحمام واليَمام، والصرّد الصوام، ليبلغ ملكنا العراق والشام.

ولو كان الرجل ذا لب وعقل، لما عارض القرآن الكريم بهذه الكلمات الساقطة. فانظر كيف حلف على أمر عظيم وهو بلوغ ملك العراق والشام بهذه الطيور.

ممّا يثير الشك في صحة عزو هذه الجمل الجوفاء إلى طليحة، ما نقله الطبري عنه، حيث قال: إنّ طليحة وفد على عمروكان طليحة قد أسلم فقال له عمر: أنت قاتل عكاشة وثابت – يريد عكاشة بن محصن وثابت بن أكرم وهما: سيدان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم – فقال طليحة في جواب عمر: «ما تَهُمُّ من رجلين كرَّمهما الله بيدي، ولم يُهني بأيديهما». فهناك فرق واضح بين ما عزي إليه من المعارضات، وعبارته أمام عمر، فإن كلمته الأخيرة فيها روح أمكن بها الرجل أن يؤثر على عمر، حيث قال له إن الرجلين ذهبا إلى الجنة، فأكرمهما الله على يدي طليحة. وأي شيء أحبّ إلى عمر من أن تكون الجنة نصيب عكاشة وثابت»[1].

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 359 – 360.

المبحث الثالث: سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية

«إنّ قبيلة بني تغلب كانت راسخة في النصرانية، فادعت سجاح المذكورة، بعد وفاة رسول الله، النبوة، فاستجاب لها بعضهم، وترك التنصّر، وكان أمر مسيلمة الكذاب قد غلظ واشتدّت شوكة أهل اليمامة فنهدت له بجمعها.

فمن قولها المزعوم: «إنّه الوحي، أعدّوا الركاب، واستعدوا للنّهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب». فلما توجهت لحرب مسيلمة قالت: «عليكم باليمامة، ودفّوا دفيف الحمامة، فإنّها غزوة صرامة، لا يلحقكم بعدها ملامة».

وخافها مسيلمة، ثم اجتمعا وعرض عليها أن يتزوجها، وقال: «هل لك أن أتزوجك، فآكل بقومي وقومك العرب؟» فأجابت وانصرفت إلى قومها. فقالوا: ما عندك؟.

قالت: «كان على الحق فاتبعته فتزوجته». ولم تَدّع قرآناً، وإنّما كانت تزعم أنّه يوحى إليها بما تأمر، وتسجع في ذلك سجعاً، كالنّموذجين المتقدمين.

والتاريخ يحكي أنّها أسلمت بعدُ وحَسُن إسلامها. وفي الحقيقة لم تكن نبوتها إلاّ زفافاً على مسيلمة، وما كانت هي إلاّ إمرأة»[1].

المبحث الرابع: الأسود العنسي

«كان رجلاً فصيحاً معروفاً بالكهانة، والسجع، والخطابة، والشعر، والنسب. وقد تنبّأ على عهد النبي وخرج باليمن وهو ممّن أراد أن يحذو حذو نبيّنا الأمين، لكن بتسجيع الكلم وحده. فأراد أن يباري سورة الأعلى فقال:«سبّح اسم ربّك الأعلى، الّذي يسّر على الحبلى، فأخرج منا نسمة تسعى، من بين أضلاع وحشى، فمنهم من يموت ويدسّ في الثرى، ومنهم

(1) المصدر السابق، ج3/ ص 360.

من يعيش ويبقى». وهي كما ترى صفر من الحكمة العالية، إلاّ الجملة الأولى.

فقد جاء هؤلاء إلى حلبة المعارضة لأنّهم كانوا بمكان من الإنحطاط الفكري والأخلاقي، وأمّا المحنكون ذوو الضمائر الحرّة من العرب فلم ينزلوا إلى ميدان المعارضة لوقوفهم على أنها تبوء بالفشل، وحفظوا كرامتهم من التسرع إلى حركات صبيانية»[1].

أما البلغاء الحقيقيون وأصحاب البلاغة فإنّه لم يُعهد عنهم أنّهم عارضوا القرآن لأنهم على يقين بأن القرآن مُعجز، ولو كانوا قادرين على أن يعارضوا القرآن لعارضوا فكثير من هؤلاء فرّوا إلى الشام وكانت الشام نصرانية فبامكانهم أن يحتفظوا بمعارضتهم، وتحفظه لهم النصرانية، وهذا شيء جداً عظيم لتكذب بدين الإسلام بهذه المعارضة.فعلى مرّ التأريخ حاول أعداء الإسلام أن يظهروا أي معارضة للقرآن الكريم ولكن لم يجدوا ولن يجدوا، فانعدام وجود المعارضة دليل على عدمه، علماً أن القرآن الكريم حثّ الناس وتحداهم بكل الوسائل وحتى بسور مكذوبات **(أَم يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ* فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ)**[2].

«وهناك رجالات آخرون رُموا بها بأنّهم عارضوا القرآن الكريم، وهم في الثقافة والأدب بمكان عال، غير أنا نشك في صحة نسبة المعارضة إليهم، وإنّما رموا إمّا لكونهم من الملاحدة المعروفين كعبد الله بن المقفع، أو من الشخصيات البارزة التي يحسدها أعداؤها فأوقعوها بافتراءات الزندقة، ثم معارضة القرآن الكريم، فمنهم:

1- عبد الله بن المُقفّع (145هـ): عبد الله بن المقفع أحد الأدباء في القرن الثاني، كان مجوسياً وأسلم، وتضلّع في اللغتين العربية والفارسية، وقام بترجمة بعضها إلى اللغة العربية، مثل كتاب "كليلة ودمنة". والرجل مع أنّه رمي بالإلحاد، قد صرّح بإسلامه في مقدمة ترجمته، وقد قتل حرقاً في التنور عام 145هـ لإفساده عقائد الناس. وعلى كل تقدير، فقد نسب إليه

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 361.
(2) هود،13 و14.

أنّه عارض القرآن بتأليف كتاب الدّرة اليتيمية، ولكن لم يعلم إلى الآن أنّ الرجل قام بتأليف ذلك الكتاب لأجل هذه الغاية، وليس فيه ما يصدّق ذلك، والكتاب مطبوع منشور في عدّة طبعات.

2- أحمد بن الحسين المتنبي (ت 303م): من الشعراء البارزين الذين ربما يحتجّ أو يستشهد بكلامهم، وله ديوان كبير اعتنى به الأدباء بالشرح والتعليق، والده كوفي، ولد في بيت الإسلام، ولكن قيل إنّه تنبّأ عام 320 وله من العمر سبعة عشر عاماً. ونسب إليه أنّه تلا على أهل البادية كلاماً زعم أنّه قرآن أُنزل عليه، يحكون منه سوراً.

قال علي بن حامد: نسخت واحدة منها، فضاعت مني، وبقي في حفظي من أولها: «والنجم السيّار، والفلك الدّوّار، والليل والنّهار، إنّ الكافر لفي أخطار، إمضِ على سُنَّتِك، واقْفُ أَثَرَ مَنْ قبلك من المرسلين، فإنّ الله قامعٌ بك زيغ من أَلْحَدَ في دينه وضلّ عن سبيله»، هذا.

ولو كان للرجل سور كثيرة يحاول بها المعارضة، لحفظها التاريخ ولو ازدراءً عليه، مع أنّه لم ينقل عنه إلاّ هذه الجمل. وما بقي من أشعاره تعرب عن أنانبية الرجل وأنّه يرى نفسه مقدّماً في كل شيء، كما يظهر من قوله:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والسيفُ والرّمحُ والقرطاسُ والقلمُ

وقد اكتسب شهرة في الأدب والشعر، كما نال بذلك أعداءً حاقدين، ومن المحتمل أنّه عزي إليه التنبوء ومعارضة القرآن الكريم من جانب أعدائه. وقد قتل عام (354)، ولم يكن قتله إلاّ لهجوه رجلاً يسمّى ضبّة.

3- أبو العلاء المعرّي (ت 363م): أحمد بن عبد الله من معرّة النعمان، أحد الأدباء الفحول، والشعراء البارزين، وبما أنّه كان أعمى، وكان حليف بيته في أُخريات عمره، كان يسمّي نفسه رهين المحبِسين، وقد كان معاصراً للسيد المرتضى، وكان بينهما مساجلات ومناظرات. وقد اختلف المؤرخون في إيمانه وكفره، فهناك من الناس من يرمونه بالكفر كياقوت الحَمَوي، والذَّهبي، وسعد الدين التفتازاني، ومعاصره الخطيب البغدادي. والأشعار الّتي عزيت إليه تدلّ على انحرافه عن الإسلام.وهناك من ذهب إلى خلاف ذلك منهم كمال الدين عمر بن أحمد بن عديم الحلّي،

المتوفى عام 660هـ، ألّف كتاباً باسم «الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء المعرّي».

وقد طبعت خلاصته في تاريخ حلب، فطرح دلائل المتخاصمين في المعري، ثم قضى بينهم على نهج أدى به إلى الحكم بكونه رجلاً غير منحرف عن الإسلام. ومما قال فيه: إنّ سائر ما في ديوانه من الأشعار الموهمة، فهي إمّا مكذوبة عليه أو هي مؤولة»[1].

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 360 – 363.

الفصل الرابع

دلالة الإعجاز على صدق دعوى النبوة

دلالة الاعجاز على صدق دعوى النبوة، وبتعبير آخر ما هي العلاقة المنطقية بين المعجزة ودلالتها على صدق المدعى؟

نحن نعلم أنّ هناك كثيراً من الناس ادعوا السفارة الإلهية والنبوة، فهناك من يكذب وهناك النبي الصادق، بالنسبة لهؤلاء الذين يكذبون ويدعون النبوة هل أنّه علينا أن نصدّق بأي إنسان يدعي النبوة وإن كان صادقاً أم لابد من دليل وبيّنة وكما يعبّر عنها في القرآن الكريم لابد من وجود آية (علامة) تدلّل على صدق هذا النبي وصدق مدعاه.

فحاجة النبي إلى المعجزة التي يعجز الناس عن الاتيان بها إنّما يحتاجها كي يثبت حق وصدق مدعاه، وعلى طول سيرة الأنبياء (ع) نلاحظ أن النبي عندما يأتي مجهزاً بإثبات صحّة مدعاه وصدقه، وهذا التجهيز يكون عبر المعجزة وخرق العادة التي يستحيل على الناس أن يأتوا بمثله أو يكرّروها، ومدّعي النبوة يتحدى الناس بذلك.

فكل الأنبياء (ع) جاءوا بالحجج والبيّنات والأدلة ليثبتوا للآخرين صدق مدعاهم، وقد بيّن هذا الأمر البارئ سبحانه وتعالى بأن الأنبياء لابد من أن يأتوا بما يثبت صدق مدعاهم وذلك لأنّ أقوام الأنبياء كانوا يطالبونهم بهذه البيّنات، قال تعالى في بيان هذه السنة الجارية على لسان قوم صالح (ص): **(مَا أنتَ إلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فأتِ بآيَةٍ إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)**[1]، أحياناً أقوام الأنبياء يطالبونهم بالأدلة والآيات وأحياناً أخرى الأنبياء (ع) هم يبتدئون بإظهار المعجزة كما حدث لنبي الله موسى (ع) فعندما جاء إلى فرعون وقومه فهو ابتدأهم بالآية والبيّنة وذكر الله تعالى على لسان نبيّه (ع) بقوله عزّ من قائل: **(حَقِيقٌ عَلَيَّ أن لاَّ أقُولَ عَلَى اللهِ إلاَّ الحَقَّ قد جِئتُكُم ببَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُم فَأرسِل مَعِيَ بَنِي إسرَائِيلَ* قالَ إن كُنتَ جِئتَ بآيَةٍ فَأتِ بهَا إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)**[2].

---

(1) الشعراء،154.
(2) الأعراف، 105 و106.

وهكذا بالنسبة لنبي الله عيسى (ع) فهو قد ابتدأهم عندما حملته أمّه رضيعاً وسألوها عنه فأشارت إليه فقال (ع): **(قَالَ إِنِّي عَبدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً* وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَينَ مَا كُنتُ وَأَوصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمتُ حَيّاً* وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَم يَجعَلنِي جَبَّاراً شَقِيّاً* وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَومَ وُلِدتُّ وَيَومَ أَمُوتُ وَيَومَ أُبعَثُ حَيّاً)**[1]، ويذكر الله تعالى البيّنات الأخرى التي جاء بها نبي الله عيسى (ع) حيث قال عزّ من قائل: **(وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسرَائِيلَ أَنِّي قَد جِئتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُم أَنِّي أَخلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيراً بِإِذنِ اللهِ وَأُبرِئُ الأكمَهَ والأَبرَصَ وَأُحيِي المَوتَى بِإِذنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُم إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ)**[2].

الإشكال الذي يطرح في هذا المجال: وجه دلالة الاعجاز على صدق قول المدعي؟ فهل هو دليل برهاني بحيث يكون بين المعجزة وصدق المدعي رابطة منطقية أي يستلزم الصدق معها ؟أم أنّ المعجزة هي دليل اقناعي ولا توجد هناك صلة منطقية في هذا الأمر ؟

إذا كان الجواب حسب رأي البعض بأن المعجزة هي دليل اقناعي فنحتاج إلى أدلة أخرى كي نتوصل إلى اثبات صدق المدعى، وأما إذا كان هناك تلازم منطقي بين المعجزة وبين صدق المدعى فلا نحتاج إلى الكلام الثاني.

المبحث الأول: البيان الأولى لوجود الرابطة المنطقية

لكي نثبت بأدلة قاطعة بوجود العلاقة بين المعجزة وصدق المدعى، وقد ذكر الشيخ السبحاني بيانين في هذا الاثبات بوجود الرابطة المنطقية بين المعجزة وصدق المدعى حيث يقول: «البيان الأول لوجود الرابطة المنطقية: ويتّضح بملاحظة الأمور التالية، التي يسلمها الخصم أيضاً: الأول: أنّ الخالق عادلٌ لا يجور، وحكيمٌ لا يفعل ما يناقض الحكمة.

الثاني: أنّه سبحانه يريد هداية الناس، ولا يرضى بضلالتهم وكفرهم.

---

(1) مريم، – 33

(2) آل عمران،49.

الثالث: أنّ المعجزة إنّما تعدّ سنداً لصدق دعوى النبوة إذا كان حاملها واجداً لشرطين:

1- أن تكون سيرته نقية الثوب، وبيضاء الصحيفة، لم يُسَوِّدها شيء من الأعمال المشينة.
2- أن تكون شريعته مطابقة للعقل، وموافقة للفطرة أو على الأقل لا يرى فيها ما يخالف العقل والفطرة.

فلو أنتفى الشرط الأول، بأن كانت سوابقه سيئة، لكفى ذلك في تنفر الناس عنه.وكذا لو انتفى الشرط الثاني، بأن كانت شريعته مخالفة للعقل والفطرة، لما تَقَبَّلها أصحاب العقول السليمة»[1].

هذه هي المقدمات التي نخلص إلى وجود هذه الرابطة. فلو انتفى الشرط الأول من المقدمة الثالثة وهو إذا كانت سيرة النبي قبل البعثة غير نقية وغير محمود السيرة فلا يُطمئن إلى ما يبلغه ولا تحصل الثقة فيما ينقله، فالسيرة النقية من الشرائط المهمة في العنصر الثالث من عناصر اثبات العلاقة بين المعجزة وصدق المدعى.ولو انتفى الشرط الثاني وهو أن تكون شريعته مطابقة للعقل، فلو كانت شريعة مخالفة للفطرة والعقل فأصحاب العقول السليمة لا يتقبلون ما يخالف العقل وهذا أمر منطقي.وأما لو توفر هذان الشرطان فحينئذ يتم لنا باقي الاستدلال على وجود هذه العلاقة بين المعجزة وبين صدق المدعى.«إنّه سبحانه حكيم، والحكيمُ لا يجعل الكون ولا بعضَه مُسَخَّراً للكاذب، فالله سبحانه لا يجعل الكون ولا بعضه مسخراً للكاذب. ولكن المفروض أنّ هذا المدّعي مُسَخِّر للكون، فينتج أنّه ليس بكاذب بل صادق»[2].

فالله تعالى لا يُجري المعجزة على المتنبئ الكاذب لأنّه لو جرى ذلك للزم حدوث اللبس بين النبي الصادق والنبي الكاذب فلا يوجود عندنا دليل على صدق المدعى فلابد أن نخلص إلى هذه النتيجة: يستحيل أن يجري الله تعالى المعجزة على يد مدعي النبوة الكاذب.

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 94 – 95.
(2) المصدر السابق، ج3/ ص 95.

نوّهة القرآن الكريم إلى هذه القضية، وأيضاً في بعض كلمات المتكلمين والمفسرين ما يبيّن ذلك. «يقول القوشجي: إنّما كان ظهور المعجزة طريقاً لمعرفة صدقه لأنّ الله تعالى يخلق عقيبها العلم الضروري بالصدق، كما إذا قام رجل في مجلس مَلِك بحضور جماعة، وادّعى أنّه رسول هذا الملك إليهم، فطالبوه بالحجة، فقال: هي (الحجة) أن يخالف هذا الملك عادته، ويقوم على سريره، ثلاث مرّات ويقعد، ففعل. فإنّه يكون تصديقاً له، ومفيداً للعلم الضروري بصدقه من غير ارتياب.وقال المحقق الخوئي: إنّما يكون الإعجاز دليلاً على صدق المدّعي، لأنّ المعجز فيه خرقٌ للنواميس الطبيعية، فلا يمكن أن يقع من أحد إلاّ بعناية من الله تعالى وإقدار منه. فلو كان مدّعي النبوّة كاذباً في دعواه، كان إقداره على المعجز من قِبَل الله تعالى إغراءً بالجهل وإشادةً بالباطل، وذلك محال على الحكيم تعالى، فإذا ظهرت المعجزة على يده كانت دالّة على صدقه وكاشفة عن رضا الحق سبحانه بنبوّته.

هذه قاعدة مطردة يجري عليها العقلاء من الناس فيما يشبه هذه الأمور، ولا يشكون فيها أبداً. فإذا ادّعى أحد من الناس سفارة عن ملك من الملوك في أمور تختصّ برعيته، كان من الواجب عليه اولاً أن يقيم على دعواه دليلاً يعضدها، حين تشكّ الرعية بصدقه، ولا بدّ من أن يكون ذلك الدليل في غاية الوضوح، فإذا قال لهم ذلك السفير: الشاهد على صدقي أن الملك غداً سيحييني بتحيته الخاصة الّتي يحيي بها سفراءه الآخرين، فإذا علم الملك ما جرى بين السفير وبين الرعية ثم حيّاه في الوقت المعيّن بتلك التحية، كان فِعْلُ الملك هذا تصديقاً للمدعي في السفارة.ولا يرتاب العقلاء في ذلك، لأنّ الملك القادر المحافظ على مصالح رعيته يقبح عليه أن يصدّق هذا المدعي إذا كان كاذباً، لأنّه يريد إفساد الرَّعيّة»[1].

القرآن الكريم بيّن هذه القاعدة العظيمة التي تكشف عن استحالة أن يجري الله سبحانه وتعالى المعجزة على يد المدعي للنبوة حيث قال تعالى: **(وَلَو تَقَوَّلَ عَلَينَا بَعضَ الأَقَاوِيلِ* لَأَخَذنَا مِنهُ بِاليَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعنَا مِنهُ الوَتِينَ* فَمَا مِنكُم مِّن أَحَدٍ عَنهُ حَاجِزِينَ)**[2]، وقال الإمام الخوئي (قدس):

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 96.

(2) الحاقة، 44 – 47.

«المراد من الآية الكريمة أنّ محمداً الّذي أثبتنا نبوّته، وأظهرنا المعجزة لتصديقه، لا يمكن أن يَتَقَوَّل علينا بعض الأقاويل ولو صنع ذلك، لأخذنا منه باليمين، ولقطعنا منه الوتين، فإنّ سكوتنا عن هذه الأقاويل، إمضاءٌ منّا لها، وإدخال للباطل في شريعة الهدى، فيجب علينا حفظ الشريعة في مرحلة البقاء، كما وجب علينا في مرحلة الحدوث»[1].

هذه الآيات ليست مختصة بالرسول الأكرم (ص) وحده وإنما تشمل لكل مَن يدّعي فكل مَن يتقول على الله لقطع منه الوتين أي سيموت.والأمر الآخر إذا تدبرنا في هذه الآيات المباركة إننا نفينا من جهة استحالة إجراء المعجزة على يد المدعي النبوة كاذباً وأثبتنا سابقاً أن الأنبياء (ع) إما هم يبتدئون دعواهم بالمعجزة أو أقوامهم يطالبونهم باثبات هذه الدعوى لأنهم يشعرون في قرارة أنفسهم أنّ هناك علاقة بين صدق المدعى وبين خرق القانون، لذلك أن المعجزة فيها دلالة منطقية على صدق المدعى.

المبحث الثاني: البيان الثاني لوجود الرابطة المنطقية

البيان الثاني لوجود الرابطة بين المعجزة وبين صدق المدعى، نقول في المقدمة المنطقة أن نفي الرابطة المنطقية على وجهين أحدهما صحيح والآخر خاطئ. «إنّ نَفْي الرابطة المنطقية بين الإتيان بالمعجزة وصدق الدعوى، أمر يحتاج إلى التحليل، فهو باطل على وجه وصحيح على وجه آخر، وذلك بالبيان التالي: إن كان المراد من قلب العصا ثعباناً مثلاً أنّه كلأوسط في القياس، دليلٌ على صدق ما يدّعيه النبي من أنّه سبحانه واحدٌ عالمٌ قادرٌ، ليس كمثله شيء.. فلا ريب في عدم صحته. إذ لا يمكن الإستدلال على صحّة هذه الأصول بالتصرف في الكون. ولأجل ذلك لم يطرح القرآن أصول الإسلام مجردةً عن البرهنة، بل قَرَنَها بلطائف الدلائل والإشارات، يقف عليها كلُّ متدبّر في الذكر الحكيم. فَيَسْتِدلُّ في البرهنة على وجوده سبحانه بقوله: **(أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)**[2].

---

(1) الخوئي، السيد أبو القاسم الموسوي: البيان في تفسير القرآن، تحقيق السيد جعفر الحسيني، دار الثقلين، الطبعة السادسة، طهران – إيران، 1429هـ. ص 38

(2) إبراهيم، 10.

وفي البرهنة على وحدة المدبّر، بقوله: **(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا)**[1].

وفي البرهنة على إبطال ألوهية الأصنام، بقوله: **(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً)**[2]»[3].

في الآية الأخيرة أثبت أن الإله يخلق ولا يُخلق وهذه الأصنام تُصنع وهي مخلوقة وليست خالقة، فأي موجود لا يملك لنفسه الضر ولا النفع فلا يصلح أن يكون إلهاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً، فهذه الأصنام لا تُميت ولا تحيي.

إنّ الآية **(فَإِن لَّم يَستَجِيبُوا لَكُم فَاعلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَل أَنتُم مُّسلِمُونَ)**[4]، فاستدل تعالى بأنّ هذا القرآن الذي نزل بعلم الله على صدق قضية التوحيد ولكن الشيخ السبحاني قد غفل عنها ولم يذكرها وإنما يورد آية أخرى هي قوله تعالى: **(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ)**[5]. أيها النصارى الذين اتخذتم المسيح إلهاً إنما هو رسول، ثم يورد سبحانه وتعالى الاستدلال على بشريته: **(وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ)** أي له أم، وهو وأمه يأكلان الطعام والقرآن الكريم ينزّه ألفاظه عن أن يذكر القبيح فعندما يقول «يأكلان الطعام» أي ثم يخرجانه عن طريق قضاء الحاجة، فهذه آيات بينات ودلالات.

إنّ الكلام البليغ منزّه عن ذكر القبيح فمثلاً في كلام لأمير المؤمنين الإمام علي (ع) يقول: «مَن كانت همته ما يدخل بطنه كانت قيمته ما يخرج منه»[6]. فألفاظه مهذبة ولا توجد فيها ما يُستقبح ومع ذلك أصاب كبد الحقيقة وأعطى المعنى كاملاً.

---

(1) الأنبياء، 22.
(2) الفرقان، 3.
(3) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 97 – 99.
(4) هود،14.
(5) المائدة، 75.
(6) الآمدي التميمي، عبد الواحد: غرر الحكم ودرر الكلام، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، قم – إيران، 1410هـ. حديث 2577/ ص 143.

«فالمعجزة غير دالّة بالدلالة المطابقية على صحّة المعارف والأصول الّتي يأتي بها صاحبها، بمعنى أنّها ليست الحدّ الأوسط صحّة المدّعى، كالتغيير في قولنا: العالَم مُتَغَيّر، وكلُّ مُتَغِّير حادث، فالعالَم حادث.وإنْ كان الُمرادُ أنّ خرق العادة الملموسة (أعني قلب العصا حيّة) دليلٌ على أنّهم قادرون على خرق عادة أخرى غير ملموسة (وهي الإتصال بعالم الوحي وكون إدراكات النبي خارجة عن إطار الإدراكات العادية المتعارفة) فهو صحيح»[1].

هناك إشكال أن يرد على هذه المسألة: الأول: يرد في أذهان الناس بأن الأنبياء ملائكة باعتبار أنّ لهم علاقة بعالم الوحي، هذا ما يتخيله الناس بما أن الأنبياء لهم علاقة بعالم الغيب فلابد لهم أن يكونوا ملائكة.

والإشكال الثاني بما أنّ النبي يتلقى الوحي وهو أمر خارق ولا يرونه فلابد من أمر خارق ملموس يستدلون به على الأول.

عالج القرآن الكريم هذين الاشكالين، حيث قال تعالى: **(قَالُوا إِن أَنتُم إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلطَانٍ مُّبِينٍ* قَالَت لَهُم رُسُلُهُم إِن نَّحنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُم وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِن عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلطَانٍ إِلاَّ بِإِذنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤمِنُونَ)**[2]، فقد عرض اشكال الكافرين وجواب الأنبياء عليهم.

أما بالنسبة للاشكال الثاني فإن الأنبياء (ع) عندما يأتون إلى أقوامهم فإنهم يقولون لهم بأننا نتلقى المعارف والأصول والفروع والأحكام وكل ما يأتي به الدين عن طريق الوحي من الله تبارك وتعالى، وبما أن الوحي ليس من الادراكات الحسية المتعارفة لدى الناس، وهذه الدعوى تثير الاشكال التالي: إنّ ادعاء الادراك عن طريق الوحي فهو ادعاء أمر خارق للعادة وعليه فإنّ القوم لا يؤمنون بهذا لأنّ الادراكات الإنسانية لا تخرج عن إطار الحسيات، إلا إذا شاهدوا أمراً خارقاً للعادة يماثل ما يدّعون حتى يستدلوا بخرق عادة مرئية.

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 100.
(2) إبراهيم، 10 و11.

فالمعترضون على الأنبياء يريدون بهذا الاشكال من الأنبياء أن يأتوهم بمعجزة بيّنة وبآية مرئية مسموعة ومشاهدة حتى يستدلون بهذا الخرق للعادة على الخرق الأول للعادة غير المرئي وهو الوحي. وبهذا المعنى يُشير العلامة الطباطبائي في تفسيره: «إنّ دعوى النبوّة والرسالة من كل نبي ورسول على ما يقصه القرآن إنّما كانت بدعوى الوحي والتكليم الإلهي بلا واسطة، أو بواسطة نزول ملك، وهذا أمر لا يساعده الحسّ ولا تؤيّده التجربة، فيتوجه عليه الإشكال من جهتين: إحداهما من جهة عدم الدليل عليه، والثانية من جهة الدليل على عدمه. فإنّ الوحي والتكليم الإلهي وما يتلوه من التشريع والتربية الدينية ممّا لا يشاهده البشر في أنفسهم، والعادة الجاري في الأسباب والمسبَّبات تنكره، وقانون العليّة العامة لا يجوزه، فهو أمر خارق للعادة.فلو كان النبي صادقاً في دعواه النبوّة والوحي، لكان لازمه أنّه متصل بما وراءِ الطبيعة، مؤيّد بقوة إلهية تقدر على خرق العادة، وأنّ الله سبحانه يريد بنبوّته والوحي إليه، خرق العادة. فلو كان هذا حقاً، ولا فرق بين خارق وخارق، كان من الممكن أن يصدر من النبي خارق آخر للعادة من غير مانع، وأن يخرق الله العادة بأمر آخر يصدّق النبوة والوحي من غير مانع عنه، فإنّ حكم الأمثال واحد ..»[1].

بهذا الكلام من العلامة السيد الطباطبائي (قدس) يُدعم هذه القضية وبذلك ينحل الاشكالان وتثبت العلاقة بين المعجزة وبين صدق الدعوى، ويثبت بأن المعجز يُثبت صدق مدعى الأنبياء (ع)، فهناك علاقة منطقية بين المعجزة وبين صدق الدعوى وهذا ما أردنا أن نصل إليه في هذه المسألة.

---

(1) الطبطبائي، العلامة السيد محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، منشورات دار الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الخامسة، بيروت –لبنان، 1983. ج1/ ص 86.

الفصل الخامس

نبذة عن نزول القرآن الكريم

إن القرآن الكريم أنزله الله تبارك وتعالى على حبيبه المصطفى محمد (ص) عندما بلغ الأربعين عاماً ولم يُعهد من النبي (ص) قبل ذلك أن تلا على قومه قرآناً أو سمعوا منه أنّه تتلمذ على يد أحد أو تعلّم القراءة والكتابة أو أخذ من مشايخهم أو من علماء النصارى أو اليهود أو غيرهم.

كما لم يُعهد عن النبي (ص) إلا الحياة النظيفة النقية البسيطة ولم يأخذ عن أي أحد، ولم يُعرف عنه (ص) إلا حُسن السيرة والصدق والأمانة وهذا ما اشتهر به النبي الأكرم (ص) وعرفه أهل مكة ومَن عاشره من خلقه.

ولم يُعهد أنه تلا عليهم قرآناً وهذا ما بيّنه القرآن الكريم ثم فجأة ادعى النبوة ونزل عليه القرآن. بعد أن قرع أسماع أهل مكة القرآن الكريم ورؤوا بلاغته وإعجازه وما يحمل من معانٍ ورأوا أسلوبه ونظمه فتحيّروا فيها.

إنّ القرآن الكريم نزل منجماً أي مفرّقاً طيلة مدة الدعوة على نحو التدريج، فلم يكلّف المسلمين بكل الأحكام بشكل مباشر، والآيات الكريمة كانت تنزل تبعاً للأحداث وتبعاً لقابلية الناس باستلام الوحي.

وأول ما نزل من القرآن الكريم هو سورة العلق: **(بسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ* اقرَأ باسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الإنسَانَ مِن عَلَقٍ* اقرَأ وَرَبُّكَ الأكرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بالقَلَمِ* عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَم يَعلَم)**[1]، وعندما سمعوا هذه الآيات الكريمة اتهموا الصادق الأمين بالجنون والسحر مع أنّهم أقرّوا بأنّه (ص) الصادق الأمين. وهذا ما ذكرته سورة القلم حيث يُذكر أنّها نزلت بعد سورة العلق: **(بسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ* ن وَالقَلَمِ وَمَا يَسطُرُونَ* مَا أنتَ بنِعمَةِ رَبِّكَ بمَجنُونٍ* وَإنَّ لَكَ لأجراً غَيرَ مَمنُونٍ* وَإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ فَستُبصِرُ وَيُبصِرُونَ* بأيِيِّكُمُ المَفتُونُ* إنَّ رَبَّكَ هُوَ أعلَمُ بمَن ضَلَّ عَن سَبيلِهِ وَهُوَ أعلَمُ بالمُهتَدِينَ* فَلا تُطِعِ المُكَذِّبينَ* وَدُّوا لَو تُدهِنُ فَيُدهِنُونَ* وَلا تُطِع كُلَّ حَلافٍ مَّهِينٍ* هَمَّازٍ مَّشَّاء بنَمِيمٍ* مَنَّاعٍ لِّلخَيرِ مُعتَدٍ أثِيمٍ* عُتُلٍّ**

(1) العلق، 1 – 5.

بَعدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ* أن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ* إِذَا تُتلَى عَلَيهِ آيَاتُنَا قالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ* سَنَسِمُهُ عَلَى الخُرطُومِ)[1].

تذكر الآيات أنّ الوليد بن المغيرة الّذي ادعى أنّ هذه الآيات هي أساطير الأولين فبشّره الله تعالى بالعذاب، وفعلاً كان الوليد قد ضُرب على أنفه يوم بدر وبقي أثره حتى مات.

لقد بدأت الآيات الكريمة تنزل تبعاً لما تحتاجه الدعوة وكان يرد على الإشكالات سواء من المشركين أو من النصارى كما في قصة المباهلة أو من اليهود وتحريفاتهم واخفائهم اسم النبي (ص) وهكذا النصارى وتحريفهم للإنجيل واخفاء اسم النبي (ص)، فكان القرآن ينزل في أحداث مختلفة وهناك حروب وأثناء السفر، وفي كل هذه المتغيرات وفي تلك البيئة فإنّ القرآن الكريم لم يتفاوت فأول القرآن وآخره وسطه كلّه بمستوى واحد من البلاغة.

لو كان القرآن من البشر، فالعادة أنّ البشر عندما يؤلف كتاباً فطيلة 23 سنة يختلف في بلاغته وفي نظمه وفي معلوماته وقد يذكر المؤلف أشياء قمة في البلاغة بالنسبة إلى بداية عمره لأنّه سيكون قد تمرّس ونضج وازداد معرفة. في حين أن القرآن الكريم لم يتغير فكلّه بمستوى واحد وسطه كطرفيه في كل أمر من حيث البلاغة والفصاحة والنظم والمعلومات فهذا دليل على أنّه خارق للعادة.

المبحث الأول: حكمة نزول القرآن منجماً (مفرقاً)

نزل القرآن الكريم بشكل منجم بمعنى مفرّق، فما هي الحكمة من نزول القرآن الكريم منجماً؟!

إنّ عملية التغيير في الأمة تحتاج إلى وقت وزمان حتى يتقبل الناس العقائد أولاً وهي الأسس في الرسالة وكل الأحكام الفرعية من فروع وعبادات وأحكام في القضايا الشخصية كالطلاق والزواج والارث وما شاكل ذلك، وكذلك قضايا الدولة والسياسة والحكم وعلاقات الدولة وآداب الحروب وأحكام أمور أخرى كقضايا المزارعة والبيع والاكتساب.

---

(1) القلم، 1 – 16.

فقدّم القرآن الكريم أطروحة كاملة في جميع هذه القضايا في مجتمع كان خالياً تماماً من الدساتير والأنظمة، فلم يضاهي حتى الأنظمة التي كانت سائدة في ذلك الوقت. فأطروحة القرآن الكريم كاملة وإلى الآن تُحكّم ويسير عليها المسلمون في كثير من قضاياهم ويستقون من الأنظمة القرآنية. إضافة إلى ذلك إذا قورن النظام الإسلامي بباقي الأنظمة فإنّه يتفوق عليها في مفهوم العدالة وفي دقة نظامه وحكمته في التشريع.

إنّ التشريع نزل بشكل مفرق ولم يأت دفعة واحدة، ولكن القرآن الكريم في بادئ أمره نزل دفعة واحدة من السماء في ليلة القدر **(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيلَةِ القدر)**(1)، والهاء عائدة على القرآن بجملته فنزل جملة واحدة، ثم نزل منجماً ومفرقاً بحسب الأحداث والوقائع.

إنّ هناك حكمة وهي أن عملية التغيير تتم بشكل يتلائم مع قابلية الأمة لتلقي الأحكام ولتلقي الأوامر والنواهي، وكان الرسول (ص) يعترض عليهم في بداية أمره لأنّهم وصفوه بمختلف الصفات فقال لهم الرسول (ص) كما في سورة يونس: **(قُل لَّو شَاء اللهُ مَا تَلَوتُهُ عَلَيكُم وَلاَ أَدرَاكُم بِهِ فَقَد لَبِثتُ فِيكُم عُمُراً مِّن قَبلِهِ أَفَلاَ تَعقِلُونَ* فَمَن أَظلَمُ مِمَّن افتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفلِحُ المُجرِمُونَ)**(2)، وهناك أيضاً كلام لهم: **(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَولا نُزِّلَ عَلَيهِ القُرآنُ جُملَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلنَاهُ تَرتِيلاً)**(3).

وعليه فإن حكمة تنزيل القرآن منجماً ومفرقاً:

1- تثبيت لقلب الرسول (ص).

2- استئناس النبي (ص) بالوحي ويكون باتصال دائم بعالم الغيب.

3- سهولة حفظ الآيات القرآنية من قبل المسلمين.

4- عملية تطبيق الأحكام الإسلامية بالتدريج.

---

(1) القدر،1.
(2) يونس،16 و17.
(3) الفرقان، 32.

المبحث الثاني: مميزات الآيات المكية والآيات المدنية

طبعاً نزل القرآن الكريم على قسمين أحدهما مكي والآخر مدني، فالآيات المكية لها صفات ولها مميزات تتميّز عن الآيات المدنية، فالآيات المكية كانت قصيرة وتتحدث عن أصول العقيدة فتشرح الآيات المكية في بيان العقيدة الإسلامية وبطلان عبادة الأوثان ومجادلة المشركين والدعوة إلى التوحيد، ومخاطبة العرب وغيرهم من خلال قصص الأنبياء.

هناك إشارات قليلة بالنسبة للأحكام وبشكل مجمل، كقوله تعالى: **(وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)**[1]، إشارة إلى الخمر وأنّه ليس من الرزق الحسن فهنا مقابلة بين الرزق الحسن، والسكر هو من الرزق الحرام وليس من الرزق الحسن، وكذلك الإشارة إلى الربا في قوله سبحانه وتعالى: **(وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَموَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجهَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُضعِفُونَ)**[2].

بينما الآيات المدنية لها ميزات أخرى وهي: طول الآيات المباركة ووجود التفصيل في الآيات وأيضاً وجود الإشارة إلى الأحكام بشكل مفصل والإشارة إلى وجود دولة قائمة تتعامل مع الآخرين ولها علاقات خارجية، وأما أحكام المعاملات والعبادات كتفصيل الربا وتفصيل كيفية أداء الحج لا يمكن أن تكون في الدولة المشركة في مكة المكرمة حيث أن المشركين هم المهيمنون في مكة فكيف تأتي أحكام في أرضية غالبيتها من المشركين فلابد أن تهيئ الدولة أولاً ثم تنزل الأحكام التي تترعرع وتطبق في أرضية إسلامية نابعة من عقيدة إسلامية ولا يمكن أن تأتي الأحكام في أرضية من الشرك. كما تتميز الآيات المدنية بذكر ظاهرة النفاق حيث أنها برزت بشكل سافر في المدينة المنورة .

أخيراً فإن القرآن الكريم في إعجازه سواء في الآيات المكية أو المدنية وسواء في قصر آياته أو في طولها فإنّه مُعجز في كل ذلك والقمة

(1) النحل، 67.
(2) الروم، 39.

في البلاغة في كل ذلك، فلم يختلف نظمه وبلاغته بين هذا وذاك فهو واحد لا اختلاف فيه.

المبحث الثالث: حفظ القرآن الكريم وترتيب السور والآيات

إنّ القرآن الكريم نزل وحفظه المسلمون وكُتب وتواتر نقله، فالقرآن الكريم منقول بالتواتر جيل عن جيل محفوظ بالصدور لأنه دستور الأمة ودواعي حفظه موجودة لدى الأمة، فالحاكم يحتاجه والقاضي يحتاجه والناس يحتاجونه لأنّه المرجع والدستور في العقائد والعبادات والمعاملات والعلاقات، فهو دائماً المرجع.

إنّ هناك دواعٍ للحفظ موجودة لدى المسلمين، فقد جُمع القرآن الكريم في عصر النبي الأكرم (ص) وكان يُكتب على جريد النخل وعلى الرق (جلد الحيوانات) وكذلك حُفظ من قبل العديد من الصحابة كما حُفظ عند أهل البيت (ع).

أما ترتيب نزول الآيات الكريمة فكان النبي (ص) بنفسه يرتّب الآيات الكريمة، وأما بالنسبة لترتيب السور – ما هو موجود بين أيدينا – ليس حسب ترتيب النزول وإنّما رُتّب من قبل الصحابة، بمعنى أن القرآن الكريم حسب ترتيب نزوله بأجمعه محفوظ عند أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ع) وهذا المصحف المرتب حسب ترتيب النزول يتناقله أهل البيت (ع) وأما المصحف الذي بين أيدي المسلمين فهو نفس الآيات الكريمة الموجودة في المصحف المرتب حسب النزول.

ولكن الاختلاف الرئيسي في ذلك هو بين ترتيب السور وليس بين ترتيب الآيات الكريمة حيث أن ترتيب الآيات توقيفي ومن قبل الرسول (ص) وفي السنة الأخيرة لرحيل الرسول الأكرم (ص) فقد عارض جبريل (ع) النبي (ص) بالقرآن الكريم مرتين خلاف بقية السنين.

إن القرآن الكريم نُقل بالتواتر، ومعنى التواتر أنّه نقل قطعي ويقيني وحجّته ذاتيه بمعنى أنّه لا يحتاج إلى دعم خارجي لاثبات يقينه وصدقه، وتواتر نقل القرآن الكريم لفظي ومعنوي.

وهناك كلام في ما حصل الخلاف بالقراءات وما حصل من الخلاف في التأويل، وهناك تنزيلان: تنزيل النص، وتنزيل التأويل.

إنّ الله تعالى كما أنزل النص القرآني وهو المحفوظ بين الدفتين في بلاد المسلمين عامة من سنة وشيعة كذلك أنزل التأويل ولكن التأويل له أهل يختصون بعلمه، قال الله تعالى:**(وَمَا يَعلَمُ تَأويلَهُ إلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ)**[1]، ومن اعجاز القرآن الكريم هذا التأويل.

من اعجاز القرآن الكريم المُحكم والمتشابه، وكيف أنّه استوعب بمحكمه وبمتشابهه كل الوجود والأحداث والأحكام إلى أن تقوم الساعة، فلولا وجود هذا المتشابه في القرآن الكريم لما تمكنّا من هذه الألفاظ المحدودة والآيات الكريمة المحدودة في ألفاظها أن نفهم بقية الأحكام وأن نتبيّن ونطلع على قضايا الوجود فإنّ القرآن الكريم قد أشار إشارة واضحة وبيّنة إلى أن هذا القرآن تبياناً لكل شيء **(.. وَنَزَّلنَا عَلَيكَ الكِتَابَ تِبيَاناً لِّكُلِّ شَيءٍ وَهُدًى ورَحمَةً وَبُشرَى لِلمُسلِمِينَ)**[2].

لقد انفرد القرآن الكريم عن بقية الكتب – سواء كانت الكتب البشرية أو الكتب السماوية – بأنّه حُفظ من دون نقيصة أو إضافة، حيث حُفظ القرآن الكريم ولم يُحفظ الإنجيل وكذلك التوراة فقد كُتب الإنجيل والتوراة ولكن الكتابة كانت متأخرة فظهرت عدة نسخ متفاوتة فهناك أجزاء كثيرة تصل إلى سبعة أجزاء بالنسبة للإنجيل تتفاوت تماماً عن الأجزاء الأخرى إضافة إلى أنّه كان يُنقل بطريقة الرواية عن لسان مَن كتبوه بعد عدة قرون.

إنّ الإنجيل والتوراة لم يُكتب النص المُنزل وإنما هناك تحريف فيما كُتب ولم يكن هناك نقل متواتر وقد كُتبت بالمعنى وليس بالنص المنزل، كما أنهما قد حُرّفتا عن معانيها من حيث النص ومن حيث التأويل. حيث أن التحريف لم يكن في التأويل فقط كما يدعي بعضهم وإنما كان التحريف في التأويل وفي النص كما حُذف من التوراة والإنجيل الكثير وأضيف إليهما الكثير، أي أنّ التحريف شمل الزيادة والنقيصة.

أما القرآن الكريم فهو محفوظ مجموع، كما أنّ الله تعالى تعهد بحفظه وبجمعه، حيث ورد في قوله تعالى: **(إنَّ عَلَينَا جَمعَهُ وَقُرآنَهُ * فَإذَا قرَأنَاهُ فَاتَّبِع قُرآنَهُ)**[3]، فالله تعالى أكّد هذا الجمع وتعهّد بحفظه:**(إنَّا نَحنُ**

---

(1) آل عمران، 7.

(2) النحل،89.

(3) القيامة،17 و 18.

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[1]، وقد هيأ سبحانه وتعالى لجمع القرآن ولحفظه الأسباب والوسائل، كما أنّ النبي (ص) هو أيضاً من الأسباب الرئيسية لحفظ القرآن ولجمعه، وكذلك الأئمة من أهل البيت (ع) هم أيضاً من الأسباب الرئيسية لجمعه وحفظه.

نلاحظ في الأمة الإسلامية كثير من الحفّاظ والأدباء والبلغاء ومن اللغويين ومن المفسرين ومن رواة الحديث، فإنّ كل هذه العلوم تصب في طريق مباشر أو غير مباشر بحفظ القرآن الكريم حيث أن هذه العلوم في مستندها – سواء كانت علوم اللغة أو علوم الفقه أو علوم التفسير – كلها ترجع في الاستشهاد بالقرآن الكريم وتتحدث عنه.

أشار النبي الأعظم (ص) إلى عصمة القرآن الكريم من التحريف والتأويل لأنّه أحال الأمة في وصيته المباركة: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[2].

فأشار (ص) إلى أنّ القرآن الكريم هو مرجع الأمة ومتى ما تمسّكت الأمة به وبأهل البيت (ع) فلا يحصل الضلال، فمعنى ذلك أن القرآن موجود إلى أن تقوم الساعة حيث أنّه محفوظ من التبديل والتحريف والتغيير، فالرسول (ص) لا يُحيلنا إلى قرآن قابل للتحريف أو التبديل أو يدخله الخطأ فالقرآن معصوم من هذه النواحي، وهذا يشمل أهل البيت (ع) حيث أن الرسول (ص) لا يوصينا بأهل بيت يمكن عليهم الخطأ أو التبديل والتحريف فهم (ع) معصومون كما القرآن الكريم.

إنّ القرآن الكريم نزل منجماً وآياته تتحدى الجن والإنس وتتحدى مشريكي مكة والعرب في أن يأتوا بمثله، إنّ عنصر التحدي وخاصة في الجانب البلاغي عنصر مهم في الإعجاز فكيف كان هذا التحدي ؟!

عندما بُعث النبي (ص) فكل نبي يطالبه قومه بمعجزة، فالعرب أيضاً طالبوا الرسول (ص) المعجزة فخاطبهم الله تبارك وتعالى بهذه الآية:

---

(1) الحجر،9.

(2) المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر: بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي،الطبعة الثالثة، بيروت – لبنان، 1983م.ج23/ ص 123، حديث 71.

(وَقَالُوا لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُل إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ* أَوَلَم يَكفِهِم أَنَّا أَنزَلنَا عَلَيكَ الكِتَابَ يُتلَى عَلَيهِم إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحمَةً وَذِكرَى لِقَومٍ يُؤمِنُونَ)(1)، بمعنى أليس في هذا الكتاب (القرآن) معجزة كافية، حيث أن القرآن الكريم معجزة كافية للاستدلال على أن الرسول (ص) هو من قبل الله تبارك وتعالى وعلى كل ما جاء به الرسول الأعظم (ص) هو حق.

فماذا قالوا ؟ قال تعالى عن لسانهم: **(وَإِذَا تُتلَى عَلَيهِم آيَاتُنَا قَالُوا قَد سَمِعنَا لَو نَشَاء لَقُلنَا مِثلَ هَذَا إِن هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ)**(2)، فلما أجابوا بهذه الإجابة فردّ الله تعالى عليهم رداً قاطعاً حاسماً فبدأ يتحداهم بأن يقولوا مثل هذا القول.

وهنا بدأت آيات التحدي والمعاجزة، وهذه الآيات بدأت بعد أن بيّن القرآن الكريم بأنّه لوحده معجزة كافية. فما هي آيات التحدي والمعاجزة ؟

إن أول آيات التحدي هي قوله تعالى: **(قُل لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأتُوا بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لاَ يَأتُونَ بِمِثلِهِ وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيراً)**(3)، وهذه الآية مكية وكل الآيات التي فيها تحدي هي مكية. وهنا التحدي بما نزل من القرآن إلى غاية هذه الآية المباركة بمعنى أنّه لم يكن التحدي بكل هذا القرآن حيث أنّ هذه الآية حسب ما ذُكر هي السورة الخمسون أي أكثر من نصف القرآن لم ينزل بعد.

ولما سمع المشركون هذا التحدي من القرآن والحث على أن يأتوا بمثله فلم يفعلوا شيئاً وتحيّروا في ما يفعلون أمام هذا التحدي مع أنّهم بلغاء وفصحاء وهذا القرآن قد سفّه أحلامهم وعاب آلهتهم وسفّهها وسخّفها وقرّعهم بمختلف أنواع التقريع. واستمر القرآن الكريم بالتحدي لهؤلاء فقابلوه بالاتهامات، اتهامات للقرآن الكريم واتهامات للرسول (ص) فقالوا: **(مَا سَمِعنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ إِن هَذَا إِلا اختِلاقٌ)**(4)، أي أن القرآن

---

(1) العنكبوت،50 و51.
(2) الأنفال،31.
(3) الإسراء،88.
(4) ص،7.

مفترى في نظرهم، وقال تعالى: (**بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ* ص وَالقُرآنِ ذِي الذِّكرِ* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ* كَم أَهلَكنَا مِن قَبلِهِم مِّن قَرنٍ فَنَادَوا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ* وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنهُم وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**)[1]، فالآيات الكريمة تواصل تقريع هؤلاء وتأنيبهم وترد على قولهم بأنّه ساحر وكذاب، وأنّ هذا القرآن هو افتراء.

ومع أنهّم بتلك الحمية الجاهلية ولكن مع ذلك لم يردوا ولم يعارضوا ولم يأتوا ولو بسورة مثل القرآن الكريم وهذه دلالة قاطعة على عجزهم، وقد استمر القرآن الكريم بتقريع هؤلاء وتحديهم بآيات أخرى من التحدي. وكان التحدي هذه المرة بإتيان سورة من سور القرآن الكريم وتذكر هذه الآية المباركة اتهام الرسول (ص) بالافتراء فقال تعالى: (**أَم يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُل فَأتُوا بِسُورَةٍ مِّثلِهِ وَادعُوا مَنِ استَطَعتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ**)[2].

واستمر القرآن بتقريع هؤلاء واسماعهم آيات التحدي والمعاجزة حيث قال تعالى: (**أَم يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤمِنُونَ* فَليَأتُوا بِحَدِيثٍ مِّثلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ**)[3]، فكانت ردودهم ءأنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون، وينقل عنهم القرآن الكريم هذه الردود، قال تعالى: (**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجنُونٍ**)[4]، وقال تعالى: (**وَلَمَّا جَاءهُمُ الحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ**)[5].

ولما بلغ العجز بالكافرين نهايته فتنزّل القرآن معهم تنزّل آخر، بعبارة أخرى كان يطالبهم القرآن بأن يأتوا بمثله ولكن هذه المرة افترض لهم افتراضاً – وفرض المحال ليس بمحال – فلو كان القرآن مفترى فيكون محمد (ص) بشراً مثلهم فما المانع من أن تفتروا أنتم كما افترى محمد (ص) – على حد تعبيرهم – فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، فقال تبارك وتعالى: (**أَم يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُل فَأتُوا بِعَشرِ سُوَرٍ مِّثلِهِ مُفتَرَيَاتٍ وَادعُوا مَنِ**

---

(1) ص،1 – 4.
(2) يونس،38.
(3) الطور،33 و34.
(4) الصافات،36.
(5) الزخرف،30.

استَطَعتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ* فَإِن لَّم يَستَجِيبُوا لَكُم فَاعلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَل أَنتُم مُّسلِمُونَ)[1]، وكل هذه الآيات نزلت في مكة المكرمة.

هناك شبهة تقول إنّ آيات التحدي والمعاجزة نزلت في المدينة المنورة باعتبار أنّالإسلام في المدينة المنورة كانت له سلطة ودولة، ولكن الحقيقة أنّ كل آيات التحدي مكية وسورة الإسراء سورة مكية كما هو معلوم. ولم تنزل إلا آية واحدة في بدء هجرة الرسول (ص) في قوله تعالى: **(وَإِن كُنتُم فِي رَيبٍ مِّمَّا نَزَّلنَا عَلَى عَبدِنَا فَأتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثلِهِ وَادعُوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ* فَإِن لَّم تَفعَلُوا وَلَن تَفعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّت لِلكَافِرِينَ)**[2]، وهذا أيضاً إعجاز آخر للقرآن الكريم وهو أنّه أخبر بأمر مغيّب وهو أنّه ليس فقط أنهم لم يفعلوا ذلك بل **(وَلَن تَفعَلُوا)** و«لن» تفيد النفي والتأبيد بمعنى إلى الأبد أنّ هذا القرآن يتحداكم وإلى الأبد أنّكم عاجزون على أن تأتوا بمثل هذا القرآن. وهكذا صدقت نبوءة القرآن فأكثر من 1400 سنة على نزول القرآن الكريم ولم يأت أحدٌ يردّ أو يعارض أو يجاري أو يحاكي آيات القرآن الكريم ولو سورة واحدة، فما أكثر أعداء الإسلام وما أكثر المشركين وهم يتربصون بالإسلام الدوائر وإلى الآن، ومع هذا لم يرد ولم يجروّ أحد أن يعارض القرآن الكريم أو يحاكيه.

فلما رؤوا المشركون أنهم أمام بلاغة سامية ونظم محكم ومعان قيمة يتقنوا من العجز فعمدوا إلى مجاهرة النبي (ص) بالعداوة فأعلنوا عليه الحرب وعلى مَن آمن به واستبدلوا القيم بالسيف وضحوا في سبيل ذلك بكل غال ورخيص، ولم يلجأوا إلى السيف إلا لأنّهم لم يستطيعوا معارضة القرآن ولو كان باستطاعتهم ذلك لاكتفوا بذلك ولكن لما علموا وتيقنوا أنهم عاجزون عن معارضته لجأوا إلى وسائل أخرى فعرضوا عليه المُلك وتزويجه بأجمل نساء العرب ولكنه (ص) رفض.

---

(1) هود،13 و14.
(2) البقرة،23.

هناك نوع آخر من التحدي ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: **(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ وَلَو كَانَ مِن عِندِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختِلاَفاً كَثِيراً)**[1]، في هذه الآية المباركة الحث على التدبّر بهذا القرآن ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لحصل فيه الاختلاف والتغيير ولكن لم يكن فيه اختلاف ولا تفاوت فإذن هو من عند الله تبارك وتعالى.

إنّ هذه الآية تشير إلى إعجاز من نوع آخر حيث أن السنة الجارية في السنن والشعوب والتطور الحضاري والتدرج الإنساني ففي مراحل الحياة إنّ الإنسان يولد طفلاً ثم يكون صبياً ثم شاباً ثم يشتد عودُه وينضج عقله إذا بلغ الأربعين ويزداد من الناحية العقلية ويضعف بعد ذلك من الناحية البدنية، فالإنسان في أطوار حياته يختلف طور عن طور ففي البداية يكون قليل العلم والمعرفة ثم يزداد علماً ومعرفة، فعندما يريد أن يتكلم أو أن يلقي خطابة أو أن يؤلف كتاباً فإنّ مرحلته الحياتية لو كان في العشرين من عمره ويؤلف كتاباً أو يقول قصيدة ثم يأتي بالأربعين من عمره أو الستين من عمره ليؤلف كتاباً أو يقول قصيدة، فسنّة الحياة تقول إنّه في عمر الستين يكون أنضج واقدر وأعرف بمواطن القوة والضعف من عمره وهو في العشرين، فعندما نريد أن نقارن بين ما أنجزه في عمره العشرين وما أنجزه في عمره الأربعين والستين نشاهد هناك تفاوتاً كبيراً جداً بين ما أنجزه الإنسان.

إنّ أهل الأرض عندما نجمع كل معلوماتهم قبل ألف سنة ثم نتابع بين قرن أو قرنين إلى أن نصل إلى هذا القرن فنشاهد هناك تفاوتاً كبيراً بالنظريات والآراء والحضارة والتكنولوجيا والعلوم، بتصحيح كثير من الأخطاء التي كانت سائدة ومعنى ذلك كان هناك تفاوت واختلاف حتى ولو على مستوى الأمم والشعوب وهذه سنة في الكون والحياة.

إنّ في المعجزة لابد من توفر خرق العادة، إنّ القرآن الكريم لا يوجد فيه هذا الاختلاف والتفاوت، لا من حيث المعاني ولا يوجد فيه أخطاء سواء علمية أو لغوية أو بلاغية، علماً أن القرآن الكريم نزل منجماً طيلة

---

(1) النساء،82.

23 سنة، فالقرآن الكريم خرق العادة في هذا الأمر وهو نوع آخر من الاعجاز.

إنّ الشعراء والبلغاء عندما يكتبون قصيدة أو خطاباً فقد تأتي قصيدة واحدة من ديوان الشاعر في أوج بلاغة ذلك الشاعر وتُسمى القصيدة اليتيمة أو الفريدة ولو لاحظنا هذه القصيدة فنرى بأنّه ليس جميع أبياتها في مستوى واحد وإنما الشاعر اشتهر بقصيدته من خلال بيت أو بيتين من هذه القصيدة. وأما القرآن الكريم فلا يوجد فيه هذا الاختلاف ولا يوجد فيه هذا التفاوت فوسطه كطرفيه بقمة البلاغة وإلى هذا وغيره تشير الآية السابقة في قوله تعالى:(**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ وَلَو كَانَ مِن عِندِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختِلاَفاً كَثِيراً**)

فالقرآن الكريم نزل منزّهاً من الضعف والثغرات ولا يوجد فيه أي اختلاف، بينما بقية المخلوقات فيهم هذا التدرج في الوجود من ضعف إلى القوة ومن النقص إلى الكمال، ومن جملتها ما ينتجه الإنسان من مؤلفات ولا يزال يتحول ويتكامل بوجوده وأفعاله، كما أنّ كلاً منا يرى نفسه أكمل من أمس فلا يزال يعثر بين الحين والآخر على سقطاته وأخطائه في أيامه الأولى وهذا أمر لا ينكره إنسان ذو شعور.

وهذا القرآن جاء النبي (ص) نجوماً وقرأه على الناس قطعاً قطعا في مدة 23 عاماً وفي أحوال مختلفة وشرائط متفاوتة في مكة المكرمة والمدينة المنورة بالليل والنهار في الحضر والسفر والحرب والسلم وتقويم الأحكام الدينية فلا يوجد فيه أدنى اختلاف في النظم المتشابه فالجملة تصدق الجملة والبعض يفسر الآخر ويشهد بعضه على بعض.

الفصل السادس

تحليل سر بلاغة القرآن الكريم

المبحث الأول: السر في الإعجاز البلاغي

إن تحدي القرآن الكريم في بدء النزول كان في النظم والبيان والبلاغة وليس في أمور أخرى كالأخبار بالمغيبات أو أن القرآن يحتوي على قضايا علمية لم يُكشف عنها إلا في قرون متأخرة ولا في قضية التشريع والنظام.

إذاً الإعجاز في بدء النزول كان في القضية البلاغية وجمال الأسلوب وفي عذوبة الكلمات وانسجام الجمل وسمو المعاني، ولم يكن في الأنواع الأخرى من الاعجاز، ثم هناك دليل آخر على هذا الأمر، فالعلامة السيد الطباطبائي (قدس) يذكر بأنّ التحدي والمعاجزة في أنّ كل أنواع الاعجاز فيها تحدي ومعاجزة، ولكن الحقيقة أن القرآن الكريم تحدى الجن والإنس بأن يأتوا بسورة من مثله وليس كل سورة فيها إعجاز في الأخبار والمغيبات أو القضايا العلمية، ولكن هناك أمر موجود ومتوفر في كل سورة وهو البلاغة فهذا الأمر موجود ومتوفر في كل سورة وبذلك صحّ به التحدي وصح به الاعجاز.

يأتي السؤال التالي ما هو السر في هذا الإعجاز البلاغي ؟

هناك عدة آراء في هذه المسألة، فبعضهم يذكر أن هذه المسألة هي مسألة ذوقية لا يستطيع الإنسان أن يحلّلها ويشبّه ذلك بملامح الإنسان الجميل أو المنظر الجميل فأنت تشعر به ولا تستطيع أن تصفه ومهما بالغت في الوصف لا تعطي الصورة الحقيقية للمقابل بدون أن ينظر بنفسه ويشعر بجمال الإنسان أو المنظر.

ومن أصحاب هذه النظرية هو السكاكي الذي يقول: «ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين[1]، نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسّر إماطة اللثام عنها لتتجلى عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا»[2].

---

(1) يعني بهما علم البيان وعلم المعاني.

(2) السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان، 1987، ص 416.

إنّ بعضهم يذهب إلى نظرية أخرى في البلاغة والإعجاز البلاغي فيعتبرون البلاغة هو فرط البلاغة وفرط الفصاحة وبمعنى آخر النهاية في البلاغة والنهاية في الفصاحة، وهؤلاء لم يشرحوا السبب فلم يفسّروا السبب في هذا الإعجاز وإنما جاءوا بآيات من القرآن الكريم ووازنوها بكلام العرب من خلال أشعارهم وخطبهم ولم يذكروا السر في هذا الإعجاز البلاغي فإنّ مجرد المقارنة لا تكفي.

وعليه فإن قضية الذوق وقضية طرح الفكرة بالافراط تبقى قضية اقناعية وليست قضية برهانية وبتعبير آخر حسب قناعة الإنسان وأصول هذه القناعة وليست قضية استدلالية كالقضية المنطقية.

وهناك جماعة من المحققين لم يقتنعوا بهذا القدر ممّا عرضته هاتان النظريتان بل أخذوا يبحثون عن سر البلاغة وسر الاعجاز البلاغي فأرادوا أن يتوصلوا إلى هذا الأمر ليكشفوا اللثام عن سر إعجازه ووجه إعجازه، ومن هذا المنطلق وضعوا وبيّنوا أركان ودعائم لهذا الاعجاز فقالوا بأن كلام البشر والكلام الإلهي لابد أن يتفوق في هذه الدعائم وفي هذه الأركان عن كلام البشر ويقف البشر عاجزاً عن أن يأتي بمثل الكلام الإلهي.

وقالوا بأنّ الله تعالى الذي تحدى الناس بالبلاغة والبيان والنظم لابد أن يُعرّف في قرآنه أنّ هناك أسس لهذه القضية حتى يصل الإنسان إلى دليل، وإن كان القناعة والذوق تكفي. فلابد أن نصل إلى مِلاك الاعجاز فما هو سر الاعجاز ؟ حتى على ضوئه نتمكن أن نحدد الأركان التي تقوّم وتدعم المعنى الكلي للاعجاز البلاغي.

إن العربي في ذلك الوقت لم يُحلل وينظر إلى هذه الدعائم ولكن نحن باعتبارنا متخلفون جداً عن بلاغة أولئك الذين سمعوا القرآن وتذوّقوهوتحسّسوه ببلاغتهم وسليقتهم، فأولئك عندما يقرع القرآن أسماعهم يتحيّرون ويصفوه بالسحر، لماذا ؟

لأنّهم عاشوا هذه الحالة اللغوية وتحسّسوها، فلكل لغة اصطلاحات معينة يفهمها أهل تلك اللغة، وأنّ البارعين في تاريخ تلك اللغة ونشوء الكلمة وكيفية استعمالها ومواطن استعمالها، فنحن لابد أن نكتشف سر هذا الاعجاز.

المبحث الثاني: أركان ودعائم سر الإعجاز البلاغي

من خلال الدراسة والبحث وضعوا أربعة أركان لسر الإعجاز ولسر البلاغة، هذه الأركان هي:

أولاً: فصاحة ألفاظه وجمال عباراته.
ثانياً: بلاغة معانيه وسموّ مضامينه
ثالثاً: روعة نظمه وتألفيه.
رابعاً: بداعة أسلوبه.

هذه الدعائم الأربع سنبدأ في تعريفها وتحليلها والموازنة والمقارنة بين عبارات وألفاظ القرآن الكريم وبين ألفاظ وعبارات كلام العرب.

إن الباري تبارك وتعالى بيّن في القرآن الكريم بأنّ له تأثيراً في النفوس والقلوب، وهذه الحقيقة شعر بها العرب وقد ذكرها القرآن الكريم بأنّ للقرآن وقعاً وتأثيراً في النفوس وفي القلوب وفي العقول، وهذا التأثير نورده من هذه الآيات حيث قال تعالى: **(لَو أنزَلنَا هَذَا القُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأيتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّن خَشيَةِ اللهِ وَتِلكَ الأَمثَالُ نَضرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ)**[1]، وكذلك قوله تعالى: **(اللهُ نَزَّلَ أحسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقشَعِرُّ مِنهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخشَونَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُم إِلَى ذِكرِ اللهِ ..)**[2]. ففي الآية المباركة تبيّن تأثير هذا الحديث الذي هو متشابه في بلاغته ونظمه وسموّ معانيه وجمال ألفاظه وعذوبته وتلائم الكلمات بالجمل وتلائم الجمل بالعبارات والسور والآيات، فهذا القرآن تقشعّر منه جلود الذين يخشون ربّهم ثم تلين جلودهم وتلين قلوبهم إلى ذكر الله لأنّه تطمئن قلوبهم لذكر الله تعالى: **(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكرِ اللهِ ألاَ بِذِكرِ اللهِ تَطمَئِنُّ القُلُوبُ)**[3].

إنّ تلاوة الآيات الكريمة لها تأثير على الجلود فتقشعر وعلى القلوب فتطمئن وتخشع ونتاج الخشوع سببه تلاوة القرآن الكريم وهذا لمَن يتدبّر هذه الآية، فهذا معلول لعلّة فقراءة القرآن له معلول وهكذا كان العرب

---

(1) الحشر،21.
(2) الزمر،23.
(3) الرعد،28.

عندما يسمعون القرآن يقولون بأنّنا سُحرنا بمعنى مفعول السحر فيريدون أن يعبّروا بأن هذا القرآن – باعتبار أنّ السحر خارق للعادة –وهذا معنى كلامهم بأن القرآن سحرنا، وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: **(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعيُنَهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمع مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ ..)**[1].

بعد هذا وذاك نريد أن نعرف ما هو السر في الاعجاز ؟ وكيف توصل المحققون إلى هذا الأمر وما هي الدعائم الرئيسية ونريد أن نحلل هذه الدعائم الأربع كي نتوصل إلى سر الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

المطلب الأول: تعريف الفصاحة

يجب أولاً أن نعرّف الفصاحة ولكن قبل أن نبدأ بتعريف الفصاحة لابد أن نعرف بأنّ الفصاحة موضوعها الألفاظ، وأما البلاغة فموضوعها المعاني ولها ركنان وهما الفصاحة ومطابقة مقتضى الحال.

الفصاحة يوصف بها المفرد (الكلمة الواحدة) ويوصف بها الكلام (القول الذي يتكون من عدة كلمات) وهناك شروط لفصاحة الكلمة المفردة وهناك شروط لفصاحة الجملة الخبرية التي يصح الوقوف عليها.

فما هي الفصاحة المفردة ؟

الفصاحة في الكلمة المفردة عبارة عن خلوص ذلك اللفظ من تنافر الحروف بمعنى أنّه عندما ننطق بذلك اللفظ يأتي اللفظ منسجماً متناسقاً سلساً في اللسان لا يوجد فيه تنافر كأن يأتي حرف مثلاً من حروف الحلق ثم يتبعه حرف آخر من حروف الحلق ويليه حروف آخر أيضاً من حروف الحلق فيصعب على الإنسان أن يلفظ الكلمة.

فمثلاً عندما تقول «كتاب» تكون سلسة فصيحة بينما لو قلت «الهُعْجع» فيصعب لفظه ويكاد الإنسان أن يغص في بلعومه والعرب في الجزيرة العربية يقصدون بـ«الهُعْجع» هو النبات الصحراوي الذي تأكله الإبل، فمثل هذه الكلمة صعبة النطق وليست بليغة ولا يتوفر فيها عنصر الفصاحة وإن كانت الكلمة عربية ولكن لا يتوفر فيها عنصر البلاغة.

---

(1) المائدة،83.

من عناصر فصاحة الكلمة أن لا توجد فيها غرابة وإنما تكون من الكلمات المألوفة لدى الناس، حيث أنّ هناك كلمات غريبة يتشتت الذهن فيها ليفكر ويعرف ماذا يريد المتكلم من هذه الكلمة.

أيضاً أن لا يكون مخالفاً للقياس اللغوي المستنبط من استقراء اللغة العربية، طبعاً هذا لا يكون في كلام الباري تبارك وتعالى وكذلك لا يصح في كلام العرب الأوائل لأن القياس اللغوي متأخر عن وضع القوانين والقواعد والأسس، بمعنى أنّ القواعد تتبع النصوص وليس النصوص تتبع القواعد حيث أنّ القواعد مستنبطة من الكلام العربي.

ويذكر الشيخ الطوسي في تفسيره أنّه لو شككنا في نبوّته فهل نشك في عروبته ؟ وكيف بكلام الباري تبارك وتعالى ؟ حيث أنّه قمة في الفصاحة.

ذُكر في التنافر وجوه مختلفة أي كيف تتنافر الكلمة ؟ وكيف لا تتنافر الكلمة ؟ فربما قد تأتي كلمات حادة ذات وقع كبير ولكن بالبلاغة أيضاً لها جمال، وهناك قضية ذوقية في مسألة تنافر الحروف في الكلمة، وليس قرب المخارج وبعدها هو الأساس وإنما يتدخل فيه أمور أخرى.

أما الفصاحة في الكلام، فباعتبار أن الكلام يتكون من عدة كلمات، وجملة يصح السكوت عليها فمثلاً لو قلتَ«زيدٌ ثيابُه» وتسكت فالسامع ينتظر منك جوابه حيث أن الكلام ناقص فإذا قلتَ «زيدٌ ثيابُه نظيفة» فهذا الكلام يصح السكوت عليه. فكما أن الكلمة الفصيحة لها شروط كذلك الكلام له شروط أن يكون فصيحاً.

إنّ العنصر الأول في فصاحة الكلام هو خلوصه من ضعف التأليف وأن يكون تأليف الكلمات وترابطها قوية منسجمة، غير متفكك وضعيف.

وكذلك أن لا يؤتى بالتعقيد في الكلمات ففصاحة الكلام من شروطه أن لا يكون معقداً، أي أنّ الجملة أو العبارة لابد أن تخلو من التعقيد ولابد أن يتوفر فيها عنصر البساطة، وهذا ما يُعرف بالسهل الممتنع أي أنّ كلماتها سهلة وبسيطة ولكن من الصعب تركيبها، فعندما تسمعها تألف الكلمات وتكون بسيطة ولكن عندما تريد أن تؤلف لا تستطيع ذلك.

كان هذا شروط الكلام مجموعاً وكذلك نفس شروط فصاحة الكلمة لابد أن تتوفر ضمن شروط فصاحة الكلام.

التعقيد في الكلام قد يحصل بسبب خلل في نظم الكلام، ومعنى ذلك أن نقدّم ما من حقّه التأخير وأن نؤخر ما من حقّه التقديم، فمثلاً لابد أن يقدّم المفعول به فيكون أفصح وإذا تقدّم الفاعل يحصل الخلل في نظم الكلام.

أحياناً تكون هناك فاصلة كبيرة بين المعنى اللغوي وبين المعنى الكنائي، فهو يريد أن يكني بشيء فيأتي بمعنى لغوي لا يستوعب هذه الكناية، أي يكون جداً بعيد أن يتناول الذهن ذلك المعنى المقصود، فهذا الكلام الذي استعمله فيه درجة من التعقيد أن الذهن لا يتناول الشيء الذي يخفيه، وبمعنى آخر لا تتناول الكناية المقصود من هذا الكلام فيحصل تعقيد بالكلام بينما المفروض أن يكون اللفظ عندما يريد الانسان أن يتمعن فيه سهلاً وغير معقد.

إنّ الأمور التي تنظم الكلام هي القواعد النحوية فهي التي تتكفل ببيان تنظيم الكلام من الناحية اللغوية، فعلم النحو وظيفته أن يبين هذا الكلام سليماً خالٍ من الخلل من حيث ما يجب فيه التقديم أو التأخير.

إن علم البيان هو الذي يتكفل ببيان الخلل في التعقيد، فانتقال الذهن من الكلام إلى المعنى الكنائي أو المعنى المجازي أو التشبيه فالّذي يبيّن الخلل في هذا الانتقال هو علم البيان، فهذا العلم من هذه الناحية يتعلق بالفصاحة، فلا يصح الكلام عن علم المعاني حيث أنّه يتعلق بالبلاغة بينما علم البيان يبيّن الخلل في انتقال الذهن من الألفاظ إلى المعاني المقصودة.

كما يفسّر علم البيان التعقيد في هذا الانتقال، فهناك انتقال يسير وسهل فينتقل الكلام إلى المعنى المقصود، وهناك انتقال معقد فهذا النوع من الانتقال لا يكون فيه الكلام فصيحاً.

إن الانتقال السهل البسيط الذي لا يعاني فيه الذهن من عقبات للانتقال إلى المعنى المقصود هذا الكلام يُسمى فصيحاً، وعليه فمن شروط الكلام الفصيح أن لا يكون فيه خلل في انتقال الذهن إلى المعنى المقصود.

وانطلاقاً من هذا الانتقال ودرجات الانتقال وسهولة الانتقال تتكون لدينا مراتب ودرجات في الفصاحة.

هناك قضية لابد من الوقوف عليها، أنّ في المنطق دلالة مطابقية وهناك دلالة التزامية. والدلالة المطابقية هي دلالة اللفظ على تمام المعنى لا يزيد ولا ينقص فمثلاً كلمة «إنسان» تدل على الإنسان ولكن هناك بعض الكلمات تُطلق ولا يراد بها تمام المعنى وإنما يراد منها ما يلازم اللفظ من المعنى المقصود فمثلاً أنت تنطق كلمة «حاتم »ولا تريد به نفس حاتم الطائي الذي عاش في الجاهلية وإنما تريد أن تصف هذا الإنسان بأنه حاتم لأنّه كريم لملازمة الكرم لحاتم الطائي.

إنّ هذا المعنى الالتزامي عندما يُطلق في الكناية فتذكر هذا اللفظ بالمعنى الالتزامي أي باللزوم وليس بالمطابقة، فإذا كانت بالمطابقة فلا توجد هناك درجات حيث ينصرف الذهن من هذا اللفظ إلى المعنى الذي يطابقه تمام المعنى فلا يوجد تفاوت ودرجات، أما انتقال الذهن إلى المعنى اللزومي أي ما يلازم هذا اللفظ من المعاني ففيه درجات ولذلك تفاوت الدرجات تعطي قوة الفصاحة في الكلام.

مثال ذلك هناك عدة عبارات تعبّر عن الكرم فبإمكاننا أن نقول «زيدٌ كثير الرماد»«زيد مهزول الفصيل» والفصيل صغير الناقة فهو هزيل إما لكثرة نقل الماء للضيوف فتجد هناك درجات في انتقال الذهن إلى المعنى اللزومي، فهل هذا الانتقال سهل أم معقد ؟

إن علم البيان يتكفل بهذا ويبيّن هل هناك خلل أم لا، فإذا خلص الكلام من الخلل كان فصيحاً ودرجة هذه الفصاحة تعتمد على خلو الكلام من التعقيد.

بعد أن انتهينا من الكلام الفصيح من حيث تكفل علم النحو في بيان الخلل في النظم وكذلك علم البيان الذي يتكفل بيان الخلل في تعقيد الكلام، ننتقل إلى موضوع البلاغة.

المطلب الثاني: تعريف البلاغة

إنّ التعريف الشائع للبلاغة هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ونقصد بالكلام هو ما يصحّ السكوت عليه كالجملة الخبرية. هناك غرض وهدف يدعو المتكلم إلى الكلام، فهذا الهدف يقصده المتكلم وله خصوصية معينة، فهل أنّ كلامه سوف يطابق مقصوده أم لا ؟

إذا طابق الكلام مقصود المتكلم تمام المطابقة ووفق الحال – ما يقتضيه الوضع – فمثلاً المخاطب إنسان نبيه وذكي ولديه معلومات جداً كثيرة فمعنى ذلك إن المخاطب لا يحتاج إلى الإسهاب في الكلام فإذا تكلّم فيأتي بكلام مختصر فيكون مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

إذا تحدثت معه بكلام مفصل وتشرح له فهنا لا يكون الكلام بليغاً لأنّك أطنبت حيث يقتضي الايجاز، فإذا كان الإنسان ليس سريع البديهة ولا توجد لديه معلومات كافية فيحتاج إلى التوضيح والاسهاب فلم تكن بليغاً في كلامك لأنّك استعملت له الإيجاز في موطن ومقام يحتاج إلى أن تُطنب وأن تسهب.

وأيضاً إنسان منكر للخبر، فمثلاً إنسان يعلم بأنّ أخاه قد سافر وتخبره بأنه رجع من السفر، فينكر كيف أنّه سافر وعاد في فترة قليلة، فهنا يحتاج المنكر للخبر منك التوكيد فإذا خلا كلامكَ من التوكيد كالقسم أو استعمال «أنّ» أو باللام المؤكدة أو بتكرار العبارة لم يكن كلامكَ بليغاً، لماذا ؟ لأنّه لم يطابق مقتضى الحال، فكان يجب أن يكون لكلامكَ توكيد ومطابقاً لمقتضى الحال، وأما إذا قلتَ له «إنّ أخاك رجع من السفر» أو «والله إنّ أخاك عاد من السفر». فيكون بليغاً .

لذلك تجد أنّ القرآن الكريم عندما يخاطب الكفار المنكرين للنبوة والبعث فيخاطبهم بأسلوب التوكيد، حيث قال تعالى: **(وَيَستَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُل إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعجِزِينَ)**[1]، فاستعمل القسم **(إِي وَرَبِّي)** وكذلك استعمل «إنّ» واللام **(إِنَّهُ لَحَقٌّ)**.

أما إذا كان المخاطب مسلماً لما تقول فلا يحتاج إلى قسم أو التأكيد، فإذا أكدت واستعملت التوكيد لم يكن بليغاً ولذلك فإن الباري تبارك وتعالى عندما يخاطب المؤمنين في قضية الصيام يقول: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ)**[2]، فتجد أن الآية المباركة خالية من التوكيد لأنّ مقتضى الحال لا يحتاج إلى تأكيد وذلك لأنّ المخاطب مؤمن، والمؤمن قبل أن يكون مؤمناً فهو مسلم ومسلّم لكل ما يقول به الله والرسول (ص) فهذا التسليم يقتضي عدم الحاجة إلى توكيد.

---

(1) يونس،53.
(2) البقرة،183.

المطلب الثالث: اتقان المعاني وسمو المضامين

كان ذلك تعريف للبلاغة ولكننا لا نكتفي بهذا التعريف حيث أنّه لابد من توفر عناصر أخرى تشترك في إعطاء سر الاعجاز البلاغي.

للبلاغة عمادان أحدهما مطابقة الكلام لمقتضى الحال والثاني فصاحة الكلام وهو ما تحدثنا عنه سابقاً من حيث فصاحة الكلمة وعناصر الفصاحة. ولكن هل نكتفي بوجود هاتين الدعامتين أم لا ؟لا، بل لابد من وجود ركن آخر يضاف إلى هاتين الدعامتين وهو اتقان المعاني وسمو المضامين.ونقصد باتقان المعاني وسمو المضامين أنّ الكلام عندما يكون بليغاً أي مطابقاً لمقتضى الحال يكون فصيحاً في الكلمة وفي الكلام، ولكن هناك المعاني التي يطرقها المتكلم، فقد تكون هذه المعاني وضيعة أو خسيسة أو تافهة أو قد تكون هذه المعاني ذا رفعة وسمو ومحتواها بغاية العظمة وفي غاية الأهمية.

فالكلام وإن كان بليغاً ومطابقاً لمقتضى الحال وإن كانت الكلمات المستعملة فصيحة لكنها لا تصل إلى درجة سر الإعجاز وذلك لأنّ هذين الركنيين يعوزهما الركن الثالث وهو أن يكون هناك سمو في المعاني والمضامين، فيجب أن تكون هذه المعاني رفيعة وعالية.

فالمعاني كلما كانت من الأهمية بمكان كانت بغاية السمو، فالإنسان عندما يهتم بذكر موضوع ذات أهمية غير أن يهتم بوصف الطعام أو وصف الخيل أو وصف الليل وما شاكل ذلك – وإن كانت الكلمات بليغة وفصيحة والكلام بليغ وفصيح ولكن المضمون ليس مهماً – بينما الإسلام يتحدث عن مصير الإنسان وحياته بعد الموت وعلاقته بخالقه فهي مضامين جداً عالية.

إذاً لابد من اشتراط الدعامة الثالثة وهي اتقان المعاني والمضامين سامية ورفيعة، وإلا لن يكون الكلام فيه السر والاعجاز ولا يكون في مستوى البلاغة، لأن البلاغة لها طرفان: طرف أعلى وطرف لا يبلغ هذا الحد من العلو فالطرف الأعلى هو حد الإعجاز، فالقصائد بليغة والمعلقات بليغة والقرآن الكريم أيضاً بليغ ولكن هذه البلاغة لها درجات وهو أن يبلغ الكلام في بلاغة أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته وهو الحد الأعلى للبلاغة. ولكن لهاذين الطرفين درجات ومراتب.

فعلم البلاغة تغيّر بإضافة هذا الركن (اتقان المعاني وسمو المضامين) وهذا ما فعله جلّ المتأخرين والمحدثين إلى الركنين السابقين (مطابقة الكلام لمقتضى الحال والفصاحة) حيث أضافوا الركن الجديد وهو اتقان المعاني وسمو المضامين فعرّفوا البلاغة بما يأتي: «تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة: لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والاشخاص الذين يخاطبون والبلاغة مأخوذة من قولهم، بلغت الغاية إذا انتهيت اليها»[1]. بالنسبة للقرآن الكريم هناك قضية مهمة جداً لابد من تأكيدها – وقد أشرنا إليها سابقاً بشكل سريع – وهي أن البلغاء قد اشترطوا في الكلام البليغ الذي يكون مطابقاً لمقتضى الحال وفصيحاً، أن يكون غير مخالفة للقياس اللغوي سواء كان من الناحية النحوية أو من الناحية اللغوية سواء كان بالكلام أو بالكلمة المفردة.

نقول بأن القرآن الكريم لا ننظر إليه ونبحث فيه من هذه الناحية لأن القرآن الكريم كلام عربي ونزل في عصر الاحتجاج أي أن النحويين واللغويين يحتجون بالقرآن الكريم وبمَن هو بعد نزول القرآن الكريم كالقصائد الشعرية والخطب وامتد هذا إلى القرن الرابع الهجري حيث بدأ الاختلاط بين الأعاجم (غير العرب) من الترك والفرس والروم، وعندما خُشي من اللحن فقد بدأ الكلام العربي يدخله كلام غير عربي وبدأ النظم – من الناحية النحوية كالتأنيث والتذكير والمثنى والجمع – يدخل عليه كلمات غير عربية ولا تطابق القواعد النحوية.

وفترة عصر الاحتجاج أي قبل القرن الرابع الهجري يصح الاحتجاج بها ومنها تُستنبط القواعد، فلا تتبع نصوص القرآن للقواعد وإن القواعد النحوية هي التي تتبع نصوص القرآن الكريم. وبعد القرن الرابع الهجري إلى الآن لابد من الكلام أن يتبع القواعد النحوية لأنه قدفشى في اللغة العربية اللحن وأصبح الكلام في أعمه الأغلب ليس بليغاً، حيث دخلت اللهجات العامية واللغة دخلتها ما شوّه جمالها ونظافة سلاقتها.

---

(1) الهاشمي، السيد أحمد: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، الطبعة الأولى، أميريان، قم، 2009م. ص 31.

المطلب الرابع: بداعة الأسلوب ورقيه

هناك ركن رابع لابد أن نضيفه في سر الاعجاز البلاغي للقرآن الكريم، لا يوجد في هذه الأركان الثلاث بداعة الأسلوب ورقيه، حيث أن أسلوب القرآن الكريم لم يُعهد من قبل ويختلف عن الأسلوب الشعري وعن النثر، فلا هو كشعر العرب فيه قوافي وأوزان، فهو يختلف عن الشعر سجعه ورجزه وبحوره.

إنّ هذا الأسلوب الخارق الجديد فيه سر الاعجاز، حيث أن الكلام العربي خالٍ من بداعة الأسلوب ورقيّه، فقد خرق القرآن الكريم العادة في الأسلوب فهو ليس بالنثر العربي المألوف فآيات القرآن الكريم انفردت في الأسلوب فهو بديع وجديد ولم يكن من قبل، وهو أيضاً راقٍ وعالٍ فمهما بلغت البلاغة العربية من الناس أجمع لا تصل إلى رقي القرآن الكريم وهذا هو معنى سر الاعجاز في البلاغة.

فالقرآن الكريم قد تفرّد في أسلوبه، فهذا العنصر مهم جداً في كشف الاعجاز البلاغي للقرآن الكريم. ونذكر الآن العناصر الأربع بشيء من التفصيل مع الأمثلة من الآيات المباركة.

أولاً: فصاحة ألفاظه وجمال عباراته

إنّ الفصاحة حسب ما «يقول الإمام يحيى بن حمزة العلوي: إنّ الفصاحة راجعة إلى الألفاظ والبلاغة راجعة إلى المعاني »[(1)]،واشترط في الفصاحة أن تكون الكلمات عذبة سلسة ومألوفة الاستعمال، فعندما يستمع المستمع الكلمات يجد فيها عذوبة في الاستماع وليس لها صدى وقوة وحدة في الاستماع، وذلك لسهولتها في النطق لينة عذبة. إضافة إلى ذلك ألا تكون وحشية وغريبة بل مألوفة الاستعمال سواء للناطق أو السامع، وهذا الأمر يتم معرفته عن طريق فصاحة الذوق السليم.

ويضربون مثالاً على ذلك فهناك كلمات عربية فصيحة ولكن أحياناً تكون صعبة مثل «كلمة مُزْنَة و دَيْمَةحسنة يستلذها السمع. وإن لفظة البُعاق قبيحة يكرهها السمع. وهذه اللفظات الثلاث من صفة المطر وهي تدل على معنى واحد. ومع هذا فإنك ترى لفظتي المرنة والديمة وما جرى مجراهما

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 268.

مألوفتي الاستعمال وترى لفظ البعاق وما جرى مجراه متروكا لايستعمل. وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو من ذوقه غير ذوق سليم»[1].

فعندما يستمع الإنسان إلى صوت البلبل ويستمع إلى صوت الغراب فإنّ صاحب الذوق السليم يفضّل أن يستمع إلى صوت البلبل وعذوبته وسلاسته ويألفه ويحب أن تُعاد عليه مرة أخرى، أما صوت الغراب أو صوت الحمير فإنّه ينفر السمع وكذلك تنفر النفس من استماع هذه الأصوات. فهناك فرق بالفصاحة بين الألفاظ العربية التي تصك الأذان وتكاد أن تمزق طبلة الأذن من حدتها وشدتها ويصعب أيضاً النطق بها، هناك فرق بين أن ينطق الإنسان كلمة «البُعاق» بينما عندما تقول كلمة «دَيمَة» ليست صعبة في النطق وأيضاً بالاستماع تكون عذبة وتكون كذلك مألوفة لدى السامع، فلم يألف كثير من الناس كلمة «البُعاق» فهي صعبة على الناطق وأيضاً ليست مألوفة لدى المستمع.

إذاً الفصاحة تخص الألفاظ فلابد أن تكون الكلمات فصيحة بمعنى أنها سهلة اللفظ ليّنة النطق سهلة وعذبة الاستماع، لذلك لابد أن تتلائم الحروف في الكلمة ولابد أن تتلائم الكلمات في العبارة. أي أنّ هناك نوعين من التلائم في الفصاحة وهذا ما يخص اللفظ أن تكون حروف الكلمة متلائمة وأن تكون كلمات العبارة أيضاً متلائمة.

وكما ذكرنا في علم الأصوات أنّ هناك حروفاً تصدر من الحلق التي هي أبعد نقطة بالنطق وهناك حروف شفوية، فعندما يكون تباعد شديد بين الحروف يصعب النطق وكذلك الحروف المتقاربة جداً كالحاح والخاء والهاء فتجد صعوبة في أن تجمع بين هذه الأحرف فإن من الصعوبة النطق بالحروف المتقاربة بالمخرج وكذلك الحروف المتباعدة بالمخرج.

وعليه فإنّ فصاحة الكلمة لابد أن تراعى فيها أن تكون حروف الكلمة لا هي متقاربة جداً في المخرج ولا متباعدة، هذا من حيث أن تكون الكلمة سهلة النطق وعذبة بالاستماع، ولكن لابد أن تكون الكلمات

---

(1) الهاشمي، أحمد: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى، مصر 1969. ج1/ ص 31.

متآلفة.نأتي الآن بأمثلة على هذا الكلام، فنقرأ بيتين من الشعر، أحدهما فيه تنافر بالكلمات وتنافر بالحروف، والبيت الآخر فيه فصاحة بالألفاظ.

البيت الأول الذي تظهر فيه الكلمات متنافرة وحروف الكلمة متقاربة في المخرج هو قول الشاعر:

وقَبرُ حَربٍ بمكانٍ قفر ولَيسَ قُربَ قَبرِ حَربٍ قَبرُ

فهذه الكلمات فيها حرف القاف متكرر في عدة أماكن، فهي متنافرة حيث أنّه لا يوجد فيها سلاسة في النطق، حتى أنّه يُقال في هذا البيت أنَّ أحداً لا يستطيع أن يُنشدَه ثلاث مرّات متّصلة ولا يُتَعتِع فيه، وكلّ ما هو صعب بالنطق فإنّه يصعب استماعه ويكون ثقيلاً على اذن المستمع. بينما البيت الآخر الذي تظهر فيه الكلمات متآلفة هو قول الشاعر:

رمتني وستر الله بيني وبينها عـــشـــيـــة آرام الكـــنـــاس رميم

فهنا تجد عذوبة الكلمات وتلائمها في تحقق الفصاحة. ومن هذه الناحية «يقول الإمام يحيى بن حمزة في شأن تركيب مفردات الألفاظ العربية، الّذي له دور كبير في فصاحة الكلام: ولا بُدَّ فيه من مراعاة أمرين: أمّا أولاً: فأن تكون كلّ كلمة منظومة مع ما يشاكلها ويماثلها، كما يكون في نظام العقد، فإنّه إنّما يحسن إذا كان كل خرزة مؤتلفة مع ما يكون مشاكلاً لها. لأنّه إذا حصل على هذه الهيئة كان له وقع في النفوس وحسنُ منظر في رأي العين.

أمّا ثانياً: فإذا كانت مؤتلفة، فلا بدّ أن يقصد ما وضع لها بعد إحراز تركيبها»[1].

ويعني بذلك إذا توفر الشرط الأول فهذه الجملة يجب أن توضع في مكانها الصحيح كما أن سوار المرأة لا يمكن وضعه على الأذن فلا يُكسب المرأة جمالاً.

فلكل من هذه المعاني المؤتلفة من حيث الكلمات والحروف أيضاً لها موضع فلا تقدم عبارة على أخرى في حين يجب تأخيرها فيجب أن تكون العبارات موضوعة بشكل متناسق فحينئذ يكون الكلام جميلاً عذباً سهلاً بالنطق وفي الاستماع، يقول الإمام يحيى: «والمثال الكاشف عمّا

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 269.

ذكرناه، العقد المنظوم من اللآتي ونفائس الأحجار، فإنّه لا يحسن إلاّ إذا ألّف تأليفاً بديعاً، بحيث يجعل كل شيء من تلك الأحجار مع ما يلائمه. ثم إذا حصل ذلك التركيب على الوجه الّذي ذكرناه، فلا بدّ من مطابقته لما وضع له، بأن يجعل الإكليل على الرأس، والطَوْق في العنق، والشنف في الأذن، ولو ألّف غير ذلك التأليف، فلم يجعل كل شيء في موضعه، بَطَلَ ذلك الحُسن. وزال ذلك الرونق»[1].

نأخذ الآن أمثلة من الكلمات القرآنية والآيات الكريمة حتى نعرف جمال الكلمات من حيث الفصاحة وعذوبة الكلمات ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: **(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ)**[2]، وفي هذه الآية تميّز عن كلام البشر ولا يشتبه ذو الذوق السليم بتمييز هذه الآية عن كلام البشر لأنّ فيها فصاحة في أبنيتها سواء في حروف الكلمات أو في تآلف الكلمات ومشاكلتها أو في عذوبة تركيبها، فلا يجد الإنسان صعوبة في النطق ولا يجد السمع صعوبة باستلام هذه الكلمات.

لو أردنا تحليل هذه الكلمات فنلاحظ أنها سهلة النطق ولا يوجد فيها شيء وحشي (غريب) غير مألوف لدى السامع، وكذلك لا يوجد في الكلمات صعوبة في النطق فلا يوجد فيها تقارب بالمخرج ولا تباعد، فكلماتها سهلة وعذبة وليّنة النطق وسلسة في صيغتها، فإنّ الله تبارك وتعالى استعمل كلمة **(الجَوَارِ)** وهي السفن (الفُلك) التي تجري في البحر فلم يستعمل كلمة «الفُلك»لأنها لا تعني أنها تجري بينما كلمة **(الجَوَارِ)** تعطي معنى الحركة فحرّكة الذهاب والأياب وأعطت الجملة حركة وحيوية، والجواري تجري عبر الريح فهو الذي يدفع السفن إلى الحركة، والريح أرق الأشياء وألطفها فحرّك ما هو ثقيل من السفن بما هو رقيق وهو الريح وهذا من بداعة البلاغة.

أيضاً البحر فهناك عدة ألفاظ للبحر فيمكن ذكر«الطمطام» أو «العُباب» ولكن القرآن الكريم لم يستعمل هذه الكلمات الشديدة والغريبة بينما جاء بكلمة سهلة وليّنة وهي **(البَحر)** فهي سلسة وسهلة في النطق وأجمل من باقي الكلمات المرادفة لها.

---

(1) المصدر السابق، ص 269.

(2) الشورى،32.

وقال تعالى: **(كَالأَعلامِ)** ولم يقل «كالروابي»، «كالآكام» لأن «الأعلام» هو الشيء المرتفع كالجبل، فلماذا آثر تعالى هذه الكلمة بدلاً من «الروابي» و«الآكام» ؟

لقد استعمل تبارك وتعالى الأخف والعذب نطقاً واستماعاً فاستعمل **(الأَعلامِ)** عدولاً عن الثقيل والغريب، فهذه الكلمة أكثر استعمالاً وألفة لدى السامع.

أيضاً من عجائب القرآن الكريم في بلاغته أنّه حينما يستعمل الكلمات أحياناً تجد كلمات ثقيلة وخشنة ولكن عندما يستعملها القرآن في العبارة وفي الآية تصبح عذبة ويستأنسها السامع، فالكلمة الخشنة عندما يستعملها الإنسان تبقى على خشونتها وصعوبتها في النطق وثقلها في النطق، بينما في القرآن الكريم حينما يستعمل هذه الكلمات نتيجة لتأليف هذه الكلمات مع كلمات أخر يكسبها العذوبة وسهولة في النطق وهذا سر من أسرار الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: **(قَالُوا تَاللهِ تَفتَأُ تَذكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَو تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ)**[(1)]، فكلمة **(تَفتَأُ)** ثقيلة في النطق وفيها نبرة باللسان وتخدش الأذن، ولكن عندما تقرأ هذه الكلمة ضمن الآية تعطيك جمالاً آخر فهذه الكلمات **(تَفتَأُ)**، **(تَذكُرُ)**، **(حَرَضاً)**، لو نطقت كل كلمة لوحدها تجد فيها صعوبة بالنطق وثقيلة على السمع ولكنها جاءت في هذه الآية الكريمة واكتسبت اشراقاً وجمالاً وعذوبة وسهولة بالنطق.

أيضاً من بدائع القرآن وغرائبه أنّه يكرّر الحرف الثقيل في آية واحدة، بينما الكلام الآدمي إذا كرّر الحرف الثقيل سوف يكون صعوبة في النطق، بينما يجمع القرآن الكريم الحروف الثقيلة ويكرّرها ومع ذلك تجد جمالاً ولكنه عندما يستعمل الحرف الثقيل يلطّفه بحروف خفيفة بنحو يعلو مجموعه العذوبة والخفة، مكان الثقل والخشونة، ومن هذا النوع قوله سبحانه: **(قِيلَ يَا نُوحُ اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُم ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)**[(2)].

(1) يوسف،85.
(2) هود،48.

«فقد جمعت هذه الآية ثماني عشرة ميماً، منثورة بين كلماتها، حتى كأنّ الآية مشكلة كلّها من ميمات، كما ترى في **(أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُم)**، ومع هذا فإنّك إذ ترتل الآية الكريمة على الوجه الّذي يُرَتَّل به القرآن، لاتحسّ أنّ هناك حرفاً ثقيلاً قد تكرر تكراراً غير مألوف، بل تجد الآية قد توازنت كلماتها وتناغمت مقاطعها في أعدل صورة وأكملها فلا تنافر بين حرف وحرف، ولا تباغض بين كلمة وكلمة.ونظير هذا قوله سبحانه: **(قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)**[1]، ففي الآية عشر ميمات، قد جاءت في مطلعها، ولكنها مع ذلك كأنّها ميم واحدة، ولو أنّ حرفاً آخر دخل في نظم الآية لما انبعث منها هذا الصوت القوي المجلجل، الّذي يقتضيه المقام هنا، ولتفككت أوصال النظم وتخاذلت قواه.

هكذا، إنّ القاف من أثقل الحروف نطقاً، تستنفر طاقة الحلق واللسان ليشتركا في حملها وإخراجها مخرج الأصوات. ومع هذا الثقل، فقد جاءت في بعض الآيات مكررة بصورة مأنوسة لا يلتفت قارؤها إلى التكرار، ولا يجد فيها الجهد والعناء. قال سبحانه: **(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)**[2]، فقد جاء فيها أحد عشر قافاً، لو نثرت هذه القافات في كلام أبسط من هذا، لظهر عليه الثقل، ولكنها جاءت في هذه الآية من غير أن تحدث قلقاً واضطراباً. وإنّما حصل هذا، لكثرة الباءاتواللامات في الآية، فإنّ الباء مخرجها الشفة، فهي أخفّ الحروف، وتليها اللام في الخفة، فإنّ مخرجها اللسان. وقد بلغت عدّة الباء أحد عشر، واللام خمس عشر، فأوجب كثرة دوران هذين الحرفين، تلطيفاً في الثقل الّذي توجبه القاف في كيان الآية»[3].

قس على ذلك كل القرآن الكريم، فهذا التناسق الموجود بين الحروف وبين الكلمات من حيث الفصاحة بكل القرآن الكريم ونحن مجرد

---

(1) آل عمران،26.

(2) المائدة،27.

(3) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 271 – 272.

نذكر بعض الأمثلة من الآيات وإلا فإن القرآن الكريم آياتها كلها تشتمل على فصاحة الكلمة والجملة، ونأخذ آية أخرى وهي قوله تعالى: **(لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَولَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيق)**[1]، وكما تلاحظون وجود عشرة قافات جاءت معها (11) لاماً مخففة معها حتى أنّك لا تسمع ثقلاً في نطق هذه الكلمات التي تحمل هذا الكم الهائل من حرف القاف.

«إنّ أفصح كلام الإمام علي بن أبي طالب (ع) الّذي أصفقت جهابذة الأدب على أنّه فارس ميدان البيان، وبطل حلبته قوله في وصف الإنسان: **أمْ هذا الّذي أنشأه في ظُلُماتِ الأرحام وشُغُف الأستار، نُطفَةَ دهاقاً، وعَلَقَةً محاقاً، وجنيناً، وراضعاً، ووليداً، ويافعاً. ثم منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً، ويُقصِّرَ مُزدجراً. حتى إذا قام اعتدالُه، واستوى مثالُه، نَفَرَ مُسْتكبراً، وخَبَط سادِراً، ماتحاً في غَرْبِ هواه، كادحاً سعياً لدُنياه، في لذات طَرَبِه، وبَذوات أرَبِه**[2].

فإنّ هذه القطعة من خطبه عليه السَّلام سبيكة مرصّعة بيواقيت الكلم، ومعالي معاني الحكم، معدودة من مدهشات كلامه، وقد توفرت فيها جوامع وجوه الحسن.

ومع ذلك، فأين هي من الكلام الإلهي المعجز، الّذي إذا جعلته إلى جنب هذا الكلام، ظهر بكل وضوح أنّه ليس من كلام البشر،لاحظ قوله تعالى: **(وَاللهُ أخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)**[3]، أو قوله تعالى: **(يَا أيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْب مِنَ البَعْثِ فَإنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَاب ثُمَّ مِنْ نُطْفَة ثُمَّ مِنْ عَلَقَة ثُمَّ مِنْ مُضْغَة مُخَلَّقَة وَغَيْرِ مُخَلَّقَة لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأرْحَامِ مَا نَشَاءُ إلَى أجَل مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلَى أرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْم شَيْئًا وَتَرَى الأرْضَ هَامِدَةً فَإذَا أنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْج بَهِيج* ذَلِكَ بِأنَّ اللهَ**

---

(1) آل عمران،181.
(2) نهج البلاغة، الخطبة: 83.
(3) النحل،78.

هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ)[1].هذا فيما يرجع إلى الدعامة الأولى لإعجاز القرآن»[2].

وإلى هذا أشار النبي الأعظم (ص) في حديثه الشريف في تعريف القرآن حيث قال: «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحل مصدق ومَن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومَن جعله خلفه ساقه إلى النار وهو الدليل يدل على خير سبيل وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل وله ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة»[3].

ثانياً: بلاغة معانيه وسموّ المضامين

ذكرنا في تعريف البلاغة بأنها موافقة المعنى لمقتضى الحال أي متى يختصر ومتى يفصّل، فمقتضى الحال يعني الحال التي يعيشها السامع والحال التي يعيشها المتكلم والعلاقة بينهما، فمراعاة مقتضى الحال هي الأسس الرئيسية للبلاغة، والبلاغة هي إحدى دعائم الاعجاز الأربع.

وإذا تعارض الكلام مع مقتضى الحال فلا يكون الكلام بليغاً، وأما إذا جاء الكلام مطابقاً لمقتضى الحال فيكون بليغاً، وطبعاً مطابقة الكلام لمتقضى الحال فيه درجات أعلاها الكلام الإلهي وما دون الكلام الإلهي درجات أيضاً، فلكل بليغ مهما علت بلاغته هناك مراتب.

لقد اهتمت كتب البلاغة والإعجاز القرآني اهتماماً بالغاً في هذه الناحية وذهب الأكثرون من علماء النظر أن وجه الاعجاز في القرآن الكريم فيه من جهة البلاغة أي أنّه جاء معجزاً من ناحية البلاغة. نعم، انّ في القرآن الكريم اعجازاً علمي وتشريعياً واعجازاً في الاخبار بالمغيبات، ولكن الموجود في كل القرآن وفي كل سور القرآن هو عنصر البلاغة.

---

(1) الحج،5 و6.
(2) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 273.
(3) الكليني، ثقة الإسلام الشيخ محمد بن يعقوب: أصول الكافي، دار الأضواء، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، 1985م. ج2/ ص 599.

عندما نتناول الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم لا يمكن أن تتوفر في هذا التعريف عناصر الاعجاز، واشترطنا كي يكمل هذا التعريف ويتناول عناصر الاعجاز أن يضاف لهذا التعريف أمران:

الأمر الأول: أن تكون المعاني التي تعرض في الكلام سامية والمضامين عالية لأن الكلام المبتذل قد يصاغ بأحلى الحلل وبأجمل الألفاظ فيكون أنيقاً في ظاهره ولكن المتكلم لا يعرف معانٍ سامية ومضامين عالية، فقد تكون المعاني مبتذلة والمضامين ليست رفيعة، حينئذ لا يصح أن يوصف مثل هذا الكلام – وإن كان أنيقاً وبألفاظ عذبة – بالبلاغة.فالهدف من الكلام هو المقصد والمطلوب أيصال المعنى، وليس الهدف هو اللفظ والأناقة لأنّ اللفظ إنما هو وعاء للمعنى ووسيلة لإيصال المعنى. وكذلك علم المعاني فإنّه يتناول القضايا التي يتم فيها مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

الأمر الثاني: بداعة الأسلوب وانفراد القرآن الكريم بأسلوبه وهو معروف لدى كل مَن درس واطلع على أساليب اللغة العربية الماضية من نثر وشعر.ومن هنا عندما نستعرض كلمات مَن عارض القرآن الكريم مثل كلمات مسيلمة الكذاب والعنسي وغيرهما من الذين ذكرناهم سابقاً أنّهم عارضوا القرآن[1] تكون هذه الكلمات خالية من المضامين العالية ككلام مسيلمة حيث أقسم بالطاحنات ويريد أن يعارض القرآن الكريم فقال: «والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً والخابزات خبزا» فلا يوجد في هذا الكلام معاني سامية ولا مضامين عالية بينما حينما نستعرض قوله تعالى: **(بسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ* وَالشَّمسِ وَضُحَاهَا* وَالقمَرِ إذَا تَلاهَا* وَالنَّهَارِ إذَا جَلاهَا* وَاللَّيلِ إذَا يَغشَاهَا* وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا* وَالأَرضِ وَمَا طَحَاهَا* وَنَفسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقوَاهَا* قد أفلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقد خَابَ مَن دَسَّاهَا)**[2]، فهنا وصف لظاهرة كونية، وجاءت هذه الظاهرة في الآية بطريقة متسقة، وبعد أن يقسم بهذه الأقسام المتسقة مقدمة لفلاح النفس، فأين هذا المضمون العالي، ويعلق عليه بعض بقوله:«فأين هذه المفاهيم الساقطة السوقية الركيكة الفاقدة لأيّة قيمة، من المعاني العالية السامية

(1) راجع الصفحات 31- 39 من هذه الملزمة.
(2) الضحى،1 – 10.

الواردة في قوله سبحانه: **(وَالعَادِيَاتِ ضَبْحاً* فَالْمُورِيَاتِ قدْحاً* فَالمُغِيرَاتِ صُبْحاً)**[1]»[2].

إن التعريف الصحيح للبلاغة لابد أن يكون محتوياً على الركنين الآخرين وهما: الأول مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

الثاني: سمو المعاني وعلو المضامين. فلذلك عرّفت البلاغة بأنها تأدية المعنى بعبارة صحيحة فصيحة مع ملائمة الموطن الذي يُقال فيه.

1- سورة الكوثر

ونذكر هنا مثالاً في مطابقة الكلام لمقتضى الحال على أقصر سورة في القرآن الكريم ألا وهي سورة الكوثر حيث قال تبارك وتعالى: **(بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ* إِنَّا أعطينَاكَ الكَوثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانحَرَ* إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبتَرُ)**.

«روى المفسرون أنّ العاص بن وائل السهمي رأى رسول الله (ص) يخرج من المسجد، فالتقيا عند باب بني سهم، وتحدّثا، وأُناس من صناديد قريش جلوس في المسجد، فقالوا: مَن الّذي كنت تتحدث معه. قال: ذلك الأبتر، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله وهو من خديجة، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبتر، فسمته قريش عند موت ابنه أبتر، ومبتوراً، فأنزل الله سبحانه هذه الآيات.قال الزمخشري، في رسالته حول إعجاز سورة الكوثر: أُنظر، كيف نُظمت النظم الأنيق، ورُتِّبت الترتيب الرشيق، حيث قدّم منها ما يدفع الدعوى ويرفعها، وما يقطع الشبهة ويقلعها **(إِنَّا أعطينَاكَ الكَوثَرَ)**، ثم لِما يَجبُ أنّ يكون عنه مسبَّباً وعليه مترتباً **(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانحَرَ)**، ثم ما هو تتمة الغرض من وقوع العدو في مُغَوّاتِه الّتي حفر، وصَلْيه بحرفناره الّتي سَعَر**(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبتَرُ)**»[3].

هذه هي الحقيقة التي انطبقت تمام الانطباق حيث أنّ الرسول (ص) أعطي الكثرة الكاثرة في الأتباع من المسلمين وكذلك من الذرية عبر ابنته فاطمة الزهراء (ع) سيدة نساء العالمين، فإذا قارنا بين ذرية أهل البيت (ع)

---

(1) العاديات،1 – 3.
(2) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 276.
(3) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 277 – 278.

وذرية أعدائهم فنشاهد بأن ذرية أعدائهم قد انقطعت بينما أهل البيت (ع) مع المحاربة والتقتيل والتشريد فإنّ ذريتهم بكثرة كاثرة لا يضاهيها أي قبيلة من قبائل العالم. وبذلك رفعت هذه الآيات الدعوى التي ادعاها العاص.

كلمة (**الكَوثَرَ**) ذكر المفسرون فيها معانٍ كثيرة فمنهم مَن يقول أنّه نهر في الجنة، ومنهم مَن يقول أنّ الكوثر الذرية الكثيرة، ومنهم مَن يقول أنّ الكوثر المال الكثير، ومنهم مَن يقول أنّ الكوثر الأتباع الكثيرون. والآية تتضمن كل هذه المعاني فنلاحظ أن كلمة واحدة قد تضمنت كل هذه المعاني. إنّ الذي قال بأن الكوثر المال الكثير استدلّ بقوله تعالى: (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانحَر**) باعتبار أن الرسول (ص) عنده المال الكثير فيشكر الله تعالى بنحر الابل. والذي قال بأن الكوثر الذرية الكثيرة قد استدل بقوله تعالى: (**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتَرُ**)، وأنت يا رسول الله صاحب الذرية الكثيرة. والذي قال بأن الكوثر الأتباع الكثيرون فإنّ المسلمين الآن ليسوا بالقلة فهم تقريباً حسب إحصائيات عام 2015 ملياران و90 مليون مسلم حول العالم[1]، ولوجود هذا الكم الهائل من الأتباع فلابد للنبي (ص) أن يصلي شكراً لله تعالى (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانحَر**)، وأما النحر فإن كان المقصود الذبح فمعنى ذلك انحر الابل شكراً لله.

يذكر الشيخ السبحاني نقلاً عن الزمخشري فيقول: «وإليك بيان نكات آياته الثلاث: (**إنَّا**) تأمَّل كيف من أُسند إليه إسداء هذه العطية والموهبة السنية (الكوثر)، هو ملك السموات والأرض، ومالك البسط والقبض. فدلّ بذلك على عظمة المعطي والمُعْطَى، المعلوم أنّه إذا كان المعطي كبيراً، كان العطاء كثيراً. وجمع ضمير المتكلم، فأعلم بذلك عظم الربوبية.

(**أعطَينَاكَ الكَوثَرَ**) استعمل لفظ الماضي مكان المستقبل، مع أنّ الكوثر كما يتناول عطاء العاجلة، يتناول عطاء الآجلة، وذلك لأنّ المُتوقَّع من سيب الكريم، تحققه على وجه القطع والبت. وجاء بالكوثر محذوف الموصوف، لأنّ المثبت ليس فيه ما في المحذوف من فرط الإبهام والشياع. واختار الصفة المؤذنة بإفراط الكثرة، المُبينة عن المعطيات الوافرة،

---

(1) راجع موقع لحظات نيوز (موقع أخباري) **http://www.lahdat-news.com**

وصدّرها باللام لتكون كاملة في إعطاء معنى الكثرة. والمراد من الكوثر، أولاده حسماً للشبهة، وقطعاً لدعوى الخصم.

(فَصَلِّ) عَقَّب إبهامه الكوثر، بالفاء، ليكون دليلاً لمعنى التسبيب، فالعطاء الأكثر، يستلزم الشكر الأوفر.

(لِرَبِّكَ) وقصد بذلك، التعريفَ بدين (العاصي) وأشباهه، ممّن كانت عبادته ونحره لغير إلهه، وبالتالي لتثبيت قدمي رسول الله على صراطه المستقيم وإخلاصه العبادة لوجهه الكريم. وقال: **(لِرَبِّكَ)** ولم يقل "لن"، فصرف الكلام عن لفظ المضمر إلى لفظ المظهر، إظهاراً لكبرياء شأنه، وإنافةً لعزّ سلطانه. ومنه أخذ الخلفاء قولهم: يأمرك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة، وينهاك أمير المؤمنين عن مخالفة الجماعة. وعلّم، بالأمر بالصلاة للرب، أنّ مِنْ حَقِّ العبادة أن يَخُصَّ بها العبادُ ربَّهم ومالكهم، ومن يتولى معايشهم ومهالكهم. وعرّض بخطأ من سفّه نفسه، ونقض لبّه، وعبد مربوباً، وترك عبادة ربّه.

(وَانحَر) أشار بالأمر بالنحر، بعد الأمر بالصلاة، إلى قسمين من العبادات، فالقسم الأول عمل بدني، والصلاة إمامها. والثاني عمل مالي، ونحر البدن سنامُها. ونبّه على ما لرسول الله (ص) من الإختصاص بالصلاة التي جعلت لعينه قُرّة، وبنحر البدن التي كانت همته متطاولة إليها. قال: **(وَانحَر)**، ولم يقل "وانحر له"، رعايةً لفواصل الآيات، وهو أمر مطلوب إذا سيق المتكلم، إليه، بلا تكلّف.

(إنَّ شَانِئَكَ)، عنى بالشانئ: السهمي. وإنمّا ذكره بوصفه لاباسمه، ليتناول كلّ من كان مثل حاله. وأعرب بذلك عن أنّ عدوه لم يقصد بوصفه بالأبتر، الإفصاح بالحق، ولم ينطق إلاّ عن الشنآن الذي هو توأم البغي والحسد، وعن البغضاء التي هي نتيجة الغيظ، فبذلك وسمه بما ينبئ عن المقت الأشدّ، ويدلّ على حنق الخصم الألدّ.

(هُوَ) أقحم الفصل لبيان أنّه المُعَيَّن لهذه النقيصة (الأبتر)، وأنّه المُشَخَّص لهذه الغميصة. **(الأبتَرُ)**عرّف الخبر، ليتمّ له البتر. فسبحان من أعجز فصحاء العرب والعجم، عن الإتيان بمثل هذه السورة على وجازة ألفاظها، مع تحدّيه إيّاهم بذلك، وحرصهم على بطلان أمره، منذ بعث النبي (ص) إلى يومنا هذا. وسبحان من لو أنزل هذه الواحدة وحدها، ولم ينزل ما

قبلها وما بعدها، لكفى بها آية تغمر الأذعان، ومعجزة توجب الإذهان، فكيف بما أنزل من السبع الطوال»[1].

2- سورة الضحى

نذكر سورة أخرى وهي سورة الضحى في قوله تعالى: (**بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ* وَالضُّحَى* وَاللَّيلِ إذَا سَجَى* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى* وَلَلآخِرَةُ خَيرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى* وَلَسَوفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ فَتَرضَى* أَلَم يَجِدكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى* وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغنَى* فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقهَر* وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنهَر* وَأَمَّا بِنِعمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث**).

جرت حكمة الله تبارك وتعالى أن يُنزل وحيه تدريجياً، وقد بيّن الحكمة من هذا الإنزال التدريجي بقوله تعالى: (**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَولا نُزِّلَ عَلَيهِ القُرآنُ جُملَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلنَاهُ تَرتِيلاً**)[2]، فبيّن الحكمة في نزول القرآن بشكل تدريجي ولم يُنزله جملة واحدة والسبب في ذلك هو تثبيت فؤاد الرسول (ص). وكذلك من أسباب تنزيل القرآن منجماً هو ليتسنى للمسلمين أن يحفظوا القرآن الكريم ويستطيعون أن يتدبروا آياته والعمل به، وذلك لأن نزول القرآن جملة واحد سيصعب على المسلمين أن يحفظوه، ولأنّ القرآن الكريم جاء مغيراً لواقعهم الذي هم فيه. كما أنّه كانت هناك فواصل بين نزول بعض القرآن، وبين آيات وأخرى.

والفترة الفاصلة بين نزول الوحي (القرآن الكريم) هي التي أثارت المشركين فقالوا: لو كان هذا الوحي (القرآن) من الله لتتابع ولم ينقطع، أو أن الله قد ودّع محمداً وقلاه فجاءت هذه السورة المباركة (سورة الضحى) رداً على مزاعم المشركين بأن ودّع الله محمداً وقلاه، والقال هو المبغض حيث قال تعالى على لسان أحد أنبيائه (ع): (**قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ القَالِينَ**)[3] وقول رسول الله (ص) لعلي (ع): «يا علي يهلك فيك اثنان محب غال ومبغض قال»[4].

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 278 – 280.
(2) الفرقان، 32.
(3) الشعراء،168.
(4) بحار الأنوار، مصدر سابق،ج26/ ص 297.

أورد الشيخ السبحاني بلاغة هذه الآية فقال: «إنّ في هذه السورة من أنواع البلاغة ما يَبْهَرُ العقول، وفي الدراسة التالية نشير إلى بعض منها.

(وَالضُّحَى* وَاللَّيلِ إذَا سَجَى) الواو في الموضعين للقسم. والضحى، والليل حال السجي، هو المقسم به. وقوله سبحانه فيما يأتي: **(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ)** هو المقسم له، بمعنى جواب القسم. وقد ورد في القرآن الكريم، ثمانية وثلاثون قَسَماً، أفردها إبن القيم بالتصنيف في كتاب أسماه «التبيان في أسماء القرآن». وقد وقع القَسَم فيها على أشياء مختلفة كالملائكة والنبي الأكرم والقرآن والقيامة، والنفس الإنسانية، والقلم، والكتاب والشمس، وضوئها، والليل وغير ذلك. واهتمّ المفسرّون ببيان سرّ القسم بهذه الأمور، ولكنهم غفلوا عن مهمة أُخرى في هذه الأقسام، وهي المناسبة بين المقسم به والمُقسَم له، أي بيان الصلة بين الشيء الّذي وقع الحلف عليه، كالنَّهار والليل، وما رتب عليه من الجواب. وهذا من الأمور المهمة الّتي إذا كشفها المُفَسر، لأدرك أنّ تخصيص شيء معين بالقَسَم في هذا المجال دون غيره، ليس إلاّ لرابطة بينه وبين جوابه، وليس هو أمراً إعتباطياً فاقداً للمناسبة. وإليك البيان في المقام.

إنّ المُقسَم به في آيتي **(وَالضُّحَى)** صورة مادية، وواقع حسيّ يشهد به الناس تألّق الضوء في صحوة النهار، ثم يشهدون من بعده فتور الليل إذا سجى وَسَكَن، يشهدون الحالين معاً في اليوم الواحد دون أن يختل نظام الكون أو يكون في توارد الحالين عليه ما يبعث على إنكار. بل دون أن يخطر على بال أحد، أنّ السماء قد تخلّت عن الأرض، وأسلمتها إلى الظلمة، والوحشة بعد تألّق الضوء في ضحى النهار.

فإذا كان هذا حال الفيض المحسوس، الّذي به حياة البشر، فهكذا حال الفيض المعنوي، فينزل الوحي ويغرق المجتمع في بهاء نوره، ثم يسكن، فلا عجب في أن يجيء بعد أُنس الوحي، وتَجَلّي نوره على النبي الأكرم فترة سكون يفتر فيها الوحي على نحو ما نشهد من الليل الساجي، يوافي بعد الضحى المتألق.

فإذن، القَسَم بالضحى، وباليل إذا سجى، بيان لصورة حسيّة، وواقع مشهود، يمهّد لموقف مماثل لكن غير حسّي ولا مشهود، وهو فتور الوحي بعد إشراقه وتجلّيه.

فعند ذلك، يتجلّى تخصيصهما بالقسم دون غيرهما ممّا ورد في القرآن من الأمور المقسم بها. كما يتّضح أنّ نزول الوحي تدريجاً، ليس دليلاً على أنّه سبحانه ترك نَبِيَّه أو قلاه. وذلك لأنّ فتور الوحي، كنزول الليل بعد الضحى، فكما هو ليس دليلاً على تخلّي السماء عن الأرض، وتسليمها إلى الظلمة، فهكذا نزول الوحي نجوماً، ليس دليلاً على أنّه سبحانه تخلّى عن رسوله، وتركه بين أعدائه أو قلاه.

وبذلك يظهر إتّقان جواب القسم أعني قوله سبحانه: **(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)**.

ومن لطائف ما ورد في الجواب هو أنّه حذف المفعول من قوله: **(وَمَا قَلَى)**، ولم يقل: "قلاكَ". وليس ذلك رعاية للفاصلة، لأنّه عَدَلَ عن رعايتها في آخر سورة الضحى، حيث قال: **(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ* وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ* وَأَمَّا بِنِعمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)** إذ ليس في السورة، حرف الثاء على الإطلاق، وكان بوسعه أن يقول مكان حَدِّث، فَخَبِّر، لتتفق الفواصل على مذهب أصحاب الصنعة. فهذا دليل على أنْ الحذف لوجه آخر، كما أنّ العناية بذكر لفظة«حدّث»، مكان «خَبَر»، لنكتة موجودة في الأولى دون الثانية.والظاهرة أنّ حذف المفعول هو لتحاشي خطابه تعالى حبيبه المصطفى في مقام الإيناس، بقوله: «ما قلاك»، لما في القلي من الطرد، والإبعاد وشدّة البغض وهو في الوقت نفسه أظهر المفعول في «وَدّعك»، إذ ليس فيه شيء يُكْرَه، بل هو يؤذن بالفراق على كُرْه، مع رجاء العود.

(وَلَلآخِرَةُ خَيرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى) إنّ الآخرة إذا قرنت بالأولى، يراد منها اليوم الآخر، كما في قوله سبحانه: **(فَللهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى)**(1). وقوله سبحانه: **(فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى)**(2). ولكن يرجح أن يكون المراد من الأخرة في الآية، هو الغد المرجو من أيام بعثته، لتخصيص كونها خيراً

---

(1) النجم، 25.
(2) النازعات، 25.

في الآية بالنبي الأكرم، حيث قال: (خَيْرٌ لَكَ) فالآية تبشّر بالمستقبل الزاهر للنبي الأكرم، وبهذا يتمّ تأكيد نفي التوديع والقلي، ليذهب عن الأذهان أثر فتور الوحي. والصلة بين هذه الآية وبين ما تقدمها، واضح على هذا البيان، والكلّ كسبيكة واحدة.

(وَلَسَوفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ فَتَرضَى) اللام لتأكيد لزوم العطاء، وأنّه أمر محقَّق. (وسوف) للتراضي. والجمع بين التوكيد مع التسويف الصريح، لبيان أنّه موضع عناية ربّه في أمسه وغده، وأُولاه، وأُخراه. وأمّا العطاء الّذي يحصل به رضا النبي، فغير محدّد بشيء. وليس وراء الرضا مطمح، ولا بعده غاية، ولا حاجة لتحديد هذا الّذي يرضي الرسول، حتى تقلّل من روعة ذاك البيان المعجز الّذي يتجلى سرّه في إطلاقه العام وانتهائه إلى الرضا.

(أَلَم يَجِدكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى* وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغنَى)، هذه الآيات تبث في نفس الرسول الطمأنينة، وتثبت قلبه، بإلفاته إلى ما أسبغه الله عليه في أولاه، من نِعَم: كان يتيماً، فآواه، ووقاه مسكنة اليُتم، وكان ضالاً، فهداه تعالى إلى دين الحق وكان عائلاً فأغناه الله بفضله وكرمه. أفما يكفي هذا ليطمئن كلُّ أحد إلى أنّ الله غير تاركه ولا قاليه وهل تَرَكَه حين كان صبياً يتيماً متعرضاً لما يتعرض له اليتامى من قهر وضياع؟ وهل قلاه حين كان ذا عيلة؟ كلا، لا.

واليتيم مظنة الضياع والقهر، قال سبحانه: **(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ)**[1]. وقد وجد الله محمداً يتيماً عائلاً، فأعفاه سبحانه من تلك الآثار البغيضة، وحفظ جوهره من الآفات الّتي كان معرَّضاً لها بحكم يتمه وعيلته، وبذلك تمّ فيه الإستعداد النفسي لتلقي الرسالة الكبرى، الّتي بعث بها ليقي الناس من المذلّة والضلال.

(فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقهَر* وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنهَر* وَأَمَّا بِنِعمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث) أتى بكلمة: **(فَلا تَقهَر)** مع أنّ في وسعه أن يستخدم كلمة أُخرى، نحو: "فلا تظلم"، "فلا تمنع حقه" وغيرهما، وذلك لأنّ في عبارة: "فلا تقهر"، معنى أعمق وأدق ممّا يفيده ذانك اللفظان ومشابههما، إذ يجوز أن

(1) النساء، 9.

يقع القهر مع إنصاف اليتيم وإعطائه ماله، وعدم التسلّط عليه بالأذى، لأنّ حساسية اليتيم إلى حدّ أنّه يتأثّر بالكلمة العابرة، واللفتة الجارحة من غير قصد. والنبرة المؤلمة بلا تنبه، وإن لم يصحبها تسلّط بالأذى، أو غلبة عل مالِه وحقّه»[1].

3- آيات من سورة الانشراح

ونذكر مثالاً آخر وهو الآية: **(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ* الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ* وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)**[2]، عندما ننظر إلى الآيات المباركة فنجد في كل القرآن الكريم ظاهرة لا يستثنى منها شيء وهو أن الآيات المباركة صادقة صدقاً مطلقاً فهي تصدق على الواقع، أي عندما نأخذ المعنى القرآني ونطابقه على الواقع نجد أنها تنطبق تمام الانطباق.

إنّ الآية في موضع بيان النعم الإلهية على حبيبه المصطفى محمد (ص)، حيث قال تعالى: **(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)** إلى أن يصل إلى قوله تعالى **(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)**، والآية الأخيرة موجزة في حروفها وفي كلماتها كما أنّ كلماتها فصيحة فلا يوجد الوحشي ولا الغريب من الألفاظ ويفهمها الإنسان البسيط غير المتضلع في اللغة العربية بصورة عامة وبالبلاغة بصورة خاصة.

في الآية إيجاز في الكلمات ولكنها تحتوي على معانٍ كبيرة جداً تنطبق على الواقع تمام الانطباق، فهنا يريد الله تبارك وتعالى أن يبيّن في هذه الآية أنّه رفع ذكر رسول الله (ص) وعندما نقارن هذا الرفع لهذا الذكر لجميع مخلوقات الباري تبارك وتعالى نجد في جميع المخلوقات سواء الجن أو الإنس فلا نجد في الإنس من الملوك والأنبياء والأولياء وحتى من المعاصرين في وقتنا الحالي (2016م) قد ارتفع ذكره كما ارتفع ذكر رسول الله محمد (ص).

إنّ النصارى في العالم أكثر من المسلمين والبوذيون أكثر من النصارى وللبوذيين في تأريخهم وعقيدتهم عظماء ورؤساء وملوك من مختلف الطبقات وكذلك فلاسفة وعلماء، فلو استعرضنا كل هؤلاء لا نجد

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 281 – 285.
(2) الانشراح،1 – 4.

لهم ذكراً كما لرسول الله (ص) مع وجود أديان وهم بأعداد هائلة ولكن لعظمائهم ليس عندهم من الذكر كما لرسول الله (ص) فذكره في السماء وذكره في الأرض كما أن ذكره (ص) يتكرر في كل يوم مراراً كما أنّه عندما يُذكر اسمه يصلى عليه وعلى آله. فالآية تنطبق تمام الانطباق على الواقع فلم يرفع الله تعالى ذكر أحد إلا رسول الله (ص) فقال تعالى: **(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)**، فالمعاني من حيث الفصاحة هي بليغة ولا يوجد فيها الوحشي من الكلام وسهولة النطق وتناسق الألفاظ والحروف في الكلمات، وأما من حيث المعنى فهو ينطبق تمام الانطباق.

إن لكل آية في القرآن الكريم عندما تتصفحها وتتمعن وتتدبر في معانيها تجدها صادقة صدقاً مطلقاً فلا يوجد فيها أي شائبة من الشك أو الظن أو الاحتمال وإنما يقينية من حيث الصدق، وهنا قدّم الضمير بحرف الجر **(لَكَ)** على «الذّكر» فأكد هذا المعنى واتبع المفعول به وهو «الذّكر» وهذا هو التوكيد على هذا المعنى، فتقديم ذكر الرسول الخطاب **(لَكَ)** ثم ذكر «الذّكر».

إنّ القرآن الكريم إذا قدّم شيئاً أو أخّر فإنّه يقدّم ذلك تبعاً لمقتضى الحال، إنّ بعض مَن يقرأ الآيات المباركة يتصور أنّ في هذا التقديم والتأخير تفنّن في الكلام ولكن الحقيقة ليس من باب التفنّن في الكلام وإنما من حيث مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

والآن نذكر بعض الآيات المباركة التي نتبيّن فيها من خلال دراستنا لهذه الظاهرة من حيث الفصاحة أن التقدم والتأخر فيه مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فهنا عندنا آيتان كريمتان قوله تعالى: **(وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحنُ نَرزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)**(1)، والاملاق هو الفقر، وكانت عادة الجاهليين قبل الإسلام أنهم يؤدون البنات خشية السبي والعار أو يقتلونهم خشية الفقر، فالله تبارك وتعالى وعدهم بالرزق فقال تعالى: **(نَحنُ نَرزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)**، فلما قدّم هنا كاف الخطاب للآباء **(نَرزُقُكُمْ)** على الرزق للأبناء **(وَإِيَّاهُمْ)** ؟

---

(1) الانعام،151.

بينما في آية أخرى قال تبارك وتعالى: **(وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَق نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم)**[1] فقدم الرزق للأولاد على الآباء، فهل هذا من حيث التفنّن في الكلام أم لمطابقة الكلام لمقتضى الحال ؟

الجواب: إنّ هذا التقديم والتأخير هو لمطابقة الكلام لمقتضى الحال، والسبب في ذلك إنّ في الآية الأولى **(وَلاَ تَقْتُلُوا أَولاَدَكُمْ مِن إِمْلاَق)** معنى ذلك أن الآباء في تلك الحالة هم في حالة فقر ولأنّ الآباء في حالة فقر فوجّه تبارك وتعالى الخطاب أولاً إلى الآباء **(نَحنُ نَرزُقُكُمْ)** وبعدها أخّر الأبناء فلأنّ الآباء فعلاً في حالة فقر فقدّم الآباء على الأبناء. وأما في الآية الثانية فالآباء ليسوا في حالة في فقر **(خَشْيَةَ إِمْلاَق)** تختلف عن **(مِن إِمْلاَق)** حيث أن **(خَشْيَةَ إِمْلاَق)** معناها أن الآباء يعيشون حالة الغنى ولكنهم يخشون الفقر، وهم في حالة الغنى يقتلون الأبناء لذلك قدم الله تبارك وتعالى في هذه الآية الأبناء على الآباء.

وعليه فهذا التقديم ليس من باب التفنّن في الكلام وإنما هو لمطابقة الكلام لمقتضى الحال، فلابد أن نربط بين هذا التقديم والتأخير مع الكلمات القرآنية الأخرى، وهذا هو المقصود من مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وهناك أيضاً آيتان كريمتان تبينان مطابقة الكلام لمقتضى الحال، قوله تبارك وتعالى:**(يَومَ يَفِرُّ المَرءُ مِن أَخِيهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ* لِكُلِّ امرِئٍ مِّنهُم يَومَئِذٍ شَأنٌ يُغنِيهِ)**[2]، والآية الثانية قوله تعالى: **(يَوَدُّ المُجرِمُ لَو يَفتَدِي مِن عَذَابِ يَومِئِذٍ بِبَنِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ* وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤوِيهِ* وَمَن فِي الأَرضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ)**[3].

هاتان الآيتان ذكرت المتعلقين للفرد وكيف أنهم يفروا من هؤلاء يوم القيامة من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وهذا الفرار مقدم فيه الأخ ثم الأم ثم الأب ثم الزوجة ثم الأولاد، ولاشك أن الأولاد أقرب إلى الوالد من الزوجة والأب والأم والأخ فالأولاد بضعة منه وجزء منه فلماذا هؤلاء الذين هم الأعز أخّرهم وقدم في الفرار الأخ ثم الأم ثم الأب ثم الصاحبة

(1) الإسراء،31.
(2) عبس،34 – 37.
(3) المعارج،11 – 14.

وهي الزوجة وأخيراً الأبناء. وأما في الآية الثانية فقد ابتدأ بالأبناء ثم الزوجة ثم الأخ ثم الفصيلة التي تأويه ومَن في الأرض جميعاً.

فالسؤال المطروح لماذا قدّم في الآية الأولى الأخ والأم والأب والزوجة على الأولاد بينما في الآية الثانية قدّم الأولاد على الزوجة والأخ؟ فهل هذا من حيث التفنّن في الكلام أم هذا من مطابقة الكلام لمقتضى الحال؟

الجواب: إن مقتضى الحال يقتضي أن يقدم في الكلام الأخ والأم والأب والزوجة ثم الأبناء في الآية المباركة الأولى، ويقدم الأبناء ثم الزوجة ثم الأخ في الآية الثانية.

والسر في ذلك أن في الآية الأولى هو فرار المرء، حيث أن المرء لا يفرّ من الأعز وإنما يفرّ من العزيز ثم أخيراً يفر من الأعز، لأن العملية عملية فرار **(يَومَ يَفِرُّ المَرءُ مِن أَخِيهِ)**، وأما في الافتداء عندما يريد أن يفدي نفسه من العذاب فيقدّم أعز شيء لكي يفدّيه ثم بعد ذلك يحاول بالفداء ببقية الأعزاء ولذلك قدّم بنيه **(يَوَدُّ المُجرِمُ لَو يَفتَدِي مِن عَذَابِ يَومِئِذٍ بِبَنِيهِ)** لأن المسألة هنا قضية عذاب فيقدّم هذا المجرم أعزّ شيء ليفتدي به من شدّة العذاب.

ففي الآية الأولى هناك فرار أما في الآية الثانية هو تقديم للفداء، فهناك فرق في هذه المسألة، فهذا السياق القرآني وهذا التقديم والتأخير هو مطابق تماماً لمقتضى الحال. «وعليها جرى قول الشاعر:

ألقى الصحيفة كي يُخَفِّفَ رَحْلَهُ والزادَ حتى نَعْلَهُ ألقاها

فإنّ النعل للمسافر الراجل في الصحراء، أعز الأشياء. وبما أنّ الموقف موقف حركة فرار، إبتدأ بالقاء العزيز فالأعز حتى وصل إلى النعلين»[1].

نذكر أيضاً آيتين كريمتين فيها التقديم والتأخير، وهذا يبيّن أنّ القرآن الكريم بأجمعه لو درسنا آياته من الناحية البلاغية ومن حيث العنصر الأول من الفصاحة وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فعندما نقارب التقديم والتأخير نجد أنّ القرآن الكريم كلّه من حيث التقديم والتأخير مطابق

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 287.

لمقتضى الحال ولا يوجد فيه شيء مجرد للتفنّن في الكلام وإنما لمطابقة الكلام لمقتضى الحال وهذا هو جوهر البلاغة وجوهر الفصاحة.

الأية الأولى قوله تعالى: **(لاَ يَستَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ غَيرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأموَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ بِأموَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً)**[1] فهنا بالنسبة للمجاهدين قدّم الأموال على الأنفس بينما في آية أخرى قال تعالى: **(إِنَّ اللهَ اشتَرى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَموَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْـتُـلُونَ وَيُـقْـتَـلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرآنِ)**[2]، وهنا قدّم الأنفس على الأموال مع أنّ في هذه الآية الموضع فيها هو الجهاد أيضاً، فلماذا قدّم في الآية الأولى الأموال على الأنفس وفي الآية الثانية قدّم الأنفس على الأموال ؟

الجواب: بما أن الإنسان المجاهد يبتدىء الجهاد بالعزيز ثم الأعز أي لا يقدم الأعز في الجهاد فالقائد مثلاً في محور القتال لا يتقدم مباشرة فالقائد عندما يريد أن يقدم لا يقدم العمود الفقري للمعسكر وإنما يقدم الجند أي الأقل ثم الأعلى ومثال آخر لو مرض الإنسان فإنّه يبذل المال لكي يحفظ نفسه، فالمال يُبذل لحفظ النفس والعرض، والمال والنفس والعرض يبذلون لحفظ الدين فهناك أمور تقدم وأمور تؤخر ففي الآية المباركة الأولى في حالة الجهاد يقدم الإنسان العزيز ثم الأعز. ولكن في الآية المباركة الثانية **(إِنَّ اللهَ اشتَرى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ)** فالله تعالى هو الذي يشتري من المؤمنين فهل يشتري الأعز أم العزيز، الأولى أن يشتري الأعز فالذي يبيع هنا يجب أن يبيع الأعز ثم العزيز.

في الحالة الأولى جهاد والمؤمن يجاهد فيجاهد بالأموال العزيزة ثم بالأنفس، حيث أن المال عزيز للنفس **(وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبّاً جَمّاً)**[3] فهو يحب ماله ويحب نفسه ولكن محبته لنفسه أكثر من محبته لماله ولذلك هو يضحي

---

(1) النساء،95.
(2) التوبة (براءة)،111.
(3) الفجر،20.

بماله في سبيل نفسه. بينما في الحالة الثانية هي حالة مبايعة حيث أنه هو المشتري فيشتري الأعز وهو النفس ثم العزيز وهو المال.

هذه النماذج التي قدمنا من الآيات المباركة ليست في موضع التفنن في الكلام وإنما لمطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهكذا إذا مررنا بكل الآيات الكريمة.

عندما نتدبر في كلام العرب من شعر ونثر قد نجد بعض الأبيات الشعرية من قصيدة كاملة يكون فيها هذه المطابقة والدرجة العالية من البلاغة وتجد أبيات أخرى لا تتوفر فيها هذه المطابقة من الكلام لمقتضى الحال، فهناك مَن يعتني بالمعنى ويترك المحسنات البديعية ويترك رونق الظاهر والفصاحة وهناك مَن يعتني بالألفاظ وبالرونق ويترك المعاني، فلا تجد مَن يعتني بالأمرين الفصاحة والمعاني إلا النزر اليسير جداً من البلغاء أو الأدباء، بينما القرآن الكريم وكما وصفه الله تبارك وتعالى: **(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ وَلَو كَانَ مِن عِندِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختِلاَفاً كَثِيراً)**(1)، ولكن لأن الآيات من عند الله تعالى فتجد أن في كل الآيات الكريمة مطابقة الكلام لمقتضى الحال بينما إذا استعرضنا الأبيات الشعرية والقصائد تجد في القصيدة بيتين البلاغة العالية وأما بقية القصيدة تجد أن الشاعر يكون مركزاً على الألفاظ تاركاً سمو المعاني أو يركز على سمو المعاني ويترك جمال الألفاظ.

ثالثاً: سمو المعاني

بمعنى أن المعاني تكون عالية فلا يتناول القرآن الكريم المعاني الهزيلة الوضيعة المنحطة وإنما القرآن الكريم يتناول معاني بغاية الأهمية بحيث تمس مصير الإنسان والنظرة إلى الكون، فالقرآن الكريم الكون المحكي وكأنّه لخّص هذا الكون، وكما سوف نبيّن إن شاء الله في المحكم والمتشابه وفي الظاهر والباطن وفي التأويل، كما أن للقرآن الكريم أسراراً في المحكم والمتشابه وأسرار في التأويل قد احتوى كل هذا الكون.

كيف يكون القرآن الكريم تبياناً لكل شيء وهو بألفاظ معدودة (ما يقارب 51 ألف لفظاً) بينما الكون فيه مالا يعلمه إلا الله من الأشياء ؟ فكيف

---

(1) النساء،82.

يكون القرآن الكريم تبياناً لكل شيء ما لم يكن هناك فيه المحكم والمتشابه ومن اعجاز القرآن قضية المحكم والمتشابه ومن أعجازه قضية التأويل ولأنّ للقرآن ظاهراً وباطناً لذلك يحتوي بذلك الباطن والله العالم كم من البطن، فبعض الروايات تصل إلى سبعين بطناً يعني كل هذه البطون من الغيب والتأويل، فكل ذلك يتحدث عن معاني القرآن ولكن هذه المعاني السامية التي هي عنصر من عناصر الفصاحة والبلاغة في القرآن لا يعلمها أي إنسان وإنما الله تعالى قد اختص أهل البيت (ع) ووصفهم بالراسخين في العلم بمعرفة هذه الأمور **(.. وَمَا يَعلَمُ تَأوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّن عِندِ رَبِّنَا..)**[1]، ويتعرض في أول هذه الآية إلى قضية المحكم والمتشابه حيث يقول تبارك وتعالى: **(هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيكَ الكِتَابَ مِنهُ آيَاتٌ مُّحكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِم زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنهُ ابتِغَاء الفِتنَةِ وَابتِغَاء تَأوِيلِهِ ..)**[2]، وفي الرواية الشريفة عن أهل البيت (ع): «نحن الراسخون في العلم»[3]. وكما ورد عن رسول الله (ص) في وصف القرآن الكريم: «.. ظاهره أنيق وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنازل الحكمة ودليل على المعروف لمن عرفه»[4].

عبارة «ظاهره أنيق» يشمل الألفاظ ويشمل الفصاحة فعندما تقرأه سهل وسلس التلاوة فلا توجد فيه صعوبة والكلمات فيه متناسقة وهذا ما تحدثنا عنه سابقاً، وأما القسم الثاني «باطنه عميق» فالمقصود به من حيث المعاني، فالمعاني القرآنية تحمل الآية الكريمة معانٍ كثيرة جداً بلفظ واحد ولكن مَن هو الذي يعلم هذه المعاني الباطنة ؟ هم أهل الذكر والراسخون في العلم.

وقد أشار إلى هذا المعنى الوليد بن المغيرة حينما قال: «إنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمُغْدق». وعندما ننظر في مؤلفات المؤلفين في القصص

---

(1) آل عمران، 7.
(2) آل عمران، 7.
(3) بحار الأنوار، مصدر سابق،ج23/ ص 198.
(4) العياشي، محمد بن مسعود: تفسير العياشي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1991. ج1/ ص 14.

والروايات وفي الخطب والأشعار على مختلف أنواع البحور فلا نجد من الكتاب والخطباء والبلغاء والشعراء إلا نادراً مَن يوفق بين فصاحة اللفظ وسمو المعاني، وإذا وُفّق للتوفيق بين هذين الأمرين فإنّه يوفق بدرجات ولذلك قيل في كلام الإمام أمير المؤمنين علي (ع): «أنّه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق»[1]، حيث أنهّ (ع) قد وفق في جميع خطبه بين فصاحة اللفظ وسمو المعاني.

إن القرآن الكريم هو معجز في جمال الألفاظ وسمو المعاني وعلو المضامين فهو يجمع الحسنيين بأتم وأبلغ صورة يمكن أن يصل إليها الجمال اللفظي والسمو في المعاني.

نجد أنّ القرآن الكريم في دعوته إلى التوحيد ونبذ عبادة الأوثان والأصنام وعبادة الهوى ونبذ الشرك ويدعو إلى الإيمان بالمعاد واليوم الآخر الذي يهم مصير الإنسان وحياته وجوهر وجوده والغاية من وجود الإنسان في هذه الحياة الدنيا، فإنّ له غاية وهو المعاد فهو يهتم بهذه القضية الجوهرية، ويهتم بالقضايا الفلسفية الدقيقة والعميقة التي تخص المبدأ والمعاد وتخص النبوة وهي في الواقع قضايا جوهرية وفي غاية الأهمية وكذلك يتطرق إلى النظام الحياتي للإنسان ويتطرق إلى مفهوم العدالة وكيفية تطبيقها.

إنّ هذه المضامين التي يتطرق إليها القرآن الكريم هي مضامين مهمة ومعاني في غاية الجوهرية وفي غاية الواقعية، وبنفس الوقت الذي يتطرق فيه إلى هذه المواضيع يعرضها بأسلوب جذاب وكلمات فصيحة وجمل وعبارات متناسقة بحيث عندما يقرأها الإنسان بنفس الوقت تكون الكلمات بحروفها مترابطة وضمن الجملة أيضاً مترابطة وتعطي وتوصل وتبلغ المعاني إلى الذهن بسهولة وبعذوبة وبيسر. فيربط ويجمع بين جمال الألفاظ والذي يعبر عنه الحديث الشريف «ظاهره أنيق» وفي ذات الوقت هو يوصل معاني سامية وجوهرية ويقيم عليها الدليل والبرهان.

إنّ هذا هو الاعجاز البلاغي الذي يستند إلى الظاهر الأنيق والباطن العميق، يجمع بينهما في آن واحد. ومن هذه المعاني القيمة التي يتطرق إليها القرآن الكريم وبأسلوب بلاغي في قوله تعالى: **(أم خُلِقُوا مِن غير**

(**1**) بحار الأنوار، مصدر سابق،ج104/ ص 210.

شَيءٍ أم هُمُ الخَالِقُونَ* أم خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأرضَ بَل لا يُوقِنُونَ* أم عِندَهُم خَزَائِنُ رَبِّكَ أم هُمُ المُصَيطِرُونَ)[1].

هذه الاستفهامات الانكارية واستفهام يقيم فيه القرآن الدليل على أنّ المعلول لابدّ له من علّة وأنّ هذه العلّة لا يمكن أن تكون في ذات المعلول فلابد أن تكون العلّة هي خارج من نطاق المعلول لأنّ المعلول قبل وجوده لا شيء، فكيف يكون سبباً لذاته. وأنّ الموجودات لا يمكن أن توجد من لا شيء ولابد أن يكون هناك وجود لمَن أوجدها، فالله تبارك وتعالى يخلق الأشياء لامن شيء، فالله تعالى هو سبب وجود الأشياء.

(أم خُلِقُوا مِن غَيرِ شَيءٍ أم هُمُ الخَالِقُونَ) كيف يخلق المعلول نفسه؟ فهو قبل أن يوجد هو معلول وهو عدم، والعدم لا يؤثر بالوجود فكيف يخلق المعلول نفسه ؟!!

وهذا مستحيل فلابد أن يوجد موجود خارج عن ذات المعلول وذلك الموجود هو الذي وهب الوجود إلى هذا المعلول.

ثم ينتقل إلى قضية أكبر وأبدع وأعظم وهي خلق السماوات والأرض **(أم خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأرضَ بَل لا يُوقِنُونَ)**، فإذا لم يخلقوا أنفسهم وهم محتاجون إلى خالق ليهبهم الوجود فكيف اذاً يخلقوا السماوات والأرض، فهم لا يخلقون أنفسهم ولا يؤثرون في ذاتهم فكيف يؤثرون فيما هو أعظم وهو السماوات والأرض، **(بَل لا يُوقِنُونَ)** ليس عندهم يقين بذلك.

(أم عِندَهُم خَزَائِنُ رَبِّكَ أم هُمُ المُصَيطِرُونَ) فهذه الاستفهامات الانكارية يعرضها القرآن الكريم لاثبات الإمكان وأنّ قضية برهان الإمكان يعرضه بصورة محكمة وموجزة، وليس في الفكر العربي في ذلك الوقت ما يتطرق إلى مثل هذه الموضوعات الفلسفية العميقة، فهو يطرح هذا المضمون العالي والمعنى السامي الرفيع على أناس لم يعرفوا هذه المضامين من قبل، ويعرضها لهم بأعذب ألفاظ وبجمال العبارات وبسمو هذه المعاني.

آيات أخرى نتطرق إليها وهي أيضاً تؤكد العنصر الثاني الذي تُبتنى عليه البلاغة من حيث الفصاحة القرآنية والاعجاز البلاغي من حيث

---

(1) الطور،35 – 37.

الفصاحة القرآنية لأنّ هناك نظريات في وجوه الاعجاز البلاغي، فهناك نظرية الجرجاني ونظرية الباقلاني.

إنّ نظرية الجرجاني ترى أن الوجه أو الأساس الذي تستند إليه البلاغة في القرآن الكريم هو الأسلوب. بينما نظرية الباقلاني فيرى الباقلاني أن الأساس الذي يبنى عليه الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم هو فصاحة الكلمات.

ننتقل الآن إلى آية أخرى تبيّن لنا سمو المعاني التي يتطرق إليها القرآن الكريم، قال تعالى: **(مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعضُهُم عَلَى بَعضٍ سُبحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ)**[1]، فالآية المباركة تنفي الولد لله تبارك وتعالى لأن الذي يلد فهو يتغير ومحتاج ومفتقر والباري تبارك وتعالى غني واجب الوجود لذاته، هو يخلق الأشياء فهو يخلق الولد والوالد والوالدة، ويخلق الولد من غير والد أو والدة فهو تبارك وتعالى يخلق الأشياء من غير ولد.

إنّ هؤلاء الذين احتجّوا على رسول الله (ص) من نصارى نجران حيث جاءوا على رأس وفد يتزعمهم السيد والعاقب، واحتجّوا على رسول الله (ص) أنّك تقول أن عيسى ليس برب فكيف تقول ذلك ؟! وعيسى من غير أب أولم تؤمن بأن عيسى من غير أب ؟ فإذاً هو رب.

القرآن الكريم ردّهم بأسلوب برهاني وحافظ على البلاغة بالقمة من حيث عذوبة الألفاظ وسمو المعاني فتقول الآية المباركة: **(فَمَن حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعدِ مَا جَاءكَ مِنَ العِلمِ فَقُل تَعَالَوا نَدعُ أَبنَاءنَا وَأَبنَاءكُم وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُم وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُم ثُمَّ نَبتَهِل فَنَجعَل لَّعنَةُ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ)**[2]، والآيات السابقة لهذه الآية تتعرض إلى عيسى (ع) فتقول: **(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)**[3]، أي أنتم تقولون بأن عيسى (ع) رب لأنهوليس له أب فكيف بآدم (ع) حيث أنّه ليس له أب ولا له أم فلماذا قلتم في عيسى (ع) هذا ؟!! وآدم (ع) مخلوق وأنتم تؤمنون بأنّه مخلوق والله خالقه قبل أن يُخلق عيسى (ع).

---

(1) المؤمنون،91.
(2) آل عمران، 61.
(3) آل عمران، 59.

فالقرآن الكريم يعرض هذه القضية بأسلوب بلاغي وبنفس الوقت يقيم الدليل والبرهان الذي يُقنع العقل وتطمئن له النفس، فبألفاظ موجزة وعذبة وجميلة وتدخل إلى الأذن وتدخل معانيها إلى القلب، فهذا هو الاعجاز البلاغي الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، فمع قصر العبارات وايجاز العبارات، خالية من الاطناب والاسهاب وبنفس الوقت تحمل استدلالات في القمة فلا يستطيع المقابل أن يقف أمام هذا الاستدلال القاهر.

لذلك في الآيات الأخرى تذكر: **(وَقُل جَاء الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ..)**[1]، **(بَل نَقذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ..)**[2]، فكل هذه التعبيرات تدلل على قوة القرآن الكريم في الاستدلال.

إن الآية تقول: **(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ)**، والله تعالى ليس معه من إله لأنّه بوجود الإلهين يحصل التنازع ويعلو إله على إله أو يحصل الاختلاف في الإرادتين هذا من حيث المعاني بالمعنى البسيط الذي نفهمه، ولكن أيضاً من حيث المعاني الفلسفية أنّ الله تبارك وتعالى واجب الوجود في ذاته وهو صِرف الوجود وصرف الوجود يستحيل أن يُثنى أو يتكرّر فيستحيل أن يكون هناك وجود آخر، لأنّ الوجود الآخر إما أن يكون متميزاً عن الوجود الأول أو لا، فإن تميّز فيكون مركباً من مائز ومن وجود أول، وإن لم يتميز فهو واحد فبالنتيجة لأن الله تعالى وجوده بسيط غير مركب أحدي صمدي فيستحيل فيه التعدد، فيتطرق إلى هذه المسألة بأسلوب بسيط وجميل وجذاب يدخل إلى عقل الفيلسوف ويلج إلى قلب الإنسان البسيط وإلى سمعه وقلبه وعقله ويهيمن عليه.

(وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ) وهذا دليل على أنّ المعلول يستحيل أن تجتمع عليه أكثر من علة لأنّ هذه العلة هي التي أوجدت هذا المعلول فما فائدة العلتين فالمعلول إذا صدر من علة فما محل العلة الثانية فوجودها لا قيمة لها، إنّ الكون إذا خلقه خالق فلا يوجد قيمة لخالق ثاني، ومن الناحية الفلسفية يستحيل وجود علتين لمعلول واحد.

---

(1) الإسراء،81.
(2) الأنبياء،18.

(وَلَعَلا بَعضُهُم عَلَى بَعضٍ) لأنّ لكل واحد له كبرياء وتجبّر وتكبّر فيحصل النزاع وأن يعلو بعضهم على بعض، وهذا أيضاً دليل على نفي وجود إله ثانٍ، بكلمات موجزة يعطيك دليلاً قاطعاً فلسفياً عميقاً.

(سُبحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) إن الله تعالى ينزه عن هذه الصفات التي ينطق بها هؤلاء الذين قالوا أنّ لله ولد أو الذين أشركوا مع الله وجعلوا معه إلهاً غيره، قال تعالى: **(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرضِ هُم يُنشِرُونَ* لَو كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبحَانَ اللهِ رَبِّ العَرشِ عَمَّا يَصِفُونَ)**(1)، فأساس هذا الوجود قضية التوحيد والإيمان بالله تبارك وتعالى، وقضية توحيد الله تبارك وتعالى يعرضها القرآن الكريم ببراهين في غاية الدقة والسبك وبغاية النصوع، فهذا البراهين ناصعة وساطعة.

أيضاً القرآن الكريم يستدل على قضية أخرى وهي قضية المعاد، وأيضاً يقيم الأدلة القاطعة والبراهين الناصعة الساطعة على هذه القضية العقائدية التي تهم صميم وجود الإنسان ومصيره، وهي أن الإنسان بعد الموت لا يفنى ولا ينتهي وإنما تستمر حياته ويعيش في عالم آخر وذلك العالم له قوانين وله مواصفات ويستدل القرآن أن هذا العالم غائب عنّا، والقرآن يقرّبه إليك وكأنّك تعيشه.

طبعاً الاستدلال الذي يسلكه القرآن الكريم يأخذ أبعاداً مختلفة ويأتي بأساليب متعددة لاثبات هذه المضامين فمرة يتكلم عن عموم قدرة الإله تبارك وتعالى وأنّ قدرته عامة تعم الجميع وأن المعاد ممكن، قال تعالى: **(أَوَلَم يَرَوا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ وَلَم يَعيَ بِخَلقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحييَ المَوتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ)**(2)، فالله تعالى الذي خلق السماوات والأرض ولم يتعب ولم يصيبه الكلل والملل لأنّه منزّه عن هذه الأمور، أو ليس هو قادر على أن يحيي الموتى ؟ فمَن هو الأصعب خلق السماوات والأرض أم إعادة ميت بعد إماتته ؟! إنّ الذي خلق السموات والأرض هو قادر على أن يعيد خلق الإنسان، ليس صعباً.

مرة أخرى عن طريق قياس الإعادة على الحياة الأولى، فيعرض آيات كريمة كما أن الإنسان هنا، الله تعالى أنشأه نشأته الأولى فهو قادر

---

(1) الأنبياء،21 و22.
(2) الأحقاف،33.

على أن يعيده، فالقادر على الإحياء والخلق الأول قادرٌ على أن يعيد هذا الإحياء، قال تعالى: **(.. كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)**[1]، كلمات موجزة ولكن لها دليل قاطع على المعاد.

إنّ الإنسان يجري فيه المعاد (الحشر والنشر)، يعني أن الإنسان مركب من الذرات وهذه الذرات مبثوثة في هذا الكون – في السماوات وفي الأرضين – يأتي من غبار الكواكب إلى الأرض ويسقط على الأرض ملايين من الأطنان من النيازك والغبار الذري، وهذه الطبقة التي هي في سطح الأرض تتكون منها الأجساد من النباتات والحيونات، والإنسان يأكل من هذه النباتات والحيوانات ويتكون في باطنه النطفة والبويضة في المرأة، أي حُشرت من كل هذه المواد (عملية تجميع).فالله تبارك وتعالى يوم القيامة يحشر الناس فيجمع ذراتهم، فالإنسان قبل أن يُخلق موجود كذرات من حيث المادة، وهذه الذرات الله تبارك وتعالى جمعها فكوّن منها هذه النطفة، قال تعالى: **(أَفَرَأَيتُم مَّا تُمنُونَ* أَأَنتُم تَخلُقُونَهُ أَم نَحنُ الخَالِقُونَ)**[2].

خارطة وجود الإنسان في هذه النطفة، جمعها وحشرها، كل صفات الإنسان بل صفات الآباء والأجداد الملايين في هذه النطفة. إنّ هذه النطفة وهذه البويضة التي هي أيضاً تحمل الصفات الجينية، وبعد التلقيح يتكون منها الإنسان وتتكون العلقة ثم المضغة ثم يتكون الجنين ثم يولد، فهذا حشر وهذه نشأة أولى، قال تبارك وتعالى: **(وَلَقَد عَلِمتُمُ النَّشأَةَ الأُولَى فَلَولا تَذَكَّرُونَ)**[3]، فالذي حشر هذه الذرات وخلق منها الإنسان هو نفسه يحشرها مرة ثانية.

وآيات أخرى تتطرق إلى هذا المعنى **(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُل يُحيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلقٍ عَلِيمٌ)**[4]، أحد المشركين يأتي إلى رسول الله (ص) فيفت عظماً بيده ويصبح كالرماد في حضرة الرسول (ص) فيقول كيف أن الله تعالى يعيد هذه العظام، فجاءت الآية كما كانت النشأة الأولى تكون النشأة الثانية.

---

(1) الأنبياء،104.
(2) الواقعة،58 و59.
(3) الواقعة،62.
(4) يــس،78 و79.

بهذا الاستدلال القرآني وبهذه الكلمات البسيطة والأنيقة والجملية العذبة التي لا يجد السمع ولا العقل ولا القلب صعوبة وعراقيل في قبولها. فقياس إنّ القادر على ابتداء الحياة الأولى فهو قادر على أن يعيد هذه الحياة.إنّ القادر على بناء عمارة أولاً وابتداءً فهو قادر على إعادة أن يبني مائة عمارة، كما أنّ الابتداء أصعب من الإعادة لأنّ الابتداء فيه ابتكار وابداع بالنسبة لنا، أما بالنسبة للخالق فلا صعوبة فكلها واحدة سواء يخلق مليارات أو يخلق نفس واحدة، قال تعالى: **(مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)**[1]، وهذا استدلال أيضاً على عموم قدرة الله تبارك وتعالى.

أسلوب آخر من المعاني التي يتطرق إليها القرآن الكريم والمحافظة على قمة البلاغة من مطابقة الكلام لمقتضى الحال، مضمون آخر يستدل بقياس على امكان الإحياء للأرض فهو أيضاً يُحيي الأموات، قال تعالى: **(.. وَيُحيي الأَرضَ بَعدَ مَوتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخرَجُونَ)**[2]، هذه كلمات قصيرة جداً، فالذي أحيى هذه الأرض بعد موتها هو قادر على أن يخرجكم.واستدلال آخر وذلك بوقوع الإمكان على إمكانية الإعادة وذلك عبر آيات كثيرة جداً كقوله تعالى: **(.. إِنَّ الَّذِي أَحيَاهَا لَمُحيي المَوتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ)**[3]، فهذه الأنواع من البرهنة والدلالات، ويستعمل فيها مختلف الأساليب. إن القرآن الكريم يلوّن الأساليب في الاستدلال، فلا يكتفي باستدلال واحد بل ينوّع الأساليب في الطرح، بنفس الوقت الذي يتناول فيه معانٍ سامية وعالية فلا يتطرق إلى معانٍ تافهة أو هزيلة أو ليست ذات قيمة جوهرية في حياة الإنسان وفي هذا الوجود.

إنّ القرآن الكريم بالنسبة للبراهين التي يتطرق إليها هي ناصعة وساطعة وليست مشوشة ولا يوجد فيها غموض، فبعض الاستدلالات الفلسفية فيها غموض وأحياناً يوجد وهن ، أن يُعمل الإنسان فكره كي يصل إلى الأهداف التي يريدها صاحب البرهان وصاحب الدليل. وأما القرآن الكريم عندما يعطي الدليل، يعطيه بيّناً واضحاً غير معقد وبسيط، يفهمه الفيلسوف ويفهمه الإنسان البسيط، وهذه ميّزة امتاز بها القرآن الكريم.أنت

---

(1) لقمان،28.
(2) الروم،19.
(3) فصلت،39.

مثلاً تسمع دليلاً على التوحيد من الفلاسفة أو على المعاد فيحتاج لك إلى مقدمات وإلى أن يصل بك إلى النتيجة، تجد أن الذهن قد ملّ وكلّ وتعب من متابعة هذه المقدمات والاستدلالات حتى الوصول إلى النتيجة، بينما القرآن الكريم ببساطة ويسر شديدين وبوضوح البرهان وسطاحته يوصلكإلى النتيجة وأمثلة على ذلك كقوله تعالى: **(قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ)**[1].

إنّ هذه الآية تحتمل هذا المعنى أنّه إن كان للرحمان ولد فأنا أول عابد ولكان اتخذني أنا ولداً والعابد في الدرجة الأولى أولى أن يكون يتأخذه الله ولداً لا أن يتخذ الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة، فهذا نفي للولد لأنّ الله تعالى لو أراد أن يتخذ ولداً لكان هذا الولد مقرب جداً ويكون في غاية القرب ولكن لا يوجد أقرب من رسول الله (ص) فيصف نفسه: **(فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ)** على هذا الاحتمال فلو أراد يتخذ ولداً فمن اللائق للاتخاذ ولداً هم الأنبياء والمرسلون الذين عبدوه وخضعوا له وأتمروا بأمره فهؤلاء أولى، ولكن الله يعلم والرسول (ص) يعلم بأنه لا ولد لله ومستحيل من الناحية العقلية أن يكون لله ولد.

واستدلال آخر على إمكانية الإعادة والإعادة أهون من الابتداء بالنسبة لنا وقياساً لعقولنا وأما بالنسبة للباري فهي متساوية، ولكن القرآن يخاطبنا نحن البشر فيقول تبارك وتعالى: **(وَهُوَ الَّذِي يَبدَأُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهوَنُ عَلَيهِ ..)**[2]، يعني أن ابتداء الخلق وإعادة الخلق أهون عليه فلا يوجد شيء يصعب عليه، كلّه هيّن لديه، وإذا كان الخصم معترفاً بأن الله تعالى هو الذي بدأ الخلق فإذاً إعادة الخلق هو أهون على الابتداء (وهو تقريب بالنسبة لأذهاننا)، وهذا من البراهين الناصعة.

وللاستدلال على أنّ الكفار لا يدخلون الجنة، فيريد أن يكني ويشبّه كيفية امتناع دخول الكافر إلى الجنة فيقول تعالى: **(.. وَلاَ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجزِي المُجرِمِينَ)**[3].

---

(1) الزخرف، 81.
(2) الروم، 27.
(3) الأعراف، 40.

الجمل في اللغة يأتي بمعنى الحبل الغليض الشديد كالحبل التي تُجر فيه السفينة، هذا من الناحية اللغوية، وأما «سم الخياط» فهو الثقب الذي في الابرة، فهل يدخل الحبل الغليظ الذي تقاد به الحيوانات وتُجر به السفينة في هذا الثقب الصغير جداً ؟!

إنّ هذا مستحيل، فكما أن هذا مستحيل وممتنع كذلك دخول الكافر إلى الجنة مستحيل وممتنع.إنّ هذا الدليل والبرهان يبيّنه القرآن الكريم بهذا الأسلوب البسيط. وهناك براهين أخرى تطرّق إليها القرآن الكريم في آياته، وكلما وجدت استدلالاً في القرآن تجده بوضوح وببيان ناصع ولا يتعب فيه الفكر ولا يمل.هناك آيات أخرى تتحدث عن القياس بالنسبة إلى قياس الآخر، أي يستدل بأمر إمكان الوقوع على وقوع آخر ونفي شيء على نفي آخر، وحصول شيء في هذه الحياة الدنيا على حصول شيء في الحياة الأخرى. كيف يعيش الإنسان هنا هل على هدى أم على ضلال ؟ فإذا عاش على هدى ما هو مصيره في الآخرة وإذا عاش على ضلال فما هو مصيره في الآخرة ؟

فيستدل القرآن الكريم بهذا الاستدلال، قال تعالى: **(وَمَن أرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعيَهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعيُهُم مَّشكُوراً)**[1]، فهنا أراد المؤمن الآخرة وسعى لها ولذلك هو يُشكر ويُثاب على هذا السعي. وآية أخرى على العكس فالذي لا يسعى للآخرة ولا يطلبها ويعرض عن ذكر الله تعالى، قال تعالى: **(وَمَن أعرَضَ عَن ذِكرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحشُرُهُ يَومَ القِيَامَةِ أعمَى)**[2]، وآية أخرى تقول: **(وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أعمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أعمَى وَأضَلُّ سَبِيلاً)**[3].

تستدل الآيات بوجود هذا الإنسان وبصفاته التي يكتسبها في هذه الحياة الدنيا تعطي صورة عن صفاته التي يكون عليها يوم القيامة. قال تبارك وتعالى: **(قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرتَنِي أعمَى وَقَد كُنتُ بَصِيراً* قَالَ كَذَلِكَ أتَتكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَومَ تُنسَى)**[4].

---

(1) الإسراء،19.
(2) طـه،124.
(3) الإسراء،72.
(4) طـه،125 و126.

إذن هذا هو جزاء عملك، ما كان موقفك من الأنبياء ؟ ما هو موقفك من الأئمة ؟ ما هو موقفك من الكتب السماوية ؟ كيف كان ذكرك لله، أأعرضت عن ذكر الله أم ذكرته ؟ فكل ما ذكرته الآية كان جزاء عملك في الحياة الدنيا.

فهذا الاستدلال من القرآن الكريم بهذا الوضوح، وهكذا في قضية إبراهيم الخليل (ع) عندما يستدل على الحدوث، وأن هذه النجوم والشمس والقمر حيث أنه عندما رأى قومه يعبدونها أقام عليهم الدليل بأنّ هذه لا تصلح للعبادة لأنها محتاجة ولأنها مفتقرة ولأنها تأفل وتزول والزائل أصله العدم وممكن الوجود، بينما الله سبحانه وتعالى لا يزول ولا يتحول ولا يتغير، فيستدل بالأفول على حدوثها فتحتاج إلى محدِث (إلى خالق) فقال تباركوتعالى على لسان إبراهيم الخليل (ع):(.. **فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ)**[1].

فهنا استدلال عقلي على أنّ هذه التي تأفل تتغير والمتغير حادث والحادث يحتاج إلى محدث، فهي تحتاج إلى مَن يُحدثها ويهبها الوجود ويخلقها فكيف تكون معبودة وهي رب وإله، فالذي يحتاج إلى إله كيف يكون إلهاً ؟!

إنّ هذا الاستدلال البرهاني الناصع من براهين القرآن الكريم ومن آياته المباركة التي تجمع بين جمال الألفاظ وعذوبتها وتناسق الكلمات والحروف وإنسيابها بسلاسة ويسر إلى آذان السامعين يقترن مع ذلك انسياب المعاني إلى القلب وإلى النفس وإلى العقل، فالعقل يقبلها والنفس تطمئن إليها، وهي النفس غير المعاندة والمكابرة كما قال تباركوتعالى: **(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُم ظُلماً وَعُلُوّاً فَانظُر كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفسِدِينَ)**[2].

رابعاً: بداعة التصوير والتعبير

إنّ القرآن الكريم ابتدع طريقة لم تشهدها العرب من قبل، وأعجز الآخرين باتباع هذه الطريقة، فللقرآن طريقة موحدة في تناول جميع

---

(1) الأنعام،76.
(2) النمل،14.

الأغراض التي يهدف إلى وصولها إلى ذهن السامع حيث يحول الصور الذهنية المجردة إلى مشاهد حسية للسامع وصور شاخصة متحركة فهذا التحويل في القرآن الكريم يستعمله في شتى الأغراض ولا يقتصر على غرض واحد، فهو في حالة تصويره لمشاهد يوم القيامة أو قصص السابقين أو الظواهر الكونية الموجود.

كل هذه الأغراض التي يتطرق إليها القرآن الكريم يحولها إلى صور حسية، وكأن السامع يعيش معها ويتحسسها ويجسدها، فيعطيها قالب التسجيم والتمثيل ولا يكتفي بعرضها مجرد قضايا مجردة أو صور ذهنية تصل إلى الذهن بشكل باهت وبشكل لا يتفاعل معه الإنسان بطريقة حسية، لأن الحواس إذا انفعلت والخيال إذا تصوّر فحينئذ يتفاعل معها إذا تصوّرها بشكل حسي وبقالب تجسيمي يتفاعل معها أكثر مما لو كانت صوراً ذهنية لا تمت إلى الواقع الحسي بصلة.

هذه الظاهرة القرآنية بالبداعة في التصوير والتعبير استعملها في جميع الأغراض سواء كانت مشاهد طبيعية لأمور جامدة كالصبح ومشاهد الفرار من العذاب يوم القيامة يصوّرها بأسلوب حسي ويعطيها قالباً تجسيمياً ويمثلها بمختلف أنواع التمثيلات والتشخيصات.

ولابد من ذكر أمثلة من الآيات الكريمة تبيّن لنا هذه الظاهرة الفريدة والمعجزة في القرآن الكريم بهذا الأسلوب، حيث أنه أسلوب واحد يتناوله القرآن الكريم وينفرد به في كل هذه الأغراض.

وفي وصف حالة النفور الشديد من الدعوة إلى الإيمان فيمكن التعبير عنه في الكلام العادي ونقارن بين التعبير العادي بدون تصوير حسي وبدون تجسيم في قالب ثم ننقل ونقرأ ما يعرضه القرآن الكريم بنفس تلك المعاني، وفي هذا المعنى ممكن أن نقول: «إنّهم لينفرون أشد النفرة من دعوة الإيمان».

الذهن يستلم هذه الصورة وهذا المعنى بشكل بارد وساكن وباهت فلا يوجد فيه تفاعل، ولكن القرآن الكريم يقول في هذا المعنى قوله تعالى: **(فَمَا لَهُم عَنِ التَّذكِرَةِ مُعرِضِينَ* كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُّستَنفِرَةٌ* فَرَّت مِن**

قسوَرَةٍ)[1]، والتذكرة هي الدعوة الإيمانية والرسالة التي تدعوهم إلى الإيمان بالله والايمان بالعقائد الحقة، وهم أعرضوا عن هذه التذكرة، ولكن اعراضهم هذا شبّهه القرآن الكريم بالحمر هي الحمير الوحشية، والقسورة هو الأسد، بمعنى أن الحمير الوحشية عندما يشد بها الأسد ويهجم عليها فهي تنفر منه وتفر من بين يديه.

هذا المشهد الحسي الذي يظهره القرآن الكريم، يشترك فيه الذهن وملكة الخيال وانفعال السخرية من هؤلاء الذين فروا أمام الأسد، لا لشيء إلا لدعوتهم إلى الإيمان.

هناك فرق بين هذه الصورة الحسية التي يظهرها القرآن الكريم وبين التعبير العادي المجرد، فهذه صورة تجسيمية بقالب حسي نقلها القرآن الكريم.

هناك صورة أخرى ننقلها من الآيات الكريمة تبيّن أيضاً هذه المشاهد الحسية التي يعطيها القرآن الكريم قالباً تجسيمياً ينقلها من الصورة الذهنية المجردة إلى القوالب الحسية، حيث أن القرآن الكريم يصوّر كيف أن الآلهة التي اتخذها المشركون والأصنام التي عبدوها أنها عاجزة، فكيف نعبّر عن هذه الحالة ؟

نذكر أولاً الحالة التعبيرية المجردة من الحس، والحالة الثانية التي يصورها القرآن الكريم ويعطيها قالباً حسياً وينقلها من المعنى المجرد الذهني إلى المعنى التشخيصي. ففي الحالة الأولى يمكن أن نعبّر تعبيراً ذهنياً مجرداً بهذه العبارة: «إنما تعبدون من دون الله فهو عاجز عن خلق أحقر الأشياء»، ويدخل هذا المعنى إلى الذهن باهتاً ساكناً بارداً غير متحرك. ولكن القرآن الكريم يقول بهذا المعنى: **(.. إِنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسلُبهُمُ الذُّبَابُ شَيئاً لا يَستَنقِذُوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطلُوبُ)**[2].

فعندما نقارن بين العبارة الأولى وأنه وصل مجرداً دون الأمور الحسية إلى الذهن وبين الحالة الثانية وهي الآية آنفة الذكر الحسية

(1) المدثر،49 – 51.
(2) الحج،73.

المتحركة. حيث أنّه في المثال الثاني أبرز هذا المعنى بصور متحركة متعاقبة فكأنه ينقل مشهداً حسياً له مواقف وحركات مختلفة، فالدرجة الأولى التي ذكرها القرآن الكريم قال: **(لَن يَخلُقُوا ذُبَاباً)** وهي حالة الضعف والعجز والافتقار والحالة الثانية **(وَلَوِ اجتَمَعُوا لَهُ)** بمعنى لو اجتمع كل الآلهة الذين تدعونهم من دون الله فإنّهم عاجزون على أن يخلقوا ذبابة، ثم يعطي حالة ثالثة أشد من ذلك **(وَإِن يَسلُبهُمُ الذُّبَابُ شَيئاً لا يَستَنقِذُوهُ مِنهُ)** وهي حالة مزرية وتثير السخرية في ذهن السامع من هذه الآلهة المزعومة وتشدّه إلى مشاهد حسية. فالقرآن الكريم بتصويره لهذا الضعف المزري والتدرج بما يثير في النفس السخرية والاحتقار الذي ليس بعده احتقار.

وصورة أخرى من المشاهد التي يعرضها القرآن الكريم ويصور كيف يتخلى المتَبَعين عن المتَبِعين يوم القيامة، «يُعَبَّر عن حالة تخلي الأولياء عن تابعيهم أمام هول القيامة»[1]، هذا التخلي يعرضه القرآن الكريم في مشهد من مشاهد يوم القيامة عبر الآيات المباركة التالية، قال تعالى: **(وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعاً فقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ استَكبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُم تَبَعاً فَهَل أَنتُم مُّغنُونَ عَنَّا مِن عَذَابِ اللهِ مِن شَيءٍ قَالُوا لَو هَدَانَا اللهُ لَهَدَينَاكُم سَوَاء عَلَينَآ أَجَزِعنَا أَم صَبَرنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ)**[2].

في هذا الاستعراض يتسجد للخيال مشهدان: **(وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعاً فقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ استَكبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُم تَبَعاً فَهَل أَنتُم مُّغنُونَ عَنَّا مِن عَذَابِ اللهِ مِن شَيءٍ)** حيث أن الضعفاء الذين كانوا ذيولاً للأقوياء وهم ما يزالون في ضعفهم يلجأون إلى الذين استكبروا ويسألونهم الخلاص من هذا الموقف ويريدون أن يدفعوا عنهم العذاب، حيث يقولون: نحن اتبعناكم في الحياة الدنيا فادفعوا عنّا هذا العذاب، ويعتبون عليهم إغواءهم في الحياة الدنيا.

فهذا المشهد يبيّن كيف أن الإنسان عندما يتّبع إماماً لابد أن يتيّقن أن ذلك الإمام مرضي عند الله ولابد أن يكون هذا الإمام معصوماً لأنّه إذا لم يكن معصوماً فأي خطأ سيؤدي إلى الهلاك، وكذلك مَن يقلّده الإنسان لابد أن يكون تحت مظلّة المعصوم، أي مطابق للشروط التي شرطها المعصوم

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 295.
(2) إبراهيم،21.

باتباع ذلك المجتهد وإلا أيضاً يحصل الضلال، وهناك ينطبق عليه هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة عندما يتخلى المتبعون من التابعين.

والمشهد الثاني: **(قَالُوا لَو هَدَانَا اللهُ لَهَدَينَاكُم سَوَاء عَلَينَآ أَجَزِعنَا أَم صَبَرنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ)** المستكبرون وحالتهم قد ذلّت كبرياءهم وواجهوا مصيرهم وهم لا يملكون لذات أنفسهم خلاصاً فهم متورطون وهم واقعون في العذاب، وهم عاجزون أن يدفعوا عن أنفسهم العذاب فكيف يدفعوا عن غيرهم.

هذان المشهدان يبيّنان الصورة الحسية التي تنقل للسامع وتبيّن الحكمة والغرض من هذا العرض القرآني بشكل حسي ويشخص هذه الحركة وكأن هناك صوراً متحركة تنقل هذا المشهد بألفاظ عذبة جميلة ومعان سامية رفيعة وبصور بديعة.

ننقل صورة أخرى «يُعبّر عن بطلان أعمال الكافرين بأنّهالا وزن لها ولا تنفع، كما يعبر عن ضلالتهم الدائمة، بأنّهم: لا مخرجلهم منها ولا هاديَ لهم فيه، ولكن في هذا التعبير ركود وسكون لا تنتعش النفس به أبداً»[1].

ويعبّر القرآن الكريم عن هذا المعنى وذلك قوله تعالى: **(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)**[2]، هذا المشهد الذي يجسده القرآن الكريم بتلك الصورة الذهنية المجردة إلى السراب الذي هو في بقعة من الأرض وهنا إنسان ضمآن إلى الماء ويريد أن يروي ضمأه فيذهب إلى هذا السراب معتقداً بأن ذلك السراب هو ماء فلما وصل إليه لم يجده ماءاً.

لقد عاش الوهم ولم يعش الحقيقة وهو ذات الكافر ومخالفته للعقائد الحقة، فهو عاش في الوهم وحتى هذا الاعتقاد الذي يعتقده الكافر لا يغير من الحق شيئاً.

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 296.
(2) النور،39.

ثم بعد ذلك (**حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**)، هذه الصورة المفاجئة التي يصورها القرآن الكريم هي التي يعجز عنها البلاغيون فلا يمكن أن يأتوا بمثله، وهذه ظاهرة قرآنية لا تختص بآية أو آيتيين أو عشر آيات بل هي ظاهرة لكل المشاهد ولكل الأغراض التي يستهدفها القرآن الكريم لإيصالها إلى أذهان السامعين.

ثم يصور القرآن الكريم هذه الحالة بمشهد آخر حيث لا يكتفي بتلك الحالة بل يعطي مشهداً حسياً آخر يعجز عنه البلغاء والأدباء والشعراء بأن يصوروا هذا التصوير، قال تعالى: (**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**)[1].

إنّ هذه الصورة المتينة الساحرة فيها روح القصة والخيال العميق فهنا لا يستطيع حتى الرسام بريشته أن يرسم هذه الصورة، لماذا ؟ كيف سيرسم الظلمات حيث لا يوجد فيها ضوء حتى يسلّط على لوحته الفنية ألوان مختلفة لأن الظلمات لا تعطي إلا السواد فكيف سيصوّر هذا المشهد؟!

القرآن الكريم يصوّر ما يعجز عنه حتى الرسام، حيث أنّه يصور أعمال الكافرين عندما يجدها سراباً وكيف أنّها ظلمات في ظلمات، يقول تعالى: (**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ**)، اللجة هو الماء الكثير، وهذا فيه اعجاز علمي حيث أن علماء البحار يقسمون البحر إلى قسمين: بحر إلى 200م وتصل فيه أشعة الشمس إلى القاع، ثم بعد ذلك يصل عمق البحر إلى عدة كيلومترات مباشرة وهو المقصود البحر اللجي ولا تصل أشعة الشمس إلى ذلك العمق، وحتى الحيوانات التي تعيش في تلك البقاع لا تستعمل عيونها بل تستعمل أمثال الأشعة الرادارية التي تتحسس بها.

فهذا المشهد فيه اعجاز عملي أيضاً فمَن الذي أخبر محمداً (ص) بأن في ذلك البحر اللجي ظلمات أولاً بعضها فوق بعض. إن الإنسان لم يستطع اكتشاف هذا العمق إلا بعد اختراع الغواصة سنة 1906 حيث أن جسم الإنسان لا يستطيع أن يغوص تحت الماء أكثر من 100م لأنّه يموت لضغط الماء زائداً الضغط الجوي، بينما هذا التصوير في القرآن الكريم

(1) النور،40.

لأعماق البحار هي أعماق هائلة جداً حيث أن أعمق نقطة في البحار هي تقريباً 11كم أي أعلى من قمة جبال أفرست.

(يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ)، فمَن الذي وصل إلى هذه الأعماق ووصف تلك الحالة ووجود أمواج في أعماق البحار، لقد اكتشف العلم الحديث أنّ هناك موجين أحدهما في باطن البحر والآخر فوق سطح البحر، وهذان الموجان لم يُكتشفا إلا في القرن التاسع عشر، وهذه أيضاً ظاهرة علمية ولا نريد أن نتوسع فيها لأنّنا نريد أن نبيّن القضية البلاغية. ولكن هذا العرض الحسي جاء عرضاً إلى قضية علمية لم يكتشفها الإنسان إلا الآن.

إنّ القرآن الكريم يصوّر الظلمات وتصويره ينطبق على الواقع، أي ليس تصويراً منتزعاً من الخيال بل منتزع من الواقع وقد أكدت القضايا العلمية هذا المعنى.

(إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)، هذا التصوير الرائع الذي نقله القرآن الكريم من صور ذهنية مجردة إلى صور حسية وهي في الظلمات يتحدى فيها الإنسان بأن يأتي بمثل هذه الكلمات، وهذا هو الاعجاز البلاغي.فللقرآن الكريم أسلوب وطريقة في التعبير والتصوير وظاهرة في كل القرآن لم يتطرق إليها بلغاء العرب ولم يسبروا غورها بل ينذهلوا وينبهروا عندما يرون هذا التصوير القرآني والابداع في التعبير.

نأخذ صورة أخرى من هذه الصور الرائعة هي«تصوير معنى الضلال بعد الهدى وضياع الجهد معه سدى، تلك الصور المتتابعة الّتي يجيش بها الحسّ والخيال، وتحيى بها النفس»[1]، في قوله تعالى: **(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ* مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ* أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ* يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهِمْ**

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 297.

كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[1].

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)، أي أن الكفار باعوا الهدى واشتروا بدلاً عنه الضلالة لأن الإنسان يولد على الفطرة فلو اتبع ما تمليه عليه الفطرة لبقي على الهدى، ولكنهم باعوا الهدى بالضلالة. ثم يضرب القرآن الكريم مثلاً على هؤلاء حيث يقول: **(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ)**، أي أنّ هؤلاء أوقدوا النار ولما أضاءت لهم وبسرعة خاطفة ذهب نور تلك النار وبقوا في ظلمات لا يرون شيئاً فهم صم وبكم وعمي، بمعنى أن كل الحواس ليس لها عمل عاطلة.

يضرب القرآن الكريم مثلاً آخر **(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِفِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ)**، يعني عاصفة تأتي على هؤلاء وتحمل السحاب وفي هذه العاصفة الظلمات ورعد وبرق.

إنّ في هذه الحالة يعطي مثالاً تشبيهياً وحسياً آخر لأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى، وشدة العاصفة وشدة الظلمات التي جعلتهم حيارى فيجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الموت، أي يخافون الموت أن تسقط عليهم تلك الصواعق ويصمون آذانهم من ذلك الرعد، يكاد ذلك البرق الشديد أن يخطف أبصارهم.

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، صور متتابعة حسية في قالب جسماني ومتحرك، ففي هذه الصور يبيّن كيف أنّ هؤلاء قد أوقدوا النار فأضاءت لهم وفجأة يُذهب الله تعالى بنورهم ليخيّم حولهم الظلام، ويخافون من الرعد فيجعلون أصابعهم في آذانهم ويخافون من البرق أن يُذهب بأبصارهم، ولكن الأصابع لا تُغني عنهم شيئاً. إن البرق الذي يخطف الأبصار ولكنه في نفس الوقت يضيء

---

(1) البقرة،16 – 20.

لهم الطريق وفي تلك اللحظة يمشون ثم يجدون أنفسهم في ظلام بعد خطوة يخطونها حيث ينقطع عنهم هذا الضوء.

لون آخر من ألوان التصوير الفني الذي يعرضه القرآن الكريم، ففي وصف الصبح يعطيه حركة حسية وكأنه إنسان ووجود ناطق متحرك، قال تعالى: **(وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)**[1]، فهذا المشهد الحسي كيف كأن الصبح – الذي هو جماد لا حياة فيه – فإنّ الألفاظ القرآنية تعطيه حياةً وتجعله كأنه كائن حي متحرك، هذه الصورة الحسية التي نقصدها من تحويل الصور الذهنية المجردة إلى صور حسية.

كذلك قوله تعالى: **(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)**[2]، هذا الجماد الذي لا حياة فيه، القرآن الكريم يجعله يتحرك بصوره البلاغية. ويقول تعالى أيضاً: **(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً)**[3]، وكأن هناك طالب ومطلوب فيحرّك النهار والليل، فلا يذكر أن هناك ليلاً وهناك نهار فقط بل يعطي هذه الصورة بحيث تصور حركة حسية ترتاح لها النفس ويتقبلها العقل فتطمئن لها النفوس وتنساب في ألفاظها إلى الأسماع وإلى العقول والأذهان.

ثم يصور الظل وهو نتيجة لانعدام ضوء الشمس فيصور الكافرين يوم القيامة بالظل الذي يستظلون به، يقول تبارك وتعالى: **(وَظِلّ مِنْ يَحْمُوم* لاَ بَارِد وَلاَ كَرِيم)**[4]، حتى الظل الذي يستظلون به هو من يحموم فما أشد هذا العذاب.

صورة أخرى يحرّك فيه الجدار وكأنه كائن حي متحرك له إرادة وله اختيار حيث يقول تعالى: **(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ)**[5]، فيصور الجدار بأنه يريد، وكأن للجدار إرادة.

عندما ننظر إلى الطيور وهي محلقة في السماء وذلك المنظر الجميل، القرآن الكريم يعطيه صورة حية من تلك الألفاظ العذبة الجميلة

---

(1) التكوير،18.
(2) الفجر،4.
(3) الأعراف،54.
(4) الواقعة،43 و44.
(5) الكهف،77.

فيقول تعالى: **(أوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّات وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ الرَّحْمَن)**[1].

ذكرنا بعض دعائم الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم ونذكر الآن دعامة أخرى للبلاغة وهي الأمثال وهي آخر ما سنتطرق إليه من هذه الدعائم، ثم ننتقل إلى «النظم» الذي هو الدعامة الكبرى في البلاغة القرآنية.

هناك أمثال كثيرة وردت في القرآن الكريم تزيد عن خمسين مثلاً، وهذه الأمثال تضرب في مجال مقارنة الكفر بالإيمان، والحياة بالموت، والظلم بالعدل، وما شاكل ذلك.

بيّنت هذه الأمثال بطريقة فنية رائعة وجسدت المتضادات في الصراع بين الحق والباطل، وتستعير الألفاظ لاستعمالها في هذه المعاني، وممّا جاء في القرآن الكريم من هذه الأمثال بيان صراع مع الباطل بصورة مثل بديع يشتمل على معان بعيدة الأغوار عميقة الإشارات، وفي ألفاظ موجزة قليلة وعبارات منسجمة ومتناسقة ومتلائمة في نظم فريد من نوعه.

قال تعالى: **(أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحتَمَلَ السَّيلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيهِ فِي النَّارِ ابتِغَاءَ حِليَةَ أو مَتَاع زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَال)**[2].

هذه الآية التي ضربت لنا مثلاً، وبيّنت صراع الحق والباطل وكيفية انتصار الحق في النهاية وذهاب الباطل وانعدامه. والآية المباركة تُعتبر من أعماق الآيات التي جاءت بلباس المثل فهي تطرح معاني سامية تبين فيها مكانة الباطل من الحق، وفي هذه الآية تشبيهات:

«الأول: إنّ الحق كالماء النازل من السماء، المجتمع في أعماق الأرض، أو الجاري جداول وأنهاراً، بعد انحداره من سفوح الجبال إلى الأودية والسهول. والباطل كالزبد والرغوة التي تعلو وجه الماء حال سيلانه واندفاعه، التي لا تلبث أن تتلاشى كأنّ لم تكن شيئاً مذكوراً.

---

(1) الملك،19.
(2) الرعد،17.

الثاني: إنّ الحق كرواسب الأتربة المعدنية في المذابة الأفران، فإنّها خالص المعادن والفلزات. والباطل كالزبد والفقاعات الّتي تعلو هذه الأتربة حال غليانها، الّتي سرعان ما تنفجر وتتبخر. فالصورة العامة الّتي يعطيها هذا المثل، ترسيم ثبات الحق ودوامه بتشبيهه، بالماء النازل من السماء، الجاري في الأودية والوهاد، الغائر في أعماق الأرض، ثم الظاهر، بصورة العيون والينابيع، الّتي تستفيد المخلوقات منها في دوام حياتها. وبالمعادن المذابة، الراسبِ خالصها في أعماق الأفران، الّتي يستفيد منها الناس في زينتهم وأمتعتهم.وكذلك ترسيم سرعة أفول الباطل بعد نجومه بتشبيهه بالزبد الّذي يرغو فوق الماء، والمعادن المنصهرة، الّذي يتصوره الجاهل شيئاً ثابتاً قائماً، ولكن ما أسرع اختفائه وزواله، فلا يرى منه عين ولا أثر. وعلى ذلك فللحق ثبات ودوام، وللباطل جولة زوال»[1].

طبعاً هذا المثل القرآني ينسجم وينطبق على كل أنواع الحياة وليس فقط في نظرية معينة أو عقيدة معينة، وإنما على هذا الكوكب تأتي مختلف أنواع الحضارات، فالأمور الباطلة تذهب والأمور الحقة تبقى. وهناك نظريات سياسية للحكم حيث طُرح بأن هذه النظريات التي تنسجم مع الطرح السماوي والكتب السماوية تبقى وما هو من نتاج البشر فإنّه يذهب جفاءاً، كذلك ما طُرحت من فلسفات وعقائد فإن انسجم مع الحق الذي هو الطرح الإلهي السماوي فإنّه يبقى ويثبت ويرسخ، وأما الباطل من الأفكار والعقائد والفلسفات فيذهب.

فالصورة العامة التي يعيطها هذا المثل هو ترسيم ثبات الحق ودوامه في الحياة لتشبيهه بالماء النازل من السماء الجاري في الأودية والغائر في أعماق الأرض ثم الظاهر بصورة العيون واليانبيع التي تستفيد منها جميع المخلوقات. والباطل يشبّه بالزبد الذي يعلو الماء حين جريانه في الجداول وفي السيول وسرعان ما يذهب هذا الزبد لأنّه فقاعات فوق سطح الماء، وهذا هو الباطل، والباطل له جولة وزوال فعندما يراه الناظر يُخدع به، وعندما يرى الانسان الزبد فلا يرى من الماء إلا الزبد ولكن تحت الزبد هو الماء (الحق)، والناس ينتفعون بالماء وليس بالزبد.

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 299 – 300.

لهذا المثل معان عميقة واشارات دقيقة لابد من تناولها لنبيّن كيف أن الآية الكريمة استعارت هذه الألفاظ وشبّهت الحق بالماء النازل والباطل بالزبد.

أولاً أنّ الحق والباطل يتمثلان في مجال العقيدة بالإيمان والكفر، والعدل والظلم، فهنا صراع الحق والباطل في الأفكار العقيدية المنحرفة والأفكار العقيدية الحقة، وكذلك هناك صراع بين العدل والظلم، بين الظالم وبين مَن يدعو إلى العدل.

هذا الصراع مستمر مادام الإنسان موجوداً على هذا الكوكب ومادام هناك تزاحم في الحاجات فالصراع موجود.

«فبالإيمان بالله تبارك وتعالى تحيا القيم الأخلاقية، كما أنّ بالكفر موت المُثل والفضائل وانعدام الكمالات الإنسانية. ومثل ذلك العدل والظلم، ففي ظِلّ العدل تتفجّر الطاقات وتترقى المجتمعات، وينال كل إنسان الغاية الّتي يليق بها، كما أنّ في الظُلم كبت الإستعدادات، وتقديم المفضول وتأخير الفاضل، ولن يزال المجتمع الظالم يتدهور إلى أن لا يرى له أثر.

فأشبه الإيمان والعدل، الماء الّذي به حياة كل شيء، وخالص المعادن المترسب في قعر أفران الصَّهْر، إذ عليها تعتمد حياة الإنسان الدنيوية، وتترتب المنافع الكثيرة، قال سبحانه: **(وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاس)**[1]. فالحديد وأضرابه هو الّذي يدير عجلة الحضارة وبفقدانه شللها التام. وأشبه الكفر والظلم، الزبد الّذي يرغو على وجه الماء والمعادن المنصهرة، لا يستفاد منه ولا يعتمد عليه في شيء.

إنّ الباطل ربما يصير حجاباً عن الحق، فيكون مانعاً بينه وبين طالبه ولكن هذا الحجاب سرعان ما يزول ويتجلى وجه الحقيقة بصورته الواقعية، تماماً كما أنّ الزبد يعلو وجه الماء ويوجب برغوته حدوث غشاوة ساترة لما تحته، والإنسان الجاهل يحسب أن لا شيء تحته سوى العفن والطين والتراب، ولكن سرعان ما تخمد رغوته، وتنقشع غشاوته، ويتجلى الماء صافياً زلالاً، أو الأتربة المنصهرة، معادن وفلزات نفيسة ونافعة.

---

(1) الحديد،25.

فالأفكار الإلحادية ربما تستر وجه الحق، وتحول بينه وبين طالبه، لكن تعلقت مشيئته سبحانه على إحقاق الحق ومحو الباطل. قال سبحانه: **(وَيَمحُ اللهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ)**[1]، وقال سبحانه: **(وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)**[2].

إنّ الوجود النازل من عنده تعالى على الموجودات، خال في نفسه عن الصور والأقدار، وإنّما يَتَقَدَّر من ناحية الأشياء، أنفسها، كماء المطر النازل من السحاب على ساحة الأرض، خال في نفسه عن الصور والأقدار، وإنّما يحتمل من القدر والصورة ما يطرأ عليه من ناحية قوالب الأودية، ومجاري الأنهار، والسواقي، والأحواض والبرك والسمتنقعات، المختلفة في الأقدار والصور.فالحق فيض إلهي، يأخذ منه كل إنسان بحسب لياقته وسعة ذهنه. فمن الناس من يكون واسع الصدر، كامل الإستعداد فيأخذ منه القسط الأكبر، ومنهم من لا يزيدون عن معشار ذلك»[3].

فالحق فيض إلهي يأخذ كل إنسان منه حسب لياقته وسعة ذهنه، فالحق عندما ينزل فالأنبياء (ع) يأخذون منه على أقدارهم والناس المؤمنون أيضاً كل يأخذ من هذا الحق النازل عن الباري تبارك وتعالى على قدره، وأما أهل الباطل والكافر فإنّه هو الذي يحجب عن نفسه الحق فهو كالإناء الذي قد قُلب وأصبح قعره إلى الأعلى فإنّه لا يأخذ من هذا الحق شيئاً، فلا يوجد هناك بخل من جانب الحق.

وهناك آية أخرى تشير إلى هذا المعنى في قوله تعالى: **(وَإِنْ مِنْ شَيء إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَر مَعْلُوم)**[4].(أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها).

وهناك قول لأمير المؤمنين علي (ع) يقول فيه: «إنّ هذه القلوب أوعيةٌ، فخيرها أوعاها»[5]. وأيضاً في كلامه (ع) يشبه الحق والباطل

---

(1) الشورى،24.

(2) الإسراء،81.

(3) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 300 – 302.

(4) الحجر،21.

(5) المعتزلي، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، دار الكتاب العربي، ط1، بغداد – العراق، 2007م. ج18 / ص 346.

والإنسان المتكبر والإنسان المتواضع، فالتكبّر هو باطل والمتواضع هو حق وفضيلة، حيث يقول (ع): «المتواضع كلهودة[1] يجتمع فيها قطرها وقطر غيرها والمتكبر كالربوة لا يقر عليها قطرها ولا قطر غيرها»[2].

فعندما ينزل الماء من السماء فالمتكبر كالربوة –وهو ما ارتفع من الأرض كالتل –لا تحفظ الماء النازل ولا ماء الروابي والجداول المجاورة لها، وأما المتواضع كاللهودة– أي الحفرة –يجتمع فيها الماء الساقط من السماء والماء المجاور لها.

«إنّ الباطل في ثورانه وجولانه في أمده القصير، فرع اعتماده على الحق، واتّخاذه واجهة لأعماله. فلو تجرّد عن الحق بالكلية، لما كان له حتى هذا السهم القصير، كالزبد لا يتجلى إلاّ بركوبه الماء، كما أشار إليه سبحانه بقوله: **(فَاحتَمَلَ السَّيلُ زَبَداً)**.

إنّ الباطل لا يظهر إلاّ في الأجواء الصاخبة والمجتمعات المتضاربة. كالزبد الّذي لا يظهر إلاّ عند تدفق المياه واجتياحها القنوات الضيقة، فإذا انتهت إلى السهول الفسيحة، زال الزبد شيئاً فشيئاً، ولا يبقى بعده إلاّ الماء الزلال. وكذلك الزبد الناجم عند عملية الصهر، فطالماأنّ المعادن في حالة الغلي والفَوَران يكون الزبد على وجهها، فإذا هدأت النار وتوقف الغليان لم يبق إلاّ المعادن الخالصة.

فهذه بعض التصويرات للمفاهيم القيمة العميقة الّتي جاءت بها هذه الآية المباركة على وجازتها، وكلما تعمّق الإنسان فيها انفتحت له أبواب من المعارف العُليا، والحقائق السامية، وأقَرَّ بأنّ هذا القرآن: باطنه عميق وأنّ أعلاه لمثمر، وأسفله لمُغْدق»[3].

هذه بعض التصويرات التي ذكرها البلاغيون وبعض التشبيهات في هذه الآية المباركة، كلمات قصيرة ضُربت على شكل مثل واحتملت كل هذه المعاني وأكثر مما ذكره البلاغيون في هذه الآية المباركة.

---

(1) الوَهْدَة: المطمئنُّ من الأرض والمكان المنخفض كأنه حفرة.
(2) شرح نهج البلاغة، المصدر السابق، ج20/ص 288.
(3) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 302 – 303.

الفصل السابع

النظم

هو دعامة من دعائم الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم. ومعنى النظم: «هو لجام الألفاظ، وزمام المعاني، وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضها ببعض، فتقوم له صورة في النفس، يتشكل بها البيان»[1].

إنّ الكلام يعتمد على ثلاثة دعامات رئيسية: الأول اللفظ والثاني المعنى والثالث الرابط بين اللفظ والمعنى. وقد ذكرنا فيما سبق عن اللفظ وعن فصاحته وبلاغة القرآن الكريم من هذه الناحية وفصاحة الكلمات القرآنية من هذه الناحية أيضاً، وذكرنا أيضاً المعاني التي تحملها الآيات الكريمة وتصبها في تلك الألفاظ القرآنية.

فالقرآن الكريم من حيث الألفاظ جميل «ظاهره أنيق»، ألفاظه سلسة وليست غريبة ولا وحشية في الكلام وتدخل السمع بسهولة ولها لحن جميل. ومن حيث المعاني فتطرقنا أيضاً إلى موضوع المعاني وأن القرآن الكريم يحمل معانٍ سامية ومضامين عالية في مختلف شؤون الحياة.

الدعامة الثالثة وهي النظم وهي الرباط الذي يربط بين اللفظ وبين المعنى، هذا الرابط هو النظم، أي أشبه بالمسبحة التي تتكون من خيط وخرز أو العقد الجميل ويأتي الصائغ فيصوغ مختلف ألوان الصور الفنية الرائعة من تلك الحبات من الخرز حيث يشكل العقد من اللؤلؤ أو الألماس فهو الذي يعطيها ذلك الجمال فالناظم هو الذي يتفنن في صياغة مصوغاته.

فللنظم إذن أهمية كبرى في بيان الجمال، كذلك الكلمات تحتاج إلى نظم الألفاظ عندما تلتئم الكلمات مع بعضها وتنسجم مع بعضها ضمن الجملة والجُمل داخل الفقرات، كالرسام فالفرشاة أمامه واللوحة وهناك ألوان مختلفة وأصباغ فهو يشكل صور فنية رائعة وكثير من الناس لا يستطيعوا أن يأتوا بمثل هذه الصور كأنه يحرّك من هذه الأصباغ فيعطي حركة للصورة. فكذلك البلاغة من حيث النظم فإنّ النظم يُعطي تلك الصور الفنية الرائعة ولذلك فإنّ كثير من البلاغيين يعتبرون الاعجاز في النظم ولا يعدون أساس البلاغة على الحروف والكلمات بل يعتبرون الدعامة الأساسية فقط هي النظم والأسلوب.

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 307.

لذلك سنتناول هذا الموضوع بشكل موسع ودقيق لأنّه هو الأساس والجوهر في البلاغة القرآنية على رأي بعض البلاغيين كالجرجاني حيث يرى أنّ البلاغة في أسلوب نظم هذه الكلمات والعبارات والجمل، بينما هناك مَن يرى بأن البلاغة في فصاحة الكلمات كالباقلاني وسنتطرق إلى النظريتين، علماً أن هناك نظرة ثالثة تربط بين الأمرين فترى أن الأساس في الاعجاز البلاغي هو الأسلوب وكذلك فصاحة الكلمات.

بعد أن بيّنا النظم بشكل اجمالي نريد أن نعرّف النظم من الناحية الاصطلاحية حيث أن هناك تعريفات متعددة منها – ما ذكرناه سابقاً –«هو لجام الألفاظ وزمام المعاني، وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضها ببعض، فتقوم له صورة في النفس، يتشكل بها البيان»، وهناك تعريف آخر يبيّن معنى النظم: «هو وضع كلِّ لفظ في موضعه اللائق به، بحيث لو أُبدل مكانه غيره ترتب عليه إمّا تبدل المعنى أو ذهاب رونقه وسقوط البلاغة معه»[1].

هناك مَن يعرف النظم برعاية قوانين اللغة وقواعدها، ولكن هذا التعريف لا يصح مع القرآن الكريم لأن القرآن الكريم لا يُعرض على القواعد بل أنّ القواعد هي التي تُعرض على القرآن الكريم لأنّه فوق هذه القواعد. هناك صراع بين النحويين هل أنّ القواعد تتبع النصوص أم أنّ النصوص هي التي تتبع القواعد ؟

بعض النحاة يرى أن النصوص لابد أن تتبع القواعد، والبعض الآخر يرى أن القواعد هي التي تتبع النصوص. والصحيح هو أنّ العرب عندما نطقوا اصطلحوا على المعاني والألفاظ لم يفكروا بالقواعد وإنما كانوا يتكلمون ثم جاء النحاة واستنبطوا القواعد من تلك اللغة ومن تلك الألفاظ فوجدوا أن العربي يرفع الفاعل وينصب المفعول به ويجر بهذه الحروف وينصب بالحروف الأخرى، فالقواعد اُستنبطت من النصوص، لا أنّ العرب اصطلحوا أولاً على القواعد ثم جاءوا بعد ذلك ويتكلموا بالنصوص، فهذا مخالف لتأريخ اللغة ولنشوء اللغة.

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 307.

إذن القرآن الكريم سبق في نزوله التفكير في القواعد النحوية وما شاكل ذلك، فلذلك هو أجلّ من أن يُعرض على القواعد النحوية، وعليه فالتعريف الثالث «رعاية قوانين اللغة وقواعدها» ممكن أن تكون بالنسبة للنصوص المتأخرة عن وضع القواعد وهي النصوص التي من الممكن أن يقع فيها الخطأ، وأما بالنسبة للقرآن الكريم فهو أجل وأعظم وأعلى من هذه القواعد، ولذلك سوف لا ننتطرق إلى هذا التعريف وقد أقصيناها من الكلام.

يبقى الكلام في النقطة الأولى والنقطة الثانية وهي «الانسجام بين أجزاء الكلام» و«وضع كل كلمة في محلها»، ومن البلاغيين الذين أشاروا إلى موضوع النظم واهتموا به اهتماماً بالغاً هو العالم البلاغي عبد القاهر الجرجاني الذي جعل النظم هو الأساس الوحيد في الاعجاز البلاغي وقال بعد أن رد كل ما يمكن أن يكون وجهاً للاعجازويثبت النظم، وممّن سار على نهج الجرجاني ووافقه على ذلك هو الزملكاني حيث قال: «إنّ وجه الاعجاز يرجع إلى التأليف الخاص بهبأن، اعتدلت مفرداته تركيباً وزنَةً، وعلت مركباته معنىً، بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى»[1].

المبحث الأول: نظرية عبد القاهر الجرجاني

يرى هذا البلاغي الكبير أنّ أساس البلاغة يعتمد على النظم أي على انسجام الكلمة مع أخواتها وعلى وقوعها في موقع من الكلام يصبح فيها الكلام له بلاغة ويدلل ذلك الموقع وذلك الانسجام والتآلف بين الكلمات على مستوى البلاغة ورقيّها، فكلما كان الموقع لتلك الكلمة والانسجام مع الكلمات الأخرى وأخواتها في الجملة وفي الفقرة كلما كان متلائماً في أحسن تلائم تكون البلاغة في قمتها.

هذه النظرية للجرجاني قرّرها في كتبه التي ألّفها وقد ذُكرت في «دلائل الاعجاز»، وقد قرّر هذه النظرية بعد أن نفى أن يكون للحروف وللكلمات أثراً في أساس الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 308. نقلاً عن «الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي، ج4/ ص 8.

إنّ الجرجاني ومَن تابعه على هذا النهج نفوا أن يكون للحروف والكلمات أثر في البلاغة فقالوا: «إنّ اللفظ والحروف ليس لها أثر في كون الكلام بليغاً أو غير بليغ، إنما الأثر في مجموع ما يدل عليه النظم. وشكل النظم ليس هو المؤثر وحده، إنما تساوق المعاني وتلاقي الألفاظ وتآخيها، فيتكون هذا المعنى المؤثر، فيقول في كتابه «دلائل الإعجاز» ما نصه": ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخلوها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلّا بضمِّ كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هليُتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة، حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ما هي مرسومة به»[1].

فيريد الجرجاني أن يقول أنّه عندما نريد أن نفاضل بين كلمة وبين كلمة أخرى، الكلمة مستقلة قبل أن تنتظم في جملة وقبل أن ينتظم الكلام من عدة جمل، فهذه الكلمة لا يمكن أن نفاضلها على كلمة أخرى، ولكن عندما نركّب من هذه الكلمات جُمل وينتظم الكلام ونأخذ منه معنى كنهي أو أمر أو تعجب أو ما شاكل ذلك فحينئذ نعرف أن الكلمة وقعت في موقعها وأعطت صورة بلاغية، أما بدون ذلك لا يكون للكلمة تفاضل بينها وبين الكلمات الأخرى.

هذه هي نظرية الجرجاني أنّ الكلمات لوحدها لا تعطينا جمالاً ولا نظماً ولكن عندما تنتظم وتتآلف وتتعانق مع الكلمات الأخرى تعطينا صورة فنية، وهذه الصورة الفنية تعبّر عن رقي وسمو وبلاغة الكلام.

ثم يقول: «هل يقع في وهم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية. أو أن تكون حروف هذه أخفّ وامتزاجها أحسن»[2]، يعني أنّ كل ما نستطيع أن نميّزه أو نفاضل فيه بين الكلمات فقط نقول بأنّ هذه الكلمة معروفة لدى السامع ومألوفة أو أنّها

---

(1) أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى: المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة - مصر، 2010. ص 73 و74.
(2) المصدر السابق، ص 74.

غريبة عنه ووحشية وغير مستعملة، ولكن عندما تأتلف في الكلام يكون للكلمة جمال ومعنى فني غير ما هي أن تكون مفردة، أو تكون حروف هذه الكلمة أخف وامتزاجها أحسن، أي من الممكن أن نحكم على الكلمة قبل أن تدخل في النظم فنقول أنّ حروف هذه الكلمة أسهل بالنطق أو أن حروف هذه الكلمة صعبة النطق وصعبة الاستلام عبر السماع، وامتزاجها أحسن.

ثم يتابع الجرجاني فيقول: «وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلّا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها»[1]، ويعني بذلك أن الفصاحة بالكلمة بعد أن تنتظم في الكلام لا قبل أن تنتظم بالكلام، فمتى ما انسجمت الكلمة مع أخواتها تعطي رونقاً وجمالاً وبلاغة، أما إذا لم يحدث ذلك الانسجام فلا يكون هناك بلاغة في الكلام.

يكمل الجرجاني فيقول: «وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافها قلقة ونابية ومستكرهة إلّا وغرضهم أن يعبِّروا بالتمكُّن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم»[2]، يعني من جهة الانسجام الكلمة مع الكلمة الأخرى، وهل هذه الكلمة نابية ؟ وذلك إذا جاءت في موضع غير صحيح من الكلام فيقال عنها أنّ هذه الكلمة قلقة نابية، أي غير منسجمة مع الكلمات الأخرى، ثم يضرب مثالاً على هذا المعنى: «وأنَّ الأولى لم تلتق بالثانية في معناها، وأنَّ الثانية لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها، وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: **(وَقِيلَ يَا أَرضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الْأَمرُ وَاستَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلقَومِ الظَّالِمِينَ)**[3]، فتجلّى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة إلّا لأمر يرجع إلى ارتباط هذا الكلام بعضه ببعض، وإنه لم يعرض لها الشرف إلّا من حيث لاقت الأولى الثانية، والثالثة الرابعة، وهكذا إلى أن تستقربها إلى آخرها، وأن الفضل نتج مما بينها، وحصل من مجموعها»[4].

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 74.
(2) المصدر السابق، ص 74.
(3) هود،44.
(4) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 74.

هناك قصّة تروى عن الإمام جعفر الصادق (ع)، «روى هشام بن الحكم –وهو من خيرة أصحاب الإمام جعفر الصادق (ع) –انه اجتمع في بيت الله الحرام أربعة من مشاهير الدهرية (أي الزنادقة الذي يقولون بقدم الدهر) وأعاظم الأدباء في العصر العباسي، هم: عبد الكريم بن أبي العوجاء، وأبو شاكر الديصاني، وعبد المالك البصري، وعبد الله بن المقفع.فخاضوا في حديث الحج ونبي الإسلام، وما يجدونه من الضغط على أنفسهم، من قوة اهل الدين. ثم استقرت آراؤهم على معارضة القرآن، الذي هو أساس الدين ومحوره، ليسقط اعتباره من معارضتهم إياه، ومباراتهم له. فتعارض كل واحد منهم ان ينقض ربعاً من القرآن إلى السنة التالية، فإذا انتقض كله وهو الأصل، انتقض كل ما يبنى عليه او يتفرع منه.فتفرقوا على أن يجتمعوا في العام القابل.ولما اجتمعوا في الحج القادم،وتساءلوا عما فعلوه.

اعتذر ابن ابي العوجاء قائلاً: إنه قرأ الربع المخصص له من القرآن حتى وصل إلى قوله تعالى: **(لَو كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبحَانَ اللهِ رَبِّ العَرشِ عَمَّا يَصِفُونَ)**(1)، فأدهشته هذه الآية وأشغلته بلاغتها وحجتها البالغة .

واعتذر الثاني وهو أبو شاكر الديصاني قائلاً: إنه أدهشته آية **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسلُبهُمُ الذُّبَابُ شَيَئاً لا يَستَنقِذُوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطلُوبُ)**(2)، فأشغلته عن عمله.

وقال ثالثهم وهو عبد الملك البصري: ادهشتني آية من سورة يوسف: **(فَلَمَّا استَيأَسُوا مِنهُ خَلَصُوا نَجِيّاً)**(3)، فأشغلتني بلاغتها الموجزة عن التفكر في غيرها.

وقال عبد الله بن المقفع: أدهشتني آية نوح :**(وَقِيلَ يَا أرضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الْأمرُ وَاستَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ**

---

(1) الأنبياء،22.
(2) الحج،73.
(3) يوسف،80.

وَقِيلَ بُعْداً لِلقومِ الظَّالِمِينَ)، فأشغلتني عن الفكرة في غيرها. وهي الآية التي لما نزلت، انزلت قريش معلقاتها السبع عن جدران الكعبة.

قال هشام وإذا بأبي عبد الله الصادق (ع) يمر عليهم ويومئ إليهم قائلاً: **(قُل لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أن يَأتُوا بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لاَ يَأتُونَ بِمِثلِهِ وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيراً)**[1]، فنظر القوم بعضهم إلى بعض وقالوا: لئن كان للاسلام حقيقة لما انتهت أمر وصية محمد إلا إلى جعفر بن محمد، والله ما رأيناه قط إلا هبناه، واقشعرت جلودنا لهيبته، ثم تفرقوا مقرين بالعجز»[2].

فكما تلاحظ بأن آية واحدة قد استوقفت هذا الزنديق (الدهري) الذي يريد أن ينقض القرآن الكريم وهو عدو للإسلام وللقرآن الكريم ولكنه بليغ، ومع ذلك فآية واحدة استوقفته فأنهى معها حولاً كاملاً (سنة كاملة). ويستمر الجرجاني في الكلام فيقول: «إن شككت فتأمل: هل ترى لفظة بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت من الفصاحة ما تؤديه، وهي في مكانها من الآية، **(ابْلَعِي)** واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليه.. ومعلوم أن مبدأ العظمة في الآية في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم كان النداء بيا دون أي.. ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال ابلعي الماء ...إلى آخر ما قال.

يستدل على أن الكلمة ليس لها فصاحة ولا بلاغة في ذاتها أنَّ الكلمة تروق في موضع، ولا تروق في آخر في كلام الناس، فلو كانت الكلمة إذا حسنت كان حسنها من ذاتها، لاستحسنت دائماً، وما استهجنت أبداً.وينتهي من هذا إلى أنَّ جمال الكلام ليس في توالي ألفاظه في النطق، بل إن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل. ويسترسل الجرجاني في إثبات أنَّ الكلمات ليست لها فصاحة ذاتية، إنما بلاغتها في اجتماعها مع غيرها في تلاقي المعاني، وأنه ليس للألفاظ ولا للحروف حسن ذاتي منفرد، ولا قبح ذاتي منفرد، إنما حسنها في تلاقيها مع أخواتها في الدلالة

---

(1) الإسراء (بني إسرائيل)،88.

(2) الطبرسي، الشيخ أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب: الاحتجاج، النجف الأشرف. ج2/ ص 142 – 143.

الشهرستاني، السيد هبة الدين: المعجزة الخالدة، مطبعة المعارف، ط1، بغداد، 1951. ص 156.

وتساوق المعاني، وما تنتجه من صور بيانية، ومراتب أهل البيان في مقدار قدرتهم على اختيار الألفاظ المتآخية في معانيها»[1].

المبحث الثاني: نظرية الباقلاني

يرى الباقلاني أنّ الأساس في البلاغة هي فصاحة الكلمات، حيث يثبت أنّ لكل كلمة فصاحة بذاتها وأنّ الكلمات بذاتها تحمل الفصاحة وتعطي المعنى البلاغي، ولذلك فهو يرد الأساس في البلاغة إلى فصاحة الكلمات.

يرى الباقلاني أن للكلمات بذاتها فصاحة خاصة «وأنّ تخيّرها يدل على قدرة قائلها وعلو بيانه، فإذا كانت المعاني البلاغية لجملة القول، ففي اختيار الألفاظ المتناسبة في موسيقها وفي نغمتها وفي رنتها قوية أو هادئة على حسب المقام، فللفظ دخل في الاختيار»[2].

ويقول الباقلاني في هذا المقام: «قد علم أن تخيّر الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة»[3]، يعني يريد أن يردّ على نظرية النظم وأنّ الأساس في البلاغة هو النظم، فيقول إن تخيّر الألفاظ هي التي تعطي الجمال في الكلام لأنّ هذه اللفظة لها رنة قوية أو هادئة وأن تلك اللفظة جميلة وسهلة السماع دون تلك فهي فصيحة دون غيرها، فهذا الاختيار لهذه الألفاظ هو الذي يُكسب الكلام جمالاً وبلاغة، فلا يحتاج للإنسان أن يفكر في المعاني المبتكرة، فمجرد أن يختار هذه الكلمات حيث أن الكلمات بذاتها لها فصاحة ولها لحن ولها موسيقى خاصة ولها نغمة ورنة هادئة أو قوية.

ويتابع كلامه فيقول: «فإذا برع اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر»[4]، فقد يكون هناك معنى متداول ومتكرر وهذا المعنى قد يصوغه الإنسان بمختلف

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 74.
(2) المحص، د. عبد الجواد محمد: الجمال في القرآن الكريم، الإسكندرية، 2006. ص 55.
(3) الباقلاني، محمد بن الطيب: إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، ط5، القاهرة، 1997. ص 42.
(4) المصدر السابق، ص 42.

العبارات، فتجد أنّ الإنسان البسيط يعطيك نفس المعنى ولكن بعبارات بسيطة وبكلمات بسيطة وجُمل لا تشد انتباهك ولكن نفس المعنى يأخذه الشاعر فيصوغه بأبيات شعرية فيخلب لبّك ويُثير فيك الانتباه وتشعر بجمال الأبيات الشعرية مع أنه نفس المعنى، فهناك فرق بين المتحدث أن يكون فلاحاً أو يكون شاعراً.

هكذا نظرية الباقلاني حيث يعتبر أن الأساس في البلاغة هو الكلمات، يقول: «والأمر المتقرر المتصور، ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه - بأن التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وُجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر - فالبراعة أظهر، والفصاحة أتم»[1].

يعني أنّه بعد اختيار هذه الكلمات والألفاظ الفصيحة إذا توافقت مع المعاني والمعاني مع تلك الألفاظ، فتكون البراعة أظهر.

ثم يقول: «وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهى غرة جميعه، وواسطة عقده، والمنادى على نفسه بتميزه وتخصصه، برونقه وجماله واعتراضه في حسنه ومائه»[2]، فيريد أن يقول بأنّ الكلمة القرآنية اختيار هذه الكلمة في الكلام هو الأساس في البلاغة، وفصاحة الكلمة، أي أنّه يريد أن يقول أنّ للكلمة حسنٌ وجمالٌ ذاتي وهذا الحسن والجمال لا يأتي من وقوع الكلمة في الجملة – كما يرى الجرجاني - . هذا ما أراد قوله الباقلاني وهذه هي نظريته.

المبحث الثالث: الجمع بين نظرية الجرجاني ونظرية الباقلاني

هذه النظرية تجمع بين النظريتين السابقتين حيث تقول بأنّ للكلمة فصاحة حيث أن هناك كلمات فصيحة ليست غريبة ولا وحشية ومألوفة وسهلة النطق بينما هناك كلمات غريبة على السامع وغير مألوفة، ولكن ليس كل كلام الجرجاني صحيحاً في هذا المجال – الذي ذهب إلى عدم المفاضلة بين كلمة وأخرى وأنّ الكلمة ليست فصيحة بذاتها – حيث أن

---

(1) الباقلاني: إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص 42.
(2) المصدر السابق، ص 42 و43.

للكلمات تأثير في البلاغة وللكلمات بذاتها حسنٌ ويمكن أن نفاضل بين كلمة وأخرى.

كذلك هناك جمال آخر أخّاذ يأتي من خلال انسجام الكلمات مع بعضها البعض فتعطي جمالاً جديداً مضافاً إلى جمال الكلمة، فللكلمة حسن وللناظم لتلك الكلمات حسنٌ فتظهر عبارة جميلة مضافاً إلى جمال الكلمة.

نقرّب المعنى فمثلاً هناك حبات من الذهب وكل حبة مصاغة بشكل معين، والصائغ يريد أن يصوغ العقد منها، فمرة يأخذ الأشكال الجميلة المنتظمة ويصوغ عقداً، والحبة بذاتها يمكن أن نفاضلها بين حبة وأخرى حيث اختلفا في الشكل، باعتبار أنّ الكلمات تختلف بالشكل من حيث الحروف ومن حيث عدد الحروف، فالكلمات هي ليست كحبات اللؤلؤ المتساوية بالوزن والشكل واللون، فالكلمات مختلفة ويمكن أن نقارن ونقايس بين كلمة وأخرى ونفاضل بين كلمة وأخرى.

فهنا ووفقاً لهذه النظرية فإنها تجمع بين نظرية الجرجاني ونظرية الباقلاني. وهناك بعض البلاغيين تابعوا الباقلاني في نظريته ومنهم الجاحظ الذي يرى بأنّ للحروف والكلمات فصاحة بذاتها قبل أن تنتظم في الكلام وأنّ تخيّرها يدل على قدرة قائلها وعلو بيانه، علماً أن الجاحظ سابق للباقلاني وكأنّ الباقلاني قد تابع الجاحظ في ذلك، ويضربون مثالاً على ذلك ببيت من الشعر:

وقَــبــرُ حَــــربٍ بمكانٍ قَــفـــرٍ ولَيسَ قُربَ قَبرِ حَربٍ قَبرُ

حيث أن هذا البيت صعب جداً بالنطق ويكاد أنّ الإنسان لا يستطيع أن يكرّره إلا وأن يخطأ بالكلام، لأنّ تكرار الحروف جعلها غير متلائمة وغير سهلة بالنطق وذلك بتكرار الراءات والقافات في هذا البيت.

«وقد عقد ابن الأثير في كتابه «المثل السائر» فصلاً فيما ذُكر في فصاحة الكلمات وقبحها وفي رنينها وفي تآخي حروفها وقال: «إنّ من الكلمات ما له نغمة أوتار، ومنها ما له صوت حمار، وضرب على ذلك الأمثال، فقال: إن كلمة السيف لها مرادف، وهو الخنشليل، فهل هما متماثلتان في الفصاحة والنغمة الصوتية ؟! ومثل كلمة غصن، وكلمة

عسلوج بمعنى الغصن، فهل هما متماثلتان في النغمة وسهولة النطق ؟!»[1].

ومن خلال هذا العرض يتضح لنا أن للكلمات فصاحة بذاتها ولها حسن وجمال، وتزداد حسناً وجمالاً عندما يؤلف الناظم الكلمات فتأتي كل كلمة في موضعها المناسب وهذا ما نريده من النظم فتحدث البلاغة، كما هو الحال في الكلمات الشعرية فحينما تفكك البيت الشعري وتعطي لكل كلمة لوحدها لا تشعر بجمال ولا بلاغة في ذلك البيت ولكن عندما تقرأ بيت الشعر وتضع كل كلمة وضعها الشاعر بموضعها فعندذاك تشعر بحلاوة البيت وبجماله ويتجسد لك المعنى الذي من الممكن أن تعطيه للسامع بشكل آخر.

ممّن ناصر الباقلاني أيضاً هو الخطابي (ت 388هـ) الذي يرى أن الأساس في البلاغة يرجع إلى اللفظ، إلا أنّ الخطابي زاد على نظرية الباقلاني – الذي كان يرى بأن الأساس الوحيد هو الكلمة – بأن الكلمات ضمن الأسلوب. ولذلك يمكن أن نعتبر الخطابي من أصحاب النظرية الثالثة التي جمعت فيها بين الكلمات وبين الأسلوب (النظم).

قال الخطابي في رسالته: «واعلم أنَّ القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، متضمناً أصح المعاني مع توحيد له عزت قدرته وتنزيه له في صفاته ودعاء إلى طاعته وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيء منها في موضعه الذي لا يُرى شيء أولى منه ولا يُرى في صورة العقل أليق منه»[2].

أيضاً ممّن ناصر الباقلاني في هذه النظرية – التي تقول بأن الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم يعتمد على الحروف والكلمات – هو الرافعي الذي ناصر الباقلاني في هذه النظرية حيث جاء في كلامه بكتابه «اعجاز القرآن»:

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 75.
(2) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 77.

«لما قرئ عليهم القرآن رؤوا حروفه في كلماته وكلماته في جمله ألحاناً لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى وأنه أمر لا قبل لهم به؛ وكأن ذلك أبين في عجزهم حتى إن من عارضه منهم كمسيلمة جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها. وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع»(1).

النقطة الجوهرية التي أشار لها الرافعي أنّ العربي أوّل ما يلتفت إلى الرونق والظاهر فيشدّه ذلك الرونق، والرونق والظاهر يرجع إلى الألفاظ ولا يرجع إلى المعاني وبعد أن يقرع سمعه اللفظ فحينئذ يتدبر بعد ذلك بالمعاني التي ائتلف منها ذلك اللفظ أو تلك الألفاظ، فالمعاني تأتي – حسب رأي الرافعي – متأخرة عن الألفاظ، حيث أن الألفاظ هي أول ما تلج إلى أذن السامع ثم بعد ذلك يتدبر في معانيها. إلا أن الواقع هو أنّ اللفظة هي لباس ووعاء للمعنى وكلاهما يستلمهما السمع والذهن في آن واحد لأن السمع في النتيجة يؤدي إلى صورة ذهنية للسامع ويميز الذهن بين الكلمات الرنانة القوية المؤذية للسمع وبين الكلمات السهلة المنسجمة المتآلفة ذات الوقع الموسيقي المريح للنفس. وربما كان الرافعي مصيباً في هذه النظرة ولكن هذا لا يؤدي إلى أن نفصل بين الأساس البلاغي لتضافر الكلمات والنظم والأسلوب الذي يؤدى بها الكلام.

الخلاصة: أنّنا لا نستطيع أن نفكّك بين بلاغة الألفاظ والحروف من حيث القدرة الظاهرية والاشعاع النوراني الذي تشعه الكلمات والوقع الذي تتركه على النفس وعلى السمع من حيث النغمة والصوت وجمال اللفظ والمعنى الذي يتضمنه اللفظ، فلا نستطيع أن نفكّك بين الأمرين فكلاهما يصلان إلى النفس الإنسانية وكلاهما يعطيان الجمال الظاهري والباطني.

---

(1) الرافعي، مصطفى صادق: اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط9، 1973. ص 214

بعد أن بيّنا هذه النظريات الثلاث ننتقل إلى موضوع آخر نلقي فيه نظرات في ألفاظ القرآن الكريم، حيث ننظر إلى الألفاظ باعتبارها هي الوعاء للمعاني وهناك أمور كثيرة ينظر إليها من حيث اللفظ وقد عدّدها علماء البلاغة بعدة نقاط.

الفصل الثامن

النقد الأدبي عند العرب

قبل أن نذكر بعض الأمثال من الآيات القرآنية لابدّ أن بيّن بعض الشيء في قضية النقد الأدبي، وكيف أنّ العرب كانوا في الأسواق الأدبية والتجارية أيضاً لهم نقّاد ينقدون الشعر والخطابة، وكان هؤلاء النقّاد على درجة عالية من النقد.

إنّ الخنساء كناقدة تنقد كلام حسان بن ثابت – شاعر النبي (ص) – نذكر منها هاتين البيتين على سبيل المثال حيث قال حسان مفتخراً ينشد هذه الأبيات:

لنا الجَفناتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضُّحَى وأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدَةٍ دَمَا
ولَدْنا بني العَـنــقاءِ وابْــنَــيْ مُحــرِّقٍ فأكرِم بنا خالاً وأكرِمْ بنا ابْنَما

فهنا الشاعر يذكر «الجفنات» وهي الآنية التي يُنقل بها الطعام للضيوف ويصفها بـ«الغر» وهي بمعنى بياض الجبهة فيصفهنّ باللمعان وقت الضحى – أي بالنهار -، ثم يصف أسياف قومه بأنّهنّ في القتال عندما يستنجد بقومه أحد يقطرن من الدماء.

الخنساء تنتقد حسان في هذين البيتين فقالت: «ضعّفت افتخارك وأبرزته في ثمانية مواضع. قال: وكيف ؟

قالت: قلت «لنا الجفنات» والجفنات ما دون العشر، فقللت العدد، ولو قلت «الجفان» لكان أكثر. وقلت «الغر» والغرة البياض في الجبهة، ولو قلت «البيض» لكان أكثر اتساعاً. وقلت «يلمعن» واللمع شيء يأتي بعد الشيء ولو قلت «يشرقن» لكان أكثر، لأن الإشراق أدوم من اللمعان.

وقلت «بالضحى» ولو قلت «بالعشية» لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلت «أسيافنا» والأسياف دون العشر، ولو قلت «سيوفنا» كان أكثر.

وقلت «يقطرن» فدللت على قلة القتل، ولو قلت «يجرين» لكان أكثر، لانصباب الدم، وقلت «دماً» والدماء أكثر من الدم. وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدوك»[1].

---

(1) الرافعي: اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصدر سابق، هامش ص 180.

هذا الكلام من الخنساء يعطينا صورة للنقد الأدبي، وكيف أن العرب في ذلك الوقت ينقدون الشعر وينقدون الكلام، وعندما نذكر النقد وهذه الدقة في الكلام نقارن بين القرآن الكريم كيف أنه قرع أسماعهم وهم الأعداء الألداء لرسول الله (ص) وللإسلام ومع ذلك – على دقة نقدهم – لم يستطيعوا أن ينقدوا القرآن الكريم ولو بكلمة واحدة.

إنّ هذا يدلل بشكل قاطع على اعجاز القرآن الكريم، ونذكر مثالاً آخر للنقد العربي الذي امتاز به العرب وروح النقد والذوق الأدبي، وكان مشتهراً بين العرب. فنذكر بيتاً لأمرؤ القيس حيث قال في إحدى قصائده:

أغَــرّكِ مِـنّـي أنّ حُـبــّـــكِ قَـــاتِـلِـي

وأنّـكِ مَـهْـمَـا تَـأْمُـري الـقَـلْبَ يَفْعَـلِ؟

فقالوا في نقد هذا البيت – وهو من المعلقات –: «إنّ البيت لا يصدر من عاشق برح به الحب، أحس بلطف العشق، وقالوا: إن الغانية إذا لم تغتر بالحب ففيم تغتر، كأنه يقول لها: إن كنت مغرورة بحبي فإني تاركك، وهكذا، وما ذلك شأن المحب اللهج.

هؤلاء الذواقون للبيان الذين مرنت أسماعهم وألسنتهم على القول البليغ وإدراك مراميه، يستوي في ذلك أهل المدر وأهل الوبر، فأهل الوبر استفرغوا ذكاءهم في تعرف الكلام البليغ، والترنُّم بالشعر رجزه وقصيده، ولم يكن عندهم ما يزجون فيه وقتهم إلّا سماع الكلام الطيب، وترديده، وروايته ونقله، ويرطبون به ألسنتهم في حلهم وترحالهم، وانتجاعهم إلى مواطن الكلأ وينابيع المياه، قد صفت نفوسهم صفاء السماء التي تظلهم، مع قوة الشكيمة التي اكتسبوها من وعورة الصحراء ولأوائها، وقسوة الحياة وغلظتها، ومع الرضا والقناعة التي اتسمت بها النفس العربية. وأهل المدر وهم سكان القرى كأهل مكة والطائف ويثرب، وقد كانوا قوماً تجرا. من غير أن يخلوا من الشكيمة العربية، وقد كانت القبائل تجيء إليهم، أو يلتقون بهم في مواسم الحج وأسواقه التي كانت تعقد لتبادل السلع، وتبادل الفكر، والكلم المحكم، ويكون التباري بين الشعراء والخطباء، وكانت مكة وما حولها تشبه بعض الحدائق العامة في البلاد الأوروبية تلقى فيها الخطب،

ويتبارى فيها المتكلمون، وحسبك أن تعلم أن قسَّ بن ساعدة الإيادي ألقى خطبته التي ذكر فيها النبي (ص) في عكاظ في موسم الحج.

هؤلاء الذين كانت الكلمة البليغة تقع في نفوسهم موقع الموسيقى فتطربهم، والقصيدة الطويلة فتهزهم، وكان حداؤهم لإبلهم رجزاً، وتدليلهم لأبنائهم أنماطاً من البيان، هؤلاء هم الذين خاطبهم القرآن، فرأوا فيه نوعاً من البيان لم يعرفوه من قبل، فانجذبوا إليه، وأقروا بتأثيره، ولم يستطيعوا أن يماروا فيه، بل خروا صاغرين أمام بلاغته، معترفين بأنه يسمو على قدرهم، ويعلو على طاقتهم، كفروا بما يدعو إليه، ولم ينكروا تأثيره، لاحوا النبي (ص) في دعوته إلى التوحيد، وتماروا فيه مع بداهته، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا من القرآن، ولما دبّروا وقدروا في أمره، قالوا: إنه سحر يؤثر، وذلك يتضمَّن الإقرار باستيلائه على نفوسهم، وعلوه على كلامهم، وإن كان من نوعه، وسموا معانيه، وإن كانت حروفه في صياغة من حروفهم وكلماتهم»[1].

هذه المقدمة ذكرتها لكي أبيّن أن العرب كانوا على درجة دقيقة من النقد، وعندما قرع أسماعهم القرآن مع هذا تعجبوا وتحيّروا ومَن لم يؤمن به قال بأنّه سحر، فلم ينتقدوا ولا نقداً واحداً لأيات القرآن، لا معنى ولا لفظاً وهذا معناه أن القرآن الكريم كان في قمة الاعجاز والبلاغة، فقد رأوا فيه نوعاً من البيان لم يعرفوه من قبل ولم يستطيعوا أن يماروا فيه بل خروا صاغرين أمام بلاغته معترفين بأنه يسمو على قدرهم ويعلو على باطنهم، حيث أن هذه البلاغة لا قِبلَ لهم بها فكفروا بما يدعو إليه ولكنهم لم ينكروا تأثيره البلاغي ولم يستطيعوا أن ينالوا من القرآن الكريم. ولقد ذكر البلاغيون في وجوه الاعجاز البلاغي ستة وجوه:

1- الألفاظ والحروف و الأسلوب وما يكون فيه من صور بيانية

2- التصريف في المعاني

3- النظم وفواصل الكلم

4- الايجاز المعجز والحكم والأمثال

5- الاخبار عن الغيب

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 71.

6- جدل القرآن الكريم وهي المواطن الجدلية التي تحدث بين المتحاورين.

هذه هي الوجوه الستة وقد ذكرنا منها الألفاظ والحروف وبيّنا الأسلوب، وسنتناول النقاط الباقية لاحقاً. ولكن لابد أن نلقي نظرة أو نظرات في ألفاظ القرآن الكريم ونأخذ مثالاً على ذلك فنبتدئ بالآية المباركة في قوله تبارك وتعالى: **(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَريَةً كَانَت آمِنَةً مُّطمَئِنَّةً يَأتِيهَا رِزقُهَا رَغداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَت بِأنعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوفِ بِمَا كَانُوا يَصنَعُونَ)**[1].

نأخذ هذه الآية مثالاً كي نتبيّن كيف أنّ اللفظة في القرآن الكريم لها معنى قائم بذاته وأنّ للفظ اشعاعاً وعندما يتضافر اللفظ مع اللفظ الآخر تتضافر الكلمات في الجمل ويساعد بعضه بعضاً في المعاني العامة والأسلوب والعبارات الجامعة فحينئذ من هذا وذاك تتكون البلاغة ويكون اللفظ أساساً للبلاغة، وكذلك تضافر الألفاظ بالجمل والعبارات أساساً للبلاغة أيضاً. ففي هذه الآية المباركة نريد أن نبيّن ما هي مواطن البلاغة فيها.

أولاً عندما نتدبر الآية المباركة نبتدئ بقوله تعالى: **(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَريَةً كَانَت آمِنَةً مُّطمَئِنَّةً)**، اللفظة الأولى كلمة **(آمِنَةً)** ثم لفظة **(مُّطمَئِنَّةً)** ونستمر بهذه الكلمات.

كلمة «آمنة» فالأمن معناه عدم الخوف من مُغير يُغير عليها أو عدو، ولعل ذلك إشارة إلى مكة المكرمة أو القرية التي تقصدها الآية الكريمة، لأن هناك آية أخرى تقول: **(أَولَم يَرَوا أَنَّا جَعَلنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِن حَولِهِم أَفَبِالبَاطِلِ يُؤمِنُونَ وَبِنِعمَةِ اللهِ يَكفُرُونَ)**[2]، فهنا في هذه الآية الكريمة نجد إشارة إلى نعمة ليست لغيرهم لأنّ الله تعالى أعطى أهل مكة نعمة من الخوف وأطعمهم من الجوع، وكذلك في قوله تعالى: **(لِإِيلافِ قُرَيْشٍ* إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا**

(1) النحل،112.
(2) العنكبوت،67.

الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ[1]، فقد اختصوا بهذه النعمة عن غيرهم من قرى الجزيرة.

الكلمة الثانية (**مُّطْمَئِنَّةً**) فقد أعطى تعالى صورة عن هذه القرية بأنها آمنة ونعمة ثانية التي بيّنتها الآية الكريمة وهي (**مُّطْمَئِنَّةً**)، فمعنى الاطمئنان يتصل بالنفس، أي ضد الاضطراب والقلق والشك والتردد ففي قول لأمير المؤمنين الإمام علي (ع): «إن للجسم ستة أحوال: الصحة والمرض والموت والحياة والنوم واليقظة. وكذلك الروح: فحياتها علمها وموتها جهلها، ومرضها شكّها، وصحتها يقينها، ونومها غفلتها، ويقظتها حفظها»[2].

فالشك والاضطراب والتردد كلّه نقيض الاطمئنان، فالآية الكريمة بيّنت هذه النعمة حيث أن الاطمئنان يتصل بالنفس فهي فقد منح الله تعالى القرية القرار والسكون والدعة، ومع هذه الدعة يقويها ويثبتها مع ما أعطائهم من سلطان أدبي على العرب حيث أن قريش لها في مكة مكانة محترمة إضافة إلى أن رزقها يأتيها وهم في مكانهم فلا ينتقلون من مكان إلى آخر.

فكل هذا يشع من كلمة (**مُّطْمَئِنَّةً**)، فهذه كلمة واحدة ولكن أعطت للسامع صورة جميلة وواضحة وقفت فيها هذه النعمة التي تعيشها هذه القرية.

الكلمة الثالثة (**يَأْتِيهَا رِزْقُهَا**)، فمرة أنت تطلب الرزق وتجري وراءه وتسعى وتتعب في طلبه، ومرة (**يَأْتِيهَا رِزْقُهَا**) فتبيّن الآية الكريمة سهولة الحياة والعيش وأن الرزق هو يأتي لا أنّك تذهب إليه ولا يأتيهم كسائر العرب بالتنقل في الصحراء فلا ينالون الحياة والطعام إلا بشق الأنفس.

الكلمة الرابعة (**رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ**)، والرغد معناه الرزق الطيب المذاق المريء أي كل الصفات الجميلة تضمنتها كلمة «رغد» فتقول «إنّ فلان عيشه رغد» أي أن رزقه سهل وواسع، فهذه الكلمة تضمنت عدة

---

(1) قريش،1 – 4.
(2) بحار الأنوار، مصدر سابق،ج14/ ص 398.

معاني فهذا هو الاعجاز البلاغي حيث أنّ كلمة واحدة تُعطي عدة معاني يصف فيها هذه القرية ولبيان هذه الأنعم التي أنعمها تعالى على هذه القرية.

فهذه الكلمات الأربعة (**آمِنَة**)، (**مُّطمَئِنَّة**)، (**يَأتِيهَا رِزقُهَا**)، (**رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ**)، فتراها متآخية في معانيها ومتلاقية في ألحانها ومنسجمة في نغماتها، وكل كلمة منها تعطي صورة بيانية. وأن مجموع الكلمات مع ما تشعّه كل واحدة منها معانٍ وصور تصوّر حال جماعة من الناس على هذه الأمور المجتمعة غير المفترقة وكلها فيوض من أنعم الله تبارك وتعالى، ومع ذلك تكفر بهذه النعم فلا تشكر وتجحد الحق ولا تؤمن.

هذه الصورة التي بيّنتها الآية الكريمة بهذه الوجازة بحيث لو حذفنا أي كلمة من الآية لاختلّ المعنى ولو أبدلنا هذه الكلمة بمرادفها لأختلّ المعنى أيضاً، فاختيار هذه الألفاظ وتضافر هذه الكلمات بنسيج واحد يعطي هذا الجمال البلاغي الخلاب الذي يُوصل ويبلغ المعاني إلى ذهن السامع بأيسر الطرق وبأوضح الأساليب، فلا يجد السامع جهداً وعناءاً في استلام المعنى وفي فهمه.

وبعد أن تعطينا هذه الآية المباركة الصورة لهذه القرية بهذه الكلمات – هذه الصورة الجميلة الرائعة – اختصرت بهذه الكلمات النعم التي أنعمها الله تبارك وتعالى على هذه القرية فنأتي إلى الجانب الثاني من الآية (**فَكَفَرَت بِأَنعُمِ اللهِ**)، أنّ هذه القرية قد كفرت بأنعم الله تبارك وتعالى، فكان جزاءهم (**فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوفِ بِمَا كَانُوا يَصنَعُونَ**)، فالآن نبيّن النظرات في هذه الكلمات القرآنية وما هو وجه البلاغة وما هو الاشراق ؟

الكلمة الأولى (**فَأَذَاقَهَا اللهُ**)، إن التعبير بـ«أذاق» إشارة إلى أنّ الإيلام مسّ نفوسهم أي أن (**لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوفِ**) مسّ نفوس هؤلاء وآلمها بعد أن كانوا في رغد من العيش فصاروا يذوقون الضرّ ويجدون بطلب الرزق في جهد وعناء بعد أن كان الرزق يأتيهم وليس من مكان واحد بل من أماكن متعددة، فأصبحوا هم يجرون وراء الرزق ويطلبونه بجهد وعناء وكد، ومع هذا لا يجدونه فوصفهم الله بـ(**لِبَاسَ الجُوعِ**).

يقول الزمخشري[1]: «الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسّ الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه العذاب: شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع»[2].

«ونرى من التعبير والتقابل أنهم بعدما سكن قلوبهم من اطمئنان، وما كان من العيش الرغد ذاقوا الجوع، وبما منحوا من أمن ذاقوا الخوف، وهكذا تجد التقابل»[3].

الكلمة الثانية (**لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوفِ**)، لباس مفعول به للفعل «أذاق» وهو مضاف، و«الجوع» مضاف إليه و«الخوف» معطوفة على «الجوع»، وفي كلمات هذه الآية الكريمة صورة بيانية رائعة. «فهي تصور الجوع والخوف كأنَّه لباس لبسهم وأحاط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، لا يخرجون منه إلّا إليه، ولا يدورون إلّا في دائرته، وإن ذلك بلا ريب يفيد الإحاطة الشاملة الكاملة التي لا يستطيعون منها فكاكاً، وهذا يفيد استمراره، وتجدده آناً بعد آنٍ، ولقد قال الزمخشري: وإنَّ اللباس قد شبَّه به لاشتماله على اللابس، ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وأمَّا إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع عبارة عمَّا يغشى منهما ويلابس، كأنه قيل: ما غشيهم من الجوع والخوف. إنّ في الكلام صورة بيانية تصوّر حالهم بعد الأنعم التي أنعم بها عليهم، وكفروا بها من أنهم في صورة من كان لابساً للجوع والخوف، وهم يذوقون، كمن يلبس ملبساً كله قتاد، يجرح أجسامهم، ويدمي جلدهم، بيد أن هذا لا يدمي الجلد، ولكن يمسّ الحشا بالجوع، والنفس بذهاب الأمن والاستقرار، وإنا نجد أن هذه الصورة البيانية التي يصورها القرآن قد تضافرت الكلمات في تكوينها فاشترك فيها التعبير بأذاقهم، والتعبير باللباس، وكون اللباس جوعاً وخوفاً، ولباس الجوع والخوف أشد إيلاماً من لباس الشوك؛ لأنَّ الشوك يؤذي الجلد حسّاً، ولباس الجوع والخوف يؤذي الجسم ويؤذي النفس، وإذا قوبلت هذه الصورة عند الكفر بالصورة الأولى من أمن واطمئنان، ورخاء في العيش

---

(1) وهو من علماء البلاغة الكبار (ت 538هـ) وكان إمام عصره في البلاغة.

(2) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت – لبنان، 1407هـ. ج2/ ص 639.

(3) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 112.

وطيبه واتساعه، وَجَدت الفارق بين صورة النعمة التي كفروا بها والشقاء الدائم بعد الكفر»[1].

انظر إلى هذه الصورة الرائعة التي اختزلت بهذه الكلمات القليلة ولكن أعطت معاني سامية وجليلة فتصوّر للسامع كيف أنّ الإنسان إذا كفر بأنعم الله تعالى ماذا يلاقي وكيف تتغير النعم، فسبب هذا التغير بالنعم هو الكفر وكذلك تفعل المعاصي حيث أن لكل معصية أثراً على الإنسان، فمعصية تبعده عن طاعة الله ومعصية تحرمه من المستحبات التي كان يؤديها، ومعصية تحرمه عن الواجبات فتزداد المعاصي حتى تحرمه عن التوحيد.

فإذا قوبلت هذه المعاني مع المعاني الأولى من الأمن والاطمئنان ورخاء العيش والاتساع في الرزق، تجد فارقاً بين صورة النعمة التي كفروا بها والشقاء الدائم بعد الكفر.

ومن هذا المثال في الآية المباركة نتبيّن بشكل واضح كيف أن الكلمات في الآية الكريمة لو استبدلت بكلمات أخرى لما أعطت نفس المعاني ولما جاءت منسجمة بلفظها بهذه السلاسة واليسر، فهنا سر الاعجاز البلاغي.

طبعاً هذا الكلام ليس مقتصراً على آية واحدة، وبدون اختيار وانتقاء لو أخذنا أي آية من القرآن الكريم فنجدها هكذا بالألفاظ والمعاني، فتجد القمة في البلاغة بحيث لا يستطيع البلاغيون أن يدركوا غور وأبعاد بلاغة القرآن الكريم، وإنما يقتربون تدريجياً كي يتلمسوا بعض النقاط التي يدركونها إلا أنّ القرآن متجدد دائماً.

إنّ هذا جانب واحد من جوانب الاعجاز البلاغي فكيف إذا نظرنا إلى الوجوه الاعجازية الأخرى كالاعجاز في التشريع والاخبار بالمغيبات وبأنّه يواكب التقدم الثقافي والفكري ويفوق عليها.

نأخذ مثالاً آخر نبيّن فيه كيف أنّ القرآن الكريم فوق طاقة البشر في كل ما فيه من البلاغة، قال تعالى: **(وَإِذَا أَنعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعرَضَ وَنَأَى**

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 112.

بجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً* قُلْ كُلٌّ يَعمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُم أَعلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهدَى سَبِيلاً)[1]، فالآية الكريمة تبيّن صورة عن نِعَم الإنسان وكيف يقابلها، فنقف عند هذه الآية الكريمة وننظر في كلماتها وتآخي نغمها وتآخي معانيها وتصويرها في جملتها للنفس الإنسانية.

الكلمة الأولى (**أَنعَمنَا**) «فقد أضافها الله تعالى إليه، وإنعام الله تعالى فيض وإسباغ يغمر صاحبه، والإنعام من الله تعالى يقتضي الشكر، كما قال تعالى: **(لَئِن شَكَرتُم لأزِيدَنَّكُم وَلَئِن كَفَرتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)**[2] وكان هذا يقتضي إقبال الإنسان عليه سبحانه، والإقبال بالطاعة، ولكنَّه لم يقبل بل كفر وطغى أن رآه استغنى»[3].

إنّ الآية الكريمة تريد أن تبيّن موقف هؤلاء الذين كفروا بأنعم الله ولم يقابلوا الانعام بالشكر، فقال تعالى (**أَعرَضَ وَنَأَى بجَانِبِهِ**) نأى أي بعُد وأعرض يعني لم يعط المنعم وجهه بل أعرض عنه وصد عنه، فأولاً قد تخلى عن الشكر وثانياً الإساءة باعراضه، وألحقها بصورة أخرى (**وَنَأَى بجَانِبِهِ)**، فبدل من الشكر لله تعالى والاقبال عليه بينما قابل ذلك بالعكس وهو الاعراض والبعد.

الكلمة الثانية (**أَعرَضَ**) «وهي كناية عن البعد عن الله تعالى وعدم الإقبال عليه، تعالى الله علوّاً كبيراً، وأصل أعرض في المعنى الحسيّ أن يولّي عرض وجهه بألّا يقبل على الله تعالى، ويطلب المزيد من النعم بالطاعات يقدمها، ويحب الله تعالى ويخلص له إذ أنعم، ولكنَّه يظن أنه استغنى، وعند ظنّ الاستغناء يكون الطغيان، ويكون ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ووراء ذلك الفساد الكبير والشر المستطير»[4].

الكلمة الثالثة (**وَنَأَى بجَانِبِهِ**) «النأي هو البعد، وكلمة بجانبه، مؤدَّاها اتخاذ جانب آخر غير جانب الله تعالى، فيسير في ضلاله البعيد، ويقول الزمخشري:

---

(1) الإسراء (بني إسرائيل)،83 و84.
(2) إبراهيم،7.
(3) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 113.
(4) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 113.

إن كلمة **(وَنَأَى بِجَانِبِهِ)** تأكيد لمعنى أعرض. ونقول: إنها تأكيد لمعنى الإعراض من حيث إنه الخطوة التالية بعد الإعراض، فالإعراض عن الكلام عدم الإصاخة إليه، وعدم الالتفات إلى دعوة الحق، وأنَّ هذه خطوة تكون من بعد أن يبتعد عن الله تعالى ويجافيه، وترى من هذا أنَّ الكلمات من حيث السياق يأخذ بعضها بحجز بعض في نغم مؤتلف، من حيث إن كل معنى يعقبه أخ مترتب عليه متناسق معه.ومن مجموع هذه الكلمات يتبيِّن كيف كان أثر النعمة كفراً بها، وكيف يتدرَّج الكفر بها، حتى يكون البعد التام عن الله، فتكون الطاعة في جانب، ونفس المنعم عليه في جانب آخر، وهو جانب العصيان والضلال البعيد، ثم الطغيان من وراء ذلك.

الصورة البيانية من هذا الكلام قد تضافرت في تكوينها الألفاظ كلها مجتمعة، وكل كلمة صورة بيانية في ذاتها، فإنعام الله تعالى يعطي صورة بيانية للمنعم وفيض نعمه تعالى، والإعراض بتلقيها بجانب الوجه صورة حسية، ثم النأي من بعد ذلك.هذه صورة المنعم عليه في جحود نفسه، وعدم التفاتها إلى الاعتراف بالنعم وشكرها، مع أنَّ شكر المنعم واجب عقلاً، وهو منبعث من الضمير الطيب الطاهر.لننتقل من هذه الصورة التي تصورها الكلمات منفردة؛ إذ كل كلمة صورة بيانية رائعة، ثم هي بتضامنها وتلاؤمها تعطي صورة كاملة لنفس كفرت بأنعم الله وبطرت معيشتها واتخذتها سبيلاً لظلم العباد، والكفر برب الناس ملك الناس»[1].

ثم ننتقل إلى بقية الكلمات، وكيف أنّ هذا المعرض عن كلمات الله تبارك وتعالى قد مسته حالة أخرى من الشر **(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً)** يعني هو في حالة الانعام معرض ومبتعد، وفي حالة مسه البلاء ومسته الضراء فإنّه يعيش حالة اليأس.

ثم تتجه إلى صورة تلك النفس حيث في الحالة الأولى حالة النفس وقد أنعم الله تعالى عليها، وفي الثانية قد مسّها البلاء والضراء. «وهنا كلمتان كلتاهما تصور صورة من نزول الضر، وأعقابه في النفس الجاحدة، الكلمتان هما**(مَسَّهُ الشَّرّ)** و**(كَانَ يَؤُوساً)** إنَّ المسّ وهو الإصابة بالشر، وإنَّ التعبير بمسٍّ يفيد أن الأصابة بالشر ولو خفيفة تصيب من النفس ما

---

(1) المصدر السابق، ص 114.

تجعلها يائسة، والشر كل ما لا يرغب فيه، ويطلق على الأمور الضارة حسيّاً ونفسيّاً، وعلى الأمور القبيحة خلقيّاً.

والتعبير بالشرِّ هنا يشمل الضار؛ كقوله: **(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَو قَاعِداً أَو قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفنَا عَنهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّم يَدعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ)**[1]، ويشمل نتائج الطغيان والعصيان، فيكبه الله تعالى على وجهه، ويشمل العقاب الذي ينزله جزاءً لما ارتكب، وإذا كان قد جحد بنعمة الله تعالى؛ إذ أنعم بها وأعرض، ونأى بجانبه، فإنَّ النفس التي تطغى بالنعمة تذل وتهون وتضعف بسلبها، ويصيبها اليأس المطلق إذا نزلت بها النقمة»[2].

هنا آية كريمة تقول **(ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحرِ بِمَا كَسَبَت أَيدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ)**[3]، إنّ الفساد هنا ليس معناه المنكر أو السيئات، فالفساد هنا هو فساد الطبيعة فالبر يفسد والبحر يفسد، فإذا كان البر يعطي الخيرات من النباتات والآبار فيخرج الماء بسهولة، فإذا كان الماء يخرج من الأرض بعمق 10 أمتار فيصير إلى عمق مائة متر، وإذا كان البحر يعطي من الخيرات كاللؤلؤ والأسماك وما شاكل ذلك فيُصبح الشيء نادر وقليل، والأمطار تصبح مثلاً ملوثة والهواء يفسد، وكذلك طبقة الأوزون. فهذا الفساد الذي يظهر هو **(بِمَا كَسَبَت أَيدِي النَّاسِ)** أي بمنكراتهم ظهر هذا الفساد في البر والبحر، ثم تقول الآية **(لِيُذِيقَهُم بَعضَ الَّذِي عَمِلُوا)** فهذا بعض من البلاء وليس كلّ البلاء وإلا لكان البلاء عظيماً وشديداً.

إنّ الله تعالى أنعم على الإنسان وهذا الإنسان قد أعرض ونأى بجانبه فإنّ النفس التي تطغى بالنعمة تذل وتهون وتضعف بسلب النعمة، فتأتي الكلمة الثانية **(كَانَ يَؤُوساً)** لتصف حالة هذا الإنسان بعد أن مسّه الضر فيعيش حالة اليأس.

---

(1) يونس،12.

(2) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 115.

(3) الروم،40.

«وهنا نجد كلمة كان الدالة على اللزوم والاستمرار ككان في قوله تعالى: **(وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً)**[1]، وكلمة يئوساً بصيغة المبالغة الدالة على لزوم اليأس وإيغاله في النفس، وعدم افتراقه عنها، فيكون في حال بؤس مستمرٍّ، ويأس دائم، يكفر إذا أنعم الله عليه، ويصاب بالطغيان، ويكفر إذا اختبره الله تعالى بالشر يصيبه. ولا شك أنَّ هذه الجمل السامية والكلمات تصور حال إنسان غير قارٍّ ولا ثابت، تبطره النعمة، ويوئسه الاختبار، وكل ذلك في ألفاظ منسجمة في نغماتها، متضافرة في معانيها، تدل على النفس المنحرفة وتصورها»[2].

ثم ختم الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بقوله: **(قُلْ كُلٌّ يَعمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُم أعلَمُ بِمَن هُوَ أهدَى سَبِيلاً)**. «وهنا نجد النص الكريم يفيد ما يدل على أنَّ الناس جميعاً ليسوا سواء في ذلك، فمنهم شقي على الصورة التي ذكرها سبحانه، ومنهم سعيد، وهم الصابرون الذين لا تضطرب نفوسهم بنازلة تنزل، ولا يطغون بنعمة تسبغ، وكأنَّ هذه الجملة في موضع التخصص من عموم الإنسان المذكورة أولاً كالاستثناء في قوله تعالى: **(وَلَئِن أذَقنَا الإنسَانَ مِنَّا رَحمَةً ثُمَّ نَزَعنَاهَا مِنهُ إنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ* وَلَئِن أذَقنَاهُ نَعمَاء بَعدَ ضَرَّاء مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ* إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغفِرَةٌ وَأجرٌ كَبِيرٌ)**[3].

والكلمة السامية **(قُل كُلٌّ يَعمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)**، نجد فيها ثلاث كلمات منها ينبثق نور، فالأمر للنبي (ص) بأن يقول ذلك، فيه ما يصور أنَّ بعض الناس كذلك، وأنَّ في الناس من ليسوا كذلك، فدلَّت كلمة **(قُل)** التي تتضمَّن الرد على هذا الاعتراض المفروض، وانتقل الكلام من ضمير المتكلم من الذات العلية إلى الخطاب الذي أمر به النبي (ص)؛ لأنَّ الأمر تنبيه يتولَّاه صاحب الرسالة المتكلّم عن الله نازلاً إلى مرتبة المسترضينليواجههم بالرد، وفي ذلك فضل تنبيه وتقريب، وذات الانتقال من المتكلم إلى المخاطب فيه تجديد بياني، وتصوير بلاغي، والشاكلة - الهيئة والصورة والسجية-

---

(1) النساء،96.
(2) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 115.
(3) هود،9 – 11.

والمنهج الذي يخطه لنفسه ويسير عليه من الضلالة كالأولين، والهدى للمهتدين، والشاكلة تطلق على الطريقة، ويقول الزمخشري: إنها من قولهم: طريق ذو شواكل، الطرق التي تتشعب منها.

في هذا الكلام معانٍ دقيقة تنبعث من صور الكلمات، ومرامي العبارات وحسن المقابلات، إنَّ الناس قسمان: قسم شاكلته تلقى النعمة بالإعراض، ووراء الإعراض الظلم والطغيان والفساد في الأرض، وقسم صابر ضابط لنفسه لا تبطره النعمة، بل يصبر عليها، فيطيع ويقوم بحق شكرها. والأوّل مضطرب النفس غير منضبط القلب، تطغيه النعمة فيستكبر، وتئوته النقمة فيكفر باليأس من رحمة الله»[1].

ونريد أن نبحث عن المعاني التي شعت من هذه الكلمات في قوله تعالى: **(فَرَبُّكُم أعلَمُ بمَن هُوَ أهدَى سَبِيلاً)**، «أولاً: الفاء التي تفيد ترتيب الجزاء على الأعمال، وثانياً: التعبير بربكم الذي فيه الإشارة إلى أنَّه خلق فسوَّى، وهو المربي المكمل الهادي كلاً إلى غايته.وثالثاً: ترتيب العلم الكامل على كونه الخالق، ورابعاً: ذكر العلم الكامل بأفعل التفضيل الذي يدل على أنه لا علم فوقه إن كان ثمَّة تفاضل، وخامساً: التعبير عن الجزاء بأنه أثر الهداية، وأنَّ الله تعالى أعلم بالمهتدين، وسادساً: التعبير بأفعل التفضيل في أهدى، أي: إنه العالم بمن اهتدى بعد أن يغفر الله، وسابعاً: في التمييز بكلمة سبيلاً، وفيه بيان بعد نوع من الإبهام، وكذلك يكون العلم متمكناً فضل تمكن، علم بالهداية وعلم بمنهاجها، وهو السبيل القويم»[2].

هذه الكلمات القليلة التي شعّت في هذه الآية المباركة بقوله تعالى: **(قُل كُلٌّ يَعمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)**، والشاكلة – كما ذكرنا سابقاً – تأتي بمعنى السجية والطريقة، أي كلٌ يعمل على طريقته وعلى سبيله، وآخر الآية الكريمة **(فَرَبُّكُم أعلَمُ بمَن هُوَ أهدَى سَبِيلاً)** فكأن الشاكلة هنا يراد بها السبيل، فالله تعالى أعلم بمَن عمل على طريقته سواء كان على هدى أو على ضلال، فلأنه الرب فهو الأعلم ولأنّه الخالق فهو الأعلم بمَن هو أهدى سبيلا، فأيهما أهدى الذي يشكر النعمة أم الذي يصد ويُعرض ؟! فهذه

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 115 – 117.
(2) المصدر السابق، ص 117.

الكلمات القليلة تضمنت هذه المعاني الكثيرة، وأكثر من هذا بكثير حيث أنّ للقرآن الكريم ظاهر وباطن ومحكم ومتشابه.

نذكر أيضاً آيات أخرى يتضح فيها بلاغة الكلمات والأساس في الاعجاز البلاغي، فنأخذ قوله تعالى: **(وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)**(1)، قسم بالصبح في وقت انبلاجه ووقت تنفسه، وهذه الآية المباركة من الآيات التي تشع فيها أمور الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

انّ القسم ابتدأ بالصبح ولم يُقسم هنا بالفجر، وهناك فرق بين القسم بالفجر وبين الصبح علماً أن الصبح يرادف الفجر، فلماذا أقسم تبارك وتعالى بالصبح ثم أردفه تنفّس ولم يقسم بالفجر ولم يتبعها بالتنفس ؟! فلو وضعنا كلمة الفجر بدلاً من كلمة الصبح مع أنها مرادفة لها فإنه يحدث خلل بالمعنى ولا يصح مجيء تنفس أو لا يعطي المعنى المراد من الآية المباركة.

«الكلمة الأولى: وهي **(الصُّبْحِ)**، فإنَّها تدل على النور الذي يتخلَّل الظلمة، ويسري فيها شيئاً فشيئاً، وينبعث في هذا الوجود فيملؤه نوراً، وتنبعث من بعده الحياة، ويخرج الناس إلى معايشهم بعد سبات الليل وسكنه، وما يغشى به الكون من لباس الظلمة.

لا شكَّ أن كلمة الفجر قد تدلُّ على بعض معاني كلمة الصبح، والعلماء يعدونهما من المترادفين، ولكن عند التحقيق نجد كلمة الفجر تدل على معنى شق الظلمة، وعلى مجرَّد ابتداء نهاية الظلمة، ولذلك يقترن بها ذكر الليالي، كما قال تعالى: **(وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)**(2)، فقد كان ذكر الليالي مع الفجر متناسباً؛ لأنَّ الليل متآخٍ مع الفجر في معناه، وقصد به مجرد نهاية الليالي.

لكن كلمة الصبح لوحظ فيها الإشارة إلى ابتداء النهار، فإذا كان وقت الفجر والصبح واحداً فإنَّ الفجر فيه بيان إنهاء الليل، والصبح ابتداء النهار، ولذا يستهجن الناس أن يقال طلع الفجر، ولا يقال طلع الصبح، بل

---

(1) التكوير،18.
(2) الفجر،1 – 3.

يقال أشرق الصبح، وهنا نجد المعنى واحداً في الجملة، ولكن الدلالة اللغوية الدقيقة مختلفة، فهذا إشراق وذاك إنهاء»[1].

هذا ما يخص الكلمة الأولى **(الصُّبْح)** واستعملت هنا في معناها الدقيق، ولو أبدلناها بغيرها فحينئذ لا تسد تلك الكلمة المبدلة مسد هذه الكلمة، فانظر إلى هذا الاختيار الدقيق لهذه الكلمة وأنها وُضعت في موضعها وهذا هو الاعجاز البلاغي وهذه هي القمة في البلاغة.

ننتقل إلى الكلمة الثانية وهي **(تَنَفَّس)** «فإنَّ كلمة التنفس في ذاتها تدل على بدء مظاهر الحياة شيئاً فشيئاً؛ وذلك لأنَّ أصل التنفس من النفس، وهي الحياة، وهي أيضاً الريح، وهي الحركة الدائمة المستمرة في الداخل والخارج، فهي تشمل ما يدخل في النفس من أسباب الحياة، وما يخرج منها لتستمرّ الحياة، ويقال: نفّس عني، أي: فرج عني، وبذلك يكون كلمة التنفس يندرج فيها ثلاثة معانٍ تتصل بالحياة الدائمة المستمرة، أولها: التنفس بمعنى الحياة، وثانيها: حركتها واستمرارها، وثالثها: تدرجها في الظهور شيئاً فشيئاً، ولو أنك وضعت كلمة أشرق بدل تنفّس، كأن يقال ولكلام الله تعالى المثل الأعلى: (والصبح إذا أشرق، أو أصبح أو أنار أو أضاء)، فإنَّ كلمة منها أو كلمات لا تقوم مقام تنفس، ولا تغني غناءها.

لو أننا تركنا لفظ تنفس بانفرادها، وتابعناها مقترنة بكلمة الصبح، وهو النور الذي يبتدئ به النهار، ونظرنا ما يصوره قوله تعالى: **(وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّس)**، ورأينا كل حي في الوجود، يفيض عليه الإصباح بالعمل والحركة، فالندى يصيب الزهور، والضوء يضيء الحدائق الغناء، والطيور تزقزق بموسيقاها، وينبعث كل من في الوجود خارجاً من لباس الليل إلى معاش النهار، فالزارع يخرج إلى حقله، والماشية تنبعث من مرابضها ناعقة فرحة، سائرة إلى المراعي ترعاها، والكلأ تنتجعه، والصبيان يخرجون من أكنانهم كما تخرج الطير من أكنانها، وكل ما في الوجود يخرج مما يخفيه الظلام.وهكذا نجد كل مظاهر الحياة تتدرج في الظهور، حتى يصل إلى الضحى، فيكون المعترك القوي الصاخب اللاغب، فهل ترى كلمة تدل على هذه المعاني أبلغ من كلمة: والصبح إذا تنفس،

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 118.

وبهذا يتبين أنَّ ألفاظ القرآن الكريم كل كلمة في حيِّزها، لا يملأ غيرها في موضعها فراغها.

بعد هذا البيان الذي حاولنا فيه أن نتسامى إلى أن نذكر مواضع البلاغة أو الفصاحة في كل الكلمات التي سقناها وتلونا آياتها، وكون كل كلمة في موضعها ذات بلاغة خاصة تصور صورة بيانية رائعة، وهي مع أخواتها تتلاقى في صورة كاملة، لها أطياف تروع القارئ، وتستولي على لب المتفهم»[1].

بعد أن أنهينا الكلام في هذه الآية المباركة، وطبعاً كان الكلام مختصراً وهذا ما أردنا أن نسلّط عليه بعض الضوء وإلا فإنّ كلام الله تبارك وتعالى متجدّد لا ينفذ.

بعد هذا البيان نحاول أن نأخذ آية أخرى من الآيات القرآنية لنتبيّن ما فيها من المعاني والبلاغة، وهي قوله تعالى: **(وَاتلُ عَلَيهم نَبأَ الَّذِيَ آتَيَنَاهُ آيَاتِنَا فانسَلَخَ مِنهَا فَأَتبَعَهُ الشَّيطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ* وَلَو شِئنَا لَرَفَعنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخلَدَ إِلَى الأَرضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلبِ إِن تَحمِل عَلَيهِ يَلهَث أَو تَترُكهُ يَلهَثْ ذَّلِكَ مَثَلُ القَومِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ)**[2]، في هاتين الآيتين عدة نقاط بلاغية وتضمنت معاني سامية جليلة ومضامين عالية.

إن هاتين الآيتين الكريمتين تصوران رجلاً آتاه الله تعالى العلم بالآيات الموجبة التصديق بالحق، وهذا العلم ليس كعلمنا بالاكتساب بل هو علم من الله تعالى والعلم الذي يؤتيه الله تعالى للعباد ومن عنده فهو علم لدني وليس علماً مكتسباً، أي ليس علماً بتعليم من المخلوق بل هو تعليم من الخالق. والعلم اللدني هو علم له صفات خارقة للعادة فيتمكن هذا الإنسان الذي يحمل ذلك العلم اللدني أن يتصرف حسب الدائرة التي يصل إليها في درجات العلم الذي يعطيه الله تعالى له فيتصرف في عالم الوجود، أي له ولاية تكوينية في هذا الوجود بقدر ذلك العلم، كما في قوله تعالى: **(قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلمٌ مِّنَ الكِتَابأَنَا آتِيكَ بِهِ قَبلَ أَن يَرتَدَّ إِلَيكَ طَرفُكَ ..)**[3]، فذلك الذي

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 118 و119.

(2) الأعراف،175 و 176.

(3) النمل،40.

عنده علم من الكتاب يمتلك علماً يستطيع أن يتصرف فيه ببعض عالم الوجود وذلك بما وهبه الله تعالى له.

فالآيتان تصوران رجلاً آتاه الله العلم بالآيات وأنّ هذه الآيات كأنه كانت قطعة منه، من وجوده وقلبه ونفسه وعقله لأنّ هذا العلم ليس علماً قابلاً للتغيّر والزوال حتى لا مناص من انكارها وشبّهت هذه الآية المباركة كما يحيط الجلد بالجسم حيث أن الجلد هو جزء من كيانه ويتفاعل معه، وهذا الانسان الذي اندكّ بهذه الآيات وبهذا العلم، ترك الهدى واستجاب لنداء الشيطان وأصبح من الضالّين والغاوين، فتضرب حينئذ الآية الكريمة مثالاً لهذا الانسان الذي انسلخ من آيات الله **(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلبِ إن تَحمِل عَلَيهِ يَلهَث أو تَترُكهُ يَلهَثْ)**، ولو شاء الله تعالى لرفعه من كبوة الضلال لما آتاه الله من علم ولكنه هو الذي انحط إلى الأرض وانحدر إلى الأرض ونزل إليها لسبب ما اتبعه من الهوى، والذي يتبع الهوى يبتعد عن الحق، قال تعالى: **(أرَأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ أفَأنتَ تَكُونُ عَلَيهِ وَكِيلاً)**(1)، فصار مثله كمثل الكلب وهو مثال يضربه القرآن الكريم.

بعد أن بيّنا قصة هذا الرجل الذي انسلخ من آيات الله واستبدل الهدى بالضلال والحق بالباطل والهداية بالغواية، وهاتان الآيتان تضرب مثالين: المثال الأول: الانسلاخ من الآيات **(فَانسَلَخَ مِنهَا)**. المثال الثاني: **(كَمَثَلِ الكَلبِ إن تَحمِل عَلَيهِ يَلهَث أو تَترُكهُ يَلهَثْ)**.

«الكلمة الأولى **(انسَلَخَ)**، والسلخ نزع جلد الحيوان، يقال: سلخته فانسلخ، ووضع هذه الكلمة في ذلك النص الكريم له معنى لا يوجد في لفظ غيره، وهو يشير إلى أن البينات والآية المعلمة للحق أحاطت به، ولصقت بنفسه واتصلت بعقله اتصال إهاب الحيوان بلحمه، ولكنَّه انسلخ من هذه البينات، فكلمة انسلخ فيها استعارة، فشبَّه الكفر والفساد بالانسلاخ في الإهاب لكمال الملازمة؛ ولأنَّ الانسلاخ يكون بمعاناة وعنف، إذ إنّ مادة المطاوعة لا تكون إلّا للأفعال التي تحتاج إلى معالجة، فلا يقال كسرت القلم فانكسر، ولا يقال كسرت الزجاج فانكسر، ولكن يقال كسرت الباب فانكسر، ويقال: طويت الحديد فانطوى، فكان هذا تصويراً لإثبات أنَّ الكفر ضد

(1) الفرقان،43.

الفطرة، وأنه يحتاج إلى معاناة للنفس، ومقاومة لدواعي الهوى، ولكنها لا تكون إلّا اتباعاً لهوى الشيطان»[1].

الكلمة الثانية: **(فَأَتبَعَهُ الشَّيطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ)**، هنا هذه الفاء جاءت للترتيب والتسبيب، فبعد أن انسلخ هذا الرجل من العلم الذي آتاه الله إياه أصبح من أتباع الشيطان وأصبح من الغاوين، أي لحقه الشيطان ومن ذلك قوله تعالى: **(فَأَتــبَعُوهُمْ مُشرِقِين)**[2]، وقوله تعالى: **(فَأَتــبَعَ سَبَباً)**[3]، وقوله تبارك وتعالى: **(وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنيَا لَعنَةً وَيَومَ القِيَامَةِ هُمْ مِنَ المَقبُوحِينَ)**[4]. «إن وضع هذه الكلمة في هذا الموضع له وضع بلاغي عميق، ففيه إشارة إلى أنَّ الشيطان إنما يلاحق الذين يتركون الآيات، ولا يعملون على الأخذ بموجب البينات، فأول دركات الضلال هو ترك الدلالة المعلمة للحق مع قوة سلطانها، وإن تركها فإنَّ الشيطان يلحقه، ويأخذ به إلى آخر غايات الضلال، وإذا وصل إلى هذه الدرجة صار من الغاوين، والغواية معناها الجهل المردي، الذي يصحبه اعتقاد فاسد مردود، وكأنَّه بهذا الانسلاخ من موجبات المعرفة، ودواعي الحقيقة ينقلب من عالم بالبينات مدرك لها إلى جاهل أرداه جهله في الفساد»[5].

الكلمة الثالثة: **(وَلَو شِئنَا لَرَفَعنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخلَدَ إِلَى الأَرضِ)**، ونأخذ من هذه الآية كلمة **(أَخلَدَ إِلَى الأَرضِ)**، «ومعنى أخلد إلى الأرض ركن إليها، يحسب أنَّ الركون إليها يجعله خالداً، ويجعله باقياً مستمرّاً، وهو يريد البقاء على أي صورة، وإنَّ مقابلة هذه الكلمة بقوله تعالى: **(وَلَو شِئنَا لَرَفَعنَاهُ بِهَا)**، أي: بالبينات، يفيد أنه اختار الاستفال بدل الارتفاع، والضعة بدل الرفعة، ويكون في هذا إثبات أن الرفعة تكون بطلب الحق والإيمان والاستجابة لبيناته، وعدم الانخلاع من موجبها.

وكل هذه المعاني تشرق من مقابلة الارتفاع بالإخلاد إلى الأرض. وهنا نجد صورة رائعة تلتقي فيها أطياف مميزة بألفاظ مصوّرة، فهي تصور شخصاً أفاض الله تعالى عليه بأسباب الإيمان بالحق، والتصقت به

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 120.
(2) الشعراء،60.
(3) الكهف،85.
(4) القصص،42.
(5) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 121.

حتى صارت كأنها جزء من كيانه، وقد اتصلت ببنائه، ولكنه بسبب أنه أخلد إلى الأرض وكان نزوعه متصلاً بأعلاقه قد سلخ البينات الملتصقة بها بانغماس في الضلال متكرر مستمر، حتى انسلخ من الهداية، وفي ذلك إشارة بيانية إلى أنَّه ترك الهداية بعد عمل مستمر قام به، فهو قد ابتدأ في الشر متبعاً هواه، ثم كرره حتى كون له خطوطاً في نفسه، وتكرَّر حتى صارت الخطوط مجاري، فكان الانسلاخ، وبعد الانسلاخ وجد الشيطان طريقه فأتبعه بغية الضلال، وقد مثله تعالى بمثال آخر، وذكر له صورة أخرى»[1].

أما الكلمة الأخيرة هي قوله تعالى: **(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلبِ إن تَحمِل عَلَيهِ يَلهَث أو تَــتــرُكهُ يَلهَثْ)**، «واللهث كما يقول علماء اللغة: أن يخرج الحيوان لسانه مرطباً بلعابه في حال عطشه أو جوعه أو إعيائه، أو إهاجته وذعره، ويقولون: إن أخسّ أحوال الكلب أن يكون منه اللهث في كل أحواله، فإنه يكون مكروباً دائماً، وقد ذكر القرآن الكريم حال مَن ينسلخ من الهداية إلى الغواية بأنَّه يكون في حال هياج نفسي مستمر لا يستقر على قرار، ولا يسكن على حال؛ إذ أن الهداية إيمان، والإيمان اطمئنان وقرار، ومَن يكفر بالله وينسلخ عن هدايته اتباعاً لهواه يكون في لهج مستمر، فيكون كالكلب في أخسِّ أحواله وأذلها، إن هيج لهث وبدت صورته شوهاء، وإن سكت عنه بدا على هذه الصورة»[2].

نتناول الآن آية أخرى نبيّن فيها صوراً بيانية من صور الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم وهي قوله تعالى: **(إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ* طَعَامُ الأَثِيمِ* كَالمُهلِ يَغلِي فِي البُطُونِ* كَغَلي الحَمِيمِ* خُذُوهُ فَاعتِلُوهُ إلَى سَوَاءِ الجَحِيمِ* ثُمَّ صُبُّوا فَوقَ رَأسِهِ مِن عَذَابِ الحَمِيمِ* ذُق إنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ)**[3]، وتبيّن في هذه الآيات الكريمة غذاء الكفار في نار جهنم وتجد في كل آية منها صورة عن حالة من الألم والازعاج للكافرين في غذائهم.

عندما ننظر إلى هذه الصور البيانية نشاهد تآلف الكلمات في إعطاء هذه الصورة التي تريد أن تبيّن عذاب الكافرين حتى في غذائهم، وكيف

---

(1) المصدر السابق، ص 121 و122.

(2) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 122 و123.

(3) الدخان،43 – 49.

أنهم يتعرضون لأقصى أنواع الغلظة حيث يكون الغذاء الذي هم يحتاجون إليه فيه إيلام لا اشباع فيه وإيذاء لا متعة معه ثم تختم الآية بالسخرية والاستهزاء من هؤلاء الذين يعدّون أنفسهم من أصحاب النفوس الكريمة وأنهم أعزاء ويعتبرون المؤمنين أراذل ومنبوذين وذلك في قوله تبارك وتعالى: **(ذُق إِنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ)**.

الكلمة الأولى: **(شَجَرَةَ الزَّقُّومِ)، كلمة «زَقَمَ» الذي هو فعل عندما يُطعم الإنسان الطعام الكريه فيقال عنه زَقَم.** «وهذا استعمال قرآني لم يكن كثيراً عند العرب، وإن كان أصل اشتقاقه من لغتهم، والزقوم صيغة مبالغة من الزقم، الزقم إعطاء الطعام الكريه أو الأمر الكريه، ويقال: تزقَّم إذا ابتلع شيئاً كريهاً غير مرغوب فيه، بل تنفر عنه الطباع وتستكرهه.

فشجرة الزقوم الشجرة التي لا تثمر إلّا ثمراً كريهاً تعافه النفوس، ولا يناله المتناول إلّا مكرهاً بإكراه من ذي جبروت، أو من جوع، أو مَن يكون في حال مَن يريد تناول أيَّ شيء مهما يكن ذلك الشيء، ومهما يكن مذاقه، ومهما تكن وباءته، والتعبير بشجرة الزقُّوم فيه إشارة إلى أنَّه طعام مثمر مستمر؛ لأن ثمراته الوبيئة الكريهة لا تنقطع، فهي شجرة دائمة الإثم

وفي آية أخرى يذكر سبحانه أنَّها تنبت في أصل الجحيم، فهي من ثمرات شجر جهنم، وفي ذلك تصوير لحال الطعام، وتصوير لحال المقام، وكيف أنَّ المترف في الدنيا يتنقَّل من وادٍ نيراني إلى وادٍ مثله، وكل حياته منها، فإقامته فيها، وغذاؤه من ثمار أشجارها، وبئس مثوى الكافرين»[1].

الكلمة الثانية: **(طَعَامُ الأَثِيمِ)** في قوله تبارك وتعالى: **(إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ* طَعَامُ الأَثِيمِ)** فشجرة مبتدأ إنّ وطعام خبر لإنّ، فالخبر هنا يريد أن يُثبت ويؤكد أنّ طعام الأثيم هو من شجرة الزقوم.

«يقول الذين تكلموا في ألفاظ القرآن: إنَّ الإثم الأمر المبطئ عن الخير المعوق عنه أو المؤخّر له، وعبَّر عنها بكلمة أثيم، وهي صيغة مبالغة من أثِم، وصفة مشبهة تدل على حال دائمة مستمرة، فهي تدل على أنه فعل الإثم كثيراً، ولذلك وصف بصيغة الصفة المشبهة، وهو حال دائمة عنده؛ إذ الصفة المشبهة تقتضي أن يكون الموصوف بها في حال دائمة في

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 123 و124.

صفتها لا تفارقه ولا يفارقها، وهنا معنيان كلاهما يدل على بلاغه اللفظ، وعظم مؤداه:

أول المعنيين: ذكر الوصف الذي يشير إلى أنَّ سبب ذلك الجزاء هو الإثم الدائم الكثير الذي كان منه في الدنيا، فالجزاء من جنس العمل، والعدل يقتضي ألَّا يتساوى المسيء بالمحسن، هل يستوي الأعمى والبصير؟ثانيهما: إنَّ ذلك الثمر الكريه الذي تثمره شجرة من نار جهنم هو الطعام الدائم المستمر الذي لا يقدّم للطغاة إلّا هو، فلا يذوقون طيباً؛ لأنَّهم لم يذيقوا الناس في الدنيا طيباً، وهل يكون جزاء الخبيث إلا خبثاً»[1].

الكلمة الثالثة: **(كَالمُهلِ يَغلِي فِي البُطُونِ* كَغَلي الحَمِيمِ)** المُهل هو الزيت الراسب بعد أن يحترق على النار، فإذا غلي الزيت وأصبح أسود قاتماً محروقاً فهذا يُسمى «المُهل»، وهنا تشبيه لثمر هذه الشجرة، فالآية الكريمة تصف أن ثمرة شجرة الزقوم هي كالزيت المحروق المغلي. فحتى الغذاء الذي يتجرعونه ومجبرين على أخذه، هم يتألمون منه.

كما أن هذا المهل يغلي في البطن ليس كغليان الماء وإنما له صفة أخرى ذكرها القرآن الكريم بأنه **(كَغَلي الحَمِيمِ)** فمن ألم شديد إلى ألم أشدّ. وإعطاء القرآن لهذه الأوصاف لكي يبيّن الآلام التي تنال هؤلاء الكافرين. «وأعطاه القرآن وصفاً وهو أنَّه يغلي في البطون، فهو بقايا رديئة أصابها العطن لغليانها، إمَّا لحموضتها؛ إذ تغلي كالأشياء العطنة التي تتخمَّر وتغلي بالزبد، وإمَّا لأنها تكون ذات حرارة شديدة تغلي من شدة هذه الحرارة، ولعلَّ غليانها من الأمرين، فهي متعفنة تغلي بالزبد من الحموضة، أو هي حارة تغلي منها البطون لشدة الحرارة، وفي كلتا الصورتين تدخل على البطون غذاءً وبيئاً، إن كان فيه مادة الغذاء، وليس غذاء مريئاً، فهو إن يمنع غائلة الموت ويبقى فإنَّمَا يبقى لتستمر الآلام، وتكون حياته نكداً، فطعام كريه في مذاقه وبيء في مآله، مؤلم في كل أحواله»[2].

الكلمة الرابعة: **(خُذُوهُ فَاعتِلُوهُ)**، فتصور الآية المباركة عملية الأخذ لهذا الكافر وكيف أنّ أخذه بشدّة. وعَتَلَ يعني سحب الأشياء بقوة،

---

(1) المصدر السابق، ص 124.
(2) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 125.

(فَاعتِلُوهُ) يعني السحب الشديد وبالقوة والإكراه إلى وسط جنهم، فلا يفرّ من جهنم إلا إليها ولا يجد مخرجاً يخرج من نار جهنم. إنّ كل كلمة من هذه الكلمات القرآنية تصوّر صورة عنيفة مؤلمة ومؤذية ومزعجة لهذا الكافر الذي عصى وغوى وضلّ إذ حسب أنّه استغنى.

«فكلمة الأخذ تنبئ عن القبض بعنف، وقد كان في القرآن الكريم ما يدل على العنف فيها كما قال تعالى:**(وَكَذَلِكَ أَخذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)**[1]، وكان الأخذ بأمر الله لملائكة غلاظ شداد، فكان الأخذ في ذاته شديداً، وكان الآخذون أشدَّاء، وتجهيلهم هنا مع وصفهم في آية أخرى بأنهم غلاظ شداد، فيه إرهاب وبيان لعظم الأخذ بالآخذين.

وقد فسَّر سبحانه في الآية بما يدل على شدة الأخذ، وبيان أنه نوع خاص منه؛ إذ قال سبحانه **(فَاعتِلُوهُ)** إذ العتل هو الأخذ بمجامع الشيء والإحاطة به وجره بالقهر والعنففإذا كان الأخذ في ذاته عنيفاً، فهو في هذا النص أشد عنفاً؛ إذ هو جر وإحاطة قوية بالمأخوذ، وإن الأخذ بهذه الصورة من جر عنيف وإحاطة فيه ما يدل على الإهانة والتحقير، وخصوصاً إذا كانوا يحسبون أنهم وحدهم الكرام، وغيرهم أراذل دونهم.

إن الأخذ بطريق عتلٍّ يعطي صورة للمهانة التي يكون عليها من يستكبرون على الحق أن يتبعوه، وفي هذا بيان أنَّ هذا العنف جزاء وفاق لما كان منهم من غطرسة مقتية، فإنهم سيعاملون بمثلها يوم القيامة، **(يَومَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ* إلا مَن أَتَى اللهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ)**[2]»[3].

الكلمة الخامسة والسادسة: **(إِلَى سَوَاءِ الجَحِيمِ)، كلمة السواء تعني المكان المتوسط، أي إلى وسط الجحيم.** «والصورة التي توضحها كل كلمة من هذه أنَّه يؤخذ عنوة ويوضع في وسط النيران المتأججة التي تشتعل وتتأجج مرتفعة من وهدة جهنم إلى أعلى، ويلقى في المكان المتوسط بحيث لا يكون قادراً على الخروج منها، بل هو في وسطها لا ينتقل إلا إليها،

---

(1) هود،102.
(2) الشعراء،88 و89.
(3) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 125 و126.

وليته يستمر على حاله لم يجئ له عذاب من خارجها، بل إنه يجيئه العذاب من الخارج، فيلتقي عذاب الداخل والخارج معاً»[1].

الكلمة السابعة والثامنة: **(ثُمَّ صُبُّوا فَوقَ رَأسِهِ مِن عَذَابِ الحَمِيمِ)**، «والصب هو نزول الماء من أعلى إلى أسفل، ويكون متدفقاً مندفعاً، وهو مرتفع من فوق رأس الأثيم من عذاب الحميم، فالصب في ذاته من علٍ يؤلم ولو كان ماء بارداً، فكيف الحال إذا كان عذاباً، فهو صب لا لأجل التبريد، ولكن لأجل التعذيب، والإضافة هنا بيانية، أي: عذاب هو الحميم، وهو السائل الحار الشديد الحرارة، فهو عذاب ينزل فوق الرأس فيذيب أديمه ويصهره دهناً.

وباجتماع الآيات من أولها يكون العذاب المهين في غذاء من المهل من الزيت الرديء يغلي في البطن من شدة العفن، ويغلي من شدة الحرارة، ويساق في هذا الحال مأخوذاً أخذاً عنيفاً محيطاً بمجامعه إلى وسط جهنم، ثم ينزل من فوق رأسه عذاب هو سائل شديد الحرارة، يصب على رأسه صبّاً عنيفاً يذيب كل ما يقع عليه. ومع هذا العذاب المهين المؤلم الشديد يوجد عذاب معنوي بالتهكم عليه، فيقول لسان الحال: **(ذُق إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ)**؛ ليعلم أنه كان طاغياً»[2].

الكلمة التاسعة: **(ذُق إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ)** وهذه فيها إهانة، أنّك كنت تعتقد أنّك عزيز وأنّك كريم فالآن ذُق يا مَن تدعي أنّك عزيز كريم، فهنا تقريع وتوبيخ وألم معنوي إضافة إلى الألم الجسدي الذي يناله الكافر في العذاب.

هنا تكتمل الصورة بهذا الخطاب، «هذه جمل من الآيات الكريمة تسامينا فحاولنا أن نسمو إلى ألفاظ قرآنية مشرقة بمعانٍ، وكل كلمة منها لها طيف خاص بها، وتدل على معانٍ عميقة تصور ناحية بيانية تبدو واضحة في انضمامها لغيرها، وتتكون من مجموع الصور البيانية للكلمات صورة بيانية رائعة، وإذا كان لكل صورة حسية أطياف تعطي الصورة حيوية،

(1) المصدر السابق، ص 126.
(2) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 126 و127.

فالصور البيانية لها أطياف عالية، تعطي الصورة روعة عالية، لا توجد في أي كلام غير القرآن الكريم»[1].

ننتقل الآن إلى آية أخرى من الآيات الكريمة التي نبيّن فيها أيضاً الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وهذه الآية الكريمة قد ألّفت فيها الكتب والمقالات الطويلة حيث أنّ هناك كتاب كامل حُقق لهذه الآية الكريمة، فقد ألّف هذا الكتاب في إعجاز هذه الآية الكريمة، وذلك في قوله تعالى: **(وَقِيلَ يَا أَرضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الْأمرُ وَاستَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلقومِ الظَّالِمِينَ)**[2].

هذه الآية هي من الآيات التي يتناولها البلاغيون لبيان عظمة القرآن في إعجازه البلاغي، فقد استوقفت هذه الآية بعض البلاغيين من الزنادقة الذين كانوا يريدون يردوا على القرآن الكريم[3] ويعارضوه.

هذه الآية المباركة من بدائع آيات القرآن الكريم، إنّ قريش كانت تعلّق القصائد من المعلقات على الكعبة الشريفة للقيمة البلاغية لهذه المعلقات ولكن عندما نزلت هذه الآية أزالت قريش هذه المعلقات من على الكعبة. وقد اشتملت هذه الآية على عشرات الأنواع من المحسنات البديعية بينما ألفاظها لا تتجاوز 17 لفظاً ولكن كم تحتوي من البيان والبديع والبلاغة والصور الرائعة. وهنا نشير إلى بعض الإشارات لهذه الآية المباركة:

1- المناسبة التامة بين قوله تعالى: **(ابْلَعِي)** و**(أَقْلِعِي)**.

2- الاستعارة فيهما، فكأن الأرض كائن حي يبلع الماء وكأن السماء تُقلع.

3- الطباق بين الأرض والسماء، مقابلة بين المعاني.

4- المجاز في قوله تعالى: **(يَا سَمَاءُ)** فالخطاب ليس للسماء وإنما الخطاب للمطر، فحُذف المضاف وأقيم المضاف إليه، كقوله تبارك

---

(1) المصدر السابق، ص 127.

(2) هود،44.

(3) راجع الصفحة 120 – 121 من هذه الملزمة.

وتعالى: (**.. وَأُشرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجلَ بِكُفرِهِم ..**)[1] والعجل لا يدخل في القلوب ولكن حب العجل، أي «وأشربوا في قلوبهم حب العجل» فحُذف المضاف وأقيم المضاف إليه، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: (**وَاسأَلِ القَريَةَ ..**)[2] يعني أسأل أهل القرية.

5- الإشارة في قوله تعالى: (**وَغِيضَ المَاءُ**) فإنّه عبّر عن معانٍ كثيرة لأنّ الماء لا يغيض ولا يغور حتى يُقلع مطر السماء.

6- الارداف في قوله تعالى: (**وَاستَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ**)، فإنّه عبّر عن استقرارها في مكان بلفظ قريب من لفظه الحقيقي لأنه هو الجبل الذي استقرت عليه السفينة.

7- التمثيل في قوله تعالى:(**وَقُضِيَ الْأَمرُ**) فإنّه عبّر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ بعيد عن المعنى الموضوع.

8- التعليل، فإنّ قوله تعالى: (**وَغِيضَ المَاءُ**)، علّة الإستواء، فبدون أن يغيض الماء لا يمكن أن تستقر السفينة وتستوي على الأرض.

9- صحّة التقسيم، فإنّه استوعب أقسام الماء حالة نقصه، إذ ليس إلاّ احتباس ماء السماء، والماء النابع من الأرض، وغَيْض الماء الّذي على ظهرها.

10- الإحتراس في قوله تعالى: (**وَقِيلَ بُعْداً لِلقومِ الظَّالِمِينَ**)، إذ الدعاء يشعر بأنّهم مستحقوا الهلاك احتراساً من ضعيف يتوهم أنّ الهلاك لعمومه، ربما يشمل غير مستحقه، أي أنّ هذا العذاب إنّما هو عذاب لهؤلاء الظالمين جميعاً. فقد يتوهم إنسان بأنّ هؤلاء فيهم الطفل والقاصر والإنسان غير المدرك إلا أنّ الآية ختمت بهذا القول، أي أنّ هؤلاء كلّهم ظالمون ولا أحد فيهم من غير الظالمين لأنّ نوح (ع) عندما جاءه الأمر من الله تعالى (**وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤمِنَ مِن قومِكَ إلاَّ مَن قد آمَنَ فَلاَ تَبتَئِس بِمَا كَانُوا يَفعَلُونَ**)[3]، فعلم نوح (ع) فدعا (**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَر عَلَى الأَرضِ مِنَ الكَافِرِينَ**

(1) البقرة،93.
(2) يوسف،82.
(3) هود،36.

دَيَّاراً)[1]، أي أن دعاء نوح (ع) كان بعد علمه أنّه لن يؤمن أحد. فمعنى ذلك أن البقية الباقية لا رجاء في الايمان، وعلى ما تذكر الأخبار أنّه لم تنجب الأمهات بعدئذ، أي أنّ هؤلاء بقوا لمدة من الزمن دون انجاب، فحينما حدث الطوفان وحدث الغرق لهؤلاء كانوا ظالمين فلم يكن فيهم الطفل والقاصر.

11- المساواة، أي المساواة بين الألفاظ وبين معانيها أي لا يوجد اسهاب ولا اطناب ولا زيادة في الكلام، حيث أن كل الكلمات التي استُعملت في الآية الكريمة أعطت معاني دون أن يكون هناك تكرار. وهذا لا يكون إلا في الكلام البليغ.

12- حسن النسق، فإنّه تعالى قصّ القِصّة وعطف بعضها على بعض بحسن الترتيب، فهذه الآية المباركة أعطتنا صورة واضحة لقصة الطوفان، فبيّنت ماذا جرى وأنّ الماء جاء من السماء ومن الأرض وكيف أنّ هؤلاء الذين أنقذهم الله تعالى وذلك بتوقف السفينة على الجبل (الجودي). فهذه الكلمات على وجازتها وقصرها أعطتنا القصة كاملة غير منقوصة وانطبقت الكلمات وجاءت مرتبة أيضاً.

13- ائتلاف اللفظ مع المعنى، حيث أن كل لفظة لا يصلح معها غيرها. وهذه النقطة هي أساس البلاغة، كيف ؟ فقد يُستعمل اللفظ ولكن إذا استُعمل معه لفظ آخر لا يعطي نفس المعنى أو يزيد في معناه أو ينقص عن المطلوب أو لا يُعطي الصورة الجمالية البلاغية سواء من ناحية التركيب وسهولة اللفظ أو من ناحية المعنى. ففي هذه الآية المباركة جاءت فيها الكلمات متآلفة مع المعنى، وهذا ما يذهب إليه الجرجاني بأنّ النظم هو الأساس في البلاغة وليس اللفظ، بينما الباقلاني يذهب إلى أن للكلمة جمالاً في البلاغة ثم إذا انضمت إلى اللفظ لها موضع آخر.

14- الإيجاز، فإن البلاغة هي إيصال المعنى إلى أذن السامع بأيسر الطرق وبأقصرها وبأسهلها. فمرة يوصل الإنسان المعاني بكلام طويل أو بكلام غير جميل لعلها تكون كلماتها وحشية وغريبة

---

(1) نوح،26.

وليست سهلة اللفظ. ومرة أخرى الكلام يصل إلى أذن السامع بكلمات وجيزة وسهلة وليّنة لا تقرع السمع ولا تؤذيه وفيها لحن وموسيقى عذبة زائداً جمال اللفظ وجمال المعنى وسمو المضامين التي يحتويها هذا الكلام. فجاءت الكلمات في هذه الآية الكريمة الايجاز مع كثرة الأغراض التي خرجت إليها حيث أن في الآية أمر وذلك في قوله تعالى: **(يَا أرضُ ابْلَعِي)** و**(يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي)** فهنا أمران، وأيضاً هناك خبر حيث أخبر **(وَقُضِيَ الْأَمرُ)**، وفي الآية نداء بقوله تبارك وتعالى: **(يَا أرضُ)** و**(يَا سَمَاءُ)**، واستعمل النعت فنعت القوم بأنهم **(الظَّالِمِينَ)**، وأهلك وأبقى، فكما تلاحظون كل هذه الأغراض حيث أهلك الظالمين وأبقى المؤمنون وأسعد المؤمنين وأشقى الظالمين، وقصت الآية من الأنباء ما لو شُرح لاستغرق كتاباً مفرداً ولكنها حصلت في آية واحدة.

15- التفهيم، أي أنّ الآية أفهمت السامع الأغراض التي خرجت من ألفاظ الآية حيث أنّ أوّل الآية يدلّ على آخرها

16- التهذيب، لأنّ مفرداتها موصوفة بصفات الحُسن، إذ كل لفظة عليها رونق الفصاحة، سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة وتعقيد التركيب.

17- حُسْن البيان، لأنّ السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه، فلا يوجد شيء غامض أو معقد أو غير مفهوم.

18- الإعتراض، إذ جاءت في ضمن الآية **(وَغِيضَ المَاءُ وَاستَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ)**، فهنا جاءت هاتان الجملتان معترضتان في سياق الكلام.

19- الكناية، فإنّه لم يُصَرِّح بمن أغاض الماء، ولا بمن قُضيَ الأمر، ولا بمن سوى السفينة وأقرّها في مكانها، وكذلك قوله تعالى: **(وَقِيلَ بُعْداً)**، فمَن الذي قال هذا ؟ الله تعالى أمر الأرض بالبلع والسماء بالقلع وعليه فإنّ السامع يكون لديه معلوماً مَن الذي قال هذا القول. فالآية الكريمة أوجزت عن طريق الكناية ولم تذكر الفاعل وجاءت بصيغة المبني للمجهول لوضوح المعنى لدى السامع.

20- التعرّض، فإنّه تعالى عرّض بكل مَن سلك مسلكهم في تكذيب الرُّسل ظلماً، وأنّ الطوفان وتلك الأمور الهائلة ما كانت إلاّ لأجل ظلمهم. فتعطي الآية الكريمة سنة كونية **(وَقِيلَ بُعْداً لِلقَومِ الظَّالِمِينَ)** فجزاهم هذا الجزاء نتيجة لظلمهم فكل مَن يظلم فإنّه سوف ينال جزاءه، وليس هذا مختصاً بقوم نوح وإنما كل مَن يظلم فإنّه سوف ينال جزاء ظلمه.

21- التمكين، لأنّ الفاصلة مستقرة في محلّها، مطمئنة في مكانها غير قلقة ولا مستدعاة، أي أنّ هذه الجمل وهذه العبارة لا يوجد فيها اضطراب ولا يوجد فيها قلق وإنما هي متمكنة من حيث الاستقرار، فكل عبارة في موضعها سواء من حيث اللفظ أو من حيث المعنى .

22- الإنسجام، لأنّ الآية بجملتها منسجمة، كالماء الجاري في السلاسة، بل أشد من الماء الجاري لعذوبتها وصفائها وعدم وجود الغريب في الألفاظ.

23- اشتمالها على بعض البحور من الشعر، فقد جاء فيها بحران من الشعر، فقوله تعالى:**(يَا أرضُ ابْلَعِي مَاءَكِ)** على وزن «مستفعلن مستفعلن فاعل». و**(سَمَاءُ أقْلِعِي)** على وزن «مفاعلن مفاعل». ومع أنّ القرآن الكريم ليس شعراً ولا

نثراً كنثر العرب بل له أسلوب قد تميّز به عن شعر العرب وعن نثرهم وهذا أيضاً من اعجاز القرآن ومع هذا فإنّ في الآية بحرين كبحرين من الشعر.

24- نزلت الآية الكريمة ما لا يعقل منزلة مَن يعقل في النداء والمخاطبة، فعندما تخاطب الأرض فكأن الأرض هنا تجسدت حيةً كأنها عاقل، فكأن الآية في تصويرها لهذا البيان الرائع جسدت الأرض ككائن حي عاقل، وكذلك السماء. وهذه من الصور البيانية الرائعة من البلاغة القرآنية، وهكذا في قوله تعالى: **(وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)**(1)، فكأن الصبح كائن حي يتنفس، ففي كثير من الآيات الكريمة فيها

---

(1) التكوير،18.

عنصر التشخيص، والصورة الحية المشخصة فينقل إلى السماع وكأنه فيلم سينمائي يتحرك أمام السامع لا يكتفي بالصورة الجامدة. وقد استجابت الأرض للنداء وذلك في قوله تبارك وتعالى: (**وَغِيضَ المَاءُ**).

25- الإبهام في قوله تعالى: (**وَاستَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ**)، والجودي – على ما يُنقل – هو الجبل الذي استقرت عليه السفينة، والجود في اللغة معناه القربة المنفوخة فكأن الجبل في بروزه يشبه القربة المنفوخة. فهنا ابهام في موقع هذا الجبل وأين مكانه ؟ فليست المسألة معروفة، فأحياناً أنّ المتكلم عندما يبهم شيئاً يفيد معناً بلاغياً للكلام.

26- المحافظة على فواصل الآيات، حيث أن الآيات التي قبل هذه الآية المباركة تنتهي بالنون (الروي)، فانتهت بنفس الروي الذي انتهت به الآيات الكريمة المتقدمة والمتأخرة.

27- التكرار، كما في «الماء»، معرَّفاً باللام تارة والإضافة أُخرى، فمرة قوله تعالى: (**يَا أَرضُ ابْلَعِي مَاءَكِ**)، وأخرى (**وَغِيضَ المَاءُ**).

28- أعطت الآية الكريمة كأن الأرض لها مالكية ولها عقل وأنها تستطيع إرجاع الماء، بحيث لها سلطة وقدرة وسيطرة في إرجاع الماء.

إلى غير ذلك من المحاسن البديعية والنظم والبيان والبلاغة، حيث أن هناك كتب ألفت في هذه الآية الكريمة فلا نستطيع أن نوجزها هنا كي نستوفي كل هذه المعاني مخافة الاطالة.

إنّ الكرماني في كتابه «العجائب» يقول حول هذه الآية الكريمة: «أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية بعد أن فتشوا جميع كلام العرب والعجم فلم يجدوا مثلها في فخامة ألفاظها وحسن نظمها وجودة معانيها في تصوير الحال مع الإيجاز من غير إخلال»[1]. وقد أفرد العلامة الشهرستاني كتاباً في بلاغة هذه الآية الكريمة.

---

(1) المعجزة الخالدة للشهرستاني، مصدر سابق، ص 60.

ننتقل إلى آية أخرى نبيّن الاعجاز البلاغي فيها ونتلمس الأساس في هذا الاعجاز، وهي قوله تعالى: **(وَجَاء رَجُلٌ مِّن أَقصَى المَدِينَةِ يَسعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأتَمِرُونَ بِكَ لِيَقتُلُوكَ فَاخرُج إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ* فَخَرَجَ مِنهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَومِ الظَّالِمِينَ)**[1].

هنا في هاتين الآيتين المباركتين تسرد علينا قصة لرجل من أصحاب موسى (ع) جاء يخبره بالمؤامرة التي حاكها قوم فرعون لقتل موسى (ع) ونصحه بأن يخرج من هذه البلدة، وفعلاً خرج موسى (ع) وهاجر وذهب إلى الجزيرة العربية والتقى هناك بالنبي شعيب (ع)، وهنا في آخر الآية – قبل أن أدخل في المباحث البلاغية – قال موسى (ع): **(رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَومِ الظَّالِمِينَ)**، عندما قصّ موسى على شعيب (ع) قصته فقال له شعيب: **(لا تَخَف نَجَوتَ مِنَ القَومِ الظَّالِمِينَ)**[2]، فكأن الآية المباركة بيّنت استجابة دعاء موسى (ع). نعود إلى الآية والنقاط البلاغية التي فيها.

في هذه القصة بسياقها كل لفظ منها ينبئ عن معنى اللهفة والحذر، فقد جاء الرجل من أقصى المدينة بلهفة وحذر وهو خائف يترقب، ومن صفات هذا الرجل أنّه ناصح وأمين وحريص على نجاة موسى (ع) والتعبير بـ**(أَقصَى)** يدل على المحبة الخالصة لهذا الرجل ثم أن كلمة **(يَسعَى)** تدل على أنّه جاء عدواً لا قرار عنده، وأما قوله **(المَلأ)** فهم كبار القوم وأصحاب القرار.

لقد استجاب موسى (ع) لهذا الرجل الأمين الناصح فخرج **(خَائِفاً يَتَرَقَّبُ)**، «خرج» فعل ماضي مبني على الفتح والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على موسى (ع)، و«خائفاً» حال من موسى (ع)، و- «يترقب» جملة فعلية وحال أيضاً. خائف ولكن ليس قلقاً ولا مضطرباً وإنما «يترقب» وهذه الكلمة حذفت القلق والاضطراب من موسى (ع) لأنّ القلق والاضطراب لا ينال أولياء الله تعالى.

تارة الإنسان يخاف خوفاً لله ويحزن حزناً لله، والخوف يكون من الأمور المستقبلية، والحزن على الأمور الماضية فكل حزن يكون لشيء قد مضى وكل خوف يكون لأمر مستقبلي أي لم يقع بعد. فإذا حزن الإنسان

---

(1) القصص،20 و21.
(2) القصص،25.

فمرة يكون الحزن لذاته فهذا حزن غير مرغوب فيه ولا يمرّ بالولي فلا يحزن الأولياء لذاتهم بل يحزنون لله ولدينه كقوله تعالى: **(وَلا تَحزَن عَلَيهِم وَلا تَكُن فِي ضَيقٍ مِّمَّا يَمكُرُونَ)**(1)، في هذه الآية يخاطب النبي (ص) حيث ينهاه عن الحزن تسلية له ومحبة له حيث أن النبي (ص) كان حزنه للرسالة وليس لذاته، وذلك أن أولياء الله كما يصفهم القرآن الكريم **(ألا إنَّ أولِيَاء اللهِ لاَ خَوفٌ عَلَيهِم وَلاَ هُم يَحزَنُونَ)**(2).

فموسى (ع) هو من أولياء الله فكيف تصفه الآية **(خَائِفاً)** ؟ أنّه (ع) خائف ليس لأمر لذاته وإنما خوفه على الرسالة وهو خوف ممدوح. عادة الخوف يفيد الاضطراب والقلق فلما جاءت الآية الكريمة اتبعت هذه اللفظة بلفظة **(يَتَرَقَّبُ)**، فمرة خائف مضطرب هذا خوف منبوذ ولا يمر على أولياء الله، ولكن «خائف يترقب» الترقب فيه الحذر والكياسة والفطانة يعني أنّه متماسك وليس قلقاً ولا مضطرباً بل نفسه مطمئنة ودليل اطمئنان النفس هو «الترقب» لأنه يدل على الذكاء والفطنة والحذر.

فإذا حزن الإنسان لأمر لذاته فهو ليس من أولياء الله وإذا خاف فهو ليس من أولياء الله، وذلك قوله تعالى: **(إذ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحزَن إنَّ اللهَ مَعَنَا)**(3) فمادام يحزن لغير الله فهو يخرج عن ولاية الله يعني ليس من أوليائه.

إنّ كلمات الآية المباركة صوّرت لنا معاني حسية ومعنوية، ظاهرة وباطنة، فقد أعطانا الله تعالى هذه المعاني بهذه الألفاظ الموجزة وسرد علينا هذه القصة لبيان حالة موسى (ع). فهذه الألفاظ البلاغية دقيقة في القرآن الكريم لابد أن تراعى في كمال الدقة كي لا يقع الإنسان في اشكال.

عادة الأمر لأولياء الله هو الاطمئنان فحينما تقول لولي الله أنك خسرت مليون فتبقى نفسه مطمئنة أو تقول له ربحت مليون أيضاً نفس الشيء، والآية الكريمة تفسّر هذا المعنى في قوله تعالى: **(لِكَيلا تَأسَوا عَلَى مَا فَاتَكُم وَلا تَفرَحُوا بِمَا آتَاكُم)**(4)، فنفس الولي مطمئنة.

---

(1) النمل،70.
(2) يونس،62.
(3) توبة (براءة)،40.
(4) الحديد،23.

الفصل التاسع

الكلمة مع أخواتها

والعبارات مع رفيقاتها

الآن نريد أن ندرس كيف أن الكلمة إذا انضمت إلى أخواتها وهذا ما نسمّيه بالـ«النظم» وموقع الكلمة سواء من الناحية البلاغية أو من الناحية الاعرابية وكذلك من ناحية تسلسل الكلمة ومخارج حروف تلك الكلمة مع مخارج حروف الكلمات التي تنتظم معها، كل هذه الأمور تشكل موقعاً وموضعاً للكلمة مع أخواتها تعطي الدرجة البلاغية لتلك العبارة وتلك الكلمة، فالذي نريد أن نسلط الضوء عليه هو انضمام الكلمة مع أخواتها ثم انضمام العبارة مع العبارات الأخرى وذلك من خلال كلمات علماء البلاغة وما يرونه في هذا الشأن .

هناك كلام للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ت 415هـ) وهو من كبار أئمة المعتزلة ومن علماء البلاغة المشهورين، يقول في انضمام الكلمة إلى أخواتها واستقلالها: «واعلم أنّ الفصاحة لا تظهر قي أفراد الكلام؛ وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة»[1].

فهو يعتقد أن للكلمة فصاحة ولكن هذه الفصاحة التي هي بذات الكلمة لا تظهر إلا بشرط، ألا وهو أن تنضم إلى أخواتها من الكلمات. فهذه النظرية تختلف عن نظرية الباقلاني الذي يرى أن الكلمة بذاتها لها فصاحة وتظهر هذه الفصاحة عند مقارنة الكلمة بغيرها، بينما القاضي عبد الجبار المعتزلي يرى بأن الكلمة بذاتها وبمفردها لها فصاحة ولكن هذه الفصاحة لا تظهر إلا بانضمام الكلمة إلى أخواتها. وهذا فرق بين أن نتبيّن فصاحة الكلمة بذاتها من دون أن ننظر إلى انضمامها لأخواتها وبين أن ننظر إلى فصاحة الكلمة بذاتها ولكن هذه الفصاحة لا تظهر ألا بعد انضمام الكلمة إلى أخواتها، فيقول عبد الجبار: «ولا بد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم»[2].

فماذا يقصد بالمواضعة التي تتناول الضم ؟ يقصد من المواضعة: الوضع اللغوي للكلمة، والوضع اللغوي يشمل أصل الكلمة اللغوي، والحقيقة العرفية والمجاز والاستعارة والتشبيه وما تخرج إليه من المعاني البلاغية، هذا كان المقصود من المواضعة.

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 129 و130.
(2) المصدر السابق، ص 130.

ثم يقول: «وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام رابع»[1]. موقع الكلمة كأن تكون فاعل أو مفعول لأجله أو صفة أو تمييزاً أو أي نوع من أنواع الاعراب، فموقع الكلمة أيضاً يعطيها موقعاً من الاعراب، فانضمام الكلمة حين تأخذ بانضمامها إلى أخواتها موقعاً بلاغياً وكذلك تأخذ بانضمامها إلى أخواتها موقعاً اعرابياً من حيث الاعراب اللغوي.

والأقسام الثلاثة هي إما أن تكون الوضع اللغوي لها من حيث البلاغة، أو من حيث الموقع الاعرابي، أو من حيث الموقع الذي يقصد به الكلمة مع أخواتها أي عندما تنضم الكلمة مع أخواتها فهل هي مؤتلفة من حيث النغم ومن حيث المخارج أم متنافرة مع أخواتها ؟! وسنلاحظ من خلال الآيات الكريمة الشروط الثلاثة التي بيّنها القاضي عبد الجبار.

فهذا التآلف له شروط ولابد أن نبيّن هذه الشروط من خلال كلام القاضي عبد الجبار: موقع الكلمة يعني اختيار الكلمة من حيث الاعراب، فهو لا ينظر إلى الكلمة لوحدها وإن كان هو يعتقد بفصاحة الكلمة بذاتها ولكنها لا تظهر إلا بعد أن تنضم هذه الكلمة إلى أخواتها.

من هذا يرى أن الكلمة البليغة تظهر بلاغتها مع أخواتها وأنّ الكلمة قد تكون فصيحة في موقع، ولكنها تكون أفصح في موقع آخر، فالتفاوت في الفصاحة وفي البلاغة تبعاً لموقع الكلمة، الكلمة تقع في هذه الجملة تكون فصيحة ولكنها في موقع آخر وفي موضع آخر بانضمامها إلى كلمات أخرى تكون أفصح.

إذاً موقع الكلمة يحدد فصاحتها ويحدّد درجة تلك الفصاحة ويحدد بلاغتها ويحدّد درجة تلك البلاغة بانضمامها إلى أخواتها فيقول في هذا الكلام: «وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة، أو حركاتها، أو موقعها، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعضلأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها. فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها»[2].

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 130.
(2) المصدر السابق، ص 130.

إذاً ثلاثة وجوه حدّدها القاضي عبد الجبار: الأولى الوضع اللغوي للكلمة، والثانية الموقع الاعرابي، والثالثة موضع الكلمة بائتلافها مع أخواتها. هذا كلّه من حيث الكلمة ضمن العبارة ولكن هناك أيضاً في كلام آخر بانضمام العبارة إلى عبارات أخرى. أي أن البلاغة لا ينظر الانسان فيها إلى وجه واحد – فقط اختيار الكلمة – وإنما اختيار الكلمة مع الكلمات الأخرى. فكما ذكرنا سابقاً أن آية (**وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**) فلو وضعنا بدل كلمة الصبح الفجر في غير القرآن وقلنا «والفجر إذا تنفس» فلا يصح الكلام حيث أنّ الفجر ينسجم مع الليل فهو نهاية الليل وبداية الضوء، ولهذا ورد في قوله تعالى: (**وَالْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ**)(1) حيث انسجم هنا كلمة الفجر مع الليالي، وأما الصبح ففيه انبلاج الضوء فيشمل الفجر ويشمل النهار وفيه تدب الحياة فتسمع زقزقة العصافير وانطلاق الطيور وحركة الناس.

إذاً انضمام الكلمة مع أخواتها له أثر من حيث بلاغة الكلمة ضمن ذلك الموقع من الكلمات فهذا الذي يريد أن يقوله القاضي عبد الجبار.

المبحث الأول: الأسلوب القرآني

الأمر الآخر أنّ الأسلوب القرآني في استعمال الكلمات أن الباري تبارك وتعالى اختار لكلامه لهذه المعاني التي أراد أن يوصلها إلى الحبيب المصطفى محمد (ص) كلمات، وهذه الألفاظ هي أوعية للمعاني حيث أن اللفظ وعاء للمعنى واختيار الكلمات جاء – باعتبار اختيار إلهي – منسجماً بكلّ القرآن انسجاماً تاماً من حيث مخارج الكلمات ومعاني الكلمات وكون هذه الكلمات فصيحة وليست وحشية ولا غريبة.

كون أن هذه الكلمات بانضمامها إلى الكلمات الأخرى منسجمة ومتآلفة حيث تعطي القمة في موضعها البلاغي من حيث استعملت على وجه الحقيقة أو المجاز أو الاستعارة أو التشبيه وما شاكل ذلك، على كل أنواع البلاغة فجاءت القمة من حيث الاستعمال في موضعها البلاغي وكذلك القمة من حيث الاستعمال في موضعها الاعرابي والنحوي، وكذلك جاءت القمة في الاستعمال من حيث تآلف الكلمة مع أخواتها الكلمات الأخرى فتنتظم معها كانتظام حبات المسبحة أو عقد اللؤلؤ (بلا تشبيه حيث

---

(1) الفجر،1 و2.

أن كلام الباري أعظم وأدق وأكمل ولكن نريد أن نقرّب المثال). وهذا الذي نريد منه من انسجام الكلمة وتآلفها بالمعنى الثالث الذي هو الوضع اللغوي للكلمة بداخل الجملة، فكل كلمة اللفظ له بلاغة خاصة ضمن الأسلوب وأن كل كلمة في جملة من الكلام تدل بمفردها على معانٍ تتساوق مع المعنى الجملي للكلام.

إنّ كل كلمة تكون بمفردها صورة بيانية تكون جزءاً من الصورة العامة للقول، وهذا ليس معناه أن الكلمة لو جرّدت من الكلام تعطي وحدها ذلك الإشراق، ليس هذا المقصود.

إنّ الكلمة لوحدها لها إشراق جزئي ولكن عندما تأتلف مع الكلمات الأخرى تُعطي اشراقاً جديداً، لا تعطيه بمفردها. فللكلمة بمفردها اشراق وبانسجامها مع الكلمات الأخرى اشراق تفقده لوحدها. ثم هذه الكلمة بهذه الجملة لها وضع بلاغي ولغوي وإعرابي، ولو استعملت بجملة أخرى وبموقع اعرابي وموضع بلاغي آخر وبوضع تآلفي (انسجامي) وتناسقي من حيث الموسيقى هناك أيضاً لها موضع تكون فيه أكثر بلاغة وأدق.

فالقرآن الكريم بكل كلماته أخذ القمة في هذا الموضع بحيث لو غيّرنا أي كلمة من الكلمات بموقع آخر أو استبدلناها بكلمة أخرى لا تعطي من حيث الوضع الاعرابي والبلاغي والصوتي هذا الاشراق. هذا هو سر الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم. فلو أن العرب جاءت وقلّبت كل كلماتها وأرادت أن تستبدل كلمة مكان كلمة لا تجد من حيث الاعراب والبلاغة والوضع الصوتي للكلمة والعبارة هذا المعنى الذي في القرآن الكريم ولذلك يعجز الناس أن يستبدلوا هذا القرآن بقرآن آخر، مستحيل على الناس فهم عاجزون في أن يفعلوا ذلك، وهذا هو معنى الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

فكلّ كلمة تكون بمفردها لها صورة بيانية وتكون جزءاً من الصورة العامة للقول، لو أن الكلمة جُرّدت ليس لها ذلك الاشراق فلوحدها ليس لها الاشراق الذي تُعطيه وهي منضمة إلى أختها، فعندما نقرأ الآية الكريمة **(وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)** فكلمة «الصبح» لوحدها أو «تنفّس» لوحدها لا تُعطي الاشراق الذي عندما نقرأ الآية الكريمة حيث أنّها تعطي صورة جديدة ومعانٍ جديدة، تُجسّد الصبح وكأنه كائن حي وذلك بانضمامها إلى

«تنفس»، فكلمة «الصبح» لوحدها لا نفهم منه أنّه كائن حي يتنفس، ولكن بانضمام هذه الكلمة إلى كلمة «تنفس» أعطتنا تلك الصورة الحية التشخيصية.

الجرجاني الذي يؤكد على القضايا البلاغية وأنّ البلاغة لا تأتي إلا من خلال انضمام الكلمات (من خلال النظم) ويؤكد على نظرية النضم، «إنَّ كلمات القرآن لها في تناسق حروفها وتلاقي مخارجها إشراق بلاغي، ولكن لا ينكشف ذلك الإشراق إلّا بالتضام، أي: إنَّ الإشراق ذاتي، وهو الأصل، ولكن شرط ظهوره تضم الكلمة مع غيرها»[1].

فهو لا ينكر أنّ في الكلمة القرآنية اشراق ولكن يقول لوحدها لا يظهر هذا الاشراق وإنما بانضمامها إلى أخواتها يظهر ذلك الاشراق. هذا الذي يريد أن يبيّنه الجرجاني فهو لا ينكر أنّ للكلمة بذاتها اشراقاً بلاغياً ولكنه يقول أنّ هذا الاشراق البلاغي لا يظهر إلا بانضمام الكملة إلى أخواتها.

القاضي عياض أيضاً له كلام في موضوع الأسلوب القرآني في النظم يقول في كتابه الشفاء: «الوجه الثاني من إعجازه صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب»[2]، حيث أن للعرب أسلوبين في الكلام: الشعر والنثر، والشعر له بحور معينة وله قافية فكل بيت شعري له وزن وله قافية وهذا أسلوب من أساليب النظم العربي، وينظمون النثر أيضاً والنثر له أسلوب أيضاً فيستعملون البلاغة في النثر وكذلك الاعراب، وكذلك الخطابة العربية هي بليغة أيضاً، فقد تكون بعض الخطب أكثر بلاغة بكثير من الأبيات ومن القصائد الشعرية كما هو الحال في خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، فهو القمة بالنسبة للمخلوقين كما ورد في وصف كلامه (ع) «فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق».

فالقاضي عياض يقول في كلامه أن القرآن في أسلوبه ونظمه لا هو شعر ولا هو نثر فجاء متميزاً وخارقاً للعادة يعني خارقاً لكلام العرب. علماً أن اللغة العربية هي قد خرقت العادة حيث أن اللغات تنشأ وتنمو وتكثر فيها

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 131.
(2) المصدر السابق، ص 131 و 132.نقلاً عن كتاب الشفاء، ج1/ ص 170.

الثروة اللغوية والكلمات والاستعمالات وتنضج ثم تأتي لغة جديدة مستحدثة تحل محل الكلمات القديمة وتموت تلك اللغة.

وهذه سنة في جميع لغات العالم كاللغة الإنكليزية حيث نشأت وترعرعت وكثرت ثروتها اللغوية واساليبها وبلاغتها ثم بعد ذلك نضجت ثم جاءت اللغة اللاتينية لتحل محلها واندثرت اللغة الإنكليزية فلو نظرنا إلى قصص شكسبير فهي غريبة للمتكلمين الإنكليز المعاصرين، وهكذا في باقي لغات العالم، إلا أن اللغة العربية خرقت العادة في هذا الموضوع وذلك لأنها لغة القرآن الكريم، فالله تعالى هيأ لهذه اللغة من اللغويين والنحويين والأدباء والبلغاء، وقد أُلفت مختلف الكتب في هذا الشأن، وتجد أن اللغة العربية الآن هي اللغة الرسمية ولغة الخطاب الرسمي في كل دول العالم العربي فتلاحظ المذيع في التلفزيون وكذلك الصحف والمجلات والكتب الرسمية كلها باللغة العربية الفصحى، وهذه اللغة هي لغة القرآن الكريم، وربما تكون هذه اللغة من حيث الفصاحة والبلاغة والنحو فيها نواقص كثيرة عن لغة عصر النزول ولكنها بالنتيجة هي لغة عربية فلم تمت فبذلك تكون قد خرقت العادة حيث أنها لم تمت كما ماتت باقي اللغات. إن القرآن الكريم قد خرق العادة في أسلوبه ونظمه فهو ليس بنثر ولا شعر، فهو قرآن مستقل له أسلوب فريد في نظمه، ويكمل القاضي عياض: «والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم، وتدلهت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر»[1].

الخطابي أيضاً وهو أديب ولغوي (ت 388هـ) له كلام في الأسلوب القرآني وبيان الكلمة القرآنية وبانتظامها بالكلمات الأخرى، فيقول في «رسالة اعجاز القرآن»: «وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر؛ لأنها لجام الألفاظ، وزمام المعاني، وبه تنتظمأجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعضه فتقوم له صورة في النفس فيتكلم بها البيان، وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفناه، فقد علم أنه ليس المغرد بذرب اللسان وطلاقته كافياً في هذا الشأن، ولا كل من أوتي حظّاً من بديهة حاضرة

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 132. نقلاً عن كتاب الشفاء، ج1/ ص 170.

وعارضة كان ناهضاً بحمله ومضطلعاً بعبئه، ما لم يجمع إليها سائر الشروط التي ذكرناها على الوجه الذي حدَّدناه»[1].

فالخطابي يذكر شروطاً من حيث انسجام الكلمة مع أخواتها وتآلفها الصوتي والاعرابي والبلاغي، وأنّ الكلام لوحده وبمفرده لا يُعطي الصورة التي تترك أثرها في النفس الإنسانية من حيث البيان إذا لم يكن مستوفياً لتلك الشروط.

يقول الخطابي: «وأنَّى لهم ذلكومن لهم به: **(قُل لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأتُوا بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لاَ يَأتُونَ بِمِثلِهِ وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيراً)**[2]، وإنَّ الشروط التي ذكرها في آنف قوله هو اختيار الألفاظ من ناحية معانيها، وقوة تماسكها بعضها ببعض، وأشار إلى أنَّ الألفاظ قد تكون مترادفة في الظاهر، ولكن عند التحقق في مرماها يكون الاختلاف، وإن كان المعنى الجملي واحداً»[3].

هذا خلاصة رأي الخطابي من حيث الأسلوب القرآني، «وإنَّ الناظر إلى أسلوب القرآن الكريم في الخطاب والبيان يجده مختلفاً، فمثلاً أحياناً يكون بالاستفهام، والاستفهام أحياناً للتوبيخ، وأحياناً للتقرير، وأحياناً يكون للتنبيه، والكلام يكون بإطناب لا حشو فيه قط، ومعاذ الله أن يكون في كلامه تعالى ما يشبهه، وفي الإطناب يكون تكرار القول»[4].

إن التكرار من حيث الأصل مذموم ولكن البلاغيين قد يستعملوا التكرار ويكون فيه جمال بلاغي، والقرآن الكريم استعمل التكرار كما ورد قوله تعالى في سورة الرحمن: **(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)** حيث تكررت الآية مراراً ومع ذلك جاءت القمة في البلاغة، ومعنى ذلك أن وضع الكلمة البلاغية ووضع العبارة البلاغية من حيث التشبيه أو الاستعارة أو الايجاز أو الاطناب أو الأمر أو النهي وما شاكل ذلك، تكون العبارة القمة في البلاغة. وكذلك الصورة الفنية، عن ماذا تتكلم الآية ؟ فإذا كانت عن الرحمة فتأتي الكلمات تلائم الرحمة أو عن أهوال يوم القيامة فتأتي الكلمات تقرع

---

(1) المصدر السابق، ص 132. نقلاً عن رسالة الخطابي، ص 37.
(2) الإسراء (بني إسرائيل)،88.
(3) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 132.
(4) المصدر السابق، ص 133.

الأذن وتصك الآذان، فكذلك المعنى الذي تتناوله الآيات الكريمة فكل هذه المعاني تحتاج إلى كلمات تتناسب معها وتنسجم وتتآلف معها، فتآخي الكلمات في الأسلوب القرآني والنظم القرآني يعتمد على اختيار الكلمة وموقع الكلمة واختيار المعنى البلاغي.

وأحياناً يكون الكلام ايجاز ليس فيه إخلال، وأحياناً يكون الكلام تهديداً تضطرب له القلوب وتفزع، وأحياناً يكون توجيهاً يدعو إلى التأمل والتفكّر، وأحياناً بياناً لأحكام الحلال والحرام وواجبات المكلّف ولفت أنظار المكلّفين إلى هذه الأحكام والالتزام بها. فالقرآن الكريم خرج بكل هذه الأساليب بأسلوب متناسب مؤتلف بألفاظه وبعباراته وبجمله وبآياته وبسوره. فمع أنه خرج بكل هذه المعاني وبسنين متطاولة حيث أنه لم ينزل دفعة واحدة وبأحداث مختلفة فقد جاء القرآن الكريم منسجماً انسجاماً تاماً من كل هذه الأوضاع اللغوية والبلاغية والنحوية، بحيث يتكون من الجميع من كل هذه الأمور صورة بيانية متناسقة في معانيها ومؤتلفة في ألفاظها فلا ينبو واحداً منها في لفظ أو معنى بل يتآخى الجميع.

المبحث الثاني: التآلف في الألفاظ والمعاني

يعني كيف تأتي الألفاظ منسجمة ومتآلفة؟ وكيف تأتي الألفاظ ضمن المعاني التي يُراد لها أن تُنقل إلى ذهن السامع أو القارئ؟

في هذا الشأن يقول الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن»: «واعلم أن هذا علم شريف المحلّ، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل بيت عصمة تفطن لما فيه، وهو أدق من السحر، وأهول من البحر ... وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام، إلَّا أن يكون شعراً أو سجعاً، وليس كذلك، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل فيه اللفظة الأخرى، بل تتمكّن فيه، وتضرب بجرانها، وتراها في مظانها، وتجدها في غير منازعة في أوطانها، وتجد الأخرى لو وضعت

في موضعها لكانت في محلّ نفار، ومرمى شرار، ونابية عن استقرار»[1].
إنّ هذا الكلام للباقلاني يبيّن لنا عدة مضامين:

الأمر الأول: إنّ هذا العلم – علم الأسلوب القرآني والبلاغة القرآنية – لا يتفطن له كل أحد إلا المتخصصون أصحاب علوم البلاغة والبيان لأنّ هذا العلم فيه دقة وسحر وجمال فلا يتذوقه أي أحد، ونأخذ مثالاً على ذلك:

إنّ الذين يؤلفون القصائد ويصرفون وقتهم ويبذلون فيها جهدهم ويسكبون تلك المشاعر التي تهيج فيهم عند تأليف القصيدة في تلك القوالب اللفظية عندما يقرأونها في الاحتفالات وفي مجامع الناس فإنّه ليس كل الناس يتذوقون تلك القصيدة بقدر واحد فمنهم مَن يمل سماعها ويسأم الاستماع إليها لأنّه لا يفهم المعاني والمضامين التي يرمي إليها الشاعر، ومنهم مَن تجده يتفاعل مع القصيدة ويقوم ويقعد لسماع الأبيات حيث أنّه يتذوق ويفهم المضامين والمرامي التي يرمي إليها الناظم وكل ما كانت القصيدة على درجة من البلاغة ودرجة من النظم والسبك وتآلف الكلمات والمعاني كان المستمع متذوقاً عارفاً بذلك المعنى كلما كان التفاعل أشد وأكثر فيقول «أعد البيت وأعد الكلام» ... الخ، لأنّ السامع جاء منسجماً مع مرامي الناظم والشاعر، فإذا وجد الشاعر له زبائن لاستماعه ولو واحداً فإنّه ينبسط لذلك.

فالأمر الأول الذي يريد أن يبيّنه الباقلاني أنّ المتخصص الدقيق في علوم البلاغة يفهم هذه المضامين العالية والمرامي السامية التي يرمي إليها الشاعر أو الناظم فما بالك بالقرآن الكريم، فبلاغة القرآن بلاغة عظيمة وكل يأخذ ويفهم من بلاغته على قدره وليس على قدر القرآن، ولذلك الآية الكريمة تعبّر عن القرآن وتصفه: **(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)**[2]، وهذا هو كرم الإله تبارك وتعالى ليس منقطعاً. ولذلك مهما بلغ البلغاء من البلاغة فإنّهم يأخذون على قدرهم لا على قدر القرآن كما أن المطر النازل من السماء

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 133 و134. نقلاً عن «اعجاز القرآن» للباقلاني، ص 280.
(2) الواقعة،77.

تأخذه الأودية بقدرها وليس بقدر المطر النازل **(أنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَت أَودِيَةٌ بِقَدَرِهَا ..)**[1].

أما إذا نظرنا إلى المعاني القرآنية والمحكم والمتشابه والتأويل فأيضاً هنا يحتاج إلى أناس متخصصين يفهمون التأويل ويفهمون المحكم والمتشابه، وهؤلاء فضلاً عن فهم بلاغة القرآن يفهمون مراميه بدقة، وهذا لا يكون إلا من لدن الباري تبارك وتعالى، يعني لا يفهمون القرآن إلا أن يكونوا قد عُلّموا من لدن الباري تبارك وتعالى **(وَمَا يَعلَمُ تَأوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ)**[2] فهنا يحتاج إلى أناس متخصصين، وهذا الاختصاص قد حصرته الآية الكريمة بالله تعالى والراسخين في العلم، ورواية وردت عن أهل البيت (ع) قال الإمام الصادق (ع): «نحن الراسخون في العلم و نحن نعلم تأويله»[3].

أما قول الباقلاني «ولا أهل بيت عصمة تفطن لما فيه» مع الأسف الشديد أنّ كثيراً من الناس، يأتي فينظم أو يؤلف النثر مثلاً أو الشعر ولكنه يؤلف كما يريد ويتصور أنّ هذا فيه بلاغة وهو قد يُضحك الثكلى لركاكته ولبعده ولاستعمال كلمات ليست بليغة وليست فصيحة بل حتى يستعمل الكلمات غير النحوية، فعبارته هذه بعيدة عن الصحة.

الأمر الثاني إن علم البلاغة علم واسع حيث تدخل فيه عدة عوامل، كما بيّنا سابقاً عوامل الكلمة بذاتها وائتلاف الكلمة مع أخواتها وائتلافها بالمعاني.

الأمر الثالث من حيث التنافر، فقد تأتي لفظة تتنافر مع لفظة أخرى من حيث الصوت، فلابد أن تأتي الألفاظ مؤتلفة لا أن تأتي كلمة شديدة القرع ثم يأتي صوت خافت حيث يحدث اضطراب بالسمع، فيجب أن تكون النغمات الصوتية متقاربة ومؤتلفة. «وإن التأليف ليس فقط في نسق الألفاظ ونغمها، بل إنه يشتمل التآخي في المعاني كالتآخي في المباني، فلا يكون معنى لفظ نافراً من المعنى الذي يجاوره، ويتألف من الألفاظ والمعاني وما توعزه من أخيلة، وما تثيره من معانٍ متداعية يدعو بعضها بعضاً، ويتألف

---

(1) الرعد،17.
(2) آل عمران،7.
(3) الكافي، مصدر سابق،ج1/ ص 213.

منها علم زاخر، كثير خصب، وقد عبَّر عن هذا المعنى الوليد بن المغيرة بقوله: إن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق»[1].

عندما تقرأ القرآن فإنّ كلماته حلوة ومنسجمة **(بسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ)**، فلا توجد كلمة شديدة القرع وكلمة هادئة بل كلها جاءت منسجمة مع بعضها البعض حيث أنّ كل الكلمات جاءت ليّنة سهلة تعطي نفس المعنى الذي يتحملها وهو الرحمة وكذلك في قوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ أَوحَينَا إِلَيكَ رُوحاً مِّن أَمرِنَا)**[2]– سنأتي لاحقاً على ذكرها بالتفصيل – ولكني أبيّن هنا الانسجام بالكلمات مع بعضها من حيث مخارج الحروف ومن حيث اللفظ ومن حيث الصوت، هذا هو التآلف بالألفاظ.

ولا نكتفي بالتآلف في الألفاظ بل لابد أن يشتمل على التآلف بالمعاني، فلا بد من أن تكون هذه الكلمات وهذه العبارات تعطي معاني متقاربة ومنسجمة بحيث أنّ العبارة التي أوصلتها للمستمع والعبارة التي بعدها تنسجم معها وتكمل من حيث ابتدأت فهناك حلقات اتصال، فهذه الحلقات والارتباط والتآلف موجود بالمعاني، وهذا هو المقصود من التآلف في الألفاظ والمعاني.

فالكلمات عندما تتآلف تعطي صورة جديدة ولكن هذه الصورة الفنية قد تكون فصيحة ولكن هناك ماهو أفصح منه كما في الآية الكريمة **(مَوجٍ كَالجِبَالِ)**[3] عندما يصف تبارك وتعالى طوفان نوح (ع) فعبارة «الموج كالجبال» يعني أمواج هائلة جداً والبحر هائج إلى أبعد الحدود بحث توصفها الآية **(كَالجِبَالِ)** فأي سفينة تستطيع أن تقاوم هذه الأمواج ما لم تكن بحفظ الله تبارك وتعالى.

عندما تأتي الكلمات لابد من أن ننظر إلى انسجام اللفظ من حيث أن لا يكون اللفظ نابياً أي يكون منسجماً مع اللفظ الذي يجاوره وكذلك الكلمة من حيث المعنى أن تكون منسجمة مع المعنى الذي تجاوره فتكون هناك حلقة، وما تصوره من أخيلة، فهذا الخيال والصورة لابد أن يأتي منسجماً ومثيراً بمعانيه وما يحدثه في ذهن السامع فيتألف من هذه الصور علم

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 134.
(2) الشورى، 52.
(3) هود، 42.

غزير وخصب وهذا ما عبّر عنه الوليد بن المغيرة بقوله: «إن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق».

نذكر شاهداً على انسجام الألفاظ: «قال الأصمعي: كنت أقرأ: **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**، وكان بجانبي أعرابي فقال: كلام مَن هذا ؟فقلت: كلام الله. قال: أعِد. فأعدت؛ فقال: ليس هذا كلام الله، فانتبهتُ فقرأت: **(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)**[1].

فقال: أصبت. فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت ؟ فقال: يا هذا، عزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع»[2].

«وإن التآخي في المعاني والألفاظ ونسقها ونغمها ومعانيها واضح في كل آيات القرآن، لا في آية دون أخرى، ولا في سورة دون سورة، فلا تجد في لفظ معنى يوجه الخاطر إلى ناحية، ويليه آخر يوجهه إلى ناحية أخرى، بل تجد النواحي متحدة إمّا بالتقابل وإما بالتلاصق والمجاورة، وفي كلا الحالين تجد معنى كل لفظ يمهد لمعنى اللفظ الآخر، فلا تنافر في المعاني، كما أنه لا تنافر في الألفاظ، وهما في مجموعها يناسبان في النفس غذاء رطيباً مريئاً، ونميراً عذباً سلسبيلاً»[3].

لقد ألّفت كتب في بديع أشعار العرب فلو قرأتها مرة وثانية وثالثة تنشد إليها وتدهش من بلاغتها وجمالها وعذوبتها ولكن إذا كُرّرت عليك سوف تسأم وتمل من سماعها وتنزعج كالإنسان الشبعان من الطعام إذا قُدم له الطعام ثانيةً. ولكن هذا الأمر في القرآن الكريم ليس كذلك فالقرآن مهما كرّرته تشعر بحلاوة للاستماع إليه فلا تسأم وتمل من سماعها إذا كُرّرت قراءتها. مثلاً أنتَ تقرأ على الأقل عشر مرات سورة الحمد (الفاتحة) في الصلاة اليومية ومع ذلك في كل مرة المؤمن يخشع فلا يحدث له اشمئزاز ولا نفرة ولا ملل، فهذا الأمر القرآن الكريم قد خرق العادة فيه.

---

(1) المائدة، 38.

(2) عاشور، قاسم: 1000سؤال وجواب في القرآن الكريم، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت، 2001. ص 184.

(3) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 134 و135.

«وقد ساق الباقلاني آيات ليست مختارة اختياراً؛ لأنَّ آيات القرآن كلها لا نظير لها، فليس اختيار من ينتقي؛ لأنَّ كله خير، وسنذكر آيات مما ذكر وأخرى لم يذكر كأن نفتح الكتاب، فيبدو نوره فنقبس منه قبسة.وقرأ قوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهدِي إِلَى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ* صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)**[1].

هذه الآيات الكريمة بعباراتها وإشاراتها البيانية، وسياقها تدلّ على ابتداء الرسالة المحمدية، وانتهاء أمر الناس في الأخذ بها، وعاقبة من اهتدى، ومن ضلَّ وعصى وغوى.وإذا نظرت إلى الآيات الكريمات مع ما سبقها وجدتها كلاماًمتآخياً، يندمج بعضه في بعضه في ائتلاف لا نفرة فيه، فالآية قبلها تبين طرق كلام الله تعالى لخلقه، فقد قال تعالى قبل هذه الآيات: **(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحياً أَو مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)**[2]»[3].

إنّ هناك طرقاً مختلفة لحديث الله تبارك وتعالى مع البشر إما وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسل رسولاً، ومن وراء حجاب كما هو الحال في الشجرة فالله تبارك وتعالى كلّم موسى (ع) فأحدث الصوت في الشجرة فسمع موسى (ع) الصوت وكأنه يأتيه من كل مكان، فالله تعالى خلق الصوت الذي يريد أن يعبّر فيه من المعاني بالشجرة.

الآن نريد أن نبتدئبالاشارات البيانية التي نريد أن ننبّه إلى بعضها – لا نستطيع أن ننبّه إلى كل الإشارات البيانية القرآنية لأننا أعجز من ذلك – فهنا نجد كلمة **(وَكَذَلِكَ)** حيث أن الآية التي تسبقها بيّنت أنواع الوحي فهذه الكلمة «كذلك» تربط بين هذه الآية وبين الآية السابقة فهي تدل على المؤاخاة، فالواو العاطفة و«كذلك» للتشبيه إشارة إلى تلك الآية والخطاب للرسول (ص) فكل هذه المعاني جاءت حتى تتآلف هذه الآية الجديدة بالمعنى مع الحديث عن أنواع الوحي في الآية السابقة، وهي تشير إلى علو

---

(1) الشورى، 52 و53.

(2) الشورى، 51.

(3) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 135.

الله تعالى في المعنى الذي قرّره (**إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**) فهو تبارك وتعالى منزّه عن أن تباشره الحواس فلا يُرى بالعين ولا يُحس ولا يُلمس فكيف يخاطب المخلوقات ؟! فذكر تبارك وتعالى هذه الطرق إما وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسل رسولاً.

إذاً جاءت الآية منسجمة في المعنى فبعد أن قسمت أنواع الوحي اختارت قسماً من هذه الأقسام، (**أوحَينَا إلَيكَ رُوحاً مِّن أمرِنَا**) فنجد الائتلاف بين كلمة (**أوحَينَا**) وكلمة (**رُوحاً**) وكلمة (**أمرِنَا**) في المخارج والألفاظ والانسجام بينها، وكذلك التآخي في المخارج والنغم، إن كلمة (**أوحَينَا**) تدل على خطاب الله تعالى لرسله فلا يكلّمه جهراً ويسمعه كل إنسان حيث أن الوحي هو خاص لرسوله، فعندما كان الوحي على الرسول (ص) بوجود الصحابة فلا يسمعون الوحي ولا يرونه ولكن عن طريق رسول الله (ص) الذي زوّد بالقابلية التي يستلم فيها الوحي ويرى جبريل (ع) ويسمع صوته وما يُوحى إليه، والتعبير بـ(**أوحَينَا**) ابطال لقول مَن يقول (**أرِنَا اللهِ جَهرَةً**)[1]، حيث أن بعضهم طلبوا من موسى (ع) (**لَن نُّؤمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهرَةً فَأَخَذَتكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُم تَنظُرُونَ**)[2]، فهذا التخصص (الوحي) لإنسان معين والله تعالى يختصه به ويصطفيه، فليس كل إنسان يستطيع أن يرى أو يسمع الوحي، فمثلاً – الأمثال تضرب ولا تقاس – في قاعة الدرس نحن لا نسمع لما هو موجود في القنوات الفضائية من أخبار واعلانات ولا نراها أو نسمعها ولكن نحتاج إلى أجهزة معينة تكشف لنا عن هذه الصور والأصوات.

إنّ الذين يقولون (**أرِنَا اللهِ جَهرَةً**) هذا ليس كلاماً صحيحاً وكلام باطل، يقولون عن جهل لله وبرسالاته ويقولون (**لَولا أُنزِلَ عَلَينَا المَلائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا**)[3]، إنّ الآية (**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ ..**) تُبطل هذه التقولات في رؤية الله تعالى جهرة أو ينزل عليهم مَلك فيكلمهم كما يريدون فالآية ترد عليهم (**وَقَالُوا لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ مَلَكٌ وَلَو أنزَلنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ* وَلَو جَعَلنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسنَا عَلَيهِم مَّا يَلبِسُونَ**)[4].

---

(1) النساء، 153.
(2) البقرة، 55.
(3) الفرقان، 21.
(4) الأنعام،8 و9.

ونعود إلى الآية التي كنا نتحدث عنها **(أوحَينَا إلَيكَ رُوحاً مِّن أمرِنَا)**، اختلف المفسرون في تفسير كلمة «الروح» فمنهم مَن قال أن الروح هو جبريل (ع)، ومنهم مَن قال – كما هو في تفاسير أهل البيت (ع) – أن الروح ملك عظيم أعظم من الملائكة (أي من جبرائيل وميكائيل) وهذا الروح كان مع نبينا محمّد (ص) ولعله فيه الإشارة من كلام أمير المؤمنين الإمام علي (ع) حيث قال في خطبته «القاصعة»: «لقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به»[1].

إنّ كلمة «الكتاب» في القرآن ليست بالضرورة تعني القرآن الكريم في قوله تبارك وتعالى: **(وَالَّذِي أوحَينَا إلَيكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ)**[2] فالوحي جزء من الكتاب، والرسول (ص) وأهل البيت (ع) عندهم علم الكتاب حيث يقول تعالى: **(وَالَّذِي أوحَينَا إلَيكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَينَ يَدَيهِ إنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ* ثُمَّ أورَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصطَفَينَا مِن عِبَادِنَا ..)**[3]، فكل الكتاب قد أورثه تبارك وتعالى لأناس بعد الحبيب المصطفى (ص) وهؤلاء اصطفاهم وأورثهم علم الكتاب، كل الكتاب حيث أن البعض قد أعطاهم جزءاً من علم الكتاب في قوله تعالى: **(قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلمٌ مِّنَ الكِتَابِ ..)**[4].

قوله تعالى: **(أوحَينَا إلَيكَ رُوحاً مِّن أمرِنَا)**، وعالم الأمر هو غير عالم الخلق، إذا جاءت الكلمة بمعنى الأمر: **(تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإذنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أمرٍ)**[5].

إنّ الرسول (ص) قد خصّه الله تبارك وتعالى بأنواع الخطاب بين الأنبياء والمرسلين، فموسى (ع) خصّه الله تعالى بالكلام وهو كليم الله، الحبيب المصطفى (ص) كما في هذه الآية على هذا المعنى أنّه أوحي إليه

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن حديد المعتزلي، مصدر سابق، ج3/ ص 250.
(2) فاطر، 31.
(3) فاطر، 31.
(4) النمل، 40.
(5) القدر، 4.

بمختلف هذه الطرق، وهذه صفة ينفرد بها الرسول (ص) وحتى خطابه في المعراج (**فَكَانَ قَابَ قَوسَينِ أَو أَدنَى* فَأَوحَى إِلَى عَبدِهِ مَا أَوحَى**)[1].

إنّ الرسول (ص) يشاهد المَلَك ويسمع الصوت إضافة إلى الخطاب الإلهي في المعراج فهذه الآية (**أَوحَينَا إِلَيكَ رُوحاً مِّن أَمرِنَا**) اجتمعت على معانٍ عديدة مع هذا الايجاز الذي نراه في الآية الكريمة وجاءت كلماتها متآخية مع الألفاظ ومع المعاني.

بعد أن بيّنت الآية أن كل تلك الأنواع التي أوصل الله تبارك وتعالى الوحي إلى حبيبه المصطفى (ص) نجد أن الإيحاء أضيف إلى الله تعالى (**أَوحَينَا**) فعل مسند إلى لفظ الجلالة وهذا الاسناد هو تشريف لهذا الوحي وتشريف للحبيب المصطفى (ص) لأن الخطاب إليه وأيضاً فيه دلالة على أن هذا القرآن من عند الله تبارك وتعالى ومن لدن الله تعالى ولا يمكن أن يأتي به مخلوق وهو معجز لأنّه من الله تبارك وتعالى فهو لا يعتريه تبديل ولا تغيير فهو محفوظ لأنّه من لدن الباري تبارك وتعالى. هذه الآية الكريمة تبعتها في هذه المعاني والألفاظ قوله تعالى: (**مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ**)، فسّر بعضهم أن (**الكِتَابُ**) بمعنى الكتابة، أي أنّ الرسول (ص) لم يكن يعلم الكتابة ثم علمها وهذا فيه كلام طويل وخلافٌ بين المفسرين.

نأتي الآن على الكلمة «الدراية» في (**مَا كُنتَ تَدْرِي**) بمعنى العلم أي ما كنت تعلم الكتابة، هذا إذا كان المعنى الكتابة كما هو الرأي السائد بين المفسرين بأنّ الرسول (ص) لم يكن يعلم القراءة والكتابة بمعنى الأمي. وكلمة الأمي فيها معانٍ كثيرة منهم مَن يذهب إلى أن أمّي نسبة إلى أم القرى مكة المكرمة، وأم القرى أي أصل القرى فمثلاً ورد في سورة الفاتحة أنّها أم الكتاب أي أصل الكتاب، فكأن علوم القرآن جُمعت كلها في سورة الفاتحة (الحمد). وكذلك الأمي الذي يخرج من بطن أمه وهو لا يعلم (**وَاللهُ أَخرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لاَ تَعلَمُونَ شَيئاً**)[2]، نسبة إلى الأمية الذي لا يعلم شيئاً.

---

(1) النجم، 9 و10.
(2) النحل،78.

في الاصطلاح الأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، يعني لا يعلم القراءة والكتابة. فإذا كان المعنى أن النبي (ص) لا يعلم القراءة والكتابة حيث أن الكثير منهم يحتج أنّه (ص) لو كان يعلم القراءة والكتابة لارتاب المبطلون.

هناك أمران لابد أن نفرّق بينهما: الأول نقول أن النبي (ص) لم يتعلم على يد أحد القراءة والكتابة فهذا صحيح، حيث إنّنا ومن خلال روايات أهل البيت (ع) ورد بأنّ النبي (ص) يعلم ما كان وما يكون إلى قيام الساعة فهل يستعصي عليه أن يعرف 28 حرفاً من حروف اللغة العربية ومعرفة قراءته ؟!!

إن بعض الأنبياء يعرف منطق الطير ويخفى على نبيّنا (ص) هذه الكلمات، فهذا ممّا يُستبعد جداً بمثل شخصية النبي (ص) وهو خاتم الأنبياء وسيّدهم وإمام المرسلين وسيد الخلق، فكل ما في الخلق من فضيلة وكل ما في الأنبياء ورسل من فضيلة فهو (ص) السيد ويزيد على ذلك لكي يكون سيّدهم، وإلا كيف يكون (ص) سيّدهم ولم يزدد عليهم بشيء من الكمال ومن الفضائل، وإلا كيف يخاطبه الباري جل وعلا: **(اقرَأ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)**[1]، فإن لم يكن قارئاً كيف يقرأ وهناك أيضاً أمور كثيرة تدلل على أنه (ص) يعرف القراءة والكتابة ولكنه لم يتعلم على يد أحد وكذلك بالنسبة للأئمة المعصومين (ع) حيث أننا لم نجد في تراجم أهل البيت (ع) أنّه تتلمذ على يد أحد من غير المعصومين.

الأمر الثاني أنّ الأمي بمعنى أنّه (ص) لم يمارس القراءة والكتابة، مرة لم يتعلم على يد أحد القراءة والكتابة وهذا هو الصحيح، ومرة يعلم القراءة والكتابة ولكن لم يمارسهما وهذا أيضاً صحيح، فقوله تعالى: **(وَمَا كُنتَ تَتلُو مِن قَبلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ)**[2] فلا يعني أنّه لا يعرف القراءة والكتابة. فهناك مَن يعرف القراءة والكتابة ولكنه لم يمارسهما.

الأمر الآخر وهو الشائع بين أبناء العامة من أهل السنة وبين بعض الشيعة أيضاً أن الرسول (ص) لا يعرف القراءة والكتابة، فعلى هذا الرأي فإنّ قوله تعالى: **(مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَّابُ)** أي بمعنى الكتابة. ورأي آخر

---

(1) العلق،1.
(2) العنكبوت،48.

يقول بأن **(مَا الكِتَابُ)** بمعنى تفاصيل القرآن، أي أنّك لم تكن قبل الوحي تعلم تفاصيل هذا القرآن، وفعلاً كان النبي (ص) لا يعلم بتفاصيل القرآن ثم عَلِم. **(وَلَا الإِيمَانُ)** بعضهم يقولون بأن النبي (ص) لم يكن مؤمناً – والعياذ بالله – ثم صار مؤمناً، وهذا غير صحيح حيث أنّه (ص) كان مؤمناً ولكن تفاصيل وحقائق هذا الايمان باعتبار أنّ النبي (ص) يزداد هدى **(وَالَّذِينَ اهتَدَوا زَادَهُم هُدًى وَآتَاهُم تَقواهُم)**[1]، فالرسول الأعظم (ص) هو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم وهو على الصراط المستقيم بل هو الصراط المستقيم، فالهدى فيه زيادة والعلم فيه زيادة **(وَقُل رَّبِّ زِدنِي عِلماً)**[2].

وأنّ قوله تعالى:**(مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ)** الدراية داخلة على الاستفهام، «فنفي الدراية متجه إلى الحقيقة، أي: إنَّه ما كان يدري حقيقة الكتاب ولا تفصيل الإيمان، وهذا تأكيد لنفي العلم بالكتاب علم دراية، ونفي العلم بتفاصيل الإيمان علم دراية. ولا شك أن كل كلمة من هذا النص وما سبقه تتآخى مع ما بعدها وما قبلها في تقرير حقيقة ثابتة، وهي أنَّ القرآن روح من عند الله، وكل روح فيها حياة»[3].

وهنا التعبير أن القرآن الكريم كالروح للبدن، والقرآن كالروح للأمة حيث أن الأمة ميّتة بدون الايمان وهذا تعبير رائع جداً في هذا المعنى، هناك آية كريمة تقول: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا استَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحيِيكُم)**[4]، فالله تعالى والرسول (ص) يدعوان إلى الحق وإلى هذا القرآن، معنى ذلك أنّ هذا القرآن يُحييكم فأنتم بدون هذا القرآن موتى، أجساد بدون روح. فالتعبير بهذا اللفظ **(أَوحَينَا إِلَيكَ رُوحاً مِّن أَمرِنَا)** فهو حياة فكما أن الروح حياة في الناس كذلك هذا الوحي حياة لكم يُخرجكم من الظلمات إلى النور. فمعنى ذلك أن هناك روح للمؤمن غير موجودة عند الكافر. والنبي (ص) عنده روح غير موجودة عند المؤمن العادي وفي الناس الآخرين فهذه الروح أوحاها له الله تعالى وبها يستوعب ويتلقى الوحي وينكشف له من العوالم.

---

(1) محمّد،17.
(2) طـه،114.
(3) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 138.
(4) الأنفال،24.

وعليه فإنّ هذا القرآن هو روح من عند الله تعالى وكل روح فيها حياة، وحياته حياة المجتمع وحياة الإنسان في الشريعة التي أنزلها الله تعالى وفي التوحيد وما يترتب على التوحيد من الفروع التي تبنى عليه والحق الذي أثبته والصلاح الذي بثه،والقوانين التي أنزلها الله تعالى في هذه الشريعة لتحيي المجتمع وتدفع الفساد في الأرض، وأن القرآن الكريم خلاصة هذا الوجود. فالكون كتاب تكويني والقرآن كتاب تشريعي خاتمة الكتب وسيد كلام الله، والآية تقول: **(وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهدِي بِهِ مَن نَّشَاء مِن عِبَادِنَا)**، فالله تعالى هنا استدرك بـ«لكن» وجعل هذا القرآن نوراً يهدي به مَن يشاء من عباده، وطبعاً النور يختلف عن الضياء. «وننظر في النص وانسجام ألفاظه، وتلاقي معانيه، وإنك تجد للاستدراك هنا موضعاً طيباً؛ إذ أن النص الكريم السابق كان فيه نفي الدراية عن حقيقة الكتاب وعن حقيقة الإيمان، والاستدراك هنا لا يفيد أنَّ نفي الدراية دائم، بل إنه ينتهي بعلم الكتاب الذي هو النور الذي يهدي به الله تعالى»[1].

لهذا الاستدراك معنى طيب ومنسجم مع الكلمات والمعاني والألفاظ إذ أنّ النص الكريم السابق كان فيه نفي الدراية عن حقيقة الكتاب وعن حقيقة الايمان وتفاصيلهما، والاستدراك هنا لا يفيد بأن نفي الدراية دائمة، فلا يعني أنّ عدم الدراية دائم وإنما هو استدرك فيمكن أن تدري بعد ذلك، وسوف تزداد دراية بالكتاب ودراية بالايمان وتزداد هدى **(وَالَّذِينَ اهتَدَوا زَادَهُم هُدًى وَآتَاهُم تَقواهُم)**[2]، **(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحسِنِينَ)**[3] إذاً الهداية قابلة للزيادة وكذلك اليقين وأيضاً العلم قابل للزيادة.

يقول الباقلاني في هذا المجال: «جعله سبحانه وتعالى روحاً؛ لأنه يحيى الخلق، فله فضل الأرواح في الإحياء، وجعله نوراً؛ لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق، ثم أضاف وقوع الهداية إلى مشيئته»[4].

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 139.
(2) محمّد،17.
(3) العنكبوت،69.
(4) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 139.

إنّ العبد له الاختيار ولكن هذا الاختيار ضمن مشيئة الله تعالى ولا يخرج عن مشيئة الله ولا يخرج عن حكومة الله لأنّه المؤثر في هذا الوجود، وكل مؤثر آخر جعل الله مؤثراً فهو يرجع إليه سبحانه وتعالى.

ويُكمل الباقلاني: «ووقف وقوع الاسترشاد به على إرادته، وبَيِّنَ أنه لم يكن ليهتدي إليه لولا توفيقه، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه، وأنه لم يكن ليهتدي لولا هداه، فقد صار يهتدي، ولم يكن من قبل ذلك ليهتدي، أي: إنَّ القرآن الكريم قبل نزوله ما كان النبي (ص) يدري ما الكتاب ولا الإيمان، وبعد نزوله اهتدى وعلم، وبلغ مرتبة أن يحمل الهداية والإرشاد للناس بعد أن كان لا يدري الكتاب ولا تفصيل الإيمان، وهذا يفيد أنَّ القرآن تعليم الله للنبي، وللناس من بعده. وإِنّ الكلام السامي **(وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً)** في هذا استعارة تمثيلية، أي: إنَّه هو كالنور المضيء الذي لا يضل فيه الساري ولا يختفي على مَن يبصر بسببه شيء، بل إن فيه تأكيد التشبيه بجعله هو النور، وأن الذين لا يبصرون حقائقه وما فيه من علم، العيب فيهم وليس فيه، والنقص منهم وليس منه، وإضافة جعله نوراً إلى الله تعالى تشريف له فوق تشريف، وهو يتفق مع النسق الذي ابتدأ به النص الكريم، ولكن مع أنَّه النور الذي يهدي، لا يهتدي به الناس من غير أن يكون ذلك بمشيئة الله تعالى»[1].

وجعل هذا القرآن نوراً يهدي به مَن يشاء من عباده، وطبعاً النور يختلف عن الضوء، حيث أن الضوء فيه فاعلية، وإعطاء الضوء للآخرين فمثلاً الشمس ضوء بينما القمر نور لأنّ النور مكتسب والقرآن الكريم من عند الله تبارك وتعالى، فهو تعالى الذي أنزل القرآن وهو الذي أوحى هذا القرآن. وقد يتساءل سائل إذا كان القرآن نوراً يهدي به الناس فلماذا لا يهتدون ؟ الجواب: إنّ التقصير من الناس وليس من القرآن، كما لو أنّ هناك ضياء وإنسان لا يريد أن يهتدي بهذا الضياء، أو هناك مصباح والانسان لا يريد أن يستعمل هذا المصباح، وعليه فالتقصير يبدر من الإنسان، فلا يوجد قصور في المصباح ولا تقصير وإنما التقصير من الإنسان.

(1) المصدر السابق، ص 139.

مثال آخر من القرآن توضحه الآية في قوله تعالى: **(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً)**[1]، للمؤمن هذا القرآن فيه شفاء من أمراض الشرك والنفاق، وأما غير المؤمن لا يتشافى في هذا القرآن والظالم لا ينتفع بظلمه بهذا القرآن حيث أن الظالم بظلمه قد حجب نفسه أن تنتفع من هذا القرآن، وليس القصور بالقرآن الكريم.

مثال آخر، عندما ينزل المطر وكان فوهة الاناء إلى المطر فسيأخذ من المطر أما إذا كان الإناء مقلوباً فلا يسقط فيه المطر ولا ينتفع بالمطر، فالنقص بوضع الإناء مع أن قابلية الإناء موجودة للاستيعاب ولكن الاناء مقلوب فلم ينتفع بنزول المطر. فالآية الكريمة **(وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا)** قسّمت الناس إلى قسمين: قسم الله تعالى هداهم بهذا القرآن لأنهم اختاروا الهداية، فالله تبارك وتعالى يهدي مَن يريد الهداية، ويُضل الله تعالى مَن يريد الضلالة.

«فقال سبحانه: **(مَن نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا)**. فبيِّن سبحانه سلطانه على القلوب، وخصَّ بالهداية من شرَّفه بأنه من عباده، تعالى سلطانه، وقام عدله، وفي هذا إشارة بيانية إلى أن الذي شاء الله تعالى هدايته هو من خلص نفسه، وجعلها لله وحده، وشرف بأنه من عباد الله لا من إخوان الشياطين. ولقد شرَّف الله تعالى نبيه بأن نسب إليه هداية الإرشاد، وبيان السبيل فهو نور معه نور الكتاب»[2].

النبي (ص) نور ومعه نور آخر هو نور الكتاب وهذا النور امتداده امتداد النبي (ص) نور أهل البيت (ع) والقرآن هو نور مستمر للهداية، فالعدالة الإلهية تعم الوجود وتعم الكون وتعم كل الأجيال والقرآن هادٍ والرسول أيضاً نور وهادٍ فهل أنّ الهداية بعد وفاة الرسول (ص) تنقطع ؟!

لا، ولهذا الآية الكريمة تقول **(.. إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)**[3]، فالهاد هو الإمام الذي يهدي حيث أنّ من وظيفة الإمام الهداية وذلك في قوله

---

(1) الإسراء (بني إسرائيل)،82.
(2) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 139 و140.
(3) الرعد،7.

تعالى: (**وَجَعَلنَا مِنهُم أئِمَّةً يَهدُونَ بأمرنَا ..**)[1]، فالرسول (ص) في وقته إمام إضافة إلى نبوته ورسالته وهو نور وهادٍ ولكن هذه الهداية لم يختص الله تبارك وتعالى بها أناساً دون أناس ولذلك قال تبارك وتعالى:(**إنَّمَا أنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قومٍ هَادٍ**) وقال تبارك وتعالى: (**..وَإنَّكَ لَتَهدِي إلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ**)[2] حيث أكد تعالى عمل النبي (ص) أنّه يهدي ويبيّن سبيل الحق ويُرشد إلى هذا الطريق ويأمر ويدعو إليه وأنّ هذا الطريق.

المستقيم الذي لا عوج فيه وهو أقصر الطرق التي يمكن وصلها بين نقطتين كما أنّه لا يتعدد، أي لا يوجد طريق غيره لأنّه يستحيل تعدد المستقيم بين نقطتين بل هو واحد فقط. فهنا هدايتان أولهما هداية التوجيه والإرشاد وبيان الحق والدعوة إليه وهي للرسل لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فمَن علم واستنار واهتدى فلنفسه ومَن ضلّ فإنما يضل عليها وما الله بظلام للعبيد، والهداية الثانية العليا وهي امتلاء القلب بالإيمان بعد أن سار في طريقه وأرشد إليه وهذا لمَن يشاء الله هدايته من عباده المؤمنين.

هنا في هذه المعاني وهذه الآيات تآخي الألفاظ وتآخي المعاني وتسلسل ما ترمي إليه فبيّن البعثة وبيّن أن القرآن من عنده تعالى وبيّن أن هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وذكر الحجة على صدق القرآن ثم أشار إلى أنّه نور.

نذكر آيات أخرى نبيّن فيها تآخي الكلمات والمعاني وكيفية انسجام المعاني، فكل معنى مقدّم يمهد لمعنى مؤخر ويوجد بينهما رابطة تربط هذا المعنى وتشدّه، وعندما يقرأ القارئ أو يستمع المستمع إلى أي نص كريم من القرآن يجد أنّه مترابط المعاني لا ينبو معنىً عن معنى ولا ينبو لفظ عن لفظ، وهو قوله تعالى: (**إنَّا بَلَونَاهُم كَمَا بَلَونَا أصحَابَ الجَنَّةِ إذ أقسَمُوا لَيَصرمُنَّهَا مُصبحِينَ* وَلا يَستَثنُونَ* فَطَافَ عَلَيهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُم نَائِمُونَ* فَأصبَحَت كَالصَّرِيمِ* فَتَنَادَوا مُصبحِينَ* أنِ اغدُوا عَلَى حَرثِكُم إن كُنتُم صَارِمِينَ* فَانطَلَقُوا وَهُم يَتَخَافَتُونَ* أن لا يَدخُلَنَّهَا اليَومَ عَلَيكُم مِّسكِينٌ* وَغَدَوا عَلَى حَردٍ قَادِرِينَ* فَلَمَّا رَأوهَا قَالُوا إنَّا لَضَالُّونَ* بَل نَحنُ**

---

(1) السجدة،24.
(2) الشورى،52.

مَحرُومُونَ* قَالَ أَوسَطُهُم أَلَم أَقُل لَّكُم لَولَا تُسَبِّحُونَ* قَالُوا سُبحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَأَقبَلَ بَعضُهُم عَلَى بَعضٍ يَتَلَاوَمُونَ* قَالُوا يَا وَيلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ* عَسَى رَبُّنَا أَن يُبدِلَنَا خَيرًا مِّنهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ* كَذَلِكَ العَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكبَرُ لَو كَانُوا يَعلَمُونَ)[1].

هذه الآيات الكريمة تبيّن حالة أناس ابتلوا بالشح والبخل في حقوق الله تبارك وتعالى، أي أنّهم لا يُخرجون الحقوق التي أوجبها الله تعالى عليهم ويوصلوها إلى مستحقيها من الفقراء والمساكين، وتبيّن حالة الحرص لدى هؤلاء وكيف أنّ الإنسان نتيجة لشحّه وبخله وحرصه يصل إلى الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة. وفي هذه الآيات الكريمة التي تصوّر لنا هؤلاء وتشبّههم حيث أنّ الآية بدأت بقوله تعالى: **(إِنَّا بَلَونَاهُم كَمَا بَلَونَا أَصحَابَ الجَنَّةِ)** فابتدأت بالابتلاء، كما بلونا هؤلاء بلونا أصحاب الجنة.

والجنة ليس المقصود منها الفردوس الجنة الاخروية وإنما المقصود هنا البستان أو الحديقة أو الأشجار المكتضة المتكاتفة باعتبار أن كلمة «الجنة» مشتقة من «جنّ» بمعنى استتر، عندما نقول «جنّ الليل» يعني أن الليل قد بدأ بستر ما تحته من أشياء وكذلك الجنون لأنّه يستر العقل وكذلك عندما نقول «الجن» لأنّهم مستورون لا يُرون من قبل البشر، فكل هذه الكلمات جاءت من كلمة «جنّ». هؤلاء بخلاء واتفقوا على أن لا يخرجوا حقوق الآخرين التي أوجبها الله تعالى فابتلوا بأنّ هذه الجنة جاءتها من المصائب والابتلاءات بحيث حرقتها فلم يكن لهم فيها شيء فندموا على ما أصابهم ورجعوا إلى الله تعالى وأقرّوا بذنوبهم وبظلمهم وبطغيانهم.

فهذه الآيات الكريمة صورة بيانية لنفس الحريص الغافل عن سلطان الله تعالى، وصورة بيانية لغفلة الحريص عن قضاء الله تبارك وتعالى وأنّ كل شيء عنده بحساب وفيها بيان لحال المناعين للخير حيث أنّ الآيات الكريمة تصور ما دار في نفوس هؤلاء من منع الخير وكيف أنّهم نووا أن يمنعوا المساكين عن حقوقهم وبعد أن طاف عليها طائف فصارت كالصريم صوّرت الآيات الندم في نفوس هؤلاء بعد أن فقدوا هذه الجنة. ثم تنتقل إلى حالة الرجاء وأنّهم يرجون رضا الله تبارك وتعالى.

---

(1) القلم، 17 – 33.

عندما نقرأ هذه الآيات الكريمة أولاً ننظر إلى حلاوة اللفظ ثم ننتقل إلى المعاني وتآلفها وانسجامها وتسلسلها، وكيف أنّ كل معنى يمهّد للمعنى الذي بعده وأن المعنى المتقدم له علاقة وطيدة وارتباط شديد مع المعنى الذي بعده، وكل هذه المعاني تأتلف لتقدم للقارئ وللسامع صورة رائعة ومتحركة ومشخصة لأحوال هؤلاء.

الألفاظ ليس فيها نبوة تبدو ولو كررنا النظر كرات ومرات لما وجدنا أي لفظ خارج عن هذا الانسجام والتناسق فتصل إلى عمق القلوب حيث أن المعاني فيها متآخية تتجه كلها إلى تصوير الطامعين وأهل الشح وكيف يبتدئون بالحرص وتغليب الطمع بكل شيء وركونهم إلى ما في أيديهم وعدم التوكل على الله تعالى وعدم الركون إلى ما عند الله، كما تصوّر هذه الآيات كيف يشتد الطمع في نفوسهم حتى يكون سبباً في منع الخير عن الآخرين. ثم تصوّر الآيات المفاجأة التي فُجئ بها هؤلاء بأن أحرقت جنتهم ولم يبق فيها شيء.

الصورة الأولى التي تصورها الآيات الكريمة صورة الطمع المتغلغل في النفس حيث أن الطمع يُنسي النفس كل شيء ومن ضمنها الحقوق الإلهية حيث أن الإنسان عندما يطغى يعتدي على الآخرين ومن جملة هذا الاعتداء هو نسيان حقوق الآخرين.

فالحقوق في المال عندما يريد أن يخرجها الإنسان فإنّه يحاول أن يحارب نفسه لأنّ النفس تحب المال، قال تعالى: **(وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبّاً جَمّاً)**[1]، فهذا الشد والجذب للمال باعتبار أنّهم سوف يخرجون من هذه الثمار في هذه الجنة حقوق الآخرين (الزكاة)، والنفس تحب المال فلابد أن يقاوموا هذه النفس، قال تعالى: **(..وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ)**[2]. إنّ الذي يقاوم هذا الشح وهذا الطمع باعتبار أن الإنسان في حالة ابتلاء هناك دوافع نحو حب المال وحب الشهوات وحب المناصب وهناك عقل وهناك قرآن وهناك أنبياء وأئمة يبيّنون للإنسان خطورة هذا الموقف وأن هذه الشهوات والرغبات لابد أن تستعمل بالحدود الإلهية وإذا تعدت هذه الحدود الإلهية فإنّ الإنسان سوف يخسر الدنيا والآخرة.

---

(1) الفجر،20.
(2) الحشر،9.

إنّ الطمع الذي تصوّره الآيات أنسى هؤلاء الحقوق فلم يخرجوا الحقوق بل منعوا أشد المنع الآخرين من هذه الحقوق، يقول تعالى: (**إِنَّا بَلَونَاهُم كَمَا بَلَونَا أصحَابَ الجَنَّةِ إِذ أقسَمُوا لَيَصرِمُنَّهَا مُصبِحِينَ* وَلا يَستَثنُونَ**) فالله تعالى اختبرهم حيث أن كلمة «بلوناهم» تعني «اختبرناهم»، و«الصرم» معناه القطع (قطف الثمار). والصرم هنا أشد من القطع لأن الصرم هو القطع من الجذور، فهو تعبير للمبالغة في القطع.

والكاف في «كما» هو تشبيه تمثيلي لأنه مركب من عدة صور فيقابلها عدة تشبيهات أخرى، والآية الكريمة تشبّه هذا التشبيه حال الطاغين المعتدين أنّهم لم يستثنوا في قولهم أنهم سوف نقطف ثمار هذه الجنة حيث أن الإنسان عادة يستثني فيقول «إلا أن يشاء الله» أو يقول «إن شاء الله» فبدون استثناء كأنّ له القدرة والقابلية على أن يفعل ذلك وبهذه الروح الطامعة.

إن الله تبارك وتعالى فاجأهم بهذه المفاجأة عندما دخلوا ذلك المكان ووجدوا أنّ كل شيء قد هلك فلا ثمار ولا أشجار ولا زروع. لقد غلبهم الطمع حتى كانوا بأسوء حال وتحوّلوا إلى حالة العناد مع الله تعالى نتيجة لهذا الطمع والشح وأنّهم غرّهم الغرور فظنوا أنهم واصلون إلى ما يبتغون حينما يدخلون الجنة ويقطعون ثمارها، وقد أقسموا على ذلك غير مقدّرين ولا حاسبين لما يأتي من الله حساباً.

التشبيه هنا للتقريب وليس للمساواة حيث أنّ حال الكافرين أشد عتواً وعناداً وكفراً من هؤلاء أصحاب الجنة. وهكذا كل تشبيهات حال القيامة وما وراءها بحال ما يقع ليس على نحو التساوي وإنما هو على نحو التقريب، فالآيات الكريمة التي تأتي بصيغة التشبيه التمثيلي كي تقرب الأمور الغائبة عنّا في يوم القيامة لا يوجد مثيل هنا حيث أن شدّة العذاب الأخروي لا يوجد له مثيل. فعندما تشبّه الآيات الكريمة العذاب الأخروي ببعض الأشياء مثلاً مقامع من حديد أو لباس من قطران أو غلي الحميم وما شاكل ذلك، فهذا كلّه للتقريب وليس للمساواة لأنّ هناك (في الآخرة) الأمور تكون أشد وأكثر، فهذا المعني يجب ملاحظته للصورة البلاغية التي يعطيها القرآن الكريم.

حينما يأتي التشبيه بأمور في الحياة الدنيا فهي أقل بكثير من الآخرة أو لأنّ المشبّه به أبلغ في وجه الشبه فلا يحصل التساوي وإنما هو مجرد لتقريب المعنى، ولتصوير المعنويات بالمحسوسات، فأحياناً القرآن الكريم يقرّب القضايا المعنوية فيشبّهها بقضايا محسوسة، وكذلك كل ما جاء من قضايا الحساب والعقاب فجاء فيها تشبيه.

فهنا تصوّر محل الطمع في النفس واقعاً لا محالة، فقد صدر من هؤلاء القطع والمنع على نحو اليقين لأنّهم لم يستثنوا – كعبارة «إلا أن يشاء الله» أو «إن شاء الله»– فأقسموا على ألا يدخلها مسكين **(فَانطَلَقُوا وَهُم يَتَخَافَتُونَ* أن لا يَدخُلَنَّهَا اليَومَ عَلَيكُم مِّسكِينٌ)**.

إن لفظ «الصرم» أبلغ من القطع لأن الصرم أشد من القطع لأن الصرم هو القطع من الجذور، فهو تعبير للمبالغة في القطع. وقد أكدوا الصرم **(أَقسَمُوا لَيَصرِمُنَّهَا مُصبِحِينَ)** فهذه اللام والنون للتوكيد ولا يوجد استثناء.

إنّ الله تعالى أراد أن يعاقبهم على نياتهم السيئة التي جزموا فيها وقطعوا أنّهم سوف يقطفوا هذه الثمار ولا يعطونها لمستحقيها، إن حرصهم ورغبتهم الجامحة أنستهم الله تعالى، حيث أن اللهفة والحرص على التنفيذ قد جعلهم معجلين حيث أن كلمة **(مُصبِحِينَ)** تعطي معنى العجلة، في أن يذهبوا باكراً في هذا الأمر ولعل الفقراء والمساكين لا يلحقونهم في ذلك، لأنّ كل كلمة من الكلمات القرآنية تعطي معنى من المعاني البلاغية، فهم يبكرون به مصبحين غير متلبثين ولا متأخرين لأن القطف أمر محبوب حينما يجد الثمار جاهزة للقطف.

صوّر الله تعالى غفلتهم عما يقدّره لهم نتيجة لنيّاتهم السيئة مع أنّه متحقق فهم يقدرون ويرغبون ويستعجلون والله من ورائهم محيط، وقد صوّرت الآية الكريمة المفاجأة التي فاجأتهم بقوله تعالى: **(فَطَافَ عَلَيهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُم نَائِمُونَ)**، هذه النيّات التي بيّتوها هم لا يعلمون أنّه في الليل قد أصيبت جنّتهم واحترقت وأصبحت هشيماً.

و«الطائف» العارض الذي يعرض له ليلاً من ريح صرصر عاتية أو من عواصف تقتلع الأشجار أو من رعد وبرق يحرق هذه الأشجار.

المهم أن هذه الجنّة فوجئ بها بعد تلك النيّات والآمال والحرص والطمع قد أبيدت.

أيضاً نرى من هذا تصوير مافي نفوسهم وبيان متماسك ما يحيط بهم، وصوّر تعالى كذلك نفسية هؤلاء بأبلغ تصوير حيث قال تعالى: **(فَتَنَادَوا مُصبحِينَ* أنِ اغدُوا عَلَى حَرثِكُم إن كُنتُم صَارِمِينَ* فَانطَلَقُوا وَهُم يَتَخَافَتُونَ* أن لا يَدخُلَنَّهَا اليَومَ عَلَيكُم مِّسكِينٌ)**، وكلمة «التخافت» هو التسار في الكلام، فكل واحد يُسرّ الآخر لأنهم لا يريدون أن يسمعهم الفقراء، فكانت نيّتهم أن هذه الجنة لا يدخلها مسكين كي لا يعطوا شيئاً – حرصاً وطمعاً وبخلاً وشحاً – لهؤلاء المساكين من حقوق الله وليس من استحقاقهم.

طبعاً جاءت الآية بصيغة الجمع حيث أنّ كلهم أجمعوا في أن لا يُعطوا المسكين، فنية القطع للجميع ولم يخرج واحد منهم فيه رشد وعقل وينهاهم عن هذا المنكر. فصيغة الجمع في هذه الآية الكريمة أعطت معنى أن الجميع قد اتفقوا على هذه النية حيث اجتمعوا على المسارعة وعلى أمر خبيث لم يعلنوه لأنهم تخافتوا في هذا الاسرار والاجتماع على نية المنع. فهم لا يمنعون العطاء فقط بل يمنعون المسكين من الدخول بنهي مؤكد وباصرار على المنع.

كان هذا اجتماعهم على المنع، وأما افتراقهم فهو دخولهم الجنة متفرقين فكل واحد في جانب ليتعجلوا في قطف الثمار**(وَغَدَوا عَلَى حَردٍ قَادِرِينَ)**، و«غدوا» معناه أقدموا في باكورة الغداة، و«الحرد» معناه المنع والتشدد، والمعنى من الآية أنّهم أصبحوا قاصدين وهم معتزمين المنع والقطع و«قادرين» هو حال أي أنّهم قادرون على المنع والقطع وكذلك قادرون على ما نووا عليه.

فمع أنّهم كانوا قادرون على هذه الأمور ولكن الله تعالى بدّل كل هذه الأمور وفاجأهم بهذا الطائف الذي طاف على الجنة. إنّ هذا التصوير تصوير لو جاءت كل اللغات أن تصوّر هذه الحالة لا تستطيع أن تعطي هذه البلاغة بهذه الدقة وقلّة الكلمات تعطي هذه المعاني الكثيرة حيث أصبحوا هم المساكين بعد أن كانوا يمنعون المساكين.

أيضاً الآيات الكريمة تصوّر حالتهم بعد أن حدثت المفاجأة ورأوا جنّتهم وما جرى لها **(فَلَمَّا رَأَوهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ* بَل نَحنُ محرمون)**، فبدرت منهم أول حالات الندم وكلمة «ضالون» تحتمل معنيين من حيث اللفظ: أنّ هذه الجنة ليست جنّتنا قد ضللنا الطريق وجئنا إلى بستان آخر، والمعنى الآخر – وهو الصحيح – أنّه في تفكيرنا وفي منعنا للحق قد ضللنا الطريق، طريق الصراط المستقيم.

ثم اعترفوا بحرمانهم، و«بل» هي للاستدراك وبذلك تنفي المعنى الأول (أنّهم ضلوا الطريق وأنّ هذه ليست جنتهم)، «كانت المفاجأة بمقدار الحرص والطمع، واسترسالهم في المطامع المادية حتى استأثروا بها ولم يعطوا منها حق الفقير المسكين والسائل والمحروم، وإذا كان حرصهم بلغ أقصاه، فالمفاجأة بالحرمان كانت أشدَّ وقعاً، أصابتهم بالحيرة الشديدة، والضلال البعيد، وأوّل الضلال أنهم توهَّموا غير أرضهم، فلمَّا استيقنوا أحسّوا بضلال آخر معنوي أشدَّ فتكاً في النفوس وتأثيراً في القلوب، وهو إحساسهم بالضلال المعنوي إذ قدروا، ولم يدركوا تقدير الله، وحسبوا أن الأمر إليهم وحدهم، والله فوقهم، فلمَّا أدركوا ضلال تفكيرهم قرروا الحقيقة الثانية، وهي أنَّ الله تعالى قدّر حرمانهم، وما قدره نافذ لا محالة، ولذا قالوا كما حكى الله عنهم مؤكدين: **(بَل نَحنُ مَحرُومُونَ)**، فالإضراب معناه هنا: إنهم ترقوا من حال الضلال المؤكد إلى حال الإيمان بالحرمان المؤكد.وإن قوله تعالى عنهم: **(بَل نَحنُ مَحرُومُونَ)**بعد **(إِنَّا لَضَالُّونَ)** فيه إشارة واضحة إلى الأسف والألم المرير؛ ألم الضلال والحرمان من الهداية، ثم الحرمان المطلق من الثمرات التي طمعوا فيها، وتخافتوا على ألَّا يعطوا الفقير.

وإذا كانوا قد اجتمعوا على ما كان منهم أولاً، فقد اجتمعوا على المفاجأة والحرمان ثانياً، ولكن يظهر أنَّ الشر لا يمكن الإجماع عليه دائماً، بل لا بُدَّ من قائم لله تعالى بحجة، وإذا لم يستمع له قول ابتداء فإنَّ قوله سيكون له صدى في النتيجة بعد أن تتبدى الأمور وتتجلى.هذا تصوير لا تعرف اللغات تصويراً للحرص والتعجل والاستيثاق بالإيمان وعدم التردد فيما يعملون، ونية السوء، والتخافت فيها مثله، ولو اجتمعت الإنس والجن أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. ولكن الآيات الكريمات بعد تصوير حالهم هذه في التعجل والحرص، لتصوير المفاجأة، وتنبيه المفاجأة للغافل، وإيقاظها للضمير النائم، وإثارتها للوجدان الساهي،

فيقول سبحانه في رؤيتهم لتهدُّم ما بنوا عليه إشباع طمعهم، وما حملهم على نية البشر، فقال تعالت كلماته: **(فَلَمَّا رَأَوهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ* بَل نَحنُ مَحرُومُونَ)**. وكذلك كانت حال أصحاب الجنة، فقد كان فيهم رشيد ينبههم إلى خطأ ما أزمعوا أن يفعلوه، وقد حكاه الله سبحانه وتعالى بقوله: **(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)**.

الوسط هو الأمثل، والوسط في أوصاف الخير هو الأمثل دائماً، ومن ذلك قوله تعالى:**(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)**[1]، وهذا الأمثل عندما رأى حالهم وتدبيرهم وطمعهم، وما يسرون به وما يجهرون، وما يتخافتون وما يعلنون، لاحظأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فكان لا بُدَّ لكي يدركوا صالح أمورهم أن يؤمنوا بالله وأن يذكروه في أعمالهم ظاهرة وباطنة، فهم لا ينقصهم الجد في العمل، ولكن ينقصهم الإيمان، فقال لهم: **(لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)** أي: هل تسبحون وتنزهون الله تعالى وتقدسونه، وتعلمون أنه القاهر فوق كل شيء، وأنه العليم الحكيم.

هنا كان فيما حكاه الله تعالى بالتعبير: **(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)** الاستفهام الداخل على النفي في معنى الإثبات؛ لأن نفي النفي إثبات، وهو يدل على التوبيخ، وتذكيرهم بأنهم لم يفعوا ما فعلوا فاقدين للمنبه المرشد، فقد أرشدهم إلى الطريقة المثلى والمنهاج الأسلم، وهو الإيمان بالله تعالى وتقديسه وتنزيهه، والإحساس بأنه الغالب على كل شيء، القاهر فوق عباده»[2].

هنا في هذه الآية الكريمة **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)** المقصود بهم الشهداء على الناس وهم الأئمة (ع) والرسول (ص) شهيد على الأئمة، فهؤلاء الذين ذكّرهم الأوسط الذي كان معهم **(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)**، ألا تنزّهون الله تعالى إذ نويتم بتنفيذ هذه الاشاءة والإرادة ولم تذكروا إشاءة وإرادة الله تبارك وتعالى، فكان ردّهم **(قَالُوا سُبحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)**، بعد أن تنبّهوا من غفلتهم واستأنسوا بالحق من تأثير أمثلهم فاستجابت نفوسهم لأمر هذا الأوسط.

(1) البقرة،143.
(2) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 146 – 148.

بذلك علموا أمرين: كانوا غافلين عن ربهم وأنهم ظلموا أنفسهم وظلموا الناس فيما نووا وفيما تخافتوا عليه، قالوا في إعلان إيمانهم بالله **(قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)** فالنتيجة التي وصلوا إليها أنّهم سبحوا الله تعالى، فاعترفوا وندموا وسلموا أمرهم إلى الله تعالى. فهذا الشر الذي تصوّروا وهو تدمير هذه الجنة كان خيراً لهم لأنه قبل ذلك كانت حالتهم الطغيان ولكن بعد فقدانهم الجنة رجعوا إلى الله تعالى وإلى حالة الإيمان.

هذا التدرج بذكر المعاني السامية، هو بيان لحالتهم من حالة طغيان إلى صدمة لما حدث وإقرار بالحرمان ثم بالندم ثم بحالة الرجوع إلى الله تعالى ثم حالة تسبيح الله تعالى، فهذه الحالات بيّنتها الآيات الكريمة مترابطة ومتدرجة.

ثم أن هناك حالة التلاوم التي تصوّرها الآية الكريمة في قوله تعالى:**(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ* قَالُوا يَا وَيلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ)**، أي يلوم بعضهم بعضا، وبعد الاعتراف بالظلم انتقلوا إلى تشخيص حالة أشد من الظلم وهو الطغيان، وهذه الحالة التي يصوّرها القرآن الكريم حالة من التدرج بالمعاني، أي صورة الانسان مرة يكون ظالم لنفسه ومرة أخرى يكون ظالم لنفسه ولغيره، وحالة الطغيان التي وصفوا بها أنفسهم هي حالة أشد من الحالة الأولى وهو الظلم، ثم التجأوا إلى الله تعالى فقالوا: **(عَسَى رَبُّنَا أن يُبدِلَنَا خَيراً مِّنهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ)**. فالالتجاء إلى الله تبارك وتعالى جاء بعد الابتعاد عن الله ونسيان الله وحالة الظلم والطغيان إلى الانتقال بالاعتراف بالذنب، هذه حالات التدرج التي فيها البلاغة القرآنية، هناك مثلاً قد تأتي بعض المعاني تقدم الزمان الأقدم ثم القديم ثم المتأخر ثم الحديث ثم الأحدث ثم المعاصر وهكذا، فهذا التدرج بالأزمنة يدلل على البلاغة.

كذلك التدرج في الرفعة والسمو، وكذلك التدرج في الانحطاط كحالة الكافر أو حالة المعاند أو حالة الذي هو في الدرك الأسفل من النار، هذه درجات بلاغية، والآيات الكريمة تصوّر هذه الحالة البلاغية وكيف أنّهم انتقلوا من حالة الحضيض والظلم وشخّصت حالة الظلم ثم شخّصت حالة الطغيان ثم انتقلت إلى اللجوء إلى الله تبارك وتعالى والاعتراف بأن الأمور بيد الله تعالى وأنّه هو القادر على أن يبدلهم خيراً من هذه الجنة، **(عَسَى رَبُّنَا أن يُبدِلَنَا خَيراً مِّنهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ)** فجعلوا رغبتهم

وآمالهم بالله تعالى، فبسبب البلاء الذي أصابهم استبدلوا بحالة جديدة حيث أن البلاء هو خير للإنسان – هذا إذا صبر الإنسان على البلاء – لأنّه يبدله من حالة الشر إلى حالة الخير أو من حالة دانية إلى حالة عالية السمو والرفعة.

إنّ هؤلاء انتقلوا من حالة الظلم والطغيان ونسيان الله تعالى إلى الإقرار بظلمهم والاعتراف بذنبهم ووصل الانتقال بهم إلى درجة التسبيح ثم اللجوء إلى الله والرضا بقضاء الله وقدره وأصبحت الرغبة إلى الله بعد أن كانت رغبتهم إلى المال والطمع والجشع ومنع حقوق الآخرين، ثم يقول القرآن الكريم: **(كَذَلِكَ العَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكبَرُ لَو كَانُوا يَعلَمُونَ)**.

بعد أن أتممنا بهذه العجالة والاختصار من الآيات الكريمة، ننتقل إلى آيات أخرى تبيّن النفس الفرعونية وكيف أن الإنسان نتيجة لتكبّره وتجبّره يطغى حتى يصل أن يدعي أنّه غير مخلوق ويدعي أنّه رب، فنلاحظ وجود التدرج في الطغيان والتكبر والتجبر.

قال تعالى: **(إِنَّ فِرعَونَ عَلا فِي الأَرضِ وَجَعَلَ أَهلَهَا شِيَعاً يَستَضعِفُ طَائِفَةً مِّنهُم يُذَبِّحُ أَبنَاءهُم وَيَستَحيِي نِسَاءهُم إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفسِدِينَ* وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ استُضعِفُوا فِي الأَرضِ وَنَجعَلَهُم أَئِمَّةً وَنَجعَلَهُمُ الوَارِثِينَ)**[1].

«ولا شَكَّ أن نسج الآيات متماسك بخيوطٍ دقيقة غير قابلة لأن تنقطع، وهي واضحة في تصوير الحاكم الفاسد كيف يعلو في الأرض، وكيف يتحكّم، وقد قال الباقلاني في صيغة العبارة بالنسبة للآية الأولى:هذه تشتمل على ست كلمات، سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تعرف. وهي تشتمل على جملة وتفصيل، وجامعة وتفسير، ذكر العلوّ في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تحكّم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما؛ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقر على هذا الجور، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد، وكفت في التنظيم، وردت آخر الكلام على أوله، وعطفت عجزه على صدره.ثم ذكر وعده

(1) القصص،4 و5.

بالتخليص بقوله: (**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**)، وهذا من التأليف بين المؤتلف، والجمع بين المستأنس. هذا ما ذكره الباقلاني من ناحية التآخي في الألفاظ والالتحام في نسجها، وإنك لتجد ذلك التآخي في سوق العلوِّ الذي تعالى به وهو في الأرض، فقال تعالى(**عَلَا فِي الْأَرْضِ**) فهو علوّ من في الأرض، ولاصق بها، فليس يعلو إلى السماء، ولكنه مستمر في الأرض، فهو استعلاء وليس بعلوٍّ، والاستعلاء طلب للعلوّ، أو الإحساس به، وليس قائماً على أيّ اعتبار، فكان ذلك التقابل في اللفظ من حيث الانسجام ومن حيث المعنى فيه دليل على أنه استكبار وليس علوّاً في ذاته»[1].

فالاستعلاء هو التكبر وليس بعلو بمعنى الرفعة، والاستعلاء هذه الألف والسين والتاء إذا دخلت على الكلمة تعطيها معنى الطلب، وعليه فالاستعلاء معناه طلب الشيء، فعندما نقول «استخرج» بمعنى طلب خروج الشيء، و«استقبل» طلب اقبال ذلك الشيء، و«استعلا» طلب العلو، والآية الكريمة حينما تصف حالة الذين يستعلون: (**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**)[2]، بمعنى الذين لا يطلبون هذا العلو والاستكبار والفساد فما بالك بالذي يقع بالتكبر ويقع في الفساد.

وحالة التكبر هي التي أخرجت إبليس من الجنة، ومعنى ذلك أن الجنة لا يبقى فيها متكبر، فأي إنسان لديه ذرة من الكِبَر لا يصل إلى الجنة فلابد أن يطهّر نفسه من الكِبَر حتى يؤهل لدخول الجنة. فلا يُعقل أن الله تعالى الذي أخرج إبليس من الجنة بسبب تكبّره يُدخل فيها إنسان متكبّر. وعليه فإنّ الاستعلاء والشعور بالفوقية على الآخرين يؤدي – والعياذ بالله – إلى أن لا يدخل الانسان الجنة.

كان ذلك التقابل في الألفاظ حيث أن الله تعالى قابل بين المستضعف وبين المستكبر، الألفاظ المتقابلة هي أنّك لو قلت «فوق» فلابد أن يكون هناك «تحت»، وإذا قلتَ «مُستضعف» معنى ذلك هناك «مستكبر» حيث لا يوجد مستضعف دون وجود مستكبر.

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 152 – 153.

(2) القصص،83.

«ولكن كيف يستقيم له هذا العلو وهو لاصق في الأرض متنقل فيها، إنما هو الغلوّ في الكبر، وحمل الناس على الإقرار أو السكوت، أو ظهور الرضا وما هم براضين؛ لأن أساس الرضا التخيير ولا اختيار، فإن لم يكن فلا رضا.ولننتقل من ذلك النص المصور للاستعلاء الكاذب الظالم إلى ما سلكه لحمل الناس على السكوت عنه، أو الخضوع له كارهين، وإن مردت نفوسهم على الخضوع، حتى صاروا كالطائعين، وذلة الإحساس بالتحكم قارة في نفوسهم حتى أخضعتها، فجعلتها خانعة، أظهرتها راضية ولا رضا عندهم؛ لأنه لا اختيار لها فيما تختار.ذكر سبحانه ما سلكه فرعون كما يسكله أيّ طاغية من طواغيت هذه الدنيا الذين يظهرون في كل زمن، وفي أرض كأرض مصر، وناس كناسها، كما أشار إلى أنه عمل على تفريق جمعهم وتشتيت أفكارهم، وصاروا متفرقين في ذات نفوسهم ولا تجمعهم جامعة حق ولا ثورة على ظلم، بل كان يقول لهم في استكبار:(**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**)[1]، ويقول في استنكار:(**مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**)[2].

وقد قال تعالى فيما سلكه: (**وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً**) وهنا نجد كلمات ثلاثاً، كل واحدة منها تنبئ عن قصد الفرقة والانقسام بعد الوحدة والالتئام، فكلمة جعل هي بمعنى صيَّرَ، وهي تدل على أنهم كانوا متحدين في المشاعر والأحاسيس، متفقين في المنازع والمطامح والآمال، فجعلهم متفرقين منتشرين في غير اجتماع، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتَّى، والكلمة الثانية "أهلها" فهم كانوا قبلها أهلاً، أي: إنهم كانوا مجتمعين غير منقسمين، فلكي يعلو عليهم أجمعين فرَّق جمعهم وشتَّت شملهم، فكيف يعلو إنسان مهما يكن طاغوته ومهما تكن قوته وغلظته وحيلته على قوم متحدين مجتمعين، ولكنه يخذل بينهم، ثم يملك عليهم.

الكلمة الثالثة كلمة شيعاً، فإنَّ الشياع يتضمَّن معنى الانتشار، وأن يقوى جزء على الآخر، يحسب كل جزء منهم أنه أقوى من الآخر، وأنه لا تربطه به رابطة، ولا يجمعهم به قومية أو رحم، أو تشابك المصالح، ودفع

---

(1) النازعات،24.
(2) القصص،38.

المضار، فإذا كانوا كذلك استعلى واستكبر، ولا يجد من يرده عن غيه، ويقمعه في شره، فيكون الهلاك، وتقطع الأسباب.

إن النتيجة التي تكون أثراً لذلك أن يجعل من طائفة منهم بطانة له، وجنداً يستنصر بهم ويتخذهم أسواطاً يضرب بها غيرهم، ويتحكم في جمعهم، ولذلك قال تعالى في ذكر هذه النتيجة الحتمية التي تتبع التفرق تبعية المسبب لسببه، والنتيجة للمقدمة: **(يَستَضعِفُ طَائِفَةً مِنهُم)** أي: يصور طائفة منهم ضعفاء، أو يطلب ضعف طائفة منهم، ويتتبعه»[1].

إنّ هناك بعض الكلمات تُغني عن غيرها، فعندما تقول الآية الكريمة **(يَستَضعِفُ طَائِفَةً مِنهُم)** لم تذكر الآية الطائفة الأخرى ماذا يفعل بها، فالطائفة الأخرى التي لم يستضعفها تكون هي التي يتقوى بها، ولأن الكلام بليغ ويأتي بوجازة لذلك فإنّ السامع يستنبط أحكاماً من نفس الكلام، فحينما تقول الآية الكريمة تصف حالة عيسى وأمه **(كَانَا يَأكُلَانِ الطَّعَامَ)**[2] فالكلام البليغ ينزّه عن ذكر الأشياء التي يُستقبح ذكرها حيث أن الآية لم ترد أن تقول بأن عيسى وأمه (ع) كانا يذهبان لقضاء الحاجة، فكنّت بهذا المعنى.

كيف لهذا الإله يأكل ويشرب ويتغوط؟! السامع يفهم أن الذي يأكل الطعام يذهب إلى قضاء الحاجة، والقرآن منزّه عن ذكر هذه الأمور، ولذلك يأتي بكلام بليغ.

هناك معنى مقرّب لهذا في كلام أمير المؤمنين الإمام علي (ع) حيث يقول في معنى كلامه: «مَن كان همّه ما يدخل في بطنه كانت قيمته ما يخرج منه»[3]، فلم يذكر ذلك اللفظ ولكن السامع يفهم ما كان يعني قوله (ع).

نعود إلى الآية **(يَستَضعِفُ طَائِفَةً مِنهُم)** فلم يذكر الطائفة الأخرى – غير المستضعفة – وهي الطائفة التي جعل فيها قوته يضرب بها، فالقرآن الكريم لم يذكر هذه الطائفة ولكن السامع يفهم من أن هناك طائفة أخرى كانت موالية لفرعون.

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 153 و154.

(2) المائدة،75.

(3) شرح نهج البلاغة لابن حديد المعتزلي، مصدر سابق، ج20/ ص 319.

«وهنا إشارة بيانية رائعة لا تكون إلا في القرآن الكريم. وهذه الإشارة هي أنه ذكر الطائفة المستضعفة، ولم يذكر الطائفة التي جعل فيها قوته يضرب بها رقاب الناس، والسبب في أنه تعالى لم يذكرها موصوفة بالقوة؛ لأنها وإن لبست لبوس القوة ليست في حقيقة أمرها قوية في شيء؛ لأنها ليس لها اختيار فيما اختارت؛ ولأنها لا تملك من أمرها شيئاً، بل مسخَّرة لطغواه، مراده له، وليست بمريدة فيما تفعل، والقوي هو الذي يفعل ما يريد هو لا ما يريده غيره، ويعمل ليرضي شهوة نفسه لا ما يرضي غيره، وليس هو من تكون إرادته فانية في إرادة غيره، قد لبس جلد النمر، وما هو إهابه، وإذا كانت الطائفة المستضعفة إيذاؤها بدني مادي، فهؤلاء الذين ظهروا بمظهر القوة إيذاؤهم معنوي، وهو فناء إنسانيتهم وإرادتهم وتفكيرهم، وكل مكونات الإنسان الكامل، فهم ضعفاء وإن ظهروا كأنهم الأقوياء، فجنود السلطان الغاشم لا يعتبرون الأقوياء؛ لأنهم أداة طائعة، وإمعات طامعة»[1].

إن المستضعف قد يكون متأذياً من ناحية البدن والمادة ولكنه قوي في مبادئه لأنّه لو كان مهزوزاً في مبادئه لما استضعفه الطاغية ولو كان خانعاً وخاضعاً للطاغية لما استضعفه ولما آذاه. وبالنتيجة النهائية نلاحظ أن هذا المستضعف في بدنه هو قوي في قيمه ومُثله ومبادئه، ولذلك من هؤلاء المستضعفين يكون الأئمة وهذه هي النتيجة المهمة في هذا البحث وفي هذه المقدمات البلاغية للقرآن حيث أن الآية الكريمة ختمت بقوله تعالى: **(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)**.

فحالة الاستضعاف التي مرّ بها هؤلاء وهم أقوياء في نفوسهم ثابتين على المبدأ وعلى الحق.

في هذه الآية قضية مهمة أنّ اليهود ختموا العلاقة بالسماء بموسى (ع) – فعلاقة الأرض بالسماء لم تنقطع من آدم (ع) إلى أن تقوم الساعة ولكن العلاقة على ثلاثة أقسام: إما أن تكون العلاقة عن طريق النبي أو الرسول أو الإمام– حيث انهوا علاقة الأرض بالسماء وهذا باطل وخلاف

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 154 و155.

للسنة الإلهية، حيث يقول تعالى: **(وَجَعَلْنَا مِنهُم أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمرِنَا)**[1]ولا توجد آية كريمة تبيّن أن الإمامة قد خُتمت وإنما النبوة خُتمت حيث قال تعالى: **(مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُم وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيماً)**[2]، وختم النبوة يعني ختم الرسالة لأنّ كل رسول نبي فلو قال «خاتم المرسلين» لربما يأتي نبي حيث أن النبي ليس بالضرورة أن يكون رسولاً. ولا يوجد أي أية تذكر بأنّ الإمامة قد خُتمت، وهذه الآية تبيّن وتدلل دلالة قاطعة أنّ الإمامة مستمرة إلى أن تقوم الساعة، وهكذا في الآية مجال البحث **(وَنُرِيدُ أَن نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجعَلَهُمُ الوَارِثِينَ)**، فالوراثة نهاية الشيء وخاتمته فتكون الوراثة بعد فناء ذلك الحل وبعد موته تنتقل إلى الخليفة، فهنا الآية الكريمة بيّنت أنّ حالة الاستضعاف التي كان عليها هؤلاء والذين اُستضعفوا نتيجة لعدم مسايرتهم للطاغية وللظلم أنّ الله تعالى جعل منهم الأئمة.

لذلك إن الأئمة من أهل البيت (ع) اثنا عشر إماماً، أحد عشر منهم بين قتيل ومسموم فحالة الاستضعاف مرّت عليهم من قِبَل طغاة عصرهم ولكن هذا الاستضعاف مادي فنالهم من القضايا المادية ولكنهم في ذاتهم أقوياء، فالله تبارك وتعالى يريد أن يمنّ على هؤلاء بهذا المن فيجعل منهم أئمة.

أما الطغيان فهو كالزبد **(.. فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمكُثُ فِي الأَرضِ ..)**[3]، والعاقبة تكون للمتقين، قال تبارك وتعالى: **(.. أَنَّ الأَرضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)**[4]، فالصالح هو الباقي والحق هو الباقي والزبد الذي يخفي وراءه الماء، فهو يخفي وراءه الحقيقة وهذا وهم يزول وتبقى الحقيقة وهكذا الطغاة يزولون وكذلك الظلمة والحكام الصالحون، ولذلك يُسأل أهل البيت (ع) لماذا دولتكم آخر الدول ؟ فأجاب الإمام الصادق (ع): «دولتنا آخر الدول، ولن يبقى أهل بيت لهم دولة إلا

---

(1) السجدة،24.
(2) الأحزاب،40.
(3) الرعد،17.
(4) الأنبياء،105.

ملكوا قبلنالئلا يقولوا إذا رأواسيرتنا: إذا ملكنا سرنا مثل سيرة هؤلاء، وهو قول الله عزوجل **(وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ)**[1]»[2].

إن جميع الطروحات الأرضية والحاكمين بغير ما أنزل الله تعالى كالشيوعية والقومية فشلوا وثبت فشلهم بشكل قاطع وستكون آخر الدول هي دولة الإمام المهدي صلوات الله عليه وعجل الله فرجه الشريف التي تثبت بشكل واضح أن العدالة هي الباقية كما جاء في الحديث الشريف «يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجورا»[3]، فتكون قد مرّت عليهم حالة الظلم والجور والاستضعاف، وبعد ذلك تأتي دولة الحق فيملؤها قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجورا.

فالآية الكريمة تبيّن حالة الفساد الذي مرّ بها فرعون وتدرج الآية الكريمة في بيان الإجراءات التي اتخذها فرعون لاستعباد الناس بتفرقتهم وجعلهم فرقاً، فرقة يتقوى بها وفرقة يستضعفها وفرقة يسخرها لرغباته وحاجاته، ثم تبيّن الآية أن النتيجة تكون لدولة الحق وللصابرين وأنّ الأئمة من المستضعفين، وهناك حديث شريف يشير إلى هذا المعنى، حيث ورد في حديث مطول للنبي (ص): «إن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريداًوتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق ومعهم رايات سود فيسألون الحق فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلون حتى يدفعوه إلى رجل من أهل بيتي فيملاها قسطاً كما ملؤوها جوراً فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج»[4].

المبحث الثالث: قوة البلاغة في الأسلوب من كلمات متآلفة

لابد أن نبيّن في المقدمة أن عمود البلاغة هو في اختيار الكلمات والألفاظ التي يشتمل عليها الكلام ووضعها في موضعها الأخص الذي إذا أبدل مكانه أو إذا أبدلت هذه الكلمة بكلمة أخرى أو أبدل هذا اللفظ بلفظ آخر

(1) الأعراف،175 و 176.
(2) بحار الأنوار، مصدر سابق،ج52/ ص 332.
(3) الكلبايكاني، لطف الله الصافي: منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر، مؤسسة الوفاء، ط2، بيروت – لبنان، 1983. ص 252..
(4) بحار الأنوار، مصدر سابق،ج51/ ص 83.

فينتج منه إما تبدل المعنى وبالتالي فساد الكلام وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة، وذلك أنّ في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني وألفاظاً مترادفة وإن كان بعضهم يذهب إلى أنّ اللغة العربية لا يوجد فيها ألفاظ مترادفة وإنما كل لفظ وإن ظهر للمتكلم أو السامع مترادفاً ولكن كلّ منه يؤدي إلى معنى يختلف عن المعنى الآخر فيحسب الناس أنّ هذه الألفاظ مترادفة ولكنها في الحقيقة تختلف من لفظ إلى آخر. فكلمة العلم والمعرفة يعدّونها من المترادفات، وكلمة الشكر والحمد والثناء والتعظيم كلها من المترادفات، وكلمة البخل والشح أيضاً من المترادفات، ولكن لكل كلمة من هذه الكلمات معنىً دقيقاً يختص به وإن ظهرت أنّها مترادفة، حتى كلمة الأسد والغضنفر والليث والضرغام فكلها كلمات وألفاظ لمعنى الأسد ولكن لكل لفظة من هذه المعاني تختص بحالة من حالات الأسد.

فالكلام البليغ يختار أخص هذه الكلمات في المعنى المطلوب بحيث لو أبدل كل هذا اللفظ بلفظ آخر – وإن كان مرادفاً – فإنّه لا يؤدي المعنى المطلوب أو أحياناً أنه يفقد الرونق في الكلام الظاهر، كذلك عندما نقول كلمة «اقعدْ»و«أجلسْ» و«بلا» و«نعم» فكل لفظة من هذه الألفاظ لها استعمال خاص ومعنى خاص يتميز به من حيث قوة الكلام وقوة البلاغة إذا استعمل، وإذا ابدل مكانها لفظ آخر فذلك اللفظ سوف لا يؤدي معناها الدقيق أو يفقدها رونقها الذي هي فيه.

إنّ ألفاظ القرآن اختيرت بشكل بحيث تؤدي أدق المعاني وأبلغ الكلام الذي يتألف من موضعها وتآلفها مع الكلمات الأخرى، فالأسلوب البلاغي في القرآن الكريم جاء نتيجة لهذه الخاصية وهي إحدى دعائم البلاغة وعمود البلاغة في القرآن الكريم حيث أن القرآن الكريم جاء من كلمات مختارة ودقيقة تؤدي بانسجامها وتآلفها وأسلوبها معنى ولفظاً بلاغة لا يؤديها غيرها كما لو استبدلت بكلمات غيرها.

عندما يعبر القرآن عن أخوة يوسف (ع) حيث قالوا: (**..فَأَكَلَهُ الذِّئبُ..**)[1] فلو استبدلت كلمة «أكله الذئب» بكلمة «افترسه الذئب» لما أدت هذه الكلمة المعنى المطلوب في القرآن الكريم، لأنهم لو قالوا «افترسه الذئب» لطالبهم أبوهم يعقوب (ع) ببقايا يوسف كالعظام حيث أنّ الافتراس غير

(1) يوسف،17.

الأكل حيث أن كلمة «الأكل» تعني أنه لم يبق باقية ولذلك لم يطالبهم أبوهم بشيء.

«وإنَّ الخطابي ليقول في بحثه القيم: اعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح ألفاظٍ في أحسن نظوم التأليف، مضمِّناً أصحَّ المعاني من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته، من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيء منها في موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه»[1].

هذا الكلام من الخطابي يريد أن يقول أنّ القرآن الكريم رغم أنه خرج بمعانٍ كثيرة في مناسبات كثيرة فبين أن يصف حالة القتال أو حالة المؤمنين أثناء القتال أو حالة الكفار أو حالة المنافقين، ويبيّن الأوامر والنواهي والزواجر والمواعظ ويبيّن قصص الأنبياء السابقين وأقوامهم، مع كل هذه الأمور فكل موضوع من هذه الموضوعات وكل معنى من هذه المعاني يحتاج إلى أسلوب معين وألفاظ معينة وكلمات معينة لابدّ أن تأتي مستوعبة لذلك المعنى، أي أنّ وعاء الألفاظ لابد أن يكون محتوياً تماماً ومستوعباً تماماً للمعاني المطلوبة.

هذه الألفاظ التي لا يمكن أن تضاهر بألفاظ أخرى لو استبدلت، تأتي في مختلف الموضوعات وهي مع ذلك لم تتفاوت من حيث البلاغة حتى في حالة التكرار وحتى في حالة تكرار سرد القصة بألفاظ أخر فهو القمة في البلاغة.

«وقد قسَّم الخطابي الكلام البليغ إلى أجناس ثلاثة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فمنها: البليغ الرصين الجزل، ومنها: الفصيح القريب السهل، ومنها: الجائز الطلق السلس، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن شيء منه ألبتة»[2].

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 161 و162.
(2) المصدر السابق، ص 162.

هذه الأقسام لها مراتب في نسبة التبيان ومراتبها متفاوتة ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، يعني ليست كل درجات هذه الأجناس متساوية من الناحية البلاغية ولكنها الأبلغ في جنسها. هناك فرق من هذه الناحية فعندما نأتي بكلام في الوعد، هذا الكلام في القرآن الكريم هو الأبلغ في جنسه وإذا جئنا بكلام في الوعيد من القرآن الكريم فكذلك هو الأبلغ في جنسه، وهذه الأجناس متفاوتة من حيث الدرجات ومتباينة من حيث البلاغة، فمنها البليغ الرصين ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق السلس.

وكلام الخطابي عليه ملاحظات، فقال أبو زهرة: «وإنَّ هذا الكلام لا يمكن أن يمر من غير أن نبدي عليه ملاحظة لاحظناها، أنه يفرض أنَّ الكلام البليغ يتفاوت بتفاوته في الجزالة والسلاسة والسهولة، وهذا يوهم أنَّ القرآن الكريم تتفاوت بلاغته، وهذا الزعم باطل، فالقرآن كله رتبة واحدة في البلاغة، في المنزلة التي لا يمكن أن يسمو إليها بليغ؛ لأن البلاغة أن يكون الكلام موافقاً لمقتضى الحال، فالعبارات الجزلة القوية تكون في موضع الإنذار، والعبارات السهلة غير المسترسلة تكون في التبشير، والعبارات المسترسلة في مواضع التنبيه إلى وجوب التفكير والتدبر، وكل بليغ في موضعه، ولا يختار سواه، فلا تكون عبارات الإنذار كعبارات التبشير، ولا تكون عبارات الدعوة إلى التأمل كعبارات التهديد والتخويف»[1].

فلو قارنا كلام الله تعالى بكلام أبلغ البلغاء وهو أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ع) حيث أن كلامه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق، فهذا الكلام العظيم لو قيس بالقرآن الكريم فإنّه لا ينال شيئاً من بلاغة القرآن الكريم ولا يصل إلى شيء من بلاغة القرآن، فالإمام عندما يستشهد بآية في كلامه تكون كالشمس حيث أنّك تميّز كلام الإمام علي (ع) والقرآن الكريم، وكذلك عندما يذكر الرسول الأعظم (ص) آية في كلامه فتشع الآية الكريمة في ذلك الكلام علماً أن الرسول (ع) كلامه بليغ.

«وإنَّ الخطابي قد بيِّنَ أن القرآن الكريم قد اشتمل على الأجناس الثلاثة في عبارات قيمة حازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 162.

حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد كالمتضادين؛ لأن العذوبة نتاج السهولة والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمهمع نبوغ كل واحدٍ منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن، يسَّرها الله بلطيف قدرته مع أمره؛ ليكون آية بيّنة ودلالة على صحَّة ما دعا إليه من أمور دينية، وإنما تعذَّر على البشر الإتيان بمثله لأسباب؛ منها: إنَّ علمهم بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها غير كامل، ولا تدرك أفهامهم جميع وجوه النظم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلون باختبار الأفضل من الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله.، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم، ورباط لهما ناظم»[1].

يقول أبو زهرة في تعليقه على كلام الخطابي: «وإنَّا نوافق الخطابي في أنَّ عدم قدرة البلغاء من الناس على الإتيان بمثل القرآن من أسبابه نقص علمهم باللغة، جزلها وسهلها، وعدم علمهم بالمعاني، وأنَّى يكون علمهم بجوار علم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علماً.

ونقول من ناحية ثانية: إن البلغاء من الناس يختلفون جزالة وسهولة واسترسالاً، تبعاً لطبائعهم وبيئاتهم، وما يتجهون إليه، فالفرزدق كان يميل إلى اختيار الألفاظ القوية أو الحوشية، ويقتحم بذلك الوعر من القول، وقالوا: إنه كان يحاول أن ينهج نهج البدويين من الجاهلين، وجرير يتخيَّر السهل العذب من الألفاظ، وكذلك كان الأمر في شعراء الجاهلية؛ فامرؤ القيس كان يتخيِّر الوعر الجزل من الألفاظ، وهو يقيم في الصحراء العربية، ولانت ألفاظه لمَّا كرثته الكوارث، ورحل إلى أنقرة، وهكذا ... فكان من البلغاء من البشر من غلبت عليهم عذوبة الألفاظ، ومنهم من غلبت عليهم جزالتها وقوتها، بل وعورتها، ويختلف الرجل الواحد باختلاف حاله، وتغير البيئات عليه.

هذا في بلاغة البشر، أمَّا القرآن فبلاغته من عند الله خالق كل شيء، القادر على كل شيء، والخالق للناس وبيئاتهم، فكان في كلامه

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 163.

المبين، كل أجناس القول ومناهج البيان بلا تفاوت في البلاغة القرآنية، وإن اختلفت ألوان الألفاظ وأجناسها بين جزل قوي وعذب سهل، وكلام مرسل ينساب في النفس أنسياب النمير، وكل في موضعه»[(1)].

المبحث الرابع: التلاؤم

بناء على ذلك فإنّ كلام القرآن جاء فيه عنصر التلاؤم مع هذه الأجناس الثلاثة البليغ الرصين الجزل والفصيح القريب السهل والجائز الطلق السلس، في كل هذه الأنواع فيه عنصر التلاؤم والتآلف بين الألفاظ والمعاني في كل جنس من هذه الأجناس الثلاثة.

«يقصد بالتلاؤم في الأسلوب أن تأتلف مخارج الحروف والكلمات كما ذكرنا، والانسجام في النّغَم بينها»[(2)]، فيقصد بالتلاؤم أن تأتلف مخارج الحروف والكلمات وكذلك أيضاً صوت الكلمة تأتلف مع أصوات الكلمات التي يتألف منها الكلام، يعني مخارج الحروف في الكلمة الواحدة وأصوات الكلمات لابدّ أن تأتي متآخية ومتآلفة ومنتظمة حتى يحصل التلاؤم.

«ويعدُّ القاضي عبد الجبار أنَّ تآخي النغم في الألفاظ والحروف من حلاوة الكلام ومحسناته»[(3)]، والقرآن الكريم هو القمة باختيار هذا التآلف في مخارج الحروف للكلمات وأصوات الكلمات وتآلفها في الكلام والعبارات. وفي هذا الباب أيضاً القرآن الكريم لا يضاها في هذه الحلاوة.

«ويذكر أبو عيسى الرماني[(4)] فائدة التلاؤم فيقول: والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبل النفس لمعناه، لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة، ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب في أحسن ما يكون الخط والحرف، وقراءته في أقبح ما يكون من الحرف والخط، فذلك متفاوت في الصورة وإن كانت المعاني واحدة.

---

(1) المصدر السابق، ص 163 و164.
(2) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 164.
(3) المصدر السابق، ص 164.
(4) هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله الرماني (909م - 994م) هو مُفَسِّر وفيلسوف معتزلي، ومن كبار النحاة، كان مُتَبَحِّراً في علوم الفقه واللغة والكلام والفلك، ألَّف ما يقارب مائة كتابٍ.

إنَّ الكلام يذاق كما يذاق الطعام، فكلما كان التنسيق والتلاؤم حسن في الذوق كان الكلام أجمل وأذوق. وإن لغتنا العربية لغة نطق ابتداء، وصارت من بعد لغة كتابة، ولم تنفصل عنها خاصتها، فهي نطق وكتابة، ولذلك كان لمخارج الحروف أثر في فصاحة الكلام، ولا شكَّ أن مخارج الحروف مختلفة منها ما يكون في أقصى الحلق، ومنها ما هو من أدنى الفم، ومنها ما هو في الوسط بينهما، فالتلاؤم فيها بأن تكون الكلمة حروفها متقاربة المخارج، والكلمات متقاربة المخارج ليسهل النطق على اللسان، وتتقبله الأسماع.فإذا أضيف إلى ذلك التآخي في المعاني كان التلاؤم الكامل، والأسلوب الرابع، وذلك ما جاء في القرآن»(1).

المبحث الخامس: تصريف البيان

قبل أن ننتقل إلى هذا الموضوع لابد أن نبيّن قضية مهمة في الكلام. الكلام الذي نريده أن يتوائم في تقارب حروفه ومخارج أصواته من حيث الكلمة وليس من حيث العبارة، والكلام من حيث الكلام لا من حيث العبارة يتقوّم بثلاثة أشياء: لفظ وهو وعاء يحمل المعنى، ومعنى قائم بذلك اللفظ، فالأولى لفظ والثانية المعنى ولكن هذين الأمرين إذا انضمّ إليهما لفظ آخر كي يكوّن الكلام فنحتاج إلى العنصر الثالث في تقويم الكلام وهو الرابط.

الكلمة الواحدة في القرآن لابد أن تأتي، وقد جاءت بأعذب الألفاظ وبأقرب المخارج سهولة في النطق وتحمل معنى ينسجم تمام الانسجام مع المعاني والكلمات الأخرى عندما تنضم لهذه الكلمة كلمة أخرى، فيأتي رابط ينّظم هذه الكلمات.

ننتقل الآن إلى تصريف البيان وكيف أن القرآن الكريم صرّف البيان في آياته فضرب الأمثال وذكر القصص وبيّن الأحكام والأوامر والنواهي والحلال والحرام ووصف حالات مختلفة من حالات الحرب والسلم والضيق واليسر والعسر، وبيّن أوصاف الجنة وأوصاف النار، فصرّف الكلام بمختلف أنواع التصريف.

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 164.

وفي هذا يقول الباري جلّ وعلا: **(وَلَقَد صَرَّفنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً)**[1]، وقال تعالى: **(وَلَقَد صَرَّفنَا فِي هَذَا القُرآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُم إِلاَّ نُفُوراً)**[2]. تبيّن هذه الآية الكريمة بأن القرآن صرّف البيان، يعني استعمل مختلف أنواع التصريف لمختلف أنواع المعاني والبيان ولم يأت كلّه على نسق واحد وإنما جاء كل جنس من أجناس الكلام متوائماً مع المعنى المطلوب والمقصود.

«تختلف مناهج البلغاء كُتَّاباً وشعراء، كل يجيد منهاجاً معيناً ويمتاز فيه، ويكون من الأوساط في غيره أثر دون الأوساط، فمنهم من يجيد الوصف، ويحكي الأشياء لقارئه كأنه يراها، ومنهم من يجيد القول الوعر العنيف، ولا يكون منه السهل الميسّر، ومنهم من يجيد شعر الغزل ولا يجيد غيره، ومنهم من يجيد القول الساخر، ولا يجيد القول الجاد، كما نرى في بعض كتاب العصر، ومنهم من يجيد الكتابة في السياسة، فإذا كتب في غيرها هان وابتذل، ومنهم من يجيد الكتابة في التحليل وإثارة التأمل، وهكذا، وقلَّ من يجيد الدخول إلى الكلام البليغ في أكثر من باب أو بابين، ويكونان متآخيين غير متناقضين.

أما القرآن المعجز الذي هو فوق قدرة البشر، فإنَّ البلاغة فيه في كل أبواب القول، وهي في كل باب تعلو علوّاً كبيراً عن المجيدين في هذا الباب وحده، ولذلك كان تصريف القول فيه من تهديد وإنذار وتبشير، وإثارة للتأمل، ودعوة للتفكير في آياتالله تعالى الكونية والقرآنية، والتفكير في النفس وفي الحس، كل ذلك من دلائل الإعجاز وسره»[3].

في هذا المعنى يقول القرآن الكريم: **(وَكَذَلِكَ أَنزَلنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ أَو يُحدِثُ لَهُم ذِكراً)**[4]، ويقول تعالى في آية أخرى: **(.. انظُر كَيفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُم يَصدِفُونَ)**[5]، ويقول تعالى: **(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَستَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَومٍ يَعلَمُونَ)**[6].

---

(1) الاسراء (بني إسرائيل)،89.
(2) الاسراء (بني إسرائيل)،41.
(3) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 166.
(4) طــه،113.
(5) الأنعام،46.
(6) الأنعام،105.

الهدف من تصريف هذه الآيات هو حتى يفقهوا هذا القرآن ويدركوا أغراضه ومراميه، ويدركوا الحق إن كانوا غير معاندين وغير ضالين وبذلك يهتدوا بهذا القرآن، لأن القرآن فيه الهدى والنور وذلك لمَن يستجيب لدعوته، وأما الذي يضع صماماً على أذنيه فإنّه لا يسمع.

قال تعالى: (.. **لِّسَانُ الَّذِي يُلحِدُونَ إِلَيهِ أَعجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**)[1]، إذا ادعى هؤلاء الكافرون بأنّ الرسول (ص) يُعلّمه أحد من الناس وكذلك الذي قصدوه أعجمي وهذا القرآن بلسان عربي، فكيف يأتي الأعجمي يعلّم العربي ؟ وكيف أنّ هذا القرآن أبلغ ما يكون يصدر من أعجمي ؟

إذا عجز بلغاء العرب عن الاتيان بمثله فكيف يكون هذا من لسان أعجمي ؟! وقال تعالى: (.. **كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَومٍ يَشكُرُونَ**)[2].

هذه التصريفات في البيان والمعاني وفي الأغراض التي رمى إليها القرآن الكريم بشتى تصريفاته وبشتى أغراضه، فمرة يتكلم في صلاح المجتمع بمختلف أنواع هذا الصلاح سواء في العلاقات الاجتماعية والعلاقات بين الزوج والزوجة وفي العلاقات بين أبناء الأمة الواحدة وفي التهديد والانذار، والتوبيخ والاستنكار، والدعوة إلى التأمل والتفكّر والتدبّر في الآيات وفي هذا الكون وفي خلق الله تبارك وتعالى، قال عزّ من قائل: (**سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم**)[3]. وكذلك بسرد القصص وتكرار هذه القصص بمهانٍ مختلفة وبأغراض مختلفة وقد يلحظ الإنسان أن القصة متكررة ولكن عندما يمعن النظر ويدقق بالتفاصيل يجد أنه لا تكرار – وسنبيّن ذلك في موضوع التكرار -، ففي كل هذه الأغراض كانت تتنوع الأساليب القرآنية. فمثلاً القرآن الكريم تحدى العرب بأن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة من مثله، ومع هذا فإنّ القرآن نفسه يأتي فيكرّر القصة بأسلوب آخر حيث أن قصة موسى (ع) قد تكررت مراراً وكذلك قصة إبراهيم (ع)، فإن كان العرب قد عجزوا بأن يأتوا بمثله فإن القرآن لا يعجزه ذلك.

---

(1) النحل،103.
(2) الأعراف،58.
(3) فصلت،53.

«وإنَّ التصريف في القرآن الكريم على ضربين: أحدهما في المعاني، وثانيهما: في الألفاظ والأساليب، فأمَّا التصريف في المعاني فإن المؤدَّى في جملته يكون واحداً في عدة مواضع، ولكن لها في كل مرة عبرة، وهذا تصريف في المعاني وإن كانت الألفاظ تختلف أو تتقارب أو تتحد العبارات في بعض الأحيان»[1].

إنّ التصرف في المعاني المؤدى في جملته يكون واحداً ولكن يختلف في دلالته بالنسبة للسياق، فالقصة الواحدة – كقصة نوح (ع) – تُذكر في القرآن في عدة مواضع ولكن لها في كل مرة عبرة. والهدف من القصص في القرآن هو العبرة وأن تعتبر هذه الأمة بقصص الأمم السابقة، وفي كل مرة تتكرر فيها القصة هناك عبرة تختلف عن ذكرها في الموضع السابق، ففي كل موضع ترد فيه نفس القصة ولكن في كل موضع لها عبرة يستفيد منها القارئ غير الموضع السابق.

«ولقد قال في تصريف المعاني الرماني في رسالته إعجاز القرآن: وهذا الضرب من التصرف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره وتدل عليه، وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة قد جاء في القرآن في غير قصة، منها: قصة موسى (ع) في سورة الأعراف، وفي طه والشعراء؛ لوجوه من الحكمة، منها التصرف في البلاغة من غير نقصان، ومنها: تمكين العبرة والموعظة»[2].

هناك نوع آخر من التصريف وهو التصرف في السور، ففي القرآن الكريم جاءت سوره متفاوتة من حيث الطول والقصر فهناك الصور الطويلة التي ضمت ما يزيد على الجزءين كسورة البقرة وهناك السور المتوسطة كسورة يـــس وهناك السور القصيرة كسورة الكوثر.

هذا تصرّف في القرآن، فمرّة بالمعاني ومرة بالألفاظ ومرة في نفس السورة، وأيضاً تحتوي مختلف أنواع المعاني سواء جاءت السورة طويلة أو قصيرة فإنّها تضم مختلف أنواع المعاني، فمثلاً سورة الفاتحة (**بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ* الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ* الرَّحمن الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَومِ**

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 168.
(2) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 168.

الدِّينِ* إِيَّاكَ نَعبُدُ وإِيَّاكَ نَستَعِينُ* اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ) التي تضم الأساسيات في العقيدة، فمثلاً التوحيد **(الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ)** ففي تقديم الحمد والابتداء به وتأخير قوله تعالى: **(رَبِّ العَالَمِينَ)** فيه معنى أن جميع أنواع الحمد والثناء هي لله، فهو رب كل العوالم ولا ربّ سواه والحمد كلّه له ولا حمد لسواه فهو تعالى الكمال المطلق وهذا معنى من معاني التوحيد، ثم تقول: **(مَالِكِ يَومِ الدِّينِ)** حيث أشارت إلى الأساس الآخر وهو المعاد، وهو اليوم الذي فيه الجزاء لكل مَن عمل في هذه الدنيا خيراً فخير وشراً فشر، فالله تبارك وتعالى هو مالك ذلك اليوم.

ثم تقول الآية الكريمة: **(إِيَّاكَ نَعبُدُ وإِيَّاكَ نَستَعِينُ)** وهنا بيّنت العبادة وتخصص العبادة في الله تبارك وتعالى وذلك بتقديم ضمير الاختصاص وفي هذا توحيد العبادة وأنّ العبادة مختصة بالله تعالى، نعبدك وحدك ولا نعبد غيرك، إضافة إلى بيان توحيد الذات وتوحيد الكمال لله تعالى وهنا توحيد العبادة، والاستعانة بك وحدك وأنت المستعان لا غيرك.

ثم **(اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ)**، يعني اهدنا الصراط فصراط مَن ؟ صراط الذين أنعمت عليهم حيث إنّ الله تعالى أنعم على الأنبياء والرسل والأئمة (ع)، والنعم هنا ليست التي النعم يتساوى فيها المؤمن والكافر وإنما النعم الإلهية التي يختص فيها المؤمن دون الكافر. ففي هذه الآية بيّنت أساساً آخر من أسس العقيدة وهو النبوة والإمامة. ولا نريد أن نطيل في شرح هذه السورة فرغم قصرها حوت أساسيات العقيدة وبيان العبادة، وبيّنت أهل الخير وأهل الحق ولابد أن نسير على هديهم.

فقصر السور وطولها ووسطها فبعض السور جاءت بين القصر والطول، فمع هذا التصرف من القرآن بالطول والقصر في السور فإنّها كلها أيضاً جاءت القمة في البلاغة، فمثلاً السورة القصيرة كسورة الكوثر: **(بسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ* إِنَّا أَعطَينَاكَ الكَوثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانحَر* إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبتَرُ)**، في هذه السورة يتحدى القرآن والآخرون يعجزون عن الاتيان بمثلها. والسورة الطويلة كسورة البقرة أيضاً يعجز الآخرون عن الاتيان بمثلها.

إنّ هذا التصرف له فوائد كثيرة، فالإنسان الذي لا يستطيع أن يقرأ السور الطوال أو لا يريد أن يقرأ السور الطوال في قراءته يستطيع أن يقرأ السور القصار، والإنسان المشغول كحالة الحرب أو حالة كسب الرزق وما شاكل ذلك يستطيع أن يقتصر على قراءة السور القصار في قراءاته سواءاً كانت المستحبة أو الواجبة، والإنسان الذي لديه من الوقت كالعالم والمتخصص يستطيع ان يتدبر في قراءة السور الطوال ويستنبط منها بعض الأحكام. وهذا التصرف أيضاً يفيد في الحفظ حيث أن السور القصار يسهل حفظها.

عندما نقرأ سورة العصر في قوله تبارك وتعالى: **(بسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ* وَالعَصرِ* إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسرٍ* إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوا بِالصَّبرِ)**، «ففي هذه السورة القصيرة جماع الخصال الإنسانية التي تصلح الآحاد والجماعات، وهي الإيمان الذي يعمر القلوب ويوجه الجوارح، فلا صلاح لإنسان أو جماعة إلّا إذا صلحت القلوب، وأثمر الإيمان العمل الصالح في الآحاد، وكانت الجماعة كلها للحق تتواصى عليه وتتعاون، فما صلح قوم ضاع الحق بينهم، وتخاذلوا في نصرته، وإن السبيل إلى احتمال أعباء الحق هو الصبر، فإنَّ الصبر فيه ضبط النفس، والابتعاد عن الشهوات، وجعلها خاضعةللعقل، بحيث تكون أمة ذلولاً لا سيداً مطاعاً، وما تخاذل قوم عن نصرة الحق إلّا لأنَّ الشهوات قد استولت على نفوسهم، وصار السائد على الجماعة الهوى المطاع، والشح المتَّبَع، ولذلك نصَّ الله سبحانه وتعالى على أنَّ الجماعة الفاضلة هي التي تتواصى على الحق، فلا يذل صاحب حق ولا يعلو أهل الباطل، وتتواصى على الصبر، وضبط النفس، وردعها عن أهوائها وشهواتها»[1].

إنّ هذه السورة المباركة تعرضت إلى الإيمان والعمل الصالح وتعرضت للحق وإلى الصبر، وهذه الأمور التي تعرضت لها السورة المباركة هي جوامع الحكم. فالقرآن الكريم ضمّ في تصريفه للآيات وفي السور مختلف أنواع المعاني التي خرج إليها، فلم يقتصر على معنىً واحد وكيف يحث المؤمنين على التدبر في الآيات الكريمة ويحثهم على الذكر وذلك في قوله تعالى: **(إنَّ فِي خَلقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَاختِلاَفِ اللَّيلِ**

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 169.

وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الألبَابِ* الَّذِينَ يَذكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ رَبَّنَا مَا خَلَقتَ هَذا بَاطِلاً سُبحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[1].

في هاتين الآيتين يريد القرآن الكريم أن يرغّب المؤمنين بالذكر ويبيّن صفات أولي الألباب وصفات الذاكرين، أيضاً يتناول في آيات أخرى الحث على الذكر، فيصرف القرآن الكريم الآيات والسور بمختلف المعاني وكلما يذكر موضعاً من هذا المعنى أو من نفس الغرض يعطيك دقائق وتفاصيل أكثر في نفس الموضوع، فيخيّل إليك قد تكرّر الموضع بنفس المعنى ولكن حال التدقيق والتفصيل والتدبر تجد أن هناك أموراً أكثر دقة أو أكثر تفصيل لم ترد في ذلك الموضع.

المبحث السادس: التكرار في القرآن الكريم

هناك آيات كريمة تكرّرت في القرآن، وكذلك موضوعات كثيرة تكرّرت في القرآن، وأيضاً قصص تكرّرت في القرآن الكريم.

إنّ النبي (ص) هو الذي يُرتب الآيات الكريمة في كل سورة بأمر من الله تبارك وتعالى، وأما ترتيب السور الذي موجود بين أيدينا فهو ليس ترتيب الرسول (ص) حيث أن هناك ترتيباً للسور في مصحف الإمام علي (ع) كما هي حسب النزول. وإن ترتيب السور الذي بين أيدينا هو ترتيب الصحابة وأما ترتيب الآيات فهو ترتيب الرسول (ص).

أما مصحف الإمام علي (ع) الذي هو نفس هذا المصحف ونفس هذه الآيات ونفس هذه السور ولكن يختلف في ترتيب السور حيث أن ترتيب السور فيه حسب ترتيب النزول.

إن التكرار بالأصل فيه عيب ولكن في القرآن الكريم فيه بلاغة واعجاز، وفي هذا المقام قال الجاحظ في كتابه «الحيوان»: «ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة

---

(1) آل عمران، 190 و191.

والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام»[1].

يعني أن الجاحظ يريد أن يقول بأن الله تعالى عندما يخاطب بني إسرائيل يفصّل لهم في الكلام وعندما يخاطب العرب فإنّه يوجز لهم بالكلام ويأتي الكلام على شكل وحي أو إشارة وذلك لأنهم يفهمون هذا الكلام حيث يكون هذا الكلام واضحاً لهم فهناك فرق بين العربي وغير العربي، فغير العربي يحتاج إلى بسط في الكلام وتوضيح وإسهاب وإطناب أحياناً حتى يفهم المقابل، بينما العربي لأنّه هو عربي فيفهم الكلام بالوحي والإشارة فيأتي الكلام موجز عند الخطاب للأعراب.

وقد ورد إشكال على كلام الجاحظ: «نلاحظ ثلاثة أمور:أولها: إنه قال: وزاد في الكلام، وإنَّا لا نحسب أنَّ هذه الكلمة تتفق مع بلاغة القرآن ولا مقامه، فليس في القرآن زائد، وإن أطنب في القول؛ لأن الزيادة تتسم بالحشو، ومحال ذلك في أبلغ القول الذي نزل من عند الله تعالى، ولعله أراد معنى البسط والإطناب لا أصل الزيادة، ولا يمكن أن يكون قد أراد الحشو، ولكن مع كل نقول: هذه العبارة ليست سائغة.

الثاني: إنَّ الآيات المكية وقد كان الخطاب لعبدة الأوثان، فإنَّا نجد فيها بسطاً في القول، وخصوصاً في الاستدلال من الكون على أنَّ الله سبحانه وتعالى خالقه، وفي الاستدلال بعجزهم، والالتجاء إليه سبحانه: اقرأ قوله تعالى: **(أَمَّن خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهجَةٍ مَّا كَانَ لَكُم أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَل هُم قَومٌ يَعدِلُونَ* أَمَّن جَعَلَ الأَرضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَينَ البَحرَينِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَل أَكثَرُهُم لا يَعلَمُونَ* أَمَّن يُجِيبُ المُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكشِفُ السُّوءَ وَيَجعَلُكُم خُلَفَاء الأَرضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ* أَمَّن يَهدِيكُم فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحرِ وَمَن يُرسِلُ الرِّيَاحَ بُشراً بَينَ يَدَي رَحمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشرِكُونَ* أَمَّن يَبدَأُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قُل هَاتُوا بُرهَانَكُم إِن كُنتُم صَادِقِينَ)**[2]. وإن هذا الكلام الكريم لا يمكن أن يكون

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 171.
(2) النمل، 60 – 64.

خطاباً لليهود وحدهم، وإنما هو خطاب للعرب، ولم يكن باللمح والإشارة، بل كان بالتصريح والعبارة، فلم يكن بالإيجاز، وإن كان الإيجاز القرآني من نوع الإعجاز، بل كان بالإطناب المتَّسِق المبين، وكان فيه بعض التكرار في موضعه؛ لأنه التوجيه إلى النظر فيما تحت أيدهم هو في ذاته مقدمة لنتيجة هي الوحدانية للمعبود، ما دامت وحدانية الخالق قد ثبتت بهذا الكلام، فكان لا بُدَّ أن تذكر النتيجة أمام كل مقدمة؛ لأنها وحدها دليل، ولو لم تذكر النتيجة أمام كل مقدمة لكانت النتيجة ثمرة لمجموعها، مع أنَّ كل واحدة منها صالحة لِأَنْ تكون الوحدانية نتيجة لها، دون أن تنضمَّ معها غيرها.

الملاحظة الثالثة: وهي مبنية على الملاحظة السابقة، أنَّ الإيجاز والإطناب يكون لكل موضعه ومقامه، فلكلٍّ مقام مقتضاه الذي توجه أحوال البيان المعجز.

وقد لاحظنا أنَّ مقام الاستدلال على الوحدانية من المواضع التي يحسن فيها الإطناب، وكلام الله تعالى اتجه إلى ذلك كما رأينا في الآية السابقة، وكما نرى في سورة الرحمن فإنها تذكير بنعم الله تعالى، إذ استعملوها في غير موضعها، وفي أمر الله تعالى ونهيه، وإذا كان جزاء النعم كفراً بالمنعم، وإشراك غيره معه في العبادة، فقد قال تعالى في سورة الرحمن: **(الرَّحمَنُ* عَلَّمَ القُرآنَ* خَلَقَ الإِنسَانَ* عَلَّمَهُ البَيَانَ* الشَّمسُ وَالقَمَرُ بِحُسبَانٍ* وَالنَّجمُ وَالشَّجَرُ يَسجُدَانِ* وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ* ألا تَطغَوا فِي المِيزَانِ* وَأَقِيمُوا الوَزنَ بِالقِسطِ وَلا تُخسِرُوا المِيزَانَ* وَالأَرضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ* فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخلُ ذَاتُ الأَكمَامِ* وَالحَبُّ ذُو العَصفِ وَالرَّيحَانُ* فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ* خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلصَالٍ كَالفَخَّارِ* وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ* فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ* رَبُّ المَشرِقَينِ وَرَبُّ المَغرِبَينِ* فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)**[1] إلى آخر السورة الكريمة»[2].

فهنا في الآيات التي تقدمت بيّنا فائدة التكرار وفائدة الاسهاب والاطناب فإنّ لكل موضعه في ذلك وفائدته في ذلك، يعني ليس الأمر كما قال الجاحظ بأنه «فيه زيادة» في الكلام أو أنّ القرآن إذا خاطب العرب

(1) الرحمن، 1 – 18.
(2) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 172 – 174.

يوجز وإذا خاطب أهل الكتاب أو بني إسرائيل يفصّل وإنما قد يُفصّل هنا وقد يفصّل هناك ولكل موضعه من الكلام.

نرى في سورة الرحمن جاء تكرار هذه الآية **(فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)** مراراً، وفي هذا التكرار تذكير بنعم الله تعالى، فكل نعمة يمكن أن يكفر بها الإنسان وحتى لا يكفر لابدّ من تذكيره بهذه النعم، وإذا كان جزاء النعم كفراً بالمنعم واشراك غيره معه في العبادة، وهكذا في هذه السورة تتبيّن فيه نعمة الخالق وبعدها يأتي هذا الاستفهام الذي يطالب ويأمر أن يشكر العبد النعمة، ووجوب شكر النعمة بالطاعة وتجنب المعصية والاقرار بوحدانية المعبود، لأنّ هذه الآلاء كلها تدلّل على وحدانية الله.

المبحث السابع: قصص القرآن من الناحية البيانية

هناك بعض المواضع يكون فيها اطناب واسهاب وأحياناً يكون هناك بعض التكرار، ومن الطبيعي أن الاسهاب والاطناب من حيث الأصل هو غير ممدوح في اللغة لأنّ الكلام البليغ هو أن يبلغ السامع بأقصر الكلمات وبأقصر العبارات ويحتوي ويشتمل على المعاني المطلوب ايصالها إلى السامع، والاطناب والاسهاب يخالف ذلك وكذلك التكرار فعندما يكرّر الإنسان العبارات والمعاني والكلمات فهذا التكرار يكون مملاً ويفيد الاسهاب والاطناب أيضاً.

فهل هناك تكرار في القصص القرآنية ؟ وإذا كان هناك تكرار فكيف ينسجم مع الاعجاز القرآني مع أنّ القرآن القمة في البلاغة والاعجاز؟

نحن نعلم بأن كثيراً من قصص الأنبياء (ع) قد تكررت كقصة نبي الله موسى (ع) وقصة إبراهيم (ع) وقصة عيسى (ع) في مواضع متعددة فهل في ذلك تكرار من حيث المعنى ومن حيث الأسلوب والمعاني والألفاظ أم أنّ هناك اعجازاً في هذا الموضع، وهذا سر من أسرار القرآن الكريم وسر من أسرار الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

قبل أن نبدأ في بيان هذه المسألة لابد أن نعرف أنّ هناك فرقاً بين قصص القرآن الكريم وقصص الآخرين أو قصص الناس، فالكاتب عندما يسرد قصة فإنّه يتخيل وينقل من مخيلته بعض المشاهد الروائية في القصة

وهذه المشاهد الروائية تكون عادة مشوبة بالخيال فإن الكاتب يصوّر صوراً خيالية. أما قصص القرآن الكريم فإنّها قصص واقعية وتروي الواقع بحقيقته وليست قصصاً خيالية كما هو الحال بالنسبة للكتاب والروائيين.

كلما كان الكاتب يصف واقعاً فإنّه لا يستطيع التأثير بالنسبة للمخلوقين ذلك التأثير البليغ القيّم المؤثر كثيراً في ذهن السامع وذلك لأنّه أكثر التأثيرات تأتي نتيجة للخيال ونتيجة للمبالغة في القصة وما شاكل ذلك. فعنصر الخيال أساسي وضروري في كتابة القصة.

القرآن الكريم باعتباره الحق والصدق وينطبق تماماً على الواقع فإنّه يخلو من هذه القضية، وأن القرآن ليس كتاب للقصص ولا كتاب للتأثير العاطفي أو الوجداني وإنما هو كتاب للهداية ولبيان الأحكام وبتفصيل مراد الله تبارك وتعالى من السور والآيات.

مع هذا الفارق كيف نجد أنّ القرآن الكريم القمة في الاعجاز والقمة في الاعجاز البلاغي حتى في هذه الناحية التي يخلو فيها من الخيال. فلماذا جاءت القصص في القرآن الكريم ؟

جاءت القصص في القرآن الكريم لغرض العبرة والاعتبار لهذه الأمة من قصص الأمم السابقة، قال تعالى: **(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)**(1)، ويذكر عن قصة يوسف (ع): **(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)**(2)، حيث أنّ أحسس القصص في قصة يوسف (ع) وعندما نأخذ عناصر القصة والمثيرات في القصة نجد أنّه فعلاً هذه القصة هي أحسن القصص، ولا تنالها أي قصة بالعالم في حلاوة ألفاظها وفي عنصر الاثارة الموجود فيها مع خلوّها من الخيال.

والهدف من القصة هي العبرة، قال تبارك وتعالى: **(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ)**، فإذا كان الهدف من القصة هي العبرة والاعتبار فلماذا التكرار؟! فمثلاً آية الوضوء ذُكرت مرة واحدة وتعلم الناس الوضوء ونكتفي بذلك فلماذا تُكرّر القصة مراراً ؟!

---

(1) يوسف، 111.
(2) يوسف، 3.

هل في هذا التكرار اعجاز مع أن التكرار يفيد الاسهاب والاطناب وهما أمر معيب في البلاغة، فكيف نوفق في هذا الجانب ؟

في مثل هذه الحالة لابد أن نستعرض ونستقرأ القصص، عندما نأخذ قصة من القصص في القرآن الكريم لابد أن نستعرض تلك القصة وبشكل تفصيلي على الأقل في المعاني الاجمالية حتى نتبيّن هل أن المعاني قد تكرّرت أم لا.

أولاً – قصة إبراهيم الخليل (ع)

نأخذ مثالاً على ذلك وهو قصة إبراهيم (ع) فقد وردت مراراً في القرآن الكريم، والذي نريد أن نبيّنه أن الاطناب والتكرار أحياناً في قصص القرآن من تصريف القول وهو وجه من وجوه البيان القرآني. هذه المسألة نريد أن نتبيّنها من قصة إبراهيم (ع) حيث سنورد بعض الآيات الكريمة التي تكرّرت فيها قصة إبراهيم (ع) ثم نبيّن هل أن التكرار هو تكرار للمعنى وللألفاظ وللأسلوب أم أن التكرار يفيد السامع والقارئ معانٍ جديدة ليست موجودة في القصة السابقة لنفس النبي أو الرسول.

إنّ إبراهيم (ع) نبي ورسول ومن أولي العزم وتربى في كنف عمّه وكان عمّه «آزر» يعبد الأصنام، ولابد أن نبيّن هنا أن كلمة «أب» الواردة في القرآن الكريم ليس المقصود فيها الوالد لأنّ كلمة «والد» في القرآن تختص بالوالد الصلبي الذي ينحدر منه الابن بشكل نسل من الذرية، وأما كلمة «أب» فتطلق ويُراد بها الأب الوالد ويُراد بها العم ويُراد بها الجد وجد الجد ويُراد بها الأجداد قال تعالى: **(وَاتَّبَعتُ مِلَّةَ آبَآئِي إبرَاهِيمَ وَإسحَقَ وَيَعقُوبَ)**[1]، وقوله تعالى: **(..قَالُوا نَعبُدُ إلَهَكَ وَإلَهَ آبَائِكَ إبرَاهِيمَ وَإسمَاعِيلَ وَإسحَقَ)**[2]، وسنتعرض إلى هذه المسألة حيث أنّنا – الشيعة الإمامية الاثنا عشرية – نعتقد بأن آباء الأنبياء (ع) كلّهم مسلمون فلا يوجد فيهم إنسان غير مسلم، أي أن النبي (ع) – أي نبي من الأنبياء – لا ينحدر من ذرية غير مسلمة ولعل في ذلك إشارة في القرآن الكريم، قال تعالى: **(إنَّ اللهَ اصطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبرَاهِيمَ وَآلَ عِمرَانَ عَلَى العَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعضُهَا**

---

(1) يوسف، 38.
(2) البقرة،133.

مِن بَعضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[1]، وكذلك في قوله تعالى: (**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ* وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)**[2] والخطاب كان لرسول الله (ص) حيث ان الكثير من المفسرين يذهب إلى أن **(وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)** أي تقلبك في أصلاب الساجدين من الآباء والأجداد.

إبراهيم (ع) تربى في كنف هذا العم المشرك الذي كان ينحت الأصنام ويبعث أبناءه لبيع الأصنام في السوق وكان يعطي – حسب ما تورد القصص – الأصنام لأبراهيم (ع) فكان ينادي على تلك الأصنام في السوق «مَن يشتري ما لا يضر ولا ينفع» ؟ فكانت الناس تنفر فكيف تشتري مالا يضر ولا ينفع، فهو (ع) من طفولته كان يكسر الأصنام.

باعتبار أن الأنبياء عندما يولدون فهم يولدون على الإسلام وعلى الإيمان ولا يمارس النبي أي نوع من أنواع الشرك ولا يمارس أي نوع من أنواع المعاصي منذ ولادته إلى وفاته باعتباره معصوماً ومُخلَص حيث أن المخلص لا يقربه إبليس، قال تعالى: **(.. وَلأُغْوِيَنَّهُم أَجمَعِينَ* إِلاَّ عِبَادَكَ مِنهُمُ المُخلَصِينَ)**[3]. وتذكر القصة بأن إبراهيم (ع) هو أب لجزء من قبائل العرب وفخر للعرب في أن يكون إبراهيم (ع) من أجدادهم، وكيف أن شرف العرب قد ارتبط بالبيت الذي بناه إبراهيم (ع) وهو الكعبة.

وقد ولد إبراهيم (ع) في العراق ولكن إسماعيل تربى عند بيت الله الحرام، فبعد أن وُلد إسماعيل جاء به إبراهيم (ع) هو وأمه هاجر إلى البيت الحرام. فارتباط إبراهيم (ع) بالبيت وشرف العرب باعتبار أن القرآن خوطب به الناس ومن جملة المخاطبين في ذلك الوقت وبلغتهم العرب، فعندما يُذكر إبراهيم (ع) ويُذكر البيت وشرف العرب بالبيت فيثير العرب من هذه الناحية، فله تأثير بليغ في نفوس العرب.

قال تعالى: **(وَإِذِ ابتَلَى إِبرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهدِي الظَّالِمِينَ* وَإِذ جَعَلنَا البَيتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدنَا إِلَى إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَإِذ قَالَ**

---

(1) آل عمران، 33 و34.
(2) الشعراء، 218 و219.
(3) الحجر، 39 و40.

إبرَاهِيمُ رَبِّ اجعَل هَذَا بَلَداً آمِناً وَارزُق أَهلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَن آمَنَ مِنهُم بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئسَ المَصِيرُ* وَإِذ يَرفَعُ إِبرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيتِ وَإِسمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّل مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجعَلنَا مُسلِمَينِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُب عَلَينَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)[1].

في هذه الآيات المباركة تتبيّن لنا قصة إبراهيم (ع) وبناء البيت، وكيف أنّ البيت كان موجوداً وجاء إبراهيم (ع) ورفع قواعده في تلك البقعة المشرفة، وكيف أنّ إبراهيم وإسماعيل (ع) قاما بتطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود، ودعاء إبراهيم (ع) لأن يجعل هذا البلد بلداً آمناً، فهناك ارتباط بين أهل مكة وهذا البيت وبين إبراهيم (ع)، وأن هذا الأمن وهذه الخيرات الموجودة في هذا البلد إنما هو بدعوة إبراهيم (ع) واستجابة الله تبارك وتعالى لدعوة إبراهيم (ع) **(وَارزُق أَهلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَن آمَنَ مِنهُم بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ)**.

إنّ هذا الرزق وهذا الأمن هو لهؤلاء المؤمنين، **(قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئسَ المَصِيرُ)**، حتى الكافر من هؤلاء يُمتّع ثم مصيره إلى النار، ثم تبدأ الآيات الكريمة بسرد القصة وكيف أنّ إبراهيم وإسماعيل (ع) يرفعان القواعد من البيت، إذاً البيت كان موجوداً وأسسه موجودة ولكنه غير مرتفع عن تلك الأسس إلى الأعلى، **(وَإِذ يَرفَعُ إِبرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيتِ وَإِسمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّل مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ)**.

ثم تختتم هذه الآيات بدعاء إبراهيم (ع) بأن يجعله وإسماعيل من المسلمين وأيضاً دعاء لذريته **(رَبَّنَا وَاجعَلنَا مُسلِمَينِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُب عَلَينَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)**، باعتبار أنّ الحج يتعلق بقصة إبراهيم (ع) وهاجر وإسماعيل (ع).

ففي هذه القصة ارتباط إبراهيم (ع) بالبيت وعلاقة العرب بإبراهيم وبهذا البيت وكيف أن إسماعيل (ع) كان مشاركاً لأبيه في بناء هذا البيت وكيف أنّ إبراهيم (ع) بعد ذلك سوف تبيّن القصص الأخرى معاني أُخَر

---

(1) البقرة، 124 – 128.

للقصة، حيث أن القصة عندما ترد وتتكرر تعطينا في كل مرة معنىً جديداً وكأن القصة في القرآن قصة واحدة ولكن على شكل فصول، فتكرار القصة لا يعني أن القصة بذات معانيها ونفس المعاني تتكرر.

الآن نأخذ قصة أخرى لإبراهيم (ع) وبعض الاستدلالات التي استدلّ بها إبراهيم على قومه بالنسبة للتوحيد والمعاد وكذلك بالنسبة لاستدلاله على نمرود عندما حاججه، فهذه الاستدلالات كان إبراهيم (ع) يقيم أدلة التوحيد ويناقش قومه في هذه الموضوعات.

قال تعالى: **(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)**[1].

في هذه القصة إبراهيم (ع) يطلب من الباري تبارك وتعالى أن يُريه كيف يحيي الموتى، فيأتي السؤال من الله تعالى أولم تؤمن ؟ قال (ع) بلى، يعني نعم أؤمن. فهل كان طلب إبراهيم (ع) من قبيل الايمان بإحياء الموتى أم كيفية إحياء الموتى ؟

فلابد أن نتدبّر بالآية ونعرف ما الذي سأله إبراهيم (ع)، فإنّ أي مسلم شكّ بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى فقد كفر فما بالك بشيخ الموحدين إبراهيم (ع)، إنّ إبراهيم لم يطلب الايمان بإحياء الموتى وإنما كان طلبه كيفية إحياء الموتى، في أن يرى كيفية إحياء الموتى، والمسألة الثانية ما الذي يريد أن يطمئن عليه إبراهيم (ع) ؟ حيث أنه يؤمن بقدرة الله تعالى والقرآن أقرّه على هذا الايمان، فما الذي يريد أن يطمئن عليه إبراهيم (ع) ؟

الرواية عن الإمام الرضا (ع) عندما سُئل عن قول الله: **(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)**، «قال الرضا (ع): إن الله تبارك و تعالى كان أوحى إلى إبراهيم: إني متخذ من عبادي خليلاً إن سألني إحياء الموتى أجبته فوقع في قلب

---

(1) البقرة،260.

إبراهيم أنه ذلك الخليل، فقال: رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال: أولم تؤمن؟ قال (ع): بلى ولكن ليطمئن قلبي بالخلة»[1].

فهذه القصة تختلف عن القصة السابقة في بناء البيت فلا تسمى تكراراً لأنّها أفادت معاني أُخر وهي قصة إحياء موتى، فقال تعالى: **(فَخُذْ أَربَعَةً مِّنَ الطَّيرِ فَصُرهُنَّ إِلَيكَ ثُمَّ اجعَل عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنهُنَّ جُزءاً ثُمَّ ادعُهُنَّ يَأتِينَكَ سَعياً وَاعلَم أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)**.

هكذا أخذ إبراهيم (ع) أربعة طيور وطحنهنّ ثم وضع على كل جبل جزءاً من هذه الأجزاء، وعلى ما يُروى أنّه (ع) أمسك بمناقير تلك الطيور ثم دعاهنّ وإذا أجزاء هذه الطيور تأتي كل جزء إلى منقاره وتتركب هذه الأجزاء وتحيى هذه الطيور. فهذه الآية التي تقص كيفية إحياء الموتى وليس في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

فهنا قصة جديدة ومعاني جديدة لإبراهيم (ع) وقضية كيفية إحياء الموتى، ونذكر قصة أخرى لنرد على الذين يثيرون شبهة التكرار في القرآن الكريم، أنّ هذا التكرار إنما هو أيضاً معجز وفيه معانٍ جديدة وأسلوب جديد ويفيد السامع بأمور لم تكن معهودة من قبل في تكرار هذه القصة.

قصة إبراهيم (ع) مع النمرود وكيف أنّ النمرود ادعى الربوبية وناقشه إبراهيم (ع) وأفحمه حيث قال تعالى: **(أَلَم تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي ربِّهِ أَن آتَاهُ اللهُ المُلكَ إِذ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحيي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحيي وَأُمِيتُ قَالَ إِبرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأتِي بِالشَّمسِ مِنَ المَشرِق فَأتِ بِهَا مِنَ المَغرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهدِي القَومَ الظَّالِمِينَ)**[2].

هذه قصة أخرى أيضاً ورد فيها ذكر إبراهيم (ع) وقصته مع النمرود معروفة، فهل هناك تكرار للمعاني التي وردت في قصة بناء البيت أو في قصة إحياء الموتى ؟

---

(1) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2/ ص 380.
(2) البقرة،258.

لم يكن شيء من ذلك، فأين التكرار في القصة ؟ إذاً هو تصريف في القصة وكأن القصة في القرآن الكريم كلها قصة واحدة ولها فصول ولها مشاهد، وفي كل مرة تعطينا الآيات القرآنية مشاهد وصور جديدة من القصة.

ففي هذه القصة عندما قال النمرود لإبراهيم (ع) أنا أحيي وأميت، والمقصود بأنّه يأخذ اثنين من الرعية فيقتل واحداً فيقول أمته ويُبقي الآخر فيقول هذا أحييته. فإبراهيم (ع) عدل عن هذا البرهان من قدرة الله على الإحياء والإماتة ولم يرد أن يدخل معه في سفسطة، وانتقل إلى برهان حسي على قدرة الله تعالى: يا نمرود إنك تدعي بأنك إله والإله يتحكم بهذا الكون لأنه هو الواضع لقوانين هذا الكون فإن كنت كذلك فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فإت بها من المغرب، فبُهت الذي كفر.

هكذا جاء إبراهيم (ع) في هذه القصة والتي لم نشاهد من الاعجاز البلاغي شيء من التكرار في القصص السابقة التي أوردناها، فنلاحظ قوة الدليل الحسي الملموس الذي أفحم هذا الطاغي ولم يستطع أن يجيب بشيء.

ننتقل إلى قصة أخرى لإبراهيم (ع) مع أبيه (عمّه) «آزر» حيث أن إبراهيم (ع) وعد أباه أن يستغفر له وقد ذكر الله تعالى هذا الوعد واستغفار إبراهيم (ع) لعمه «آزر»، قال تعالى: **(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)**[1].

قصة أخرى لإبراهيم (ع) في قوله تعالى: **(وإِذْ قَالَ إِبرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ* وَكَذَلِكَ نُرِي إِبرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ* وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ**

(1) التوبة (براءة)، 114.

وَقد هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أن يَشَاء رَبِّي شَيئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيءٍ عِلماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ)[1].

في هذه الآيات قصة محاججة إبراهيم (ع) لقومه وبيان التوحيد وبيان الضلال لما يعبد هؤلاء من النجم والقمر والشمس، وأقام لهم الدليل على أنّ هذه الموجودات التي تعبدونها لا تصلح أن تكون آلهة. هنا في بداية الآيات الكريمة تبيّن أنّ إبراهيم (ع) من الأول قد قرّر بأن عمه «آزر» وقومه في ضلال مبين. وعليه فالذي يدّعي بأنّ إبراهيم (ع) قد تعبّد للقمر أو للنجم أو للشمس فهو لم يعِ بداية الآيات الكريمة حيث أنها قد أقرّت بأنّ إبراهيم (ع) من الأول كان في موضع المحاججة وكذلك تجد المحاججة في آخر الآيات الكريمة، قال تعالى: **(وَحَاجَّهُ قَومُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ)**.

فنجد في كل هذه القصة كان إبراهيم (ع) في موضع المحاججة لقومه، والذي يحاجج يفترض حتى المحال كي يصل إلى اليقين والحق. ففي بداية القصة بيّن الله تعالى موقف إبراهيم (ع) من أبيه «آزر» وقومه وضلالهم، ثم بيّن بأن الله تعالى يريد أن يُري إبراهيم (ع) ملكوت السماوات والأرض، وهناك فرق بين أن الله تعالى يري إبراهيم (ع) السماوات والأرض وبين أن يُري ملكوت السماوات والأرض حيث أن الملكوت هو الوجود الغيبي للوجود الظاهر أو هو الوجود الباطن لهذا الوجود الظاهر، فالسماوات والأرض يراها المؤمن والكافر فكيف يمتّن الله على إبراهيم (ع) بأن يريه السماوات والأرض ويراها الكافر والمؤمن، كلا إنّ الامتنان والنعمة على إبراهيم (ع) أنّ الله تعالى أراه ملكوت (العالم الغيبي والوجه الآخر) للعالم الظاهر.

نحن نرى هذا العالم، قال تعالى: **(يَعلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَهُم عَنِ الآخِرَةِ هُم غَافِلُونَ)**[2]، فالذي تبيّن لإبراهيم هو ملكوت السماوات والأرض، والذي يرى ملكوت السماوات والأرض يعني يرى الجنة والنار ويرى الملائكة كيف يتعبد للنجم والقمر والشمس ؟!

(1) الأنعام، 74 – 80.
(2) الروم، 7.

انظر إلى بداية الآية الكريمة (**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ**) وعليه فإنّ إبراهيم (ع) من أول بداية الآيات فإنّ الله تعالى أراه ملكوت السماوات والأرض وكان من الموقنين، وهذا اليقين الذي تتحدث عنه الآيات الكريمة والذي به تنكشف العوالم الأخرى وينكشف به الباطن، فهذا اليقين غير قابل للزوال.

إذن قوله تعالى: (**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيهِ اللَّيلُ رَأَى كَوكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي**) هو على صيغة الاستفهام الانكاري ولكن الذين في قلوبهم مرض والذين لا يعرفون البلاغة العربية مع الأسف الشديد يدعون بأنّ إبراهيم تعبّد بهذه الموجودات، وقد أفاد أهل البيت (ع) أنّ هذه الآيات جاءت بصيغة الاستفهام الانكاري وليس على صيغة الإخبار – والعياذ بالله –، ولما غاب الكوكب وهو متغير وكل متغير حادث فهو يحتاج إلى خالق قال (ع) لا أحب الآفلين.

(**فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي**) وهنا أيضاً صيغة الاستفهام الإنكاري وليس – والعياذ بالله – على صيغة الاخبار، ولما غاب القمر قال (**لَئِن لَّم يَهدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَومِ الضَّالِّينَ**).

(**فَلَمَّا رَأَى الشَّمسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي**) وهنا أيضاً على صيغة الاستفهام الإنكاري ولما غابت الشمس قال (ع): (**يَا قَومِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشرِكُونَ**)، فهو (ع) يعتقد ويؤمن جازماً بأنّ هذه الموجودات في أذهان قومه شرك مع الخالق، فتوجه لله (**إِنِّي وَجَّهتُ وَجهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ المُشرِكِينَ**).

(**وَحَاجَّهُ قَومُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِيالله وَقَد هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيءٍ عِلماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ**) ففي هذه القصة نجد أن هناك معانٍ جديدة لم تكرّر فيما أوردناه في القصص السابقة لإبراهيم (ع)، فلكل فصل معانٍ جديدة وهذه فصول للقصة وليست تكرار.

فأين شبهة التكرار التي يثيرها المشككون في أنّ القرآن يكرّر بعض القصص، والتكرار عيب. وهذا في الحقيقة ليسَ تكراراً وإنما فصول لقصة واحدة ونجد في كل فصل معان جديدة تختلف عن المعاني السابقة.

نذكر قصة أخرى لإبراهيم (ع) حيث قال تعالى: **(وَلَقد آتَينَا إبرَاهِيمَ رُشدَهُ مِن قبلُ وَكُنَّا به عَالِمِينَ* إذ قالَ لِأبيهِ وَقومِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أنتُم لَهَا عَاكِفُونَ* قالُوا وَجَدنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ* قالَ لَقد كُنتُم أنتُم وَآبَاؤُكُم فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ* قالُوا أجِئتَنَا بِالحَقِّ أم أنتَ مِنَ اللاعِبِينَ* قالَ بَل رَّبُّكُم رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ* وَتَاللهِ لأكِيدَنَّ أصنَامَكُم بَعدَ أن تُوَلُّوا مُدبِرِينَ* فَجَعَلَهُم جُذَاذاً إلا كَبِيراً لَّهُم لَعَلَّهُم إلَيهِ يَرجِعُونَ* قالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ* قالُوا سَمِعنَا فَتًى يَذكُرُهُم يُقَالُ لَهُ إبرَاهِيمُ* قالُوا فَأتُوا بِهِ عَلَى أعيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُم يَشهَدُونَ* قالُوا أأنتَ فَعَلتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبرَاهِيمُ* قالَ بَل فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هَذَا فَاسألُوهُم إن كَانُوا يَنطِقُونَ* فَرَجَعُوا إلَى أنفُسِهِم فَقالُوا إنَّكُم أنتُمُ الظَّالِمُونَ* ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِم لَقد عَلِمتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ* قالَ أفَتَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكُم شَيئاً وَلا يَضُرُّكُم* أُفٍّ لَّكُم وَلِمَا تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أفَلا تَعقِلُونَ* قالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُم إن كُنتُم فَاعِلِينَ* قُلنَا يَا نَارُ كُونِي بَرداً وَسَلاماً عَلَى إبرَاهِيمَ* وَأرَادُوا بِهِ كَيداً فَجَعَلنَاهُمُ الأخسَرِينَ)**[1]

في هذه الآيات تتضح لنا معانٍ جديدة من قصة إبراهيم (ع) وندخل في فصل جديد من هذه القصة وعند استعراض هذه المعاني في هذه الآيات المباركة نجد أنّه لا تكرار فيما ورد من السابق فلم يتكرر شيء من المعاني السابقة التي وردت في قصة إبراهيم (ع) في هذه الآيات الكريمة.

هنا في هذه الآيات تبيّن لنا كيف أن إبراهيم (ع) كان يخاطب قومه ويطلب منهم أن يكفّوا عن عبادة هذه الأصنام ويبيّن لهم الضلال الذي هم فيه ثم يبيّن لهم أن الرب الذي يجب أن يعبدوه والإله الواحد الأحد الذي لا إله غيره الذي عليهم أن يعبدوه هو رب السماوات والأرض والذي خلق السماوات والأرض وأنّه شاهد على هذه الحقيقة، ثم توعدهم وأقسم أنه سوف يكيد أصنامهم بعد أن يولوا مدبرين فكسّر تلك الأصنام وجعلها جذاذاً بمعنى قطعاً إلا كبيراً لهم فترك (ع) الصنم الكبير ولم يكسّره وعلّق الفأس على رقبته، وعندما رجع هؤلاء فوجدوا الأصنام مكسرة قطعاً قطعا إلا

---

(1) الأنبياء، 51 – 70.

كبير الأصنام، فقالوا: مَن فعل هذا بآلهتنا إنّه لمن الظالمين، فقال جماعة منهم: سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم.

فأخذوا إبراهيم وجاءوا به على مشهد من الناس حتى يشهد هؤلاء الناس بما جرى فسألوا وقالوا: ءأنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال (ع): بل فعله كبيرهم فاسألوهم إن كانوا ينطقون، وهنا نقطة مهمة حيث أن هناك شبهة تقول كيف قال إبراهيم (ع) أنّ كبير الأصنام هو الذي كسّر الأصنام ألا يُعد هذا كذباً حيث أن إبراهيم (ع) هو الذي كسّر الأصنام ؟

الجواب: إنّ إبراهيم (ع) لم يكذب وحاشاه من الكذب ومن كل معصية لأنّه معصوم ولكنه عندما قال **(بَل فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هَذَا فَاسأَلُوهُم إِن كَانُوا يَنطِقُونَ)** فعلق هذه الجملة «بل فعله كبيرهم هذا» على الشرط «ان كانوا ينطقون»، يعني إن كانت الأصنام تنطق فقد فعله كبيرهم وإن لم يكونوا ينطقون لم يفعله كبيرهم. إذن لا كذب في هذا الكلام، فمثلاً نقول «إن تدرس تنج» فإذا لم تدرس لا تنجح. **(فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِم فَقَالُوا إِنَّكُم أَنتُمُ الظَّالِمُونَ* ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِم لَقَد عَلِمتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ)**، فصدمهم بهذه الحقيقة الحسية هي أنكم كيف تعبدون أصناماً تنحتونها بأيديكم وهذه التماثيل وهذه الأصنام لا تضر ولا تنفع، بل ولا تدفع شيئاً عن نفسها فكيف تدفع شيئاً عن غيرها، كما أنها لا تنطق، إذاً كيف تعبدون هذه الأصنام، وبما أن العبادة في فطرتكم وتريدون أن تعبدوا فاعبدوا الذي خلقكم والذي خلق هذه الأصنام وخلق السماوات والأرض فهو تعالى فاطر السماوات والأرض.

إبراهيم (ع) يوجههم إلى هذه الحقائق، والحقيقة هي أن تعبدوا مَن فطر السماوات والأرض ومَن خلقكم. فكان ردّهم **(حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُم إِن كُنتُم فَاعِلِينَ)**، وهكذا شأن الطغاة لا يعرفون إلا القهر والقتل والسجن، فعندما تقام عليهم الحجة ليس لهم رد إلا القوة، فأمروا باحراقه (ع) ليُسكتوا هذا الصوت الذي يتكلم بلسان الحق. وهكذا جعلوا ناراً كبيراً لإبراهيم الخليل (ع) حتى كانوا لا يستطيعوا أن يصلوا إلى هذه النار حتى يضعوا فيها إبراهيم (ع) فاضطروا إلى أن يرموه بالمنجنيق عن بُعد لشدة حرارة هذه النار، ولكن النار هي مخلوق لله والخالق هو الذي جعل الاحراق في هذه النار وهو تعالى الذي يتحكم فيها وقادر على أن يجعلها برداً وسلاماً،

قال تعالى: **(قُلنَا يَا نَارُ كُونِي بَرداً وَسَلاماً عَلَى إبرَاهِيمَ* وَأَرَادُوا بِهِ كَيداً فَجَعَلنَاهُمُ الأَخسَرِينَ)**.

وعليه هم خسروا في المحاججة وأقيمت عليهم الحجة من قبل إبراهيم (ع) فأرادوا أن يثأروا لأنفسهم باحراق إبراهيم (ع) والله تعالى هنا نصر خليله وانتصر من هؤلاء فجعل النار برداً وسلاماً.

إنّ في هذه القصة لا نجد تكراراً مطلقاً، صحيح هي قصة إبراهيم (ع) وأنّ الآيات تتعلق بإبراهيم (ع) ولكن الآيات السابقة التي مرّت معنا وذكرناها فلا يوجد هنا شيء من المعاني التي مرّت في الآيات السابقة وتكررت هنا.

إذن القصة هنا فيها معاني جديدة وعبر جديدة ولا يوجد تكرار من ناحية ما مرّ من قصة إبراهيم (ع) في الفصول الماضية للقصة.

هناك وحدة موضوعية في القصة وهناك مشاهد وفصول تظهر في كل مرة بآيات جديدة ومعانٍ جديدة وبعِبَر جديدة ولا يوجد أي تكرار في القصة.

ننتقل إلى قصة أخرى لإبراهيم (ع) وفصل جديد من فصول قصة إبراهيم (ع) مع أبيه (عمه) «آزر» قال تعالى: **(وَاذكُر فِي الكِتَابِ إبرَاهِيمَ إنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً* إذ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعبُدُ مَا لا يَسمَعُ وَلا يُبصِرُ وَلا يُغنِي عَنكَ شَيئاً* يَا أَبَتِ إنِّي قد جَاءنِي مِنَ العِلمِ مَا لَم يَأتِكَ فَاتَّبِعنِي أَهدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً* يَا أَبَتِ لا تَعبُدِ الشَّيطَانَ إنَّ الشَّيطَانَ كَانَ لِلرَّحمَنِ عَصِيّاً* يَا أَبَتِ إنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحمَن فَتَكُونَ لِلشَّيطَانِ وَلِيّاً* قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَن آلِهَتِي يَا إبرَاهِيمُ لَئِن لَّم تَنتَهِ لأَرجُمَنَّكَ وَاهجُرنِي مَلِيّاً* قَالَ سَلامٌ عَلَيكَ سَأَستَغفِرُ لَكَ رَبِّي إنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً* وَأَعتَزِلُكُم وَمَا تَدعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً* فَلَمَّا اعتَزَلَهُم وَمَا يَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبنَا لَهُ إسحَقَ وَيَعقُوبَ وَكُلّاً جَعَلنَا نَبِيّاً* وَوَهَبنَا لَهُم مِّن رَّحمَتِنَا وَجَعَلنَا لَهُم لِسَانَ صِدقٍ عَلِيّاً)**[1].

---

(1) مريم، 41 – 50.

هنا في هذا الفصل من قصة إبراهيم (ع) محاورة بينه وبين أبيه (عمه) «آزر»، وقد نهى الله تعالى في أن يستغفر المؤمن للمشرك، فكيف يستغفر إبراهيم (ع) لأبيه ؟

إنّ هذا الاستغفار هو مستثنى لأنه وعده وإبراهيم (ع) صادق الوعد ومعصوم، فقال لأبيه (**سَأَستَغفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بي حَفِيّاً**) فصدقه في هذا الوعد ولم يكن لأحد غير إبراهيم (ع) هذا الأمر فهو (ع) وفى بوعده بأن استغفر لآزر وهو مشرك، فالمؤمن لا يستغفر للمشرك، فهذا الاستثناء تم واستغفر إبراهيم (ع) لأبيه.

السؤال المتبادر هنا أنّه بعد أن نهاه الله تعالى عن الاستغفار فكيف يأتي في آخر عمره وبعد أن وهب تعالى له إسماعيل، يقول إبراهيم (ع) (**الحَمدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسمَاعِيلَ وَإِسحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ* رَبِّ اجعَلنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّل دُعَاءِ* رَبَّنَا اغفِر لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلمُؤمِنِينَ يَومَ يَقُومُ الحِسَابُ**)[1].

ففي بداية دعوة إبراهيم (ع) لأبيه «آزر» وعده بالاستغفار وتم هذا الوعد بقوله (ع): (**وَاغفِر لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ**)[2]، فكيف يعود مرة أخرى في آخر عمره ويستغفر لأبيه – إن كان المقصود هو الأب – بينما قال في الآية السابقة (**رَبَّنَا اغفِر لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلمُؤمِنِينَ يَومَ يَقُومُ الحِسَابُ**) حيث أن الوالد يُقصد به الأب الصلبي، وأما كلمة «أب» فتطلق على الوالد وعلى العم وعلى الجد. فهنا «آزر» ليس هو والد لإبراهيم (ع) بل هو عمه.

وفي هذا الفصل من قصة إبراهيم (ع) أيضاً لا يوجد تكرار وإنما بيان كيفية دعوة إبراهيم (ع) لعمّه «آزر» برفق وحنان وفيها تلطف في الدعوة، قال تعالى: (**إِذ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعبُدُ مَا لا يَسمَعُ وَلا يُبصِرُ وَلا يُغنِي عَنكَ شَيئاً**) فيبيّن (ع) صفات هذه الأصنام فهي لا تسمع ولا تُبصر ولا تُغني عن مَن يعبدها شيئاً، بل هي لا تدفع عن نفسها. ثم يقول له (**إِنِّي قَد جَاءَنِي مِنَ العِلمِ مَا لَم يَأتِكَ فَاتَّبِعنِي أَهدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً**) باعتبار أنّ إبراهيم (ع) قد اختصه الله تبارك وتعالى بعلم لم يكن ذلك العلم لغيره ممّن عاصره.

---

(1) إبراهيم، 39 – 41.
(2) الشعراء، 86.

ثم يقول (ع) له **(يَا أَبَتِ لا تَعبُدِ الشَّيطَانَ إِنَّ الشَّيطَانَ كَانَ لِلرَّحمَنِ عَصِيّاً)** فهذه العبادة هي عبادة الشيطان والشيطان هو عاص لله تبارك وتعالى، فإذا عبدت هذا الصنم تكون قد اتبعت الشيطان وسوف تكون بعيداً عن الله وتدخل النار، **(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيطَانِ وَلِيّاً)**حيث أن أولياء الشيطان يمسهم العذاب.

فكان جواب عمّه **(قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَن آلِهَتِي يَا إِبراهِيمُ لَئِن لَّم تَنتَهِ لأَرجُمَنَّكَ وَاهجُرنِي مَلِيّاً)**، مرة تقول «راغب به» بمعنى مائل إليها ويريد أن يعبدها، ومرة «راغب عن» بمعنى تارك للعبادة ولهذه الأصنام، فتوعد «آزر» بالرجم والابعاد. وكان جواب إبراهيم (ع): **(سَلامٌ عَلَيكَ سَأَستَغفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً)** وقال الله تعالى في خطاب الجاهلين: **(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً)**[1].

هنا البلاغة القرآنية تبيّن كيف مخاطبة هذا الشاب المهذب الفتي لإنسان أكبر منه سناً بكلام مهذب لطيف ليّن وكيف يجيبه هذا الإنسان المشرك الخشن بقوله **(لأرجُمَنَّك)**، فنلاحظ حلاوة الكلمات في لفظ إبراهيم (ع) وشدة الكلمات في لفظ «آزر».

«هنا نجد رفق الدعوة التي تفيض بحنان البنوة في عباراتها، وفي نغماتها الهادئة، وفي معانيها العاطفة، ولا يمكن أن يوجد في أيِّ لغة في أيِّ كلام عبارات برفق الدعوة والعطف والرعاية بمثل هذه العبارات؛ لأنها كلام العليم الحكيم العزيز الكريم.

بمقدار ما في عبارات الابن من رفقٍ واسترضاءٍ واستعطاف كانت عبارات الأب كما صوَّرها القرآن جفوة، وكأنَّها الجنادل تصك الآذان، ولم يمنع ذلك الابن العطوف من أن يعد أباه بأن يستغفر له ربه؛ لأنه له مكانة عند الله تعالى: **(إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً)**.

ولكن الله تعالى يخبره بأنه ليس له أن يستغفر لأبيه؛ لأن كل امرئ بما كسب رهين، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وكل إنسان وما قدَّمت يداه، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر، وقد نهى الله تعالى عن الاستغفار للمشركين، وعفا عن إبراهيم إذ استغفر لأبيه، ولكنه أمره بالبراءة منه

---

(1) الفرقان، 63.

فتبرأ، وقال تعالى في ذلك:(**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أن يَستَغفِرُوا لِلمُشرِكِينَ وَلَو كَانُوا أُولِي قُربَى مِن بَعدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُم أصحَابُ الجَحِيمِ* وَمَا كَانَ استِغفَارُ إبراهِيمَ لِأبيهِ إلاَّ عَن مَّوعِدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنهُ إنَّ إبراهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ**)[1]»[2].

في هذه القصة نكتفي بهذه الفصول، وعند استقرائنا لكل هذه المواقف ولهذه الآيات الكريمة لا نجد تكراراً في المعاني، لا في القصة الأولى التي بيّناها ولا في القصص التي تلتها بل في كل مجموعة من الآيات تورد قصة إبراهيم (ع) ولكنها تبيّن معانٍ جديدة ومواقف جديدة ويستفيد منها السامع والقارئ عبراً والتي هي الهدف من القصص القرآني.

ثانياً – قصة موسى الكليم (ع)

هي أيضاً من القصص التي تكرر ورودها في القرآن الكريم، وقصة موسى (ع) مع فرعون ومع بني إسرائيل وقصته (ع) مع شعيب (ع)، فهناك اختلاف بالزمان والمكان والأحداث والشخوص والموضوعات، وهناك عِبَر كثيرة في قصة موسى (ع) يذكرها القرآن الكريم وكيف أن موسى (ع) تلقى الشرائع السماوية وكيف أنزلت عليه التوراة وفيها المعاملات والأحكام، وأنّ القرآن الكريم قد صدّق ما بين يديه كما وصفه الله تعالى: (**وَمُصَدِّقَاً لِّمَا بَينَ يَدَيَّ مِنَ التَّورَاةِ**)[3].

أنّ هذه القصص تبيّن أحوال اليهود، وفيها أوصافهم الحقيقية من الشك والتردد وخذلان الحق وما وُسموا به من خنوع وخضوع، وكيف أنّهم أصحاب لجاجة وعناد والحاح وكثرة في التساؤل، وكيف أنهم لا ينقادون إلى الحق بيسر، وكيف أنّه مع انقيادهم للحق فإنّهم يتمردون على نبيّهم.

عندما نتتبع الفصول التي وردت في قصة موسى (ع) في كل القرآن الكريم نجد أنها متعددة العبر سواءً في جهاده مع قومه وفيما لقيه منهم من المتاعب والأذى والابتلاء وهو نبي ورسول من أولي العزم، ففي كل واقعة من وقائع حياته عبرة ولا تكرار بالقدر الذي يتوهمه التالي للقرآن

---

(1) التوبة (براءة)، 113 و114.
(2) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 181 – 182.
(3) آل عمران، 50.

أو المستمع لتلاوة القرآن الكريم. وقد يتوهم التالي أو المستمع أنّ في تكرار قصة موسى (ع) تكراراً للمعاني، والحقيقة – كما تبيّن معنا في قصة إبراهيم (ع) أنّه لا تكرار وإنما هناك معانٍ جديدة وعِبَر جديدة في كل مرة تتكرر فيها القصة.

ولنقتبس قبسات من حياة موسى (ع) في بدء نشوئه واعجاز ولادته وفي اعجاز مجيئه إلى بيت فرعون وإلقائه في اليم، وما لقيه من فرعون طاغية زمانه وكيف أنّه سلك مع فرعون وكيف أن الله تبارك وتعالى أرجع موسى إلى أمه كي ترضعه وكيف أنّه (ع) تربى في بيت الطاغية والذي كان يُذبّح الأبناء بينما موسى (ع) حُفظ في بيت الطاغية وفي قصره.

أول ما تبدأ القصة في القرآن الكريم بقصة موسى (ع) تبيّن كيفية هذه المعجزة في ولادته وكيفية إلقائه في اليم وكيف أن أمّه كانت خائفة عليه فأوحى الله تعالى إليها أن تقذفه في البحر، قال تعالى: **(وَأَوحَينَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَن أَرضِعِيهِ فَإِذَا خِفتِ عَلَيهِ فَأَلقِيهِ فِي اليَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرسَلِينَ)**[1].

إنّ الله تعالى أوحى لها وجعلها مطمئنة، وكيف نتصوّر أنّ الأم ترمي بفلذة كبدها في الماء ؟ هنا يأتي دور الوحي الإلهي والربط على قلب أم موسى. ثم أنّ الله تبارك وتعالى بشّرها بأنّه سوف يعود إليها ولم تكتف الآية بذلك بل بيّنت أنّه سوف يكون رسولاً، وتبدأ القصة. فبعد أن بيّنت الآية الأوامر الإلهية لم تذكر القصة ما حصل بعدها وهو ذهاب أم موسى ووضعته في مهد ووضعته في صندوق لأن البلاغة قد أوصلت المعنى، فاختزل الكلام واختصر حيث أن ما طلبه الله تبارك وتعالى من أم موسى قد نفذته فلم يُعاد الكلام ولم يُكرر.

قال تعالى: **(فَالتَقَطَهُ آلُ فِرعَونَ لِيَكُونَ لَهُم عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرعَونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)**[2]، واللام في «ليكون» هي لام العاقبة أي أن عاقبة هذا الذي التقطه سوف يكون لهم عدواً ويسبب لهم الحزن، وبعد أن التقطوا هذا الوليد المبارك، و«آسية بنت مزاحم» زوجة فرعون رأت معجزة وكرامة لهذا الوليد، حيث يروى أنه كان على جلد يدها برص

---

(1) القصص، 7.
(2) القصص، 8.

أو ما شاكل ذلك – وكانت تخفيه عن فرعون بالذهب والمصوغات – فأزيل ببركة هذا الوليد.

(وَقَالَتِ امرَأَتُ فِرعَونَ قُرَّتُ عَينٍ لِّي وَلَكَ لا تَقتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَو نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُم لا يَشعُرُونَ)[1]، فطلبت زوجة فرعون عدم قتله حيث أنهم كانوا يقتلون كل وليد، وطلبت أن تتخذه ولداً وهم لا يشعرون أنّهم يربون مَن سوف تكون نهايتهم على يده.

(وَأَصبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَت لَتُبدِي بِهِ لَولا أَن رَّبَطنَا عَلَى قَلبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ)[2] وهنا تعبير بلاغي عظيم ومعجز حيث يصف حال فؤاد أم موسى، أم تُلقي بوليدها في الماء وتكاد أن تُبيح بسرّها ولا تصبر، لكن يأتي النصر الإلهي **(لَولا أَن رَّبَطنَا عَلَى قَلبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ)**.

(وَقَالَت لأُختِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَت بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُم لا يَشعُرُونَ)[3]، فأخذت أخته تقتصّ أثره – أي تتبعه – وبعد أن حرّم الله تعالى المراضع على موسى وهذه معجزة أيضاً، فأشارت أخته عليهم بأنّها تدلهم على أهل بيت يكفلونه لهم.

قال تعالى: **(وَحَرَّمنَا عَلَيهِ المَرَاضِعَ مِن قَبلُ فَقَالَت هَل أَدُلُّكُم عَلَى أَهلِ بَيتٍ يَكفُلُونَهُ لَكُم وَهُم لَهُ نَاصِحُونَ* فَرَدَدنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَي تَقَرَّ عَينُهَا وَلا تَحزَنَ وَلِتَعلَمَ أَنَّ وَعدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكثَرَهُم لا يَعلَمُونَ)**[4]، إنّ الله تعالى وعد أم موسى بأن يرد لها ابنها وقد عاد إليها، فهذا وعد حق.

في هذه القصة تبيّن الخوارق والمعجزات في الولادة ووضعه في اليم والتقاط موسى (ع) من قبل آل فرعون وكيف أن المراضع كلها حُرّمت عليه وهكذا رجع موسى إلى أمه بمعجزة إلهية.

ننتقل إلى قصة أخرى من قصص موسى (ع) ونقارن بين هذه القصة والقصة السابقة فنلاحظ أنه فصل آخر من القصة وليس تكراراً،

---

(1) القصص، 9.
(2) القصص، 10.
(3) القصص، 11.
(4) القصص، 12 و 13.

وإنما معانٍ جديدة وأحداث جديدة ومشاهد ومواقف جديدة وعِبَر للقارئ والسامع جديدة من خلال هذه القصص، حيث لا يوجد تكرار بل هناك فوائد ومعانٍ جديدة في القصة.

قال تبارك وتعالى: **(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاستَوَى آتَينَاهُ حُكماً وَعِلماً وَكَذَلِكَ نَجزِي المُحسِنِينَ)**[1]، تربى موسى (ع) في بيت فرعون، وإنّ الله تبارك وتعالى اصطفى موسى (ع) وبعد أن بلغ أشده آتاه من لدنه علماً، وأن الله تعالى يجزي المحسنين إذا أحسنوا بهذا العلم، يعني أن هذا العلم يؤتيه الله تعالى لكل محسن فإذا أحسن العبد وقُبل ذلك الإحسان فإنّ الله تعالى يؤتيه حُكماً وعلماً.

قال تعالى: **(وَدَخَلَ المَدِينَة عَلَى حِينِ غَفلَةٍ مِّن أَهلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَينِ يَقتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِن عَدُوِّهِ فَاستَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِن عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيهِ قَالَ هَذَا مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ* قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمتُ نَفسِي فَاغفِر لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ* قَالَ رَبِّ بِمَا أَنعَمتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِّلمُجرِمِينَ)**[2]. في هذه الآيات الكريمة أيضاً مشهد جديد من مشاهد قصة موسى (ع) في القرآن، وتصريف في القصص القرآني وتصريف في البيان القرآني ولا تكرار في هذه الآيات.

تُبيّن القصة دخول موسى (ع) إلى مدينة فرعون ووجد رجلين يقتتلان، فهذه القصة هنا معانيها وأحداثها لم ترد في الآيات السابقة حيث نلاحظ مواقف وأحداث جديدة ومشاهد جديدة، وهذان الرجلان اللذان يقتتلان أحدهما من أتباع موسى (ع) والآخر من عدوه وهو القبطي، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فضرب موسى (ع) القبطي فقتله، فقال (ع): **(هَذَا مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ* قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمتُ نَفسِي فَاغفِر لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ* قَالَ رَبِّ بِمَا أَنعَمتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِّلمُجرِمِينَ)**، ونلاحظ عدم وجود أي تكرار في المعنى في هذه الآيات ولا في الآيات السابقة. ولابد أن نشير هنا إلى أن قول موسى (ع) **(رَبِّ إِنِّي ظَلَمتُ نَفسِي فَاغفِر لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ**

---

(1) القصص، 14.
(2) القصص، 15 – 17.

الرَّحِيمُ) ليس المقصود بالغفران هنا أن موسى (ع) قد ارتكب معصية، حيث أن معنى كلمة «غفر» هي ستر وكفّر وخَمَر كلها بمعنى واحد، فمثلاً نقول كفّارة لأنها تستر الخطأ، وكذلك عندما نقول «السترة» سواء سترة الحرب أو سترة الملابس لأنها تستر الملابس وكذلك الخمار وأصلها خمر هي التي تستر الوجه، وكذلك سُمّي المسكر بالخمرة لأنها تستر العقل. وغفر معناه ستر ونقول «المِغْفَر» لأنه يستر البدن.

فمعنى الآية موضع الشبهة أن الله تعالى يستر موسى (ع) بما فعله من هذا القتل من قوم فرعون ومن بطش فرعون، وأن الله تعالى يحفظ موسى (ع) من فرعون لأنه قتل رجلاً منهم، وليس المقصود بأن موسى (ع) عليه ذنب لله أو ارتكب معصية – والعياذ بالله – بدليل قوله تعالى: **(وَلَهُم عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقتُلُونِ)**[1]، يعني أن لآل فرعون ذنب على موسى حيث أن قتل موسى لهذا الرجل (القبطي) كان مستحقاً للقتل وأن موسى (ع) قام بتكليفه ولم يكن مذنباً في قتله الرجل، ولكن بقتله للرجل أصبح آل فرعون يطلبون موسى لأنّه قتل منهم رجلاً فلهم (لآل فرعون) ذنب على موسى.

هذه تكشف لنا سراً في قضية عصمة الأنبياء وفي قضية عصمة نبيّنا محمد (ص) حيث قال تعالى: **(إِنَّا فَتَحنَا لَكَ فَتحاً مُّبِيناً* لِيَغفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعمَتَهُ عَلَيكَ وَيَهدِيَكَ صِرَاطاً مُّستَقِيماً)**[2] فهنا **(مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)** فليس المقصود أنّ للنبي (ص) ذنب أمام الله تعالى وإنما له ذنب أمام مشركي مكة وأمام مشركي قريش، فالله تعالى يغفر له ذلك الذنب بمعنى أنّه يستر عليه ذلك الذنب بأن يكف مشركي مكة عن رسول الله (ص) سواء الذنوب المتقدمة في نظر أهل مكة أم الذنوب المتأخرة في نظر أهل مكة، والدليل على ذلك هو هذا الرابط **(إِنَّا فَتَحنَا لَكَ فَتحاً مُّبِيناً)** أي بالفتح الله يستر على النبي (ص) من ذنبه أمام المشركين وليس أمام الله.

---

(1) الشعراء، 14.
(2) الفتح، 1 و2.

فقول موسى (ع) **(رَبِّ إِنِّي ظَلَمتُ نَفسِي)**، أي أنّ موسى (ع) بهذا الفعل يكون قد ظلم نفسه بأن عرّض نفسه لأن آل فرعون يلاحقونه، وقوله **(فَاغفِر لِي)** أي استرني من آل فرعون وطلب الستر لهذا العمل الذي قام به، والله تعالى غفر له.

وهذا الغفران هو نعمة من الله تعالى ولهذا قال موسى (ع): **(قَالَ رَبِّ بِمَا أَنعَمتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِّلمُجرِمِينَ)**، وخرج موسى (ع) من هذه المدائن خائفاً يترقب، وقد ذكرنا سابقاً أن الخائف غير الولي من أولياء الله يضطرب ولا يستطيع أن يترقب، بينما هنا موسى (ع) لأنه من أولياء الله فالخوف هو لله وليس خوفاً على ذاته فلذلك نفسه وعقله وقلبه مطمئن غير مضطرب والدليل على ذلك هو يترقب، فالمضطرب لا يستطيع أن يراقب الوضع ويترقب، بينما هنا موسى (ع) لاطمئنانه يترقب فخوفه للرسالة ولأجل الرسالة وليس هو خائفاً على نفسه.

وبعد ذلك **(وَجَاء رَجُلٌ مِّن أَقصَى المَدِينَةِ يَسعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأتَمِرُونَ بِكَ لِيَقتُلُوكَ فَاخرُج إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ* فَخَرَجَ مِنهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَومِ الظَّالِمِينَ)**[1]، وهكذا خرج موسى (ع) من المدائن يبحث عن الأمن والاستقرار فخرج إلى الصحراء حيث السماء الصافية والنور المشرق فتوجه تلقاء مَدْيَن وهناك يرتبط ويلتقي بنبي الله شعيب (ع).

موسى (ع) طلب من الله تعالى أن يغفر له – أي يستر عليه هذا الفعل الذي قام به بقتل القبطي – وأن ينجيّه من القوم الظالمين. واستقبله شعيب (ع) بقوله **(لا تَخَف نَجَوتَ مِنَ القَومِ الظَّالِمِينَ)**[2]، وارتبط حاله بشعيب كبير مدين وخاطبه الله تعالى بعد ذلك، أي بعد عودته من شعيب وذلك من وراء الشجرة.

أيضاً هناك قصة زواج موسى (ع) من ابنة شعيب (ع) وكيف جاءت بعد أن سقى لهما **(فَجَاءَتْهُ إِحدَاهُمَا تَمشِي عَلَى استِحيَاء قَالَت إِنَّ أَبِي يَدعُوكَ لِيَجزِيَكَ أَجرَ مَا سَقَيتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيهِ القَصَصَ قَالَ لا تَخَف نَجَوتَ مِنَ القَومِ الظَّالِمِينَ* قَالَت إِحدَاهُمَا يَا أَبَتِ استَأجِرهُ إِنَّ خَيرَ**

---

(1) القصص، 20 و21.
(2) القصص، 25.

مَن استَأجَرتَ القَوِيُّ الأمِينُ* قالَ إنِّي أُرِيدُ أن أُنكِحَكَ إحدَى ابنَتَيَّ هَاتَينِ عَلَى أن تَأجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فإن أتمَمتَ عَشراً فَمِن عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أن أشُقَّ عَلَيكَ سَتَجِدُنِي إن شَاء اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ* قالَ ذَلِكَ بَينِي وَبَينَكَ أيَّمَا الأجَلَينِ قضَيتُ فَلا عُدوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)[1].

فبعد أن خرج موسى (ع) من قصر فرعون حيث الترف والثراء وإذا به يصبح فقيراً بحيث يُستأجر لرعي الغنم وذلك من أجل الدعوة ومن أجل الحق ومن أجل الله تبارك وتعالى ترك (ع) كل ما في قصر فرعون من الخدم والحشم والثراء والترف، كل ذلك تركه لله. والله تبارك وتعالى عوّضه خير تعويض.

وبعد ذلك تبيّن لنا الآيات الكريمة كيف أن الله تعالى اصطفاه وأيّده بالمعجزات، بعد أن مكث عند شعيب (ع) سنين وتزوج من ابنته وعند رجوعه وفي الطريق يذهب ويبحث عن النار، وإذا به يُبعث والله تبارك وتعالى يكلمه من وراء تلك الشجرة **(فَلَمَّا قضَى مُوسَى الأجَلَ وَسَارَ بِأهلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قالَ لأهلِهِ امكُثُوا إنِّي آنَستُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنهَا بِخَبَرٍ أو جَذوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُم تَصطَلُونَ)**[2].

والله تعالى يسرد هنا هذه القصة، وفي هذا السرد أيضاً لا يوجد تكرار بل هو معاني جديدة لم ترد من قبل، قال تعالى: **(فَلَمَّا أتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الوَادِي الأيمَنِ فِي البُقعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أن يَا مُوسَى إنِّي أنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ* وَأن ألقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهتَزُّ كَأنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدبِراً وَلَم يُعَقِّب يَا مُوسَى أقبِل وَلا تَخَف إنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ* اسلُك يَدَكَ فِي جَيبِكَ تَخرُج بَيضَاء مِن غَيرِ سُوءٍ وَاضمُم إلَيكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهبِ فَذَانِكَ بُرهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إلَى فِرعَونَ وَمَلَئِهِ إنَّهُم كَانُوا قوماً فَاسِقِينَ* قالَ رَبِّ إنِّي قتَلتُ مِنهُم نَفساً فَأخَافُ أن يَقتُلُونِ* وَأخِي هَارُونُ هُوَ أفصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأرسِلهُ مَعِيَ ردءاً يُصَدِّقُنِي إنِّي أخَافُ أن يُكَذِّبُونِ* قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأخِيكَ وَنَجعَلُ لَكُمَا سُلطَاناً فَلا يَصِلُونَ إلَيكُمَا بِآيَاتِنَا أنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ* فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إلا سِحرٌ مُّفتَرًى وَمَا سَمِعنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأوَّلِينَ* وَقالَ مُوسَى رَبِّي أعلَمُ بِمَن جَاء بِالهُدَى مِن عِندِهِ**

---

(1) القصص، 25 – 28.
(2) القصص، 29.

وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفلِحُ الظَّالِمُونَ* وَقَالَ فِرعَونُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمتُ لَكُم مِّن إِلَهٍ غَيرِي فَأَوقِد لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجعَل لِّي صَرحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ* وَاستَكبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرضِ بِغَيرِ الحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَينَا لا يُرجَعُونَ* فَأَخَذنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذنَاهُم فِي اليَمِّ فَانظُر كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)[1].

تبيّن لنا هذه الآيات المباركة في هذا المشهد من قصة موسى (ع) كيف أن الله تبارك وتعالى ابتعثه وكلّمه ولذلك فهو (ع) كليم الله حيث كلّمه الله تعالى من الشجرة فأحدث الصوت وخلق الصوت في الشجرة فسمعه موسى (ع) وبعثه الله تعالى نبياً ورسولاً إلى بني إسرائيل وأيّده بالمعجزات وهي العصا وأيّده بأن يده يُدخلها في جيبه فتخرج بيضاء تنير كي يذهب بهاتين المعجزتين إلى فرعون، فطلب موسى (ع) من الله تعالى أن يؤيده أكثر فأيّده بهارون، وذلك لأن على موسى (ع) لآل فرعون ذنب، حيث أنهم ربّوه وليداً ومع ذلك قتل منهم رجلاً فلابد أن يكون الذنب كبيراً في نظر فرعون.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلتُ مِنهُم نَفساً فَأَخَافُ أَن يَقتُلُونِ* وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرسِلهُ مَعِيَ ردءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ) فهو (ع) يحتاج إلى مَن يدعمه ويؤده، والله تعالى أيّده بهارون (ع)، فانطلقا إلى فرعون مؤيدين بالعصا وإدخال اليد في الجيب فتخرج بيضاء وتنير، والله تعالى شدّ عضد موسى (ع) بأخيه هارون (ع) كما أيّد عليٌّ (ع) محمداً (ص) وكما ورد في الحديث النبوي الشريف: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[2]، لأن هارون (ع) نبي ولا نبوة بعد رسول الله محمد (ص).

قال تعالى: **(سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجعَلُ لَكُمَا سُلطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ)**، فبهذه الآيات (المعجزات) سوف تحفظون من كيد فرعون ومكره وغضبه وسخطه وأنتما ومَن اتبعكما من الغالبين، وهذا الانباء من الله تعالى بأنّ هؤلاء المشردين المستضعفين – قوم موسى – سوف يغلبون فرعون ويغلبون قوة وجبروت وطاغوت

---

(1) القصص، 30 – 40.
(2) الكافي، مصدر سابق،ج8/ ص 107.

فرعون بهذه الآيات التي يؤيد بها الله تعالى موسى (ع)، وفعلاً هذا ما حصل. ونلاحظ بأنّه كلما تتكرر القصة لا يوجد هناك تكرار للمعاني وإنما هي مشاهد جديدة ومواقف جديدة سنبيّنها كيف أن قوم موسى هم الغالبون عندما دخلوا إلى البحر وخرجوا حيث أن البحر كان جافاً لهم ثم انطبق على فرعون وجنوده وأغرقوا في البحر.

(فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا سِحرٌ مُّفتَرًى وَمَا سَمِعنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ)، وهنا تبدأ القصة بعد أن تجاوزت باختصار شديد كل هذه المرحلة، يعني من استلام موسى (ع) الرسالة وتأييده بالعصا واليد البيضاء، فبدأت القصة تبيّن كيف أن موسى (ع) دخل على فرعون، فقالوا له أنت ساحر وهذا سحر، فأجابهم موسى (ع):**(رَبِّي أَعلَمُ بِمَن جَاء بِالهُدَى مِن عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفلِحُ الظَّالِمُونَ)**، حينئذ أجابه فرعون: **(وَقَالَ فِرعَونُ يَا أَيُّهَا المَلَأُ مَا عَلِمتُ لَكُم مِّن إِلَهٍ غَيرِي)**، فادعى فرعون الربوبية، هذا المخلوق الضعيف ومآله كما ستبين القصص إلى الغرق، وكيف أنّه يبتلى بالثعبان عندما يلقي موسى (ع) بعصاه فينقلب إلى ثعبان ويأتي الثعبان فارغاً فاه على فرعون، حتى يُقال أن فرعون أحدث على نفسه خوفاً من الثعبان، فكيف يدعي الربوبية وقد أحدث على نفسه من الخوف.

(وَقَالَ فِرعَونُ يَا أَيُّهَا المَلَأُ مَا عَلِمتُ لَكُم مِّن إِلَهٍ غَيرِي فَأَوقِد لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجعَل لِّي صَرحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ)، وطلب من هامان أن يبني له برجاً عالياً حتى يصعد عليه ويخاطب إله موسى فينهار عليهم ذلك البرج.

(وَاستَكبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرضِ بِغَيرِ الحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَينَا لا يُرجَعُونَ* فَأَخَذنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذنَاهُم فِي اليَمِّ فَانظُر كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)، فهنا يشير تعالى إشارة اجمالية إلى انتصار موسى وهارون (ع) وأتباعهم على فرعون وقومه وكيف أن النتيجة النهائية والعاقبة تكون الغلبة لموسى وأتباعه، وكيف أن الخذلان والخسارة لفرعون مع كل هذه القوة والهيمنة نجد أن ذلك الرضيع الذي ألقي في اليم والذي كان فرعون وقومه يأخذون كل طفل يذبحونه ويستحيون نساءهم أي يبقون النساء أحياء.

إنّ هذا الطفل الرضيع تربى في بيت فرعون تحت ظل وكنف آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون، وكيف أن هذا الوليد الذي ألقي في اليم ينتصر بعد ذلك في البحر أيضاً على فرعون فيطبق البحر على فرعون. فإنّ هذا الذي ادعى الربوبية ينتقم الله منه بذلك الوليد الذي التقطه من اليم.

ثم تبدأ الآيات الكريمة من قصة موسى (ع) في آيات أخر تبيّن تفاصيل لقاء موسى بفرعون، فهنا أجملت الآيات قصة حياة موسى (ع) ومرّت مروراً سريعاً على هذه المواقف التي شهدها موسى (ع)، وهنا يبيّن القرآن الكريم حياة الكليم من وقت أن نشأ رضيعاً وكيف ملأته عناية الله تعالى ويتدرج حتى صار شاباً سوياً قادراً ورأى الظلم عياناً وساقته الحاجة الشديدة حتى صاح ضارعاً إلى ربه: **(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)**[1].

فبعد أن تربى في ذلك القصر بين الخدم والحشم وكان السيد المطاع ويُلقب بالأمير الملكي، وإذا به يصبح خائفاً يترقب وفقيراً لا يملك شيئاً من حطام هذه الدنيا فينادي ضارعاً إلى الله تعالى: **(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)** إلى أن يصبح في كنف نبي الله شعيب (ع) أجيراً يرعى الغنم، فترك ذلك كله لله ولأجل الرسالة.

وتستمر القصة وتستمر الآيات الكريمة في بيان إحساس موسى (ع) بالظلم من قبل هؤلاء الفراعنة لقومه وكيف أن قومه كانوا مستضعفين ولكنه ترك هذا النعيم في قصر فرعون كي ينتصر لقومه وللحق وكي ينقذ قومه من براثن ظلم وجور فرعون. وهنا بدأت ارهاصات النبوة وبدأت المعجزات والكرامات تجري على يد موسى (ع) وانتقاماً من فرعون، وشعر موسى (ع) بثقل تكليف الرسالة لأن الرسالة تكليف إلهي، لأنه يريد أن يخاطب إنساناً يدعي الربوبية ويريد من الناس أن يعبدوه، فيأتي إنسان آخر ويقول له تعالى واعبد الله لأنك لست برب، فهذا تكليف عظيم وثقل شديد، قال تعالى: **(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)**[2].

يأتي موسى (ع) ويلتقي بفرعون بطغيانه وجهله، «فحسب أن الله في السماء الدنيا، وأراد ان يتخذ الأسباب للارتفاع إليه، ومع جهله بالحقائق

(1) القصص، 24.
(2) المزمل، 5.

الإلهية استكبر هو وجنده، فكأن الجند في جانبه، والشعب ليس في جانبه، أو هو مغلوب على أمره لا يحرك ساكنا حيث يجب أن يتحرك، ولا يدفع ظلما يجب أن يدفع، ثم نزل العقاب بفرعون وجنده، فألقوا في البحر. هذه قصة موسى رضيعاً فشاباً قوياً، فأجيراً فتياً، فمبعوثاً نبياً، فمجاهداً مجالداً، حتى أدال الله تعالى من الطاغي المتغطرس»[1].

تنتقل إلى قصة أخرى لآيات أخر من مشاهد أخر لقصة موسى (ع)، ومع كل هذا وذاك لابد أن نتدبر أنّه لا تكرار في المعاني ولا تكرار في الأسلوب بل وحتى الألفاظ، فالقصة واحدة هي ذكر موسى (ع) وما جرى عليه وعلى قومه ولكنه في كل مرة نلاحظ مشهداً جديداً ومعاني جديدة وفوائد جديدة وعبر حيث أن الهدف من القصص هو العبر.

قال تعالى على لسان موسى (ع): **(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي* يَفْقَهُوا قَوْلِي* وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي* كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً* وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً* إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً* قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)**[2]، فهنا موسى (ع) يدعو الله تعالى أن يشرح له صدره وييسّر له أمره ويعطيه الطلاقة في اللسان، وكذلك دعى أن يشد أزره وعضده من أهله هارون أخاه وزيراً له كي يؤازره ويشاركه في هذا الأمر، والله تعالى يستجيب لدعوة موسى (ع): **(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)**، هنا في هذه الاستجابة لدعوة موسى (ع) لا نجد تكراراً لكل الآيات التي مرت معنا سابقاً، بل هنا معاني جديدة حيث أنّ هنا دعاء موسى (ع).

هذا الدعاء على غراره قد تكرّر بقرب هذه المعاني على لسان نبيّنا محمد (ص) عندما نزل قوله تعالى: **(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ)**[3]، والقصة كما يرويها الإمام الباقر (ع) فقد ورد عنه: «إنّ رهطاً من اليهود أسلموا، منهم: عبد الله بن سلام، وأسد، وثعلبة، وابن يامين، وابن صوريا، فأتوا النبي (ص)

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 188.

(2) طـه، 25 – 36.

(3) المائدة، 55 و56.

فقالوا: يا نبيَّ الله، إنّ موسى أوصى إلى يوشع بن نون، فمَن وصيُّك يا رسول الله ؟ ومن وليّنا بعدك ؟ فنزلت هذه الآية: (**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم رَاكِعُونَ)**

ثم قال رسول الله (ص): قوموا، فقاموا فأتوا المسجد فإذا سَائلٌ خارج، فقال (ص): يا سائل، أما أعطاكَ أحد شيئاً ؟ قال: نعم، هذا الخاتم. قال (ص): مَنْ أعطاك ؟ قال: أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلّي، قال (ص): عَلى أيِّ حَالٍ أعطاك ؟ قال: كان راكعاً، فكبَّر النبيُّ (ص) وكبَّر أهل المسجد. فقال (ص): عليٌّ وليُّكم بعدي، قالوا: رضينا بالله ربَّاً، وبمحمَّدٍ نبياً، وبعليٍّ بن أبي طالب ولياً، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: **(وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ)**»[1].

وقد ورد عن الإمام الصادق (ع): «وقف النبي بمعرج ثم قال: اللهم إن عبدك موسى دعاك فاستجبت له وألقيت عليه محبة منك ، وطلب منك أن تشرح له صدره وتيسر له أمره وتجعل له وزيرا من أهله وتحل العقدة من لسانه، وأنا أسألك بما سألك عبدك موسى أن تشرح لي صدري وتيسرلي أمري وتجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي»[2].

وهذا مصداق للحديث الشريف الذي ورد متواتراً عن طريق العترة الطاهرة (ع) وكذلك ورد في كتب أبناء العامة كالبخاري وغيره قول النبي (ص) لعلي (ع): «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي»[3].

---

(1) الصدوق، الشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي: الامالي، مؤسسة الاعلمي، ط1، بيروت، 1400هـ. ص 185.

(**2**) بحار الأنوار، مصدر سابق،ج38/ ص 110.

(3) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري،دار ابن كثير، بيروت، ط3، 1987م. ج6/ ص 3.

النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم: صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت. ج15/ ص 175.

النسائي، أحمد بن شعيب: تهذيب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، تهذيب وترتيب: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، 1983. ص 20.

وكانت منزلة هارون من موسى (ع) خليفته في قوله تعالى: **(اخلُفنِي فِي قومِي وَأصلِح وَلاَ تَتَّبِع سَبِيلَ المُفسِدِينَ)**[1]، ووزيره وهو من أهله وكذلك هو أخوه، فكل هذه المنازل وكل هذه الرتب والدرجات لهارون من موسى هي لعلي (ع) من محمد (ص) إلا النبوة لأنّ النبي (ص) هو خاتم النبيين.

فهنا أيّد الله تعالى موسى بهارون (ع) كي يذهبا إلى فرعون **(اذهَب أنتَ وَأخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكرِي* اذهَبَا إِلَى فِرعَونَ إِنَّهُ طَغَى* فقُولا لَهُ قولاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أو يَخشَى* قالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أن يَفرُطَ عَلَينَا أو أن يَطغَى* قالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أسمَعُ وَأرَى* فَأتِيَاهُ فقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأرسِل مَعَنَا بَنِي إِسرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبهُم قد جِئنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى)**[2].

«وفي هذا النص دعاهم إلى التقدم برقيق القول إرشاداً لسبيل الدعوة؛ إذ هي تكون بالتي هي أحسن ليلين الطاغي وليسكن الناقر، وقد أبديا لله سبحانه الخوف من أن يطغى، فوعدهما سبحانه بأنه سيكون معهما، وقد سبق القول بسابغ نعمه وصادق وعده، وكان لابد من ذكر ذلك عند دعوتهما إلى ذلك الإقدام الخطير»[3].

إنّهما دعا شخصاً يدعي الربوبية وهما في نظره فقيران وقد كانت إجابة فرعون أن سألهما عن ربّهما: **(قالَ فمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى* قالَ رَبُّنَا الَّذِي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدَى* قالَ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى* قالَ عِلمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى* الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ مَهداً وَسَلَكَ لَكُم فِيهَا سُبُلاً وَأنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأخرَجنَا بِهِ أزوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى* كُلُوا وَارعَوا أنعَامَكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى)**[4].

«وأخذا يذكران أسباب الهداية مبينين حقائق الوجود كله، ولما تقدم موسى له بالعصا التي قلبت ثعباناً مبيناً، قال تعالى: **(قالَ أجِئتَنَا لِتُخرِجَنَا**

---

(1) الأعراف، 142.
(2) طـه، 42 – 47.
(3) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 188.
(4) طـه، 49 – 54.

مِن أرضِنَا بسِحرِكَ يَا مُوسَى* فَلَنَأتِيَنَّكَ بسِحرٍ مِّثلِهِ فَاجعَل بَينَنَا وَبَينَكَ مَوعِداً لا نُخلِفُهُ نَحنُ وَلا أنتَ مَكَاناً سُوًى)[1]. التقى السحرة وموسى، ووقعت المعارك بين الحق يؤيده الله، والسحر يؤيده الباطل، والله يطمئن عبده الرسول وقد رأى السحرة، فيقول له: **(قُلنَا لا تَخَف إنَّكَ أنتَ الأعلَى)**[2]. وقد كانت نتيجة المعركة بين الحق والباطل أن خر السحرة ساجدين لله، وهنا تتجلى الحقيقة، ويتجلى الفداء في سبيل الحق، والطغيان الفرعوني الذي يستكثر أن من المصريين من يذعن للحق قبل أن يأذن الطاغوت الأثيم، وينذر بالعذاب **(قَالَ آمَنتُم لَهُ قَبلَ أن آذَنَ لَكُم إنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أيدِيَكُم وَأرجُلَكُم مِّن خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُم فِي جُذُوعِ النَّخلِ وَلَتَعلَمُنَّ أيُّنَا أشَدُّ عَذَاباً وَأبقَى)**[3]. وهنا تتجلى قوة الإيمان؛ لأنه إذا سكن القلب واطمأنت به النفس هان تهديد العباد ولو كان من فرعون ذي الأوتاد،**(قَالُوا لَن نُّؤثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقضِ مَا أنتَ قَاضٍ إنَّمَا تَقضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنيَا* إنَّا آمَنَّا برَبِّنَا لِيَغفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أكرَهتَنَا عَلَيهِ مِنَ السِّحرِ وَاللهُ خَيرٌ وَأبقَى* إنَّهُ مَن يَأتِ رَبَّهُ مُجرِماً فَإنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحيى* وَمَن يَأتِهِ مُؤمِناً قَد عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى)**[4].

وينتهي هذا الجزء من قصة موسى وفرعون بأنه مقصد قائم بذاته، وهو تفصيل اللقاء بين الحق يؤيده الدليل، وبين الباطل يؤيده الطاغوت، وفيه قوة الإيمان عند المؤمن»[5].

وتبدأ هنا دعوة موسى (ع) للناس، فتبدأ الآيات الكريمة تتحدث عن تفاعل الناس مع موسى (ع) قال تعالى في وصف هذه الحالة التي بدأت: **(فَلَمَّا جَاءهُم بالحَقِّ مِن عِندِنَا قَالُوا اقتُلُوا أبنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاستَحيُوا نِسَاءهُم وَمَا كَيدُ الكَافِرِينَ إلا فِي ضَلالٍ)**[6].

---

(1) طـه، 57 و58.
(2) طـه، 68.
(3) طـه، 71.
(4) طـه، 72 – 75.
(5) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 189 – 190.
(6) غافر، 25.

إنّ الذين آمنوا من قوم موسى (ع) كان مصيرهم التهديد بالقتل وأن يبقوا على نسائهم، قال تعالى: **(وَقَالَ فِرعَونُ ذَرُونِي أَقتُل مُوسَى وَلْيَدعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُم أَو أَن يُظهِرَ فِي الأَرضِ الفَسَادَ* وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤمِنُ بِيَومِ الحِسَابِ)**[1]، كان هذا التهديد من فرعون وجواب موسى (ع).

ثم يأتي في ثنايا هذه القصة رجل ولكنه ليس من بني إسرائيل وإنما من عائلة فرعون (آل فرعون) وهذا الرجل يعلن إسلامه ويدافع عن موسى (ع) وعن الحق، وهنا الآيات الكريمة تبدو بمشهد جديد، قال تعالى: **(وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤمِنٌ مِّن آلِ فِرعَونَ يَكتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَد جَاءكُم بِالبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُم وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبكُم بَعضُ الَّذِي يَعِدُكُم إِنَّ اللهَ لا يَهدِي مَن هُوَ مُسرِفٌ كَذَّابٌ)**[2].

إنّ الذي آمن ليس من بني إسرائيل وليس من قوم موسى (ع) بل هو من قوم فرعون، ولكن لشدة طغيان فرعون وجبروته وتوعده لمَن يؤمن بموسى (ع) لم يستطع أن يظهر إيمانه، فهو ظاهراً ليس بمؤمن، بمعنى أنه كان يعمل بالتقية، والتقية إظهار الباطل وكتمان الحق وهذا عكس النفاق حيث أن بعضهم يعرّف النفاق بأنه «إظهار خلاف ما يُبطن» وهذا التعبير ليس صحيحاً وإنما «النفاق إظهار الحق وكتمان الباطل»، وأما التقية فعكس النفاق حيث أنها «إظهار الباطل وكتمان الحق وذلك لظروف موضوعية معينة».

أما النفاق فهو «إظهار الحق وكتمان الباطل» قال تعالى: **(إِذَا جَاءكَ المُنَافِقُونَ قَالُوا نَشهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشهَدُ إِنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)**[3].

فالآية **(وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤمِنٌ مِّن آلِ فِرعَونَ يَكتُمُ إِيمَانَهُ)** تبيّن مبدأ التقية وأنّه مبدأ قرآني عظيم يذبُّ فيه هذا المؤمن من آل فرعون عن نبي الله ويدافع عنه ويريد منهم أن لا يقتلوا هذا النبي ثم يقول لهم: **(يَا قَومِ لَكُمُ**

---

(1) غافر، 26 و27.
(2) غافر، 28.
(3) المنافقون 1.

المُلكُ اليَومَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرضِ فمَن يَنصُرُنَا مِن بَأسِ اللهِ إن جَاءنَا قالَ فِرعَونُ مَا أُرِيكُم إلا مَا أَرَى وَمَا أَهدِيكُم إلا سَبِيلَ الرَّشَادِ)[1].

هنا تبدأ القصة ببيان تحرك الدعوة في أوساط المصريين وتجاوز الدعوة بني إسرائيل إلى العائلة الملكية فتسربت الدعوة – دعوة موسى (ع) – إلى عائلة فرعون وهذا الرجل من آل فرعون على ما تروي القصص أنّه كان ابن عم فرعون وقائد جيوشه، وقال ينصح قومه: **(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قومِ إنِّي أخَافُ عَلَيكُم مِّثلَ يَومِ الأحزَابِ* مِثلَ دأبِ قومِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعدِهِم وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلماً لِّلعِبَادِ* وَيَا قومِ إنِّي أخَافُ عَلَيكُم يَومَ التَّنَادِ* يَومَ تُوَلُّونَ مُدبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِن عَاصِمٍ وَمَن يُضلِلِ اللهُ فمَا لَهُ مِن هَادٍ)**[2].

في مثل هذا الموقف كلمة حق عند سلطان جائر يعلن هذا المؤمن من آل فرعون هذه الحقائق وينصح قومه بهذه النصائح القيّمة الثمينة ويضرب لهم الأمثال ويذكرهم بالماضين كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، ثم يقول لهم: **(وَلَقَد جَاءكُم يُوسُفُ مِن قبلُ بِالبَيِّنَاتِ فمَا زِلتُم فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إذَا هَلَكَ قلتُم لَن يَبعَثَ اللهُ مِن بَعدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن هُوَ مُسرِفٌ مُّرتَابٌ)**[3]، فيذكرهم بيوسف (ع) ودعوته إلى الحق وكيف أنّه جاءهم بالمعجزات، واستمرت المحاورة بين هذا الرجل المؤمن من آل فرعون وبين فرعون، وكان فرعون ومَن معه يصدون عن سبيل الله ولا يريدون أحداً من قوم موسى (ع) ولا من القبطيين أن يؤمن بدعوة موسى (ع).

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قومِ اتَّبِعُونِ أَهدِكُم سَبِيلَ الرَّشَادِ* يَا قومِ إنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنيَا مَتَاعٌ وَإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القرَارِ* مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فلا يُجزَى إلا مِثلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذكَرٍ أو أُنثى وَهُوَ مُؤمِنٌ فأُوْلَئِكَ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ يُرزَقُونَ فِيهَا بِغَيرِ حِسَابٍ* وَيَا قومِ مَا لِي أدعُوكُم إلَى النَّجَاةِ وَتَدعُونَنِي إلَى النَّارِ تَدعُونَنِي لِأَكفُرَ بِاللهِ وَأُشرِكَ بِهِ مَا لَيسَ لِي بِهِ

---

(1) غافر، 29.
(2) غافر، 30 – 33.
(3) غافر، 34.

عِلمٌ وَأنَا أدعُوكُم إلَى العَزِيزِ الغَفَّار* لا جَرَمَ أنَّمَا تَدعُونَنِي إلَيهِ لَيسَ لَهُ دَعوَةٌ فِي الدُّنيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأنَّ مَرَدَّنَا إلَى اللهِ وَأنَّ المُسرِفِينَ هُم أصحَابُ النَّار* فَسَتَذكُرُونَ مَا أقُولُ لَكُم وَأُفَوِّضُ أمرِي إلَى اللهِ إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ* فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرعَونَ سُوءُ العَذَابِ)[1]. وهكذا يُبدي المؤمن – المخلص في إيمانه والمدافع عن رسوله – هذه النصائح التي يبرزها القرآن الكريم بهذا الاعجاز البالغ وبهذه البلاغة الناصعة البيّنة المعجزة وتستمر الدعوة داخل الشعب المصري. ويستمر الصراع بين آل فرعون وهذا المؤمن من آل فرعون والمؤمنين الآخرين الذين آمنوا منهم من قوم موسى (ع) ومنهم من قوم فرعون.

عندما يكثر عدد الذين آمنوا ويصبح لهم كلمة ووزن في هذا المجتمع حينئذ يطالب موسى (ع) فرعون ببني إسرائيل ويريد أن يخرج بهم من مصر، وهنا يأتي فصل جديد من قصة موسى (ع) مع فرعون ومطالبته ببني إسرائيل باعتباره (ع) ينتمي إلى هؤلاء، فهؤلاء قومه وهو أحق بهم من غيره.

من هنا تبدأ هجرة موسى (ع) مع قومه والمطالبة بهذه الهجرة، ولكن فرعون في كل الأحوال لا يوافق أن يغادر بنو إسرائيل وهو الذي سخّرهم بالسخرة واستعبدهم فيقضون له الحاجات، فهم في البناء والفلاحة والعمل فكان فرعون يستعبدهم.

فبعد أن انتهت الدعوة السرية في تلك المرحلة حيث أن الناس كانوا يكتمون إيمانهم خوفاً من بطش فرعون، ولكن عندما كثر الذين آمنوا بموسى (ع) فحينئذ بدأت الدعوة العلنية، وبدأ موسى (ع) بتحريك قومه للهجرة.

فهنا الآيات المباركة تبدأ بسرد هذا الفصل الجديد من قصة موسى (ع)، قال تعالى: **(وَأوحَينَا إلَى مُوسَى أن أسرِ بِعِبَادِي إنَّكُم مُتَّبَعُونَ* فَأرسَلَ فِرعَونُ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ* إنَّ هَؤُلاء لَشِرذِمَةٌ قَلِيلُونَ* وَإنَّهُم لَنَا لَغَائِظُونَ* وَإنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ* فَأخرَجنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَكُنُوزٍ**

---

(1) غافر، 38 – 45.

وَمَقَامٍ كَرِيمٍ* كَذَلِكَ وَأَورَثْنَاهَا بَنِي إِسرَائِيلَ* فَأَتبَعُوهُم مُّشرِقِينَ* فَلَمَّا تَرَاءى الجَمعَانِ قَالَ أَصحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدرَكُونَ* قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهدِينِ* فَأَوحَينَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البَحرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرقٍ كَالطَّودِ العَظِيمِ* وَأَزلَفنَا ثَمَّ الآخَرِينَ* وَأَنجَينَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجمَعِينَ* ثُمَّ أَغرَقنَا الآخَرِينَ)[1].

هنا في هذا الفصل من القصة يُظهر كيفية هجرة موسى (ع) وقومه، وكيف أن فرعون وجنده اتبعوهم وأرادوا أن يبطشوا بهم ولكن الله تبارك وتعالى سلّم موسى وأتباعه من بطش فرعون وأتباعهم، وتسرد الآيات الكريمة هذه القصة المثيرة وواقعها وكيف حدثت هذه المعجزة بعد أن لحق فرعون وجنده بموسى وهارون (ع)، فقال قوم موسى انهم لمدركوننا ولكن موسى (ع) قال لهم **(إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهدِينِ)**، فالله تبارك وتعالى هو الناصر والمعين.

إنّ الله تعالى أوحى لموسى (ع) حيث تأتي الآيات الكريمة تبيّن ما حدث في البحر، وكيف أنّه ضرب البحر وإذا بهذا البحر العظيم يتحول إلى اثني عشر طريقاً وكل طريق كالشارع جاف – أرض يابسة – وجدران من الماء تفصل بين كل طريق. والمعروف أن الماء يأخذ شكل الاناء الذي فيه ولكن هنا أراد رب السماء والماء أراد أن يخرق هذا القانون وإذا بالماء – الذي من طبيعته التي فطره الله تعالى أن يأخذ شكل المكان الذي فيه – يقف كالجدار.

مع هذا – كما تروي الروايات – أن قوم موسى (ع) لم يكتفوا بذلك حيث طلب بعضهم أن يروا أقاربهم لأن الماء حجبهم، «فقالوا لموسى (ع): كيف نعبر وبعض الأسباط لا يرى السبط الآخر، ولعل أذى يصيبه، لأن الماء حاجز بين الطرق؟وبرحابة صدر موسى العظيم تقبل حتى هذا العذر التافه، ويجعل له حلاً، إذ أشار موسى بـعصاه فصارت الحواجز كأنها شبابيك، يتمكن كل سبط أن يرى سائر الأسباط طول الطريق»[2].

---

(1) الشعراء، 52 – 66.
(2) قصص الأنبياء، موقع على الانترنت: **http://www.yahosain.org/vb/showthread.php?t=78425**.

إنّ الله تبارك وتعالى يشير في ذيل هذه الآيات الكريمة إلى غرق آل فرعون، ولكن يختص بفرعون في هذه الالتفاتة الدقيقة كيف أن فرعون يؤمن في آخر اللحظات بعد أن ينطبق عليه البحر فيذكر الباري تبارك وتعالى هذا الموقف، وكيف أن الإيمان في مثل هذه الحالة لا ينفع، لأنه عندما تتبيّن الآيات ويكون كأن الإيمان قهري والله تعالى يريد أن يكون الإيمان اختيارياً لا بحالة القهر.

قال تعالى: **(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسرَائِيلَ البَحرَ فَأَتبَعَهُم فِرعَونُ وَجُنُودُهُ بَغياً وَعَدواً حَتَّى إِذَا أَدرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَت بِهِ بَنُو إِسرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ المُسلِمِينَ* ءَآلآنَ وَقَد عَصَيتَ قَبلُ وَكُنتَ مِنَ المُفسِدِينَ* فَاليَومَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَن خَلفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَن آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)**[1]، وهنا القرآن الكريم معجزاته لا تفنى ولا تنفذ حيث أن الآية الكريمة تشير إلى حدث مهم أن فرعون قد نُجّي ببدنه وأنه آية (بينة) – إنّ كلمة الآيات كثيراً ما تأتي في القرآن الكريم بمعنى المعجزات – وسيبقى بدن فرعون آية للآخرين، أي لأي قوم يأتي بعد فرعون ستكون لهم آية، وهذا ما يذهب البعض إليه.

وفعلاً إذا زُرتَ المتحف المصري في القاهرة في قسم الأجساد (المومياء) التوابيت الفرعونية، تجد هناك جسد لأحد الفراعنة موجود ومحنط ويقال عنه هذا هو فرعون موسى (ع) فبدنه موجود حتى يومنا هذا، وهذه آية من آيات الله وهنا يصدق هذا المعنى في هذه الآية تطبيقاً مطلقاً. وهناك ملاحظات نوردها في هذه القصة:

أولاً: أن فرعون كان دائماً يذكر جنوده فلم يذكر الشعب وإنما يذكر الجنود الذين يوالونه في طغيانه ويمالئونه في عدوانه وينصرونه، فلا يُذكر الشعب في مقام المناصرة.

ثانياً: أنّ الذين آمنوا من الناس ليس فيهم العدد الكافي الذي يهز ملك فرعون، وإذا كانوا كثرة لم يذكروا مع فرعون لأنهم كانوا مستضعفين فلم ينصروا بكثرتهم دعوة موسى (ع) وكانوا كشأنهم فيما يتعلق بملوكهم إن خالفوا الحق نافق منهم مَن نافق وتملق منهم مَن تملق. حيث أن ألسنتهم

---

(1) يونس، 90 – 92.

وظاهرهم مع الحاكم وباطنهم مع موسى (ع)، كموقف أهل الكوفة من الإمام الحسين (ع) كما وصفهم الفرزدق: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»[1].

وهذا الموقف لا ينفع في مثل هذه المواقف في نشر الحق والدفاع عنه، لأنه موقف المتفرج فيجب عليه أن يقف موقف الحق فلا يكتفي بقلبه بل أنّه يعلن أو يتبرأ من الباطل، وهذا هو مفهوم الولاية والبراءة حيث أنّه عندما توالي الحق لابد أن تتبراء من الباطل فلا يمكن أن تجمع بين النقيضين في أن تقول أنّك توالي الحق وفي نفس الوقت أنك لا تتبرء من الباطل، فلابد من موالاتك للحق أن تحارب الباطل وتتبرء منه. والآيات الكريمة تصف هذه الحالة، قال تعالى: **(لَقَد جِئنَاكُم بِالحَقِّ وَلَكِنَّ أَكثَرَكُم لِلحَقِّ كَارِهُونَ)**[2]، **(وَمَا أَكثَرُ النَّاسِ وَلَو حَرَصتَ بِمُؤمِنِينَ)**[3].

ثالثاً: أن الله تعالى أجرى على موسى (ع) معجزات تتصل بمصر التي هي بلد زراعي كما ذكر في سورة الأعراف كما ذكرت في غيره المعجزات كالعصا وذُكرت السحرة، فكررت هذه لأنها المعجزة الكبرى حيث أن العصا عندما تتكرر لأنها المعجزة الكبرى، وفي كل مرة عندما تتكرر هذه العصا تُحدث اعجازاً جديداً ولكنها نفس العصا، فمرة بالعصا تنبجس اثنتا عشرة عيناً فيشرب قوم موسى، ومرة بالعصا انفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم، ومرة تنقلب العصا إلى ثعبان.

إن تكرر العصا – التي هي مصدر معجزة موسى (ع) – ليس من باب التكرار المعيب وإنما هو تكرار فيه القمة من البلاغة وفيه الاعجاز العظيم، فتكرر العصا لأنها المعجزة الكبرى التي تحدى بها كما أنّ الآيات الكريمة تذكر كثيراً القرآن لأنه هو المعجزة لنبيّنا محمد (ص)، ولذلك هناك آيات كريمة تشيد في الوقت الذي نزل فيه القرآن الكريم، قال تعالى: **(إِنَّا أَنزَلنَاهُ فِي لَيلَةِ القَدرِ)**[4] وذلك لعظمة القرآن الكريم لأنّه هو المعجزة الكبرى للرسول (ص)، وقوله تعالى: **(إِنَّا أَنزَلنَاهُ فِي لَيلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا**

---

(1) المقرم، السيد عبد الرزاق: مقتل الحسين (ع)، دارالكتابالإسلامي،بيروت،ط7، 2007م. ص 174.
(2) الزخرف، 78.
(3) يوسف، 103.
(4) القدر، 1.

مُنذِرِينَ)[1]، **(لَو أنزَلنَا هَذَا القُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّن خَشيَةِ اللهِ وَتِلكَ الأَمثَالُ نَضرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ)**[2]، **(قُل لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأتُوا بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لاَ يَأتُونَ بِمِثلِهِ وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيراً)**[3]، **(إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَّكنُونٍ* لا يَمَسُّهُ إِلا المُطَهَّرُونَ* تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ)**[4]، **(أَوَلَم يَكفِهِم أَنَّا أَنزَلنَا عَلَيكَ الكِتَابَ يُتلَى عَلَيهِم إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحمَةً وَذِكرَى لِقَومٍ يُؤمِنُونَ)**[5]،**(إِنَّا أَنزَلنَا عَلَيكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالحَقِّ فَمَنِ اهتَدَى فَلِنَفسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيهَا وَمَا أَنتَ عَلَيهِم بِوَكِيلٍ)**[6].

من هذه الآيات التي كانت مع العصا والتي لم ترد إلا مرة واحدة في أغلب الأحيان، قال تعالى: **(وَلَقَد أَخَذنَا آلَ فِرعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُونَ* فَإِذَا جَاءتهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبهُم سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُم عِندَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكثَرَهُم لاَ يَعلَمُونَ* وَقَالُوا مَهمَا تَأتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحنُ لَكَ بِمُؤمِنِينَ* فَأَرسَلنَا عَلَيهِمُ الطُّوفَانَ وَالجَرَادَ وَالقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاستَكبَرُوا وَكَانُوا قَوماً مُّجرِمِينَ)**[7]، فهنا لم تتكرر هذه المعجزة كما تكررت العصا.

مع توالي المعجزات والآيات البيّنات فإنّهم يصفون هذه المعجزات بالسحر ويصفون موسى وهارون (ع) بأنهما ساحران ولم يؤمنوا ولم يذعنوا للحق، وأعلنوا هذا التمرد **(مَهمَا تَأتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحنُ لَكَ بِمُؤمِنِينَ)**، والله تبارك تعالى يريهم آيات أخرى لإلقاء الحجة البالغة عليهم ففي كل مرة يبتلون بمعجزة يهرعون فيها إلى موسى (ع) ليرفع عنهم العذاب، ولكن بعد رفع العذاب لا يؤمنون وينكثون وعدهم: **(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيهِمُ الرِّجزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن**

---

(1) الدخان، 3.
(2) الحشر، 21.
(3) الإسراء (بني إسرائيل)، 88.
(4) الواقعة، 77 – 80.
(5) العنكبوت، 51.
(6) الزمر، 41.
(7) الأعراف، 130 – 133.

كَشَفتَ عَنَّا الرِّجزَ لَنُؤمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إسرَائِيلَ* فَلَمَّا كَشَفنَا عَنـهُمُ الرِّجزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُم يَنكُثُونَ)[1].

من هذه القضية نفهم أنّ النفس قد ختم عليها أن لا تؤمن نتيجة لسوء أعمالها لأنها حتى لو ذهبت إلى عالم البرزخ ورأت بعينها الجنة والنار وعادت إلى الحياة الدنيا لما آمنت، وذلك مصداق قوله تعالى: **(وَلَو رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنهُ وَإِنَّهُم لَكَاذِبُونَ)**[2].

لقد جاءهم موسى (ع) بتسع آيات بيّنات، آية أعظم من آية، ومع ذلك هؤلاء لا يؤمنونويستمرون في تجبرهم وطغيانهم، ولما نكثوا ما عاهدوا موسى (ع) انتقم الله منهم فأغرقهم، قال تعالى **(فَانتَقَمنَا مِنهُم فَأَغرَقنَاهُم فِي اليَمِّ بِأَنَّهُم كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنهَا غَافِلِينَ)**[3].

وهكذا تتوالى المعجزات حتى بلغت تسع معجزات كما قال تعالى: **(وَلَقَد آتَينَا مُوسَى تِسعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسأَل بَنِي إِسرَائِيلَ إِذ جَاءهُم فَقَالَ لَهُ فِرعَونُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسحُوراً* قَالَ لَقَد عَلِمتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرعَونُ مَثبُوراً* فَأَرَادَ أَن يَستَفِزَّهُم مِّنَ الأَرضِ فَأَغرَقنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاًوَقُلنَا مِن بَعدِهِ لِبَنِي إِسرَائِيلَ اسكُنُوا الأَرضَ فَإِذَا جَاء وَعدُ الآخِرَةِ جِئنَا بِكُم لَفِيفاً* وَبِالحَقِّ أَنزَلنَاهُ وَبِالحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرسَلنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً)**[4].

«هذه قصة موسى مع فرعون ومع أهل مصر، قد ذكرنا جزءا منها، وهي في فصول متعددة من أجزاء القرآن الكريم، ونلاحظ مع بلاغة القصص وقوة تأثيره الذي قد نتكلم عليه من بعد، أنه لا تكرار في جزء من القصة، فلا يكرر جزء بمعناه في آيات واحدة، بل يذكر أيضا بمعناه في آيات أخرى، وإن كل جزء من القصة في معناه وجزئياته وغاياته ومراميه إلى مقصد، بل لكل جزء معنى سيق له، لم يسق له غيره، وإذا كانت بعض العبارات أو المعاني تكررت، فإن ذلك لبيان المقصد الأصلي من الجزء،

---

(1) الأعراف، 134 و 135.
(2) الأنعام، 28.
(3) الأعراف، 136.
(4) الإسراء (بني إسرائيل)، 101 – 105.

فمثلا رأينا في لقاء موسى لفرعون أنه ذكرت عبارات النعم وهو رضيع، وكيف سهل الله سبيل العيش الرغيد؛ ليبين له سبحانه أنه معه في لقاء فرعون، كما كان مع أمه في إلقائه في اليم؛ ليلقى فرعون وهو رابط الجأش، وهكذا نجد تكرار بعض المعاني؛ لأنها ذكرت في موضعها الأول مقصودة، وذكرت في موضعها الثاني تمهيداً لقصده، وتثبيتا لمغزاه، فالتكرار لم يكن لمجرد التكرار، بل هو تجديد للمعاني، ليس ترديداً، والفرق بين التجديد ومجرد الترديد أن الترديد يكون تكراراً لا غاية له، أو يكون لمجرد التوكيد، أما التجديد في تكرار اللفظ فإنه يكون لغاية بعده لا تتم إلا به»[1].

نستطيع أن نقسّم قصة موسى (ع) إلى قسمين: القسم الأول حياته مع بني إسرائيل قبل الهجرة في مصر ومع فرعون، أي من ولادته إلى الهجرة. أما القسم الثاني فهو ما كان بعد الهجرة إلى الطور، والأمر بالدخول إلى الأرض المقدسة.

هذا التقسيم لقصة موسى (ع) أشبه بالتقسيم للهجرة النبوية الشريفة حيث أن هناك في الآيات الكريمة ما هو مكي – قبل الهجرة –، وما هو مدني – بعد الهجرة الشريفة.

هذا التقسيم لكل ذكر في قصة موسى (ع) وقصة بني إسرائيل مع موسى هناك ورود لنعم الله تبارك وتعالى وتذكير لنعم الله تعالى على موسى وقومه بني إسرائيل حيث يذكرهم بالنعم وبالانحرافات التي قابلوا بها هذه النعم.

نبدىء الآن بالقسم الثاني من قصة موسى (ع) وهو بدء الهجرة، فقد سار موسى (ع) مع بني إسرائيل وقد تخلصوا من فرعون وجنده، وهناك تلقى موسى (ع) الألواح وعلم التوراة ولاقى ما لاقى من المرارة بالتعامل مع بني إسرائيل وضعفهم وتقليدهم الأعمى كما لاقى في جهاده مع فرعون وطغيانه.

هنا نتبيّن في القصة – التي سنوردها – من خلال الآيات الكريمة كيف يتمرد قوم موسى عليه، وكيف تصف الآيات الكريمة الخنوع الذي

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 194.

يعيشه قوم موسى، وكيف أن نفوسهم قد ضعفت واستمرؤوا الهوان من الحياة ورضوا بالمكان الدوني ولم يرتضوا من موسى (ع) ما يأمرهم به وما فيه عزّتهم ورفعتهم.

هكذا ينتقل بهم موسى (ع) إلى الطور، وهناك تبدأ المعجزات وتبدأ الخوارق، فينزل المن والسلوى طعاماً لبني إسرائيل ويظللهم الله تعالى بالغمام كي لا تلفحهم أشعة الشمس المحرقة في صحراء سيناء، وتتوالى عليهم النعم وخوارق العادات وتبدأ الآيات من سورة البقرة تبيّن لنا باجمال قصة موسى (ع) مع بني إسرائيل في طور سيناء وتذكرهم بالنعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم وذلك بانقاذهم من ظلم فرعون والتقتيل الذي كان يقتلهم وكيف كان يستضعفهم. فتبدأ الآيات الكريمة بتذكيرهم هذه النعم، قال تعالى: **(يَا بَنِي إِسرَائِيلَ اذكُرُوا نِعمَتِيَ الَّتِي أَنعَمتُ عَلَيكُم وَأَنِّي فَضَّلتُكُم عَلَى العَالَمِينَ* وَاتَّقُوا يَوماً لاَّ تَجزِي نَفسٌ عَن نَّفسٍ شَيئاً وَلاَ يُقبَلُ مِنهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤخَذُ مِنهَا عَدلٌ وَلاَ هُم يُنصَرُونَ* وَإِذ نَجَّينَاكُم مِّن آلِ فِرعَونَ يَسُومُونَكُم سُوَءَ العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبنَاءكُم وَيَستَحيُونَ نِسَاءكُم وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُم عَظِيمٌ* وَإِذ فَرَقنَا بِكُمُ البَحرَ فَأَنجَينَاكُم وَأَغرَقنَا آلَ فِرعَونَ وَأَنتُم تَنظُرُونَ)**[1].

فمطلع الآيات الكريمة تذكير لبني إسرائيل بتلك النعم كي لا ينسى الإنسان النعم ويقابلها بالكفران، فلابد أن يذكر النعم ويقابلها بالشكر. ومن هذه النعم تخليصهم من فرعون وبطشه، ومعجزة باهرة حيث ينفلق البحر فيكون فيه طرق اثنا عشر طريقاً لكل سبط من الأسباط يسلك فيه والماء واقف كالجدار، وكيف أن الله تبارك وتعالى ينقذهم من بطش فرعون ويخلصهم إلى أن ينتهي بهم إلى آخر الطريق فينطبق الماء على فرعون وجنده.

ثم تستمر الآيات بتذكيرهم بالنعم، قال تعالى: **(وَإِذ وَاعَدنَا مُوسَى أَربَعِينَ لَيلَةً ثُمَّ اتَّخَذتُمُ العِجلَ مِن بَعدِهِ وَأَنتُم ظَالِمُونَ* ثُمَّ عَفَونَا عَنكُم مِّن بَعدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ)**[2]، فتذكرهم الآيات الكريمة كيف أنهم في ميعاد موسى (ع) انحرفوا عن الطريق وعبدوا العجل وكانوا ظالمين في تلك

---

(1) البقرة، 47 – 50.
(2) البقرة، 51 و52.

العبادة وذلك الانحراف، ويذكرهم الله تعالى بنعمة عفوه عنهم مع ظلمهم، ويطالبهم بالشكر لهذه النعم.

ثم يذكرهم بنعمة أخرى، قال تعالى: **(وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)**(1)، وهذه نعمة عظيمة أخرى يمنّها الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل بهدف هدايتهم، كما يذكرهم بنعمة توبة الله عليهم بعد أن أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم، هناك روايات حول أمر موسى (ع) بني إسرائيل بقتل أنفسهم توبة لعبادتهم العجل: فهناك رواية بأن يقتل الشخص شخصاً آخر أو رواية تقول بأن يقتل الشخص نفسه.

هناك انحراف آخر من قوم موسى، قال تعالى: **(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ* ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)**(2)، فقد طلب بنو إسرائيل أمراً مستحيلاً وهو رؤية الله تعالى حيث أن الله تبارك وتعالى مستحيل أن يُرى لأنه ليس بجسم لأنّ الذي يُرى لابد أن يكون جسماً، فالذي يُرى لابد أن يكون في المكان أو الزمان وتناله الأبصار والله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وحتى في هذه الأمة – والعياذ بالله – يؤمن برؤية الله تعالى ويعتبرها البشارة للمسلمين يوم القيامة.

وهؤلاء (بنو إسرائيل) قد عاقبهم بالصاعقة بعد أن طلبوا هذا الأمر المستحيل، ويذكرهم بالنعم حيث يبعثهم من بعد موتهم لعلهم يشكرون.

يستمر تعالى بتذكيرهم بالنعم بقوله: **(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)**(3)، في طور سيناء وهم سائرون في ذلك الطور وفي تلك الأرض ذات الصحراء المحرقة، الله تعالى ظلّل عليهم الغمام وإذا بالسحاب يغطيهم ويظللهم، وكذلك نعمة أخرى من نعم الله تعالى على بني إسرائيل فأنزل عليهم المن والسلوى، طائر يأتي فيكلونهم وأيضاً المن وهي الحلوى.

---

(1) البقرة، 53 و54.
(2) البقرة، 55 و56.
(3) البقرة، 57.

ثم يذكر تعالى نعمة أخرى: **(وَإِذ قُلنَا ادخُلُوا هَذِهِ القَريَةَ فَكُلُوا مِنهَا حَيثُ شِئتُم رَغداً وَادخُلُوا البَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغفِر لَكُم خَطَايَاكُم وَسَنَزِيدُ المُحسِنِينَ* فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَولاً غَيرَ الَّذِي قِيلَ لَهُم فَأَنزَلنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفسُقُونَ)**[1]، حيث أمرهم تعالى حين يدخلوا تلك المدينة أو القرية – وبعضهم يذكر أنها أريحا – فإذا دخلوها سجداً وقالوا «حطّة» ولكن تمرد بني إسرائيل وعدم انقيادهم وانصياعهم لموسى (ع) بدلوا هذا الكلام فبدلاً من أن يدخلوا سجداً دخلوا على أدبارهم وبدلاً من أن يقولوا «حطّة» غيّروا فقالوا «حنطة»– كما تذكر بعض الروايات –، ونتيجة لتمردهم وعدم انصياعهم أدى بهم إلى أن يُنزل تعالى على الذين ظلموا منهم رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون، والفسق هو الخروج عن الطاعة. وتذكر الآيات الكريمة في القصة بنعم الله تعالى عليهم، قال تعالى: **(وَإِذِ استَسقَى مُوسَى لِقَومِهِ فَقُلنَا اضرِب بِّعَصَاكَ الحَجَرَ فَانفَجَرَت مِنهُ اثنَتَا عَشرَةَ عَيناً قَد عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشرَبَهُم كُلُوا وَاشرَبُوا مِن رِّزقِ اللهِ وَلاَ تَعثَوا فِي الأَرضِ مُفسِدِينَ)**[2]، وهم سائرون في الصحراء ومعهم موسى (ع) مؤيّد بالبينات وبالمعجزات فيطلب (ع) من الله تعالى الماء لقومه فيأمره تعالى بأن يضرب بعصاه الحجر فتنفلق من ذلك الحجر الجلمود اثنتا عشرة عيناً من الماء تشرب كل قبيلة من عين.

فهذه آيات مختصرة تبيّن قصة طويلة ومعجزة عظيمة. وتستمر الآيات الكريمة بتبيان مواقف بني إسرائيل ونعم الله تعالى عليهم، فقد نزل عليهم المن والسلوى وماء عذب ينفجر من حجر يرفعونه فينفجر اثنتا عشرة عيناً يشرب منه كل قبيلة، مع كل هذه المعجزات البينات انحرف بنو إسرائيل وعبدوا العجل. ومع أنّ الطعام اللذيذ (الطائر والحلويات) تنزل عليهم من السماء والماء معهم والغمام (السحاب) يظلّلهم ومع كل هذا يطلبون من موسى (ع) الطعام الذي هو دون هذا الطعام. قال تعالى: **(وَإِذ قُلتُم يَا مُوسَى لَن نَّصبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادعُ لَنَا رَبَّكَ يُخرِج لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرضُ مِن بَقلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَستَبدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدنَى بِالَّذِي هُوَ خَيرٌ اهبِطُوا مِصراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلتُم وَضُرِبَت عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُم كَانُوا يَكفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ**

---

(1) البقرة، 58 و59.
(2) البقرة، 60.

وَيَقتُلُونَ النَّبيِّينَ بغَير الحَقِّ ذَلِكَ بمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعتَدُونَ)[1]، فأجابهم موسى (ع) أتطلبون ما هو أدنى مما رزقكم الله، فباءوا بغضب من الله تعالى لأنهم كفروا بأنعم الله تعالى وكانوا يعتدون، وهذا شأن بني إسرائيل حيث وصل بهم التمرد أن قتلوا أنبياء الله.

هناك آيات أخرى تخاطب بني إسرائيل الذين عاصروا نبينا (ص)، قال تعالى: **(قُل فَلِمَ تَقتُلُونَ أنبيَاء اللهِ مِن قبلُ إن كُنتُم مُّؤمِنِينَ)**[2]، ومع أنّ هؤلاء اليهود لم يقتلوا نبياً في ذلك الزمان فكيف يخاطبهم الله بهذا الخطاب؟ ذلك لأنهم رضوا بما فعل أسلافهم حيث أنهم سمعوا بذلك فرضوا به فعدّهم القرآن أنهم قد قتلوا الأنبياء. ونفس الشيء نجده في زيارة الإمام الحسين (ع): «ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به»[3]، فحتى القوم في عصر الإمام الحجة (عج) – حينما يظهر ويثأر للإمام الحسين (ع) – فيقتص من الذين سمعوا بقتل الحسين (ع) ورضوا بذلك فيعتبرون ممّن قتل الحسين (ع).

قال تعالى: **(إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَن آمَنَ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُم أجرُهُم عِندَ رَبِّهِم وَلاَ خَوفٌ عَلَيهِم وَلاَ هُم يَحزَنُونَ* وَإذ أخَذنَا مِيثَاقكُم وَرَفَعنَا فوقكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَينَاكُم بقُوَّةٍ وَاذكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ* ثُمَّ تَوَلَّيتُم مِّن بَعدِ ذَلِكَ فَلَولاَ فَضلُ اللهِ عَلَيكُم وَرَحمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الخَاسِرِينَ* وَلَقد عَلِمتُمُ الَّذِينَ اعتَدَوا مِنكُم فِي السَّبتِ فقُلنَا لَهُم كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ* فَجَعَلنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَينَ يَدَيهَا وَمَا خَلفَهَا وَمَوعِظَةً لِّلمُتَّقِينَ)**[4]، حيث تستمر الآيات بذكر نعم الله تعالى، يرفع الله تعالى جبلاً ويجعله فوق رؤوس بني إسرائيل فكيف لا يؤمنون، فهم يرون الجبل طائراً فوق رؤوسهم، ومع كل هذه النعم وهذه الآيات تولوا معرضين، ولولا فضل الله تعالى عليهم ورحمته.

ويذكر كذلك كيف أنهم تمردوا حتى في يوم عطلتهم (السبت) فقد كان محرّم عليهم الصيد في ذلك اليوم، ومع ذلك تمردوا واصطادوا،

---

(1) البقرة، 61.
(2) البقرة، 91.
(3) القمي، الشيخ عباس: مفاتيح الجنان، زيارات الإمام الحسين (ع)، زيارة وارث.
(4) البقرة، 62 – 66.

ومعجزة أخرى يرونها بأعينهم وهي أن الإنسان ينقلب إلى قرد. نِعَم كثيرة ومعجزات كثيرة ومع ذلك كانت انحرافاتهم أيضاً كثيرة.

ثم تذكر الآيات مشكلة ظهرت لبني إسرائيل حيث يُقتل منهم شخص لا يُعلم مَن الذي قتله ويكاد يحدث قتال فيما بين الأسباط، والله تعالى يأمر موسى (ع) أن يذبحوا بقرة، وجزء من تلك البقرة – وعلى ما تذكر الروايات انّ الجزء كان ذيل البقرة – يضرب به الميت فيحيى ويذكر اسم الذي قتله ويموت، وهذه معجزة أخرى يذكر بها بني إسرائيل. وتذكر كيف أن بني إسرائيل استمروا في اللجاج والعناد فلم يكتفوا بأمر موسى (ع) بذبح البقرة وإنما سألوا عن مواصفاتها ولونها، ولو أنهم سلّموا واكتفوا بأخذ بقرة وذبحوا لقبل الله تعالى منهم بأي بقرة، ولكنهم لم يكتفوا واستمروا يراجعون موسى (ع) بالسؤال عن البقرة فيشدّد الله عليهم صفات وميزات تلك البقرة.

قال تعالى: **(وَإِذ قَالَ مُوسَى لِقَومِهِ إِنَّ اللهَ يَأمُرُكُم أَن تَذبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَن أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ* قَالُوا ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكرٌ عَوَانٌ بَينَ ذَلِكَ فَافعَلُوا مَا تُؤمَرونَ* قَالُوا ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَونُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفرَاء فَاقِعٌ لَّونُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ* قَالُوا ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَينَا وَإِنَّا إِن شَاء اللهُ لَمُهتَدُونَ* قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرضَ وَلاَ تَسقِي الحَرثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئتَ بِالحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفعَلُونَ* وَإِذ قَتَلتُم نَفساً فَادَّارَأتُم فِيهَا وَاللهُ مُخرِجٌ مَّا كُنتُم تَكتُمُونَ* فَقُلنَا اضرِبُوهُ بِبَعضِهَا كَذَلِكَ يُحيِي اللهُ المَوتَى وَيُرِيكُم آيَاتِهِ لَعَلَّكُم تَعقِلُونَ)**[1].

إنّ كل مشهد من هذه المشاهد قصة كاملة مثيرة وفي غاية الإثارة وخالية من الخيال فكلها حقائق وما فيها من الحقائق أشد إثارة من القصص والقصاصين الذين تحتوي قصصهم على الخيال، فالقرآن الكريم حتى في قصصه هو معجز حيث أن الإنسان سواء كان روائياً أو مسرحياً عندما يكتب قصة فينظمها من خياله ويعطي للقصة مشاهد خيالية حتى يثير السامع والقارئ، أما القصص القرآنية فهي حقائق وخالية من الخيال وهكذا فإن القصة القرآنية تكون قد خرقت أسلوب القصة المعتادة، حيث تكون

(1) البقرة، 67 – 73.

خالية من الخيال وإثارتها تكون أشد من القصص الإنسانية، قال تعالى: **(نَحنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أحسَنَ القصَصِ بِمَا أوحَينَا إلَيكَ هَذَا القُرآنَ)**[1]، فالقرآن الكريم معجز في كل شيء سواء في القصص أو الأمثال.

مع كل هذه الآيات ومع كل هذه المعجزات تمرد بنو إسرائيل وقست قلوبهم ولشد ما كانت قلوبهم قاسية، قال تعالى: **(ثُمَّ قَسَت قُلُوبُكُم مِّن بَعدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أو أَشَدُّ قَسوَةً وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنهَارُ وَإِنَّ مِنهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخرُجُ مِنهُ المَاء وَإِنَّ مِنهَا لَمَا يَهبطُ مِن خَشيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعمَلُونَ)**[2].

هذه الآيات الكريمة تبيّن بشكل اجمالي نعم الله تعالى على بني إسرائيل وكيف أن بني إسرائيل يقابلون هذه النعم بالتمرد والانحراف والمعصية لموسى (ع)، وكذلك اللجاج والعناد الذي صدر منهم وكيف أنهم يعيشون النفس الخانعة الخاضعة ولا يرتضون أن يدخلوا القرية التي أمرهم الله تعالى أن يدخلوها سجداً ويقولوا «حطة».

إن القرآن الكريم لم يورد معجزات لكل قوم من الأقوام مع أنبيائهم كما أورد لبني إسرائيل ولموسى (ع) مع بني إسرائيل من المعجزات، كانفلاق البحر، نزول المن والسلوى، انقلاب العصا إلى ثعبان، حجر تنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، جبل فوق رؤوسهم، تسع آيات بيّنات إلى فرعون كالقمل والضفادع والدم والجراد.

فهذه آيات بيّنات يرونها بأعينهم ومع ذلك يتمرد بنو إسرائيل ويعبدون العجل وكذلك يعصون هارون (ع) وينقلبون عليه ويكادون يقتله.

ويذكر القرآن الكريم هذه القصص عبرة، قال تعالى: **(لَقَد كَانَ فِي قَصَصِهِم عِبرَةٌ لِّأُولِي الألبَابِ)**[3]، فأمة نبيّنا أيضاً أحدثت تمرداً بعد رسول الله (ص) وانقلبت، قال تعالى: **(وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قد خَلَت مِن قَبلِهِ الرُّسُلُ أَفإِن مَّاتَ أو قُتِلَ انقَلَبتُم عَلَى أعقابكُم وَمَن يَنقَلِب عَلَى عَقِبَيهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيئاً وَسَيَجزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ)**[4]، فكما تمرد بنو إسرائيل على

---

(1) يوسف، 3.
(2) البقرة، 74.
(3) يوسف، 111.
(4) آل عمران، 144.

موسى (ع) وعلى هارون (ع) وأرادوا أن يقتلوا هارون (ع): **(قَالَ ابنَ أُمَّ إِنَّ القَومَ استَضعَفُونِي وَكَادُوا يَقتُلُونَنِي)**[1]، وهذا ما جرى لعلي بن أبي طالب (ع) أيضاً أرادوا أن يقتلوه وأجبروه على البيعة لأبي بكر حتى قال شاعر النيل حافظ إبراهيم[2]:

وقولة لعلي قالها عمر أكرم بقائلها أعظم بملقيها
حرقتُ دارك عليك إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير أبى حفص يفوه بها أمام فارس عدنـان وحاميها

وبنو إسرائيل أرادوا أن يقتلوا هارون (ع) أن نهاهم عن عبادة العجل، فمع وجود الآيات والمعجزات حصل هذا التمرد من بني إسرائيل، كما حصل هذا التمرد بعد وفاة نبينا محمد (ص)، فهذه هي العبرة من القصة التي يريدها القرآن ففي كل قصة عبرة لهذه الأمة.

إنّ موسى (ع) نبي ورسول ومن أولي العزم، والله تعالى جعل في ذريته الأنبياء وجعلهم أئمة، قال تعالى: **(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرضِ فَاحكُم بَينَ النَّاسِ بِالحَقِّ)**[3]، وذكّرهم بهذه النعم وفضّلهم حيث فضّل بني إسرائيل على العالمين في زمانهم، ولكن نفوسهم مردت على التقليد والخنوع والخضوع للمادة، فعبدوا العجل كما فعله المصريون وفعلوا ذلك تقليداً لأنّ نفوسهم قد تربت وخضعت للأهواء وتركوا الحق فتركوا هارون (ع) وكذلك تركوا موسى (ع) وتركوا أوامر الله تعالى وراءهم، والله تعالى يذكرهم انقاذهم من ظلم فرعون وتقتيلهأبناءهم ويستحي نساءهم، وهم يقابلون هذه النعم بهذا التمرد.

من هذه النعم المتواليات أخذ الميثاق عليهم ورفع الطور فوقهم حتى يصير كأنه ظلة تأكيداً للميثاق في الآية التي اقترنت به، ومع ذلك لا يطيعون موسى (ع) عامدين إذ يتولون معرضين عن ذلك البيان والميثاق لأنهم قد طُبعوا على الجحود، فكانوا مضرب المثل في التمرد ونكث العهود والمواثيق، وهذا شأنهم حتى في عهد رسول الله (ص) فكم من ميثاق قد نكثوه. وهذه الآيات التي تضافرت بالبيان عليهم.

---

(1) الأعراف، 150.
(2) ديوان حافظ إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1987. ج1/ ص 82.
(3) ص، 26.

إنّ الله تعالى جعل فيهم ومنهم آية بيّنة تدل على أنّ الجحود لا ينشأ عن نقص الدليل وعن نقص المعجزات بل يكون مع تضلفر البينات نتيجة للكفر والعناد لما مارسوه من السيئات والخطايا ولما انطوى عليه النيات السيئة.

عاش بنو إسرائيل في عهد فرعون أذلة خاضعين ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وقد بدى ضعف نفوسهم وتأثيرها في عهد موسى (ع) فقد أراد أن يدخل معهم إلى الأرض المقدسة بناء على الأمر الإلهي الذي كتبه الله تعالى فضعفوا ووهنوا وبدؤوا يلتمسون لأنفسهم الأعذار في عدم دخولهم لهذه الأرض حتى خاطبوا الكليم موسى (ع) **(فَاذْهَب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)**[1].

قال تعالى في هذه الآيات الكريمة يصف حالة هؤلاء: **(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَومِهِ يَا قَومِ اذكُرُوا نِعمَةَ اللهِ عَلَيكُم إِذ جَعَلَ فِيكُم أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَم يُؤتِ أَحَداً مِّن العَالَمِينَ* يَا قَومِ ادخُلُوا الأَرضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُم وَلاَ تَرتَدُّوا عَلَى أَدبَارِكُم فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ* قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدخُلَهَا حَتَّىَ يَخرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ* قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِمَا ادخُلُوا عَلَيهِمُ البَابَ فَإِذَا دَخَلتُمُوهُ فَإِنَّكُم غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ* قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذهَب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَملِكُ إِلاَّ نَفسِي وَأَخِي فَافرُق بَينَنَا وَبَينَ القَومِ الفَاسِقِينَ* قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيهِم أَربَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرضِ فَلاَ تَأسَ عَلَى القَومِ الفَاسِقِينَ)**[2].

إنّ في هذه الآيات الكريمة يظهر ضعف بني إسرائيل واستكانتهم وذلهم وخضوعهم وخنوعهم، وتصوّر هذه الآيات في أجمل بلاغة وأدق تعبير كيف أن الله تعالى ذكر امتنانه على بني إسرائيل بأن جعل فيهم أنبياء وجعل منهم ملوكاً، وآتاهم في ذلك الوقت – في عالمي زمانهم – ما لم يأت أحداً من العالمين.

(1) المائدة، 24.
(2) المائدة، 20 – 26.

ثم فرض الله تعالى عليهم أن يدخلوا إلى الأرض المقدسة حيث أن كلمة «كَتَبَ» تأتي بمعنى «فَرَضَ» كما في قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ)**[1]. فبدأ بنو إسرائيل يعتذرون عن دخول هذه الأرض المقدسة بحجة أنّ فيها قوماً جبارين، **(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قوماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدخُلَهَا حَتَّى يَخرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ)**.

هناك رجلان لم يوافقا على هذا الأمر، قال تعالى: **(قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِمَا ادخُلُوا عَلَيهِمُ البَابَ فَإِذَا دَخَلتُمُوهُ فَإِنَّكُم غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ)**، ففي هذه الآيات المباركة حث بني إسرائيل على الدخول وبيان كيفية دخول الباب ودخول الأرض، فإذا دخلوا فإنهم سيكونوا هم الغالبون ولكن بشرط أن يتوكلوا على الله حيث أن شرط الايمان هو التوكل على الله، فبدون التوكل على الله لا يكون الإنسان مؤمناً.

ثم بدأت أعذار بني إسرائيل يبينوا فيها ضعفهم وتخلوا عن موسى (ع) في تلك الأوامر الإلهية التي طلب الله تعالى منهم حيث قالوا: **(يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدخُلَهَا أَبداً مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذهَب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)**، وهذا النفي يفيد التأبيد بشرط وجود هؤلاء الجبارين في هذه الأرض، وهنا يأتي الدعاء والنداء من قبل موسى (ع)، قال تعالى: **(قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَملِكُ إِلاَّ نَفسِي وَأَخِي فَافرُق بَينَنَا وَبَينَ القَومِ الفَاسِقِينَ)**، فهؤلاء الذين فسقوا أي خرجوا عن طاعة الله طلب موسى (ع) من الله تبارك وتعالى أن يفرق بيه وبين هؤلاء الفاسقين.

ونتيجة لهذا التمرد على الأوامر الإلهية وهذا الخذلان لموسى (ع) جاءت العقوبة لهؤلاء وجاء الأمر الإلهي **(قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيهِم أَربَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرضِ فَلاَ تَأسَ عَلَى القَومِ الفَاسِقِينَ)**.

هنا في هذه الآيات الكريمة عدة عبر تبيّن أن المؤمنين والمسلمين لابد أن يلتزموا بالأوامر الإلهية ويخضعوا لها ويستسلموا لها ولا يراجعوا نبيّهم في شيء وإلا ستكون العقوبة وخيمة في هذا الأمر.

---

(1) البقرة، 183.

ومع هذا فإن العقوبة التي جاءتهم وهي التيه 40 سنة هي في الحقيقة تربية لهؤلاء في أن يتخلصوا من الخضوع والخنوع الذي كانوا يعيشونه بمصر في عهد الفراعنة حيث تعلموا على الترف وعلى الجبن وعلى حب الدنيا والتعلق بها وهذه أصبحت خصلة من خصالهم.

«لاحظ من بعد ذلك أمور ثلاثة قد أشارت إليها الآيات الكريمات:أولها: إن الاسترخاء والضعف النفسي قد أصابهم بسبب ترفهم أولا، واستضعافهم ثانيا، وطغيان فرعون في حكمهم ثالثا، وبأنهم حرموا حب الفداء، وإذا حرم قوم حب الفداء هانت عليهم أنفسهم ورزقوا الوهن، وكذلك بنو إسرائيل، فقد خافوا من غير مخوف، وماتت فيهم النخوة، كما تدل الآيات الكريمات.

وثانيها: إن ضعفهم أفقدهم قوة الإيمان، والشك في حكم الديان، حتى إنهم ليقولون لموسى (ع) **﴿فَاذهَب أنتَ وَرَبُّكَ فقاتِلا إنَّا هَاهُنَا قاعِدُونَ﴾**. وذلك تهكم يدل على وهن إيمانهم، كما وهنت نفوسهم.

وثالثها: إن الأمم لا تتربى إلا بتعود خشونة العيش، كما تعودت نعومته، وأن تذوق جشبه كما ذاقت حلاوته، ولذلك بيّن الله سبحانه وتعالى أنه لا يمكن أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله تعالى عليهم أن يدخلوها، فقال سبحانه: **﴿فَإنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيهِم أربَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأرضِ﴾**. وهذا كما يبدو من الآية تحريم كوني، أي: إنه لا يمكن أن يستطيعوا الدخول إلى الأرض المقدسة مقاتلين مجاهدين إلا بعد أن يذهب عنهم ذل الوهن، ويأتي جيل جديد قد ذاق طعم الشدة، وعلم الحياة نضالا، ولم يعلمها استكانة وضعفا، والتقدير بالأربعين لا أحسب أنه يقصد به العدد، ولكن يقصد به الكثرة التي تنشئ جيلا تربى في شظف العيش وصلابة الحياة وقسوتها.ولقد أخذ هذه الحقيقة القرآنية ابن خلدون، وجعل أساس قوة الأمم شدة الحياة وصلابتها، فإنها إذا استرخت أدال الله منها بقوم أولي بأس شديد تربوا في البداوة، وذاقوا بأسها»[1].

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 201 – 202.

الفصل العاشر

التصريف القرآني في قصص القرآن

إن قصص القرآن فيه ألوان متعددة وتظهر في هذا التصريف البياني حقائق وأهداف مختلفة، فليست القصة مع تكرارها تُظهر لوناً واحداً من ألوان التصريف البياني بل هناك ألوان متعددة متباينة في حقيقتها متلاقية في غاياتها، فكلما يرد فصل من فصول القصة فإنّه يبيّن حقيقة من الحقائق وإن كانت الحقيقة متفاوتة في هذا الفصل عن تلك الحقيقة إلا أنّها تصب في هدف وغاية واحدة.

أما كلام البشر فلا يمكن أن يأتي بكل هذه الفصول وفي بيان كل هذه الحقائق بأوج البلاغة وأنّها تصب في غاية واحدة وتأخذ ألواناً مختلفة من البلاغة، فكما ذكرنا سابقاً أنّ الشاعر أو الخطيب أو الأديب قد يبرع في فن من الفنون، فمثلاً شاعر يجيد الرثاء وشاعر آخر يجيد المدح وآخر يجيد الغزل، أما أن الشاعر يبرع في كل هذه الألوان وفي كل قصائده وفي كل أبياته لا يمكن ذلك، حيث أننا قد نجد قصيدة لشاعر يشتهر بها ونأتي إلى هذه القصيدة قد نجد فيها بيتين أو أكثر أو ربما بيتاً واحداً هو الذي ينفرد ويُشهر تلك القصيدة ويحبب القصيدة إلى نفوس الناس.

أما القرآن الكريم فكلّه بمستوى واحد من البلاغة برغم تعدد الألوان وتصريف البيان في مختلف جوانب القصص أو الأمثال أو القصص متعددة الفصول فإنّها تأتي بمستوى واحد من البلاغة والبيان والفصاحة وحلاوة اللفظ وانسجامها، وإضافة إلى ذلك سمو المعاني والمضامين العالية التي تحملها الآيات الكريمة بكل نوع صرّف فيه هذا القرآن.

هذه المقاصد المختلفة لا يمكن أن يبلغ الغاية في صنف واحد من أصنافها أي إنسان فكيف بمختلف أنواع الأصناف ومختلف أنواع البلاغة، وهذا هو سر الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

المبحث الأول: العبرة في القرآن الكريم

نريد أن نذكر الآن من القصص القرآني على أنّه لون من تصريف البيان القرآني وتغير اشكاله كما ذكر الله تعالى في القرآن الكريم: **(لَقَد صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنسَانُ أكثَرَ شَيءٍ جَدَلاً)**(1)، هذا التصريف بهذه الأمثال نفهم منها أن القصص القرآني فيه العبرة.

ما ذُكرت قصة إلا كانت معها عبرة أو عبر وفيه بيان العقوبات التي حلّت بالأقوام الذين تمردوا على الأوامر الإلهية وفيها بيان ما نزل بالأقوياء الذين غرّتهم قوتهم والجبابرة الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، وكيف أن الله تبارك وتعالى محيط بهؤلاء، وأنّ القصص فيه إيناس للنبي (ص) وفيه عبرة لهذه الأمة فيأخذ مختلف أنواع التصريف وفيه بيان للحقائق الإسلامية وبيان للتوحيد، وبيان للمغيبات التي لم يشهدها النبي (ص)، فتلك القصص والمغيبات لم يكن النبي (ص) حاضراً في ذلك الوقت.

لذلك الآيات الكريمة تبيّن هذه الحقيقة، قال تعالى – بعد أن يبين قصة مريم (ع)-: **(ذَلِكَ مِن أنبَاءِ الغَيبِ نُوحِيهِ إلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيهِم إذ يُلقُون أقلاَمَهُم أيُّهُم يَكفُلُ مَريَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيهِم إذ يَختَصِمُونَ)**(2)، فكما تذكر الرواية أن أقلامهم كانت من الحديد فقالوا نضع أقلامنا في الماء فالذي يطفوا قلمه هو الذي يكفل مريم (ع)، فكانت الكفالة لزكريا (ع).

كذلك في قصة موسى (ع) ووقائعها أيضاً الباري تبارك وتعالى يخاطب الحبيب المصطفى (ص):**(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَربيِّ إذ قَضَينَا إلَى مُوسَى الأمرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ* وَلَكِنَّا أنشَأنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيهِمُ العُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أهلِ مَديَنَ تَتلُو عَلَيهِم آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرسِلِينَ* وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إذ نَادَينَا وَلَكِن رَّحمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوماً مَّا أتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبلِكَ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ)**(3).

---

(1) الكهف، 54.
(2) آل عمران، 44– 46.
(3) القصص، 44.

هذه القصص التي يوردها القرآن الكريم فيها عبرة وفيها بيان لمغيبات كانت غائبة عن هذه الأمة ولم يشهدها الرسول (ص) كما تبين الآيات الكريمة، ومع ذلك جاءت هذه القصص صادقة صدقاً مطلقاً في وصفها للأحداث التي كانت.

من الأمور الاعجازية التي نوردها في هذا المجال أننا عندما نقرأ الآيات الكريمة في ذكر قصة موسى (ع) وفي ذكر فرعون نجد أن القرآن الكريم على طول ذكر قصة فرعون يستعمل كلمة «فرعون» إذا تعرض إلى ملك مصر، في حين أن القرآن الكريم عندما ذكر قصة يوسف (ع) لم يورد كلمة «فرعون» بل أورد كلمة «ملك» فالذي أرسل على يوسف (ع) هو الملك، قال تعالى:**(وَقَالَ المَلِكُ ائتُونِي بِهِ أَستَخلِصهُ لِنَفسِي)**[1]، كذلك عندما رأى الملك رؤيا في منامه **(وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَى)**[2]، ففي قصة يوسف ثلاث مرات ترد كلمة «الملك» ولم ترد كلمة «فرعون». انظر إلى هذه الدقة الاعجازية والتي لم تُكتشف لدى الناس المعاصرين إلا بعد اكتشاف اللغة الهرغلوفية في مصر.

فبعد أن اكتشف شانبليون الكتابة الهرغلوفية في مصر وحلّ ألغازها أكتشف أن الفترة التي كانت في عصر يوسف (ع) أن الملوك الذين عاشوا وغزوا الفراعنة واسقطوا حكمهم وأقاموا حكماً بدل الفراعنة فلم يسموا أنفسهم بالفراعنة بل سمّوا أنفسهم «الملك»، وهذه القضية لم يذكرها أحد من المؤرخين ولم يعرفها الناس لأن الكتابة الهرغلوفية كانت غير معروفة للناس إلى أن جاء شانبليون– قبل مائة سنة تقريباً – وحل أسرار هذه اللغة واكتشف أن هذه الفترة الزمنية كان الحكام يستعملون كلمة «ملك» بدل كلمة «فرعون».

هذا من الاعجاز التاريخي في القرآن الكريم وكذلك اعجاز الألفاظ، كيف أن الألفاظ تُستعمل بدقة سواء من الناحية التاريخية أو من الناحية العلمية أو في مفهوم العدالة. وهكذا نجد في كل القرآن كلمة فرعون إلا في قصة يوسف استعمل كلمة «ملك».

---

(1) يوسف، 54.
(2) يوسف، 43.

كما أنّ الاستعمال القرآني في كل لفظة من الألفاظ ليس فقط مقتصراً على القصص بل وحتى في الآيات الأخرى تأتي باستعمال الألفاظ بحيث تنطبق انطباقاً كلياً على الحقائق العلمية، فمثلاً عندما نتكلم عن إسراء النبي (ص) ومعراجه فنقول «الإسراء والمعراج»، وهناك سورة المعارج والقرآن الكريم عندما يتكلم عن الارتقاء في السماء يستعمل كلمة «يعرجون»، فهذا الاستعمال لهذه اللفظة لم نعرف أن السير في الفضاء يتم على شكل منعرجات ومنعطفات وكلمة «أعرج» و«عرج» من الانحناء.

هناك آية كريمة تقول: **(وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرجُونِ الْقَدِيمِ)**[1]، و«العرجون القديم» يعني عثق النخلة الذي يحمل التمر، يرجع كالهلال عندما يكون قديماً نصف دائرة – قوس -. فالقرآن الكريم يستعمل كلمة «يعرجون»، قال تعالى: **(وَلَو فَتَحنَا عَلَيهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّوا فِيهِ يَعرُجُونَ)**[2]، فلم يستعمل القرآن الكريم ارتقى أو صعد أو طار أو ارتفع فهناك كلمات كثيرة تستعمل بمعنى العلو إلا أن القرآن الكريم يستعمل كلمة «عرج»ومشتقاتها، لماذا ؟

الآن وبعد اختراع المركبات الفضائية أكتشف بأن المركبة الفضائية بعد أن تبتعد عن الجاذبية الأرضية لا تسير على شكل خطوط مستقيمة بانتقالها من جرم سماوي إلى جرم آخر وإنما تحكمها خطوط المجال المغناطيسي التي هي على شكل منعرجات ومنعطفات لذلك تسير السفينة الفضائية بشكل منعرج ولا تسير بشكل مستقيم، وهذا السير يحدده المجال المغناطيسي لكل جرم من الأجرام.

إنّ الحقائق الإسلامية في القصص لم تكن للعبرة فقط، بل لبيان الحقائق الإسلامية، فمن خلال قصة إبراهيم (ع) ومحاججته مع قومه تظهر لنا براهين التوحيد وكيف أن إبراهيم (ع) يحاجج قومه في هذا المجال، فمن خلال قصته (ع) نفهم براهين التوحيد ونفهم احتجاجه على نمرود وعلى قومه. فهذا البيان من خلال القصة ليس فقط هو عبرة وإنما أيضاً هو برهان.

---

(1) يس، 39.
(2) الحجر، 14.

كذلك في قصة نوح (ع) – الأب الثاني للبشر – فنقرأ هذه الآيات الكريمة من قصته ونجد كيف أنّ أدلة التوحيد يسوقها نوح (ع) لقومه ويوجه أنظارهم إلى الكون وما فيه ويرشدهم إلى طريق صلاحهم، قال تعالى: **(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوتُ قَومِي لَيلاً وَنَهَاراً* فَلَم يَزِدهُم دُعَائِي إِلا فِرَاراً* وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوتُهُم لِتَغفِرَ لَهُم جَعَلُوا أَصَابِعَهُم فِي آذَانِهِم وَاستَغشَوا ثِيَابَهُم وَأَصَرُّوا وَاستَكبَرُوا استِكبَاراً)**[1].

وصف رائع وبليغ لحالة هؤلاء وفي اصرارهم وعنادهم في عدم قبولهم دعوة الحق. ثم يقول: **(ثُمَّ إِنِّي دَعَوتُهُم جِهَاراً* ثُمَّ إِنِّي أَعلَنتُ لَهُم وَأَسرَرتُ لَهُم إِسرَاراً* فَقُلتُ استَغفِرُوا رَبَّكُم إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* يُرسِلِ السَّمَاء عَلَيكُم مِّدرَاراً* وَيُمدِدكُم بِأَموَالٍ وَبَنِينَ وَيَجعَل لَّكُم جَنَّاتٍ وَيَجعَل لَّكُم أَنهَاراً)**[2] انظر إلى هذه الوصفة الإلهية على لسان نوح (ع) أنه في الاستغفار سوف تدر السماء عليكم بالخيرات، والذي يريد البريد فبهذه الوصفة الإلهية دواءه بالاستغفار وهو سر من الأسرار الإلهية يرشدهم نوح (ع).

ثم يلفت (ع) أنظارهم إلى أدلة التوحيد: **(مَّا لَكُم لا تَرجُونَ للهِ وَقَاراً* وَقَد خَلَقَكُم أَطوَاراً* أَلَم تَرَوا كَيفَ خَلَقَ اللهُ سَبعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً* وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمسَ سِرَاجاً)**[3]، فكل هذه الآيات تنطق بتوحيد الله، القمر مضيء فيه نور والشمس مضيئة فيها نور ولكن القرآن يميز ويفرّق بين نور القمر ونور الشمس حيث أنّه يعبر عن الشمس بالضياء والقمر يعبر عنه بالنور وذلك لأن القمر نوره مكتسب من الشمس، وأما الشمس فهي مصدر للضياء والنور.

قال تعالى: **(وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً* ثُمَّ يُعِيدُكُم فِيهَا وَيُخرِجُكُم إِخرَاجاً)**[4]، وفعلاً تركيبة بدن الإنسان من هذا التراب وأصل الإنسان – وحتى في العلم الحديث في تحليله – هو من هذه الأرض ومن هذه العناصر المادية زائداً الجانب اللامادي في الإنسان.

---

(1) نوح، 2 – 7.
(2) نوح، 8 – 12.
(3) نوح، 13 – 16.
(4) نوح، 17 و18.

إنّ كل هذه الأدلة والبراهين من نوح (ع) عندما ترد هذه القصة في القرآن الكريم فإنّها عبرة لهذه الأمة وتستفيد حتى هذه الوصفة التي وصفها نوح (ع) لقومه أنّه كيف بالاستغفار يكون الخير والأنهار والجنات ويكون المال والبنون كل ذلك عبر الاستغفار. فهذه الأدلة وتصريف القصص وبيان هذه المرامي والأهداف القرآنية من خلال هذه القصة، كلها في بيان القصص القرآني، وأنّه حتى لو تكررت القصة فإنّها في كل مرة تبيّن حقيقة من الحقائق أو عبرة من العبر أو برهان من براهين الإسلام والقرآن على أدلة التوحيد أو على المعاد أو على اللجوء والأوبة إلى الله تعالى.

كذلك في قصة يوسف (ع) مع صاحبيه في السجن، فهو (ع) في السجن ويستأنس بالدعوة إلى الله تعالى ويستأنس بذكر الله تبارك وتعالى فيخاطب صاحبيه المشركَين، قال تعالى: **(قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ* وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ* يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ* مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)**[1].

فمن خلال هذه القصة يورد يوسف (ع) الاستدلال على توحيد الله تعالى:**(أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)**، وكيف أن **(الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)** اقترن لفظ «الواحد» اسم الله بكلمة «القهار» التي هي صيغة مبالغة من «قاهر» وكيف أن الأشياء المحدودة كلها مقهورة في حدودها فلابد أن يكون لها مَن قهرها وذلك هو **(الْقَهَّارُ)** فكل شيء مقهور وكل مقهور مفعول ولابد أن يكون هناك مَن فعل به القهر إلى أن ننتهي إلى قهار غير مقهور، وذلك القهار لابد أن يكون واحداً لأنه غير مقهور وغير محدود، وكل هذه الأشياء والموجودات محدودة وكل محدود مقهور في حدوده فلابد أن ننتهي إلى قهار واحد لا شريك له، ويستحيل فيه التعدد لأنّه لو تعدّد لتحدّد وأصبح مقهوراً.

(1) يوسف، 37 – 40.

فمن خلال هذه الآيات الكريمة ومن خلال هذه القصة، والتي تورد بهذه الألفاظ وببلاغة لا يلحق بها أي نوع من أنواع البلاغة تُعجز الآخرين باختصار وبإيجاز تعطينا برهاناً بيّناً من خلال القصص القرآني ومن خلال الآيات الكريمة.

المبحث الثاني: مؤهلات الإمامة في القرآن الكريم

نأخذ الآن مؤهلات الإمامة في القرآن الكريم، لاشك أن لكل دولة نظام للحكم ومؤهلات لمَن يقوم بإدارة الحكم، والقرآن الكريم ومن خلال القصص القرآني يبيّن مؤهلات القائد والإمام التي يرتضيها الله تبارك وتعالى ويحدّدها في محكم كتابه، فيسرد لنا القرآن قصصاً وفي هذه القصص نكتشف ما هي مؤهلات الإمام في دستور القرآن الكريم.

قال سبحانه وتعالى: **(وَجَعَلْنَا مِنهُم أئِمَّةً يَهدُونَ بِأمرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)**[1]، فهنا الله تبارك وتعالى يحدّد أنّ الإمام لا يكون إماماً إلا بجعل إلهي **(وَجَعَلْنَا مِنهُم أئِمَّةً)**[2]، ثم تبيّن الآية المباركة وظيفة الإمام بأنه يقوم بعملية الهداية، وهذه الهداية تكون بأمر الله **(يَهدُونَ بِأمرِنَا)** ولكن متى يكون هذا «الجعل» من قبل الله تعالى ؟

الآية المباركة تبيّن شرطين لابد أن تتوفر بالإمام كي يُجعل اماماً وهما: أن يكون صابراً، والشرط الثاني هو اليقين. هذه بعض شروط الإمامة ولعل بقية الشروط ترجع إلى هذين الشرطين حيث أنّ هناك قصة يوردها القرآن الكريم يبيّن بعض الشروط التي لربما ترجع إلى هذين الشرطين.

في قصة لبني إسرائيل هناك نبي من أنبياء بني إسرائيل يخبر قومه بأن الله تعالى قد جعل لهم قائداً، قال تعالى: **(وَقَالَ لَهُم نَبِيُّهُم إنَّ اللهَ قد بَعَثَ لَكُم طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَا أنَّى يَكُونُ لَهُ المُلكُ عَلَينَا وَنَحنُ أحَقُّ بِالمُلكِ مِنهُ وَلَم يُؤتَ سَعَةً مِّنَ المَالِ قَالَ إنَّ اللهَ اصطَفَاهُ عَلَيكُم وَزَادَهُ بَسطَةً فِي العِلمِ وَالجِسمِ وَاللهُ يُؤتِي مُلكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)**[3] .

---

(1) السجدة، 24.
(2) السجدة، 24.
(3) البقرة، 247.

فالنبي وظيفته التبليغ حيث أنّه يبلّغ مَن هو القائد ومَن هو الرئيس ومَن هو الإمام، فالآية تبيّن أنّ الإمامة بتنصيب وتعيين من الله تعالى، والنبي مهمته التبليغ فقط. والمؤهلات التي ذكروها بني إسرائيل – كما بيّنتها الآية الكريمة – هو السعة في المال وأنّ الإمام لابد أن يكون ذا مال كثير وحيث أن طالوت لا يمتلك المال فاعترضوا عليه، فردّ عليهم النبي إنّ هذا الاصطفاء هو اصطفاء إلهي وليس الأمر برأيكم أو بالتشاور أو بالمؤهلات التي تقترحونها ومن شروط الإمامة لابد أن يكون لديه علم خاص الله يختصه به، والأمر الآخر أن يكون شجاعاً قوياً، والله تعالى هو الذي يُؤتي ملكه مَن يشاء.

وتستمر القصة في بيان كيفية دعم هذا القائد من قبل الله تعالى: **(وَقَالَ لَهُم نِبِيُّهُم إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُم وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحمِلُهُ المَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُم إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ)**[1].

فلم تكتف الآية بالجعل الإلهي بل ودعّمت هذا القائد بمعجزة (آية) أن التابوت الذي كان مفقوداً على الظاهر، فكرامة لهذا القائد الله تعالى أرجع لبني إسرائيل التابوت، وفي هذا التابوت سكينة من الله تعالى وفيه تركة آل موسى وآل هارون، والمعجزة ليس فقط في إرجاع هذا التابوت وإنما أيضاً أن هذا التابوت تحمله الملائكة، وبما أن الملائكة لا يرون من قبل الناس فإن التابوت يشاهدونه كأنه طائر في الهواء. صحيح أن هذه القصة وردت في بني إسرائيل ولكنها بيّنت أحكاماً مهمة في غاية الأهمية لاختيار الإمام وأنّه بجعل من الله تبارك وتعالى وباصطفاء منه وأنّ الإمام لابد أن يكون عالماً قوياً وهناك آيات وكرامات تدعمه.

هناك آية أخرى في إمامة إبراهيم الخليل (ع)، فمختلف الآيات تدلّل على هذه الأحكام، قال تعالى: **(وَإِذِ ابتَلَى إِبرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهدِي الظَّالِمِينَ)**[2].

هناك عدة روايات في موضوع «الكلمات» حيث أن هناك رواية يخرجها السيوطي في تفسيره «الدر المنثور» عن ابن عباس في قوله تعالى

(1) البقرة، 248.
(2) البقرة، 125.

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)[1]، عن رسول الله (ص): «لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه إلى السماء فقال: أسألك بحق محمد إلا غفرت لي. فأوحى الله إليه: ومَن محمد؟ فقال: تبارك اسمك، لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فعلمت أنه ليس أحد أعظم عندك قدرا ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: يا آدم إنه آخر النبيين من ذريتك ولولا هو ما خلقتك»[2]. وعن عبد الله بن عباس قال: سُئل النبي (ص) عن الكلمات التي تلقا آدمُ من ربّه فتاب عليه، قال (ص): «سأله بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلاّ تُبتَ عليَّ، فتاب عليه»[3].

وعلى كلا الروايتين هذه الكلمات هناك رواية عن أهل البيت (ع) تفسّر هذه الكلمات في قوله تعالى: **(وَإِذِ ابتَلَى إِبرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ)** أيضاً تفسر هذه الرواية أن هذه الكلمات هم أهل البيت (ع)، فعن المفضل بن عمرعن الصادق جعفر بن محمد (ع) قال: سألته عن قول الله عزوجل: **(وَإِذِ ابتَلَى إِبرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ)** ما هذه الكلمات ؟ قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه وهو أنه قال: يا رب أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت عليّ **(فَتَابَ عَلَيهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)**، فقلت له: يا ابن رسول الله فما يعني عزوجل بقوله: أتمهنّ ؟ قال: يعني أتمهن إلى القائم (ع) اثنا عشر إماما تسعة من ولد الحسين (ع)»[4].

(قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) وهنا أيضاً الآية المباركة تبيّن مؤهلات الإمام بطريقة أخرى، فأولاً تثبت الآية بأنّ الإمام بجعل إلهي وليس بجعل من الناس وأنّ الإمام الذي يجعله الله تبارك وتعالى له مؤهلات، وإبراهيم (ع) استشرف لهذا المنصب الإلهي فقال **(وَمِن ذُرِّيَّتِي)**

---

(1) البقرة، 37.
(2) السيوطي، جلال الدين: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ط1، دار الفكر - بيروت ، 1993. ج1/ ص 314.
(3) ابن المغازلي، ابي الحسن علي بن محمد الشافعي: مناقب علي بن أبي طالب (ع)، ط3، دار الأضواء للطباعة، بيروت، 2003. ص 343.
(4) الصدوق، الشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي: معاني الأخبار، دار المعرفة للطباعة والنشر، تصحيح علي أكبر الغفاري. ص 126.

أي مَن ينال من ذريتي هذا المنصب ؟ فأجابه الله سبحانه وتعالى: **(لاَ يَنَالُ عَهدِي الظَّالِمِينَ)**، فنسب هذا العهد إلى ذاته المقدسة، فالإمامة عهد الله.

الفريق الذي يحتج بأنّ الإمامة شورى استناداً إلى قوله تعالى: **(وَأمرُهُم شُورَى بَينَهُم)**[1]، فإذا كانت الإمامة من أمرهم فصحيح هذا الكلام وتكون شورى، ولكن إذا كانت الإمامة من أمر الله وعهده فلا يصح أن تكون شورى، كما أن الصلاة من أمر الله فهل يصح أن يتشاور الناس في أن يجعلوا صلاة الصبح ثلاث ركعات ؟ لو اجتمع كل أهل الأرض لا يصح ذلك لأنّ الصلاة أمر الله تعالى وكذلك النبوة أمر الله. والآية تبيّن أن الإمامة عهد الله قال تعالى: **(عَهدِي)** ولم يقل عهدكم.

ثم بيّنت الآية المباركة صفة من صفات الإمام وهي أن الإمام لا يكون ظالماً، وكلمة «ظالم» اسم فاعل: ظلم فهو ظالم، ولم تقل الآية «الظلاّم» كثير الظلم، فلو ارتكب اثماً واحداً وظلماً واحداً في حياته فهو ظالم، فمعنى ذلك أنّ الذي ينال الإمامة لابد أن يكون نظيفاً من الظلم وكل ذنب أو اثم أو خطأ هو ظلم، فلابد أن يكون منزّهاً عن الذنوب وعن الخطايا طيلة حياته وإلا لا يناله عهد الإمامة.

في هذه القصة القرآن الكريم في تصريفه لهذا البيان في مختلف السور يذكر القصة ولكن من خلال هذه القصة يبيّن أحكام الإمامة ومؤهلاتها، فالمسألة ليست مجرد سرد قصص فالله تعالى حينما يخاطب يوسف (ع): **(نَحنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أحسَنَ القَصَصِ بِمَا أوحَينَا إلَيكَ هَذَا القُرآنَ وَإن كُنتَ مِن قَبلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ)**[2].

إذن فهناك عبر، صحيح أن القصة بليغة والقصة تنبثق من الواقع خلافاً للقصص الأدبية حيث أن القصص القرآنية خالية من عنصر الخيال بينما القصص الأدبية لا تكون مثيرة للسامع إلا أن يدخل فيها عنصر الخيال فالقصة الأدبية لا تكون واقعية.

قصة يوسف (ع) مثيرة جداً ومع هذا نرى فيها أحكام لهذه الأمة بمختلف الأحكام فمرة تبيّن حالة الأقوام السابقة وكيف كانوا يتعاملون مع

---

(1) الشورى، 38.
(2) يوسف، 3.

أنبيائهم، وقبل أن ننتقل من هذه الآية نذكر «الابتلاء» فالإنسان إذا ابتلي عليه أن يصبر فإذا صبر ينجح.

قال تعالى: **(وَإِذِ ابْتَلَى إِبرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ)** لقد ابتلي إبراهيم (ع) في هذه الآية بالنمرود وابتلي بالنار وابتلي بالحرمان من الذرية، ولكن على كبر سنّه رُزق بإسماعيل (ع) وبعد ولادته أمر الله تعالى إبراهيم (ع) بأن يأخذ إسماعيل (ع) وأمه ويذهب به عند بيت الله المحرم وهكذا نفذ إبراهيم أمر الله تعالى وجعل هاجر وإسماعيل بواد غير ذي زرع فلا ماء ولا حتى إنسان ولا حيوان، فتكون المعجزة لإسماعيل وينفجر زمزم وتأتي الناس إلى هذا المكان ويصبح هذا المكان آمناً ويكثر فيه الخيرات.

وبعد أن يكبر إسماعيل بأروع ما يكون من الشباب والفتوة والنبل والجمال، وإذا بإبراهيم (ع) يزور هذه العائلة ويؤمر بذبح إسماعيل وكان هذا في أول تعلق لإبراهيم بابنه إسماعيل، قال تعالى: **(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)**[1].

فهنا عنصر الصبر فالابتلاء يقابله الصبر وهنا أيضاً التفاتة مهمة هي أن الآية الكريمة بيّنت **(لاَ يَنَالُ عَهدِي الظَّالِمِينَ)**، فالظالم هو غير المعصوم حيث أن المعصوم لا يكون ظالماً ولا يُخطئ ولا ينسى ولا يسهو ولا يذنب، وهكذا نجد أن إسماعيل (ع) لم يراجع أباه في هذا الأمر فلم يقل له أنا نبي وأنت نبي وأنا لم أفعل ذنباً حتى تذبحني، فالقصة تبيّن لنا بأن المعصوم دائماً ينفذ أمر ربه دون نقاش ودون مراجعة.

فهنا الاختصار البلاغي البليغ ولكن فيه عبرة، والأمر الثاني أنّ إسماعيل لم يقل لأبيه بأنه ربما سهى في منامه حيث أن الأمر لم يكن في اليقضة، وعليه فإن المعصوم معصومٌ حتى في منامه. فكلاهما أسلما أمرهما لله تعالى، فما يقوله المعصوم لابد من التسليم المطلق له وعدم المراجعة والخضوع لأمره.

---

(1) الصافات، 102.

قال تعالى: **(فَلَمَّا أسلَمَا وَتَلَّهُ لِلجَبينِ* وَنَادَينَاهُ أن يَا إبرَاهِيمُ* قد صَدَّقتَ الرُّؤيَا بالبلاء المبين المُحسِنِينَ* إنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاء المُبِينُ)**[1]، فتعبر الآيات عن هذا الصبر وعن هذا الابتلاء، فكل ابتلاء يحتاج إلى صبر حتى ينجح الإنسان.

فمن خلال آيات قليلة في مادتها كثيرة في مغازيها وفي معانيها تحمل – إضافة إلى حلاوة اللفظ – مضامين عالية وسامية وتبيّن أحكاماً، كيف يكون الإمام وما هي صفات الإمام.

إنّ إبراهيم (ع) في آخر عمره حصل على ذرية، قال تعالى: **(الحَمدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إسمَاعِيلَ وَإسحَقَ إنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء)**[2]. فهذه القصة تبيّن أموراً كثيرة وكذلك قصة طالوت (ع) وكيف أن وظيفة النبي فقط التبليغ، وهذا ما حدث في قضية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) فالنبي (ص) فقط بلّغ الأمة فلم يقل أنا أختار الخليفة أو الإمام من بعدي، قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغ مَا أُنزِلَ إلَيكَ مِن رَّبِّكَ وَإن لَّم تَفعَل فَمَا بَلَّغتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)**[3]. فخطب بهم الرسول (ص) في غديم خم تلك الخطبة الرائعة[4] وبيّن في الحديث الشريف المتواتر: «مَن كنتُ مولاهفعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»[5].

القصص القرآني يبيّن أحكاماً من خلال القصة، فلم ترد الآية الكريمة أو القصة في القرآن الكريم بهذا التصريف إلا لفوائد جمة تستفيدها هذه الأمة. وننتقل إلى موضوع آخر من التصريف البياني في القصص القرآني هو ميزان العدالة في الحكم.

---

(1) الصافات، 103 – 106.
(2) إبراهيم، 39.
(3) المائدة، 67.
(4) راجع: الأميني، العلامة عبد الحسين: الغدير في الكتاب والسنة والأدب، مركز الغدير للدراسات الإسلامية–قم، ط1، 1416 هـ.
(5) المصدر السابق، ج1/ ص 8.

المبحث الثالث: ميزان العدالة في الحكم

هناك كثير من الأنظمة الوضعية تضع ميزاناً للعدالة، والعدالة المطلقة هي العدالة الإلهية حيث لا يستطيع أي إنسان مهما بلغ في أن يأتي بنظام فيه العدالة المطلقة ولذلك ينحصر التشريع بالله تبارك وتعالى، لأن الذي يريد أن يضع قانوناً فيه العدالة مطلقة لابد أن يكون محيطاً بكل شيء وعالماً بكل شيء أي أنّ علمه محيط بكل شيء وليس كذلك إلا الله تبارك وتعالى.

فحتى الأنبياء والمرسلين والأئمة ليس لهم حق التشريع وهذه وحدانية التشريع فإنّنا نؤمن بأن الله تبارك وتعالى هو وحده الذي من حقه أن يشرّع ومن حقه أن يأمر وينهى.

أما إذا جاء التشريع عن طريق الرسول أو النبي أو الإمام فإنه بالعرض أي أنّ الله تعالى يطلعهم على بعض المعلومات أو على بعض الغيب أو كل المعلومات التي يحتاجونها في عملية التشريع الجزئي وبالعرض وليس بالذات.

ميزان العدالة في القرآن الكريم من خلال القصص، يورد الله تبارك وتعالى في قصة داود (ع): **(وَهَل أَتَاكَ نَبَأُ الخَصمِ إِذ تَسَوَّرُوا المِحرَابَ* إِذ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنهُم قَالُوا لا تَخَف خَصمَانِ بَغَى بَعضُنَا عَلَى بَعضٍ فَاحكُم بَينَنَا بِالحَقِّ وَلا تُشطِط وَاهدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)**[1]. في مضمون القصة كما في التفسير: نزل على داود (ع) ملكان من الملائكة إذ دخلا عليه عبر السور ولم يدخلا من الباب، ففزع داود (ع) لأنهما جاءا بطريقة غير معهودة، فقالا نحن خصمان وأحدنا بغى على الآخر فاحكم بيننا بالحق، وبدأ الخصم الأول يسرد قصته على دواد (ع) فقال: **(إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسعٌ وَتِسعُونَ نَعجَةً وَلِيَ نَعجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكفِلنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ)**[2]، إنّ لي نعجة واحدة وأخي له 99 نعجة ومع ذلك أراد أن يضمها إلى نعاجه، أجابه داود (ع) بالحكم قبل أن يستمع إلى إفادة الخصم:

---

(1) ص، 21 و22.
(2) ص، 23.

(قالَ لَقَد ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّن الخُلَطَاء لَيَبغِي بَعضُهُم عَلَى بَعضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُم ..)[1].

حسب بعض التفاسير في هذه القصة أنّ الحكم لابد أن يصدر بعد أن يتم الاستماع إلى الخصمين، ومفهوم العدالة ليس بالكثرة والقلة فربما تكون هذه النعجة ليست من حق الخصم الأول أو أن 99 نعجة ليست من حق الخصم الثاني، وإنما مفهوم العدالة دقيق في القرآن الكريم حيث يرجع إلى مشروعية هذه الملكية لهذه النعاج ثم لابد أن يستمع القاضي أو الحاكم من الطرفين.

هناك قصة تروى أن أحد القضاة وقد جلس بجانبه حكيم فجاءه أحد وعينه مقلوعة وقال للقاضي أن فلاناً قلع عيني، فأصدر القاضي حكمه وأصدر إلى الشرطة بأن يجيئوا بذلك الشخص ويقلعوا عينه، فقال الحكيم للقاضي: اصبر لعل ذلك مصيبته أعظم ولعله يكون مظلوماً، فجاءوا بالثاني وبيده عيناه. فعلى القاضي أن يستمع إلى كلا الخصمين لا أن يُصدر حكماً قبل أن يفهم ما هي حقيقة القضية وما هو الواقع في القضية.

قال تعالى على لسان داود (ع): **(لَقَد ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّن الخُلَطَاء لَيَبغِي بَعضُهُم عَلَى بَعضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُم وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاستَغفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ* فَغَفَرنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلفَى وَحُسنَ مَآبٍ* يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرضِ فَاحكُم بَينَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُم عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَومَ الحِسَابِ)**[2] فهنا تبيّن الآية أن الخلافة جعل من الله تبارك وتعالى وليس بجعل من الناس، وهذه القصة تبيّن لنا مضمون العدالة في القرآن الكريم. وبعض المفسرين يورد بعض الملاحظات على هذه القصة وعلى قضية الحكم في هذه القصة.

الأمر الأول أن الحكم صدر قبل أن يستمع إلى الخصم الثاني فقضى لأحد الخصمين قبل أن يستمع إلى كلام الآخر فإنّ ذلك مدرجة للظلم بل قد يكون ظلماً.

---

(1) ص، 24.
(2) ص، 24 – 26.

الأمر الثاني أنّه لم يكتف الحكم بالقضية المعروضة بل عمّم الحكم والقضاء فتجاوز هذه القضية الجزئية التي أوردها عليه الخصمان وهذا التعميم قد لا ينطبق على بقية القضايا الأخرى.

الأمر الثالث الفصل والتفرقة بين الحكم الظالم والحكم العادل، حيث أن الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة، وأما الحكم الظالم فإنه يكون تحت سلطان الهوى والشهوة. وأن الملوك والحكام المستبدين يكون مصدر شرهم أهواؤهم، فهم يتبعون أهواءهم فيما يحكمون به، وما ينزلونه بالناس، فهم يسنون النظم تبعا لأهوائهم ويطبقونها تبعا لأهوائهم، ويجعلون شيعتهم تسارع إلى تنفيذ أهوائهم، ولا يفهمون المصلحة إلا تابعة لأهوائهم، وليس تبعاً لما يريده الله تبارك وتعالى.

لهذا هنا نهى الله تعالى داود عن اتباع الهوى وهو الخليفة الحاكم بأمر الله تبارك وتعالى لأنّ اتباع الهوى يؤدي إلى فساد الحكم. «ولا شك أن هذا كله يدل على أن القرآن يصرف فيه سبحانه البيان تصريفا ليكون أقرب إلى التأثير والدفع إلى العمل، وليس ذكر القصص للعبرة فقط، بل هو مرشد وهاد مع ذلك إلى أقوم السبيل»[1].

أيضاً نورد بعض البيان في القصص القرآني حيث أن القرآن الكريم ذكر الخضر (ع) وكيف أنّه تعامل مع موسى (ع) ومن خلال هذه القصة نستشف بأن لله أولياء وعندهم من العلوم ومن القدرات والقابليات التي خصّهم الله تعالى بها ما لا يعلمه إلا الله سبحانه.

في قصة الخضر (ع) حكمة وعبرة فتبيّن الآيات أن موسى (ع) كيف يذهب يفتش عن هذا الولي وهو من أولياء الله تعالى وعثر عليه عبر معجزة وكرامة حيث أن الحوت (السمكة) التي كانت عند غلام موسى (ع) وكيف أن السمكة بعد أن كانت محمولة (ميتة) أصبحت حية فأخذت طريقها في البحر، وكذلك أن الخضر (ع) لديه من العلوم الغيبية والغائبة عن علم موسى (ع). نقرأ الآيات الكريمة ثم نتدبر العبر في هذه الآيات، قال تعالى: **(وَإِذ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبرَحُ حَتَّى أَبلُغَ مَجمَعَ البَحرَينِ أَو أَمضِيَ حُقُباً* فَلَمَّا بَلَغَا مَجمَعَ بَينِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحرِ سَرَباً* فَلَمَّا**

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 212.

جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَد لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً* قَالَ أَرَأَيتَ إِذ أَوَينَا إِلَى الصَّخرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلا الشَّيطَانُ أَن أَذكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحرِ عَجَباً* قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبغِ فَارتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً* فَوَجَدَا عَبداً مِّن عِبَادِنَا آتَينَاهُ رَحمَةً مِن عِندِنَا وَعَلَّمنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلماً* قَالَ لَهُ مُوسَى هَل أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمتَ رُشداً)[1].

هنا تبيّن الآيات بأن الخضر (ع) كان الأستاذ المتبوع وموسى (ع) التلميذ والتابع مع أن موسى (ع) نبي ورسول ومن أولي العزم، فأجابه الخضر (ع): **(قَالَ إِنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِيَ صَبراً* وَكَيفَ تَصبِرُ عَلَى مَا لَم تُحِط بِهِ خُبراً)**[2].

إن الخضر (ع) لم يقبل بموسى (ع) تلميذاً في مدرسته وفي هذا العلم وأخبره بالنتيجة أنّك لن تستطيع الصبر، و«لن» تفيد النفي والتأبيد يعني ليس الآن فقط وإنما إلى الأبد أنت لا تستطيع الصبر ولذلك لا أستطيع أن أعلمك.

فأجابه موسى (ع): **(قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ صَابِراً وَلا أَعصِي لَكَ أَمراً)**[3].

فاشترط الخضر (ع) على موسى (ع) أن لا يسأله عن شيء، قال تعالى:**(قَالَ فَإِنِ اتَّبَعتَنِي فَلا تَسأَلنِي عَن شَيءٍ حَتَّى أُحدِثَ لَكَ مِنهُ ذِكراً* فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقتَهَا لِتُغرِقَ أَهلَهَا لَقَد جِئتَ شَيئاً إِمراً* قَالَ أَلَم أَقُل إِنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِيَ صَبراً* قَالَ لا تُؤَاخِذنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرهِقنِي مِن أَمرِي عُسراً* فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلتَ نَفساً زَكِيَّةً بِغَيرِ نَفسٍ لَّقَد جِئتَ شَيئاً نُّكراً* قَالَ أَلَم أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِي صَبراً* قَالَ إِن سَأَلتُكَ عَن شَيءٍ بَعدَهَا فَلا تُصَاحِبنِي قَد بَلَغتَ مِن لَّدُنِّي عُذراً* فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهلَ قَريَةٍ استَطعَمَا أَهلَهَا فَأَبَوا أَن**

(1) الكهف، 60 – 66.
(2) الكهف، 67 و68.
(3) الكهف، 69.

يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَو شِئتَ لاتَّخَذتَ عَلَيهِ أَجراً)[1].

هذه الآيات تبين بأن الخضر (ع) يخرق السفينة ثم يقتل الغلام ثم أقام الجدار، وفي هذه الحالات الثلاثة كان موسى (ع) يسأل ولا يصبر وكما قال الخضر (ع) لم يستطع نبي الله موسى (ع) الصبر.

بالنتيجة يقول له الخضر (ع): **(قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَينِي وَبَينِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأوِيلِ مَا لَم تَستَطِع عَّلَيهِ صَبراً* أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَت لِمَسَاكِينَ يَعمَلُونَ فِي البَحرِ فَأَرَدتُّ أَن أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصباً* وَأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤمِنَينِ فَخَشِينَا أَن يُرهِقَهُمَا طُغيَاناً وَكُفراً* فَأَرَدنَا أَن يُبدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيراً مِّنهُ زَكَاةً وَأَقرَبَ رُحماً* وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَينِ يَتِيمَينِ فِي المَدِينَةِ وَكَانَ تَحتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَستَخرِجَا كَنزَهُمَا رَحمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلتُهُ عَن أَمرِي ذَلِكَ تَأوِيلُ مَا لَم تَسطِع عَّلَيهِ صَبراً)**[2].

يقول الخضر (ع): إنّ كل هذه الأمور التي أجريتها ليست من أمري، وهذا ما لم تستطع عليه صبرا.

هذه القصة بهذه الوجازة وبهذه البلاغة وبهذا التصريف فيها من العبر العظيمة والتي تبين مستويات أولياء الله في العلم وكيف أن الإنسان مهما أوتي من علم يبقى يقول: **(وَقُل رَّبِّ زِدنِي عِلماً)**[3]، وينطبق عليه قوله تعالى: **(وَمَا أُوتِيتُم مِّن العِلمِ إِلاَّ قَلِيلاً)**[4].

---

(1) الكهف، 70 – 77.
(2) الكهف، 78 – 82.
(3) مريم، 114.
(4) الإسراء (بني إسرائيل)، 85.

الفصل الحادي عشر

الصرفة

إن الصرفة قد قال بها جمع من العلماء في القرن الثالث الهجري وخاصة من علماء المعتزلة وتابعهم في ذلك بعض الإمامية.

أولاً لابد أن نعرف معنى الصرفة. القرآن الكريم من حيث بلاغته وأسلوبه ونظمه وفصاحة كلماته وعذوبة الألفاظ كل ذلك مما لا شكّ فيه حيث اتفق الجميع على أنّ القرآن الكريم بالقمة في هذه الأمور، ولكن هناك مَن ذهب إلى الصرفة يقول إنّ القرآن الكريم هو أيضاً بالقمة في هذه الأمور التي ذكرناها ولكن البلغاء لا يعجزون عن الاتيان بمثله وإنما الله تعالى صرف هممهم أو سلبهم أن يأتوا بمثل القرآن الكريم.

بتعبير آخر إنّ الذي يقول بالصرفة من العلماء يرى أنّ القرآن الكريم ليس معجزاً بذاته أي أنّ البلغاء قادرون على الاتيان بمثله ولكن الله تعالى صرفهم عن الاتيان بمثله.

أما الذين يذهبون إلى أنّ القرآن مُعجز بذاته من حيث بلاغته وفصاحته وأسلوبه ونظمه فهم يرون أنّ القرآن الكريم بذاته لا يستطيع الناس ويعجزون عن الاتيان بمثله، لا أنّ الله تعالى صرفهم عن الاتيان بمثله أو سلبهم ما يمكنون به الاتيان بمثل القرآن.

هذا هو جوهر الخلاف بين مَن يقول بأنّ القرآن الكريم معجز بالصرف يعني أنّ الله تعالى صرف الآخرين عن الاتيان بمثله ولكن من حيث الأصل هم قادرون على الاتيان بمثله وبين مَن يقول بأن القرآن الكريم معجز بذاته أي أنّه ببلاغته من حيث نظمه وأسلوبه يعجز الآخرون عن الاتيان بمثله فهو بالقمة التي لا يرقى إليها أحد في البلاغة والفصاحة والنظم وحلاوة الألفاظ.

إن أول مَن قال بالصرفة هو أبو إسحاق النظام من المعتزلة وتابعه في ذلك أبو إسحاق النصيبي وعباد بن سليمان الصيمري وهشام بن عمرو الفوطي وأبو الحسن الرماني، كل هؤلاء من علماء المعتزلة قالوا بأن القرآن الكريم معجز ولكنه معجزٌ لا بذاته وإنما البلغاء قادرون أن يأتوا بمثله ولكن الله تعالى صرفهم وسلبهم ما عندهم من الإمكانات البلاغية بأن يأتوا بمثله.

ومن الإمامية مَن قال بالصرفة الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان الشريف المرتضى وكذلك ابن سنان الخفاجي الذي ذكر ذلك في كتابه «سر الفصاحة». وأما الشريف المرتضى فقد تابع أستاذه الشيخ المفيد في هذه المسألة ويرى بأن القرآن معجزٌ بالصرف.

أما الشيخ الطوسي فله رأيان في هذه المسألة: رأيٌ قال في شرحه للجمل لكتاب أستاذه السيد المرتضى، والشيخ الطوسي تتلمذ في البداية على يد الشيخ المفيد بمقدار ما يقارب أربع سنوات ونصف وبعد وفاة الشيخ المفيد انتقل الشيخ الطوسي إلى حلقة السيد المرتضى وتتلمذ على يده إلى ما يقارب 20 سنة، فالشيخ الطوسي في بادئ أمره تابع أستاذه السيد المرتضى والمفيد في مسألة الصرفة وذكر ذلك في كتابه «شرح الجمل» الذي شرح فيه كتاب «الجمل» للشريف المرتضى. بعد ذلك رجع الشيخ الطوسي عن القول بالصرفة في كتابه «الاقتصاد» وذهب إلى أن القرآن الكريم معجزٌ بذاته.

قبل أن ندخل بأقوال هؤلاء الأعلام لابد أن نعرف بأنّ الذين قالوا بالصرفة اختزلوا هذه الأمور – الله تبارك وتعالى صرف همم العباد عن أن يأتوا بمثله – بثلاثة آراء:

الرأي الأول: أنّه صرف دواعيهم وهممهم عن المعارضة، أي لم يجعل همّتهم في أن يعارضوا القرآن الكريم.

الرأي الثاني: أنّ الله تعالى سلبهم العلوم التي كان عليها العرب من حيث البلاغة والفصاحة وما شاكل ذلك فلم يأتوا بمثل القرآن الكريم.

الرأي الثالث: إن البلغاء كانوا قادرين على المعارضة ومجهّزين بالعلوم الكافية بأن يأتوا بمثله، أي أنّ الله تعالى لم يسلبهم الهمة والقدرة على المعارضة – كما هو في الرأي الأول-، وكذلك لم يسلبهم العلوم – حسب الرأي الثاني -، مع توفر دواعي المعارضة فلم يمنعه بأن يأتوا بمثل القرآن الكريم إلا أنّ الله تبارك وتعالى ألجأهم بأن لا يأتوا بمثل القرآن الكريم وتقهقروا ولم يتمكنوا من الاتيان بمثله.

يشبه الرأي الثالث قولهم بأنّه لو جاء نبي لقومه وقال لهم أنكم أصحاء وقادرون على أن تحركوا أيديكم أو أن تمدوا أرجلكم فالله تعالى أعطاكم هذه القدرة وهذه القابلية ولكن معجزتي أتحداكم أن تحركوا أيديكم

أو أن تمدوا أرجلكم وأنتم أصحاء، فمعجزتي أن أصرفكم عن هذا التحرك مع وجود هذه القدرة لديكم. فأصحاب الرأي بالصرفة يقولون بأن القرآن معجز لا بذاته والله تعالى مع وجود القدرة بالاتيان بمثل القرآن ومع وجود العلوم أنّهم لم تصرف هممهم ولكن الله تعالى منعهم وقهرهم على أن لا يأتوا بمثله.

هذه ثلاثة آراء ملخص آراء المعتزلة الذين قالوا بالصرفة. أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت 296هـ) يقول: «وأما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة. وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول»(1).

وأما النظّام وهو أول مَن قال بالصرفة فيقول: «الآية والاعجوبة في القرآن ما فيه من الاخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أن الله منعهم بمنعٍ وعجزٍ أحدثهما فيهم»(2).

فأبو إسحاق النظام يقول بأن القرآن من حيث البلاغة ليس معجزاً بذاته وإنّ الناس قادرون على الاتيان بمثله ولكن الله تعالى منعهم وأعجزهم عن الاتيان بمثله، والقرآن معجز من حيث الاخبار بالمغيبات.

طبعاً هذا الرأي إذا أردنا مناقشته فلا يصمد للنقاش لأنّه ليس في كل آية أو في كل سورة اخبار بالمغيبات، والقرآن تحدى الجميع أن يأتوا بسورة، قال تعالى: **(وَإِن كُنتُم فِي رَيبٍ مِّمَّا نَزَّلنَا عَلَى عَبدِنَا فَأتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثلِهِ ..)**(3)، فهل في كل سورة اخبار بالمغيبات ؟!

فإذا لم يكن كذلك فكيف يسلم رأي النظام من هذه الناحية. وقال النظام أيضاً: «إنه من حيث الأخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة

---

(1) بنت الشاطئ، د. عائشة عبد الرحمن: الاعجاز البياني للقران ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، ط3، القاهرة، 2004. ج1/ ص 87.

(2) الباقلاني، محمد بن الطيب: إعجاز القرآن، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1971. ص 65، هامش رقم 4.

(3) البقرة، 23.

صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب من الاهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً»[1].

أما رأي الشريف المرتضى فيقول: «إنّ الله تعالى سلب العرب العلوم التي كانت تتأتى منهم بها الفصاحة التي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة، ولو لم يسلبهم ذلك لكان يتأتى منهم»[2]. فالشريف المرتضى يرى بأن الهمم موجودة ولكن الله تعالى سلبهم العلوم التي يستطيعون بها أن يأتوا بمثل القرآن.

أما الشيخ الطوسي فيقول: «أن القرآن معجز، سواء كان معجزاً خارقاً للعادة بفصاحته فلذلك لم يعارضوه أو لان الله تعالى صرفهم عن معارضته ولولا الصرف لعارضوا»[3].كان هذا رأيه الأول، وقال أيضاً: «.. إنّ التحدي إنما وقع لعجزهم عن معارضته في المستقبل لا بأنه ليس في كلامهم مثله، ولو كان في كلامهم مثله لكان ترك المعارضة في المستقبل أبلغ وأعظم في باب العجز»[4].

هنا يرد الشيخ الطوسي على القائلين بالصرفة حيث قال: «إنّ القائلين بالصرفة يقولون ان مثل ذلك كان في كلامهم وخطبهم وإنما صرفوا عن معارضته في المستقبل، فلا معنى لكونه أفصح»[5]. ثم يقول: «وأما قولُهم إنّه كان في كلامهم ما هو مثل القرآن، فلا يتوجه على أصحاب الصرفة لأنّهم يسلمون ذلك، لكنهم يقولون إنّهم مُنعوا من مثله في المستقبل فلا ينفع بأن ذلك فيما مضى منهم موجود، بل ذلك يؤكّد الحجة عليهم»[6].

---

(1) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، ط2، لبنان، 1992. ج1/ ص 50.

(2) الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن: الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، مكتبة جامع جهلستون– طهران، 1400هـ. ص 172.

(3) المصدر السابق، ص 170.

(4) المصدر السابق، ص 170.

(5) المصدر السابق، ص 171.

(6) الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن: تمهيد الأصول في علم الكلام، (شرح القسم الأول من رسالة «جمل العلم والعمل» للشريف المرتضى)، دار رائد، ط1، قم، 1394هـ. ص 479 – 480.

هذه، بعض آراء الذين قالوا بالصرفة، وردّ عليهم العلماء بحجج وأدلة، فنأخذ من هذه الحجج والأدلة كما يلي:

<u>الدليل الأول</u>: أنّ القرآن الكريم لو كان معجزاً بالصرفة، أي صرف العباد على الاتيان بمثله ابتدأ بعد البعثة، ولذلك فإنّ أغلب بلغاء العرب وفصحائهم كانوا قبل البعثة فكانوا قادرين على الاتيان بمثله، معنى ذلك أنّه في كلامهم وخطبهم واشعارهم لم يوجد ما يقارب كلام الإله، فلو تتبعنا كلام العرب الماضيين السابقين على البعثة لم نجد في كلامهم ما يضاهي القرآن الكريم أو يقارب الكريم في فصاحته.

إذن يسقط القول بالصرف لأنّه لو استقرأنا كلام العرب السابقين على البعثة النبوية الشريفة لما وجدنا في كلامهم ذلك، وعليه لا يستقيم القول بالصرفة باعتبار أن الذين جاءوا بعد البعثة صرفوا عن الاتيان بمثله أما السابقون فلهم الامكانية على أن يقولوا بمثل القرآن. إنّ أي أديب أو ناقد يقارن بين كلام السابقين من حيث البلاغة والقرآن فهل هو بنفس المستوى أو أن بلاغة العرب أبلغ أو أنّ القرآن الكريم أبلغ ؟ حيث أن أولئك لم يصرفوا عن الاتيان بمثل القرآن ولا يوجد هذا في كلام العرب.

وعليه فإنّ القرآن الكريم معجز بذاته من حيث البلاغة لو قُورن القرآن بكلام أي بليغ فهو يفوقه بما له من بلاغة لا يقارن.

<u>الدليل الثاني</u>: لو أنّهم صُرفوا بعد البعثة عن الاتيان بمثله وكان في كلام العرب ما يضاهي القرآن الكريم أو يقاربه لاحتجوا بذلك وقالوا أنّك تحتج علينا يا محمد (ص) بالقرآن وأننا لا نستطيع أن نأتي بمثله هاك الكلام من الشاعر الفلاني أو الخطيب الفلاني ما يضاهي القرآن. ولكن لم يحتج أحد منهم بذلك لأنّهم رأوا في سمو بلاغة القرآن ما لا يُضاهى حيث وقع منهم الدهشة ووصفوه بالسحر ... الخ.

<u>الدليل الثالث</u>: أنّه لو كان القرآن الكريم بالصرفة لكان لا يحتاج القمة في البلاغة بل كان أبسط كلام مبتذل وأي كلام بسيط. « فلو كان وجه الإعجاز في نكتة الصرفة، لكفى في ذلك أن يكون القرآن كلاماً مبذولاً ومرذولاً للغاية، وركيكاً حدّ النهاية، لكن كلّما أراد سفلة الناس وأوباشهم،

الذين يقدرون على صنع مثل تلك الكلم، الإتيان بمثله، حال سبحانه بينهم وبين مباراته. وهو كما ترى، لا يتفوّه به من له إلمام بهذه المباحث»[1].

الدليل الرابع: لو عجز العرب عن الاتيان بمثل القرآن الكريم لطارئ طرأ عليهم وهو الصرف لشعروا بذلك، وذكروا ذلك وقالوا بأنهم كانوا قادرين على هذا والآن أصبحتُ لا أتمكن. ولكن لم يخبرنا أحد ولم يرد لا من المسلمين ولا من أعداء الإسلام، ومعنى ذلك أن القرآن معجز بذاته وليس بالصرف. «فلو كان عجز العرب عن المقابلة، لِطاريءِ مباغت أبطل قواهم البيانية، لأُثر عنهم أنَّهم حاولوا المعارضة ففوجئوا بما ليس في حسبانهم، ولَكان ذلك مثار عجب لهم، ولأعلنوا ذلك في الناس، ليلتمسوا العُذْر لأنفسهم وليقللوا من شأن القرآن في ذاته.وقد أشار إلى هذا الوجه علي بن عيسى الرماني في نكت الإعجاز، كما أشار إليه الإمام يحيى بن حمزة العلوي، قال: إنّهم لو صُرفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها، لوجب أن يَعْلَموا ذلك من أنفسهم بالضرورة، وأنْ يُميزوا بين أوقات المنع والتخلية. ولو علموا ذلك، لوجب أن يتذاكروا في حال هذا المعجز على جهة التعجّب. ولو تذاكروه، لظهر وانتشر على حدّ التواتر. فلمّا لم يكن ذلك، دّلّ على بطلان مذهبهم في الصرفة»[2].

الدليل الخامس: «إنّ القول بالصرفة، يستلزم القول بأن العرب قد تراجعت حالها في الفصاحة والبلاغة،، وفي جودة النظم وشرف الأسلوب وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم، وعدموا الكثير ممّا كانوا يستطيعون، وأن تكون أشعارهم الّتي قالوها، والخطب الّتي قاموا بها من بعد أن أوحى الله إلى النبي، قاصرةً عمّا سمع منهم من قبل ذلك، القصور الشديد، وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال كان يتسع لهم، ونضبت عنهم موارد قد كانت تغزر، وخذلتهم قوى كانوا يصولون بها، وأن تكون أشعار شعراء النبي الّتي قالوها، في مدحه عليه السَّلام، وفي الردّ على المشركين، ناقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية، وأن يكون شعر حسان بعد الإسلام دون شعره قبله، والكل كما ترى»[3].

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 347.

(2) المصدر السابق، ج3/ ص 248.

(3) نفس المصدر، ج3/ ص 248.

الدليل السادس: هل أن القول بالصرفة يشمل النبي (ص) ؟ فحتى النبي (ص) صُرف عن الاتيان بمثل القرآن، فهل بلاغة النبي (ص) تغيّرت قبل البعثة وبعدها ؟ طبعاً لا أحد يقول بذلك.

الدليل السابع: «فلو كان العرب قبل البعثة قادرين على الإتيان بكلام يشبه القرآن ويضاهيه، فلماذا اندهش الوليد بن المغيرة عندما سمع آيات من سورة فصلت وقال: «لقد سمعت من محمد كلاماً لا يشبه كلام الإنس والجن»، ولماذا ارتمى عتبة بن ربيعة مدهوشاً مبهوتاً ملقياً يديه وراء ظهره متكياً عليهما، مشدقاً بفيه مصعوقاً عندما سمع بعض آيات القرآن من النبي الصادع بالحق. فلو كانت فصاحة القرآن وبلاغته أو نظمه وأسلوبه من حيث العذوبة والأناقة على نمط كلام الآخرين من فصحاء العرب وبلغائهم، فلم اهتزوا وتأثروا بسماع آية أو آيات منه ولم تكن لهم هذه الحالة في سماع شعر امرئ القيس، ولا عنترة، ولا غيرهما من أصحاب المعلقات، ولا من سماع خطب قس بن ساعدة وسحبان بن وائل وغيرهما من أصحاب الخطب والكلام»[1].

اذن نخلص إلى القول بأنّ القرآن معجز بذاته. الخطابي (ت 319) – وهو من العلماء الذي ردّوا على القائلين بالصرفة – يقول: «وذهب قوم إلى أنّ العلّة في إعجازه الصرفة أي صرف الهِمَم عن المعارضة، وإن كانت مقدوراً عليها، غيرمعجوز عنها، إلاّ أنّ العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات، صار كسائر المعجزات فقالوا: ولو كان الله عز وجل بعث نبياً في زمان النبوات، وجعل معجزته في تحريك يده أو مَدّ رجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه، ثم قيل له: ما آيتك ؟فقال: آيتي أن أُخرج يدي أو أَمُدّ رجلي ولا يمكن أحداً منكم أن يفعل مثل فعلي، والقوم أصحاء الأبدان، لا آفة بشيء من جوارحهم، فحرّك يده أو مدّ رجله فراموا أن يفعلوا مثل فعله، فلم يقدروا عليه، كان ذلك آية دالّة على صدقه. وليس

---

(1) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مصدر سابق، ج3/ ص 345.

ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي، ولا إلى فخامة منظره»[1].

فالخطابي بعد أن ينقل رأي الذين يقولون بالصرفة، يردّ عليهم بقوله: «إن قوله سبحانه **(قُل لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أن يَأتُوا بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لاَ يَأتُونَ بِمِثلِهِ وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيراً)**[2]، فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها»[3].

نكتفي بهذا القدر وننتقل إلى موضوع آخر وهو المحكم والمتشابه.

---

(1) الخطابي، الرماني،الجرجاني: ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط3، القاهرة – مصر، 1976. ص 22 – 23.

(2) الإسراء (بني إسرائيل)، 88.

(3) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، مصدر سابق، ص 23.

الفصل الثاني عشر

الاستفهام وبلاغته في القرآن الكريم

انفرد القرآن الكريم في بلاغته في موضوع الاستفهام وأنواعه والأغراض التي يخرج إليها حتى تشكلت ظواهر في استعمال القرآن الكريم للاستفهام وأنواعه، فحتى الظواهر التي كانت نادرة الاستعمال وقليلة في البلاغة العربية قبل نزول القرآن الكريم، ولكن القرآن الكريم استعملها حتى شكّلت ظاهرة غالبة في موضوعنا في شتى استعمال الاستفهام، سواء كان الاستفهام التقريري أو الاستفهام الانكاري أو الاستفهام لنفي النفي للاثبات أو الاستفهام للتسوية أو لمنع التسوية.

لكن قبل أن نبدأ بهذه الأغراض التي خرج إليها الاستفهام وبلاغة الاستفهام في القرآن لابد أن نشير إلى الظواهر التي شكلت ظاهرة بلاغية في موضوع الاستفهام في القرآن الكريم:

الظاهرة الأولى: الاستفهام الداخل على النفي: ترد في القرآن الكريم بعض الآيات فيها استفهام ويعقب أداة الاستفهام أداة نفي. وهذه الظاهرة مستعملة كثيراً في القرآن الكريم ويُراد بها التقرير أو الاثبات أو ما يُصطلح عليه بالمنطق بـ«نفي النفي للاثبات» فمثلاً في قوله تعالى: **(أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوقَهُم كَيفَ بَنَينَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ)**[1]، وهنا **(أَفَلَم يَنظُرُوا)** «لم» أداة نفي، والهمزة هي همزة الاستفهام فهذه الهمزة دخلت على «لم» ثم جاء الفعل، «لم ينظروا» نفي ودخلت أداة الاستفهام فصار نفي النفي للاثبات، حيث أن القرآن يطلب منهم ويأمرهم أن ينظروا ولكن بصيغة الاستفهام.

وهكذا في قوله تعالى: **(أَلَم نَشرَح لَكَ صَدرَكَ)**[2] وهو في موضع الامتنان من الله تبارك وتعالى، حيث أن الآية لا تريد أن تنفي شرح الصدر عن الرسول (ص) وإنما تريد أن تثبت هذا الأمر، فهمزة الاستفهام دخلت على «لم» فالاستفهام إنكاري حيث أن هذه الهمزة استفهام أنكاري وكذلك «لم» أداة نفي فأصبح هناك نفيان، ونفي النفي إثبات كما يقول أهل المنطق، فهنا اثبات وتقرير لانشراح الصدر لرسول الله (ص).

---

(1) ق، 6.
(2) الانشراح، 1.

وكذلك عندما نقرأ الآية الكريمة: **(أَلَم يَأتِكُم نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبلِكُم)**[1]، فهنا أيضاً نفس الشيء أن الهمزة للاستفهام الانكاري و«لم» أداة نفي وجزم فأصبح لدينا نفي النفي اثبات.

فأصبحت هذه الظاهرة تستعمل في القرآن بشكل كثير، وهذا الاستعمال أخرجها من النفي ومن الاستفهام الانكاري إلى التقرير والاثبات، ويخرج لأغراض كثيرة كالتذكير بالنعمة والحث أو التحريض أو ما شاكل ذلك.

<u>الظاهرة الثانية: الاستفهام التقريري</u>: والذي يُعبر عنه بصيغة لم تكن مألوفة بشكل كبير عند العرب قبل الإسلام وهي صيغة مجيء تاء الخطاب وكاف الخطاب بعد همزة الاستفهام في كلمة واحدة، مثل قوله تعالى: **(قُل أَرَأَيتَكُم إِن أَتَاكُم عَذَابُ اللهِ بَغتَةً أَو جَهرَةً هَل يُهلَكُ إِلاَّ القَومُ الظَّالِمُونَ)**[2]، فهنا **(أَرَأَيتَكُم)** الهمزة الأولى للاستفهام والتاء هي تاء المخاطب كما في قوله تعالى: **(أَرَأَيتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ)**[3]، ولكن هنا إضافة إلى تاء الخطاب انصرف الخطاب إلى الجماعة **(أَرَأَيتَكُم)**.

فدخول تاء الخطاب ثم تنصرف إلى خطاب الجماعة لم تكن مما عهده العرب بالجاهلية ولكن القرآن الكريم استعمالها وجاءت بصيغة بلاغية يمزج فيها بين ضميرين:

ضمير المخاطب والذي هنا الرسول (ص) ثم الجماعة وهم الذين يُهدّدون بالعذاب. فصيغة خطابين موجود في الكلمة ظاهرة استعملها القرآن الكريم وهي ظاهرة بلاغية من اختصاص القرآن الكريم ومن انفراد القرآن بحيث أن الزمخشري أفرد لهذه الظاهرة كلاماً فقال:

«ضمير خطاب وحرف خطاب، هو استعمال قرآني، لا أعرف أن العرب قد استعملوه كثيرا قبل القرآن، وفيه من معاني الاستنكار أو التنبيه

---

(1) إبراهيم، 9.
(2) الأنعام، 47.
(3) الماعون، 1.

أو التعجب في أبلغ صور، وأن هذا من سر الإعجاز، ودليل على أن القرآن لم يكن علمه البياني عند العرب من قبله»[1].

كذلك ورد في قوله تعالى على لسان إبليس: **(قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ)**[2] فهنا أيضاً التاء للخطاب وكذلك الكاف، وهمزة الاستفهام دخلت على الفعل «رأيت».

إنّ ظاهرة الاستفهام بكل أبعاده وبكل أغراضه وأنواعه خرجت إلى أغراض كثيرة وشكّلت ظاهرة في الاستعمال في القرآن الكريم من حيث المعاني البلاغية التي خرج إليها الاستفهام في القرآن الكريم. ونذكر الأغراض التي خرج إليها الاستفهام:

- «الأمْر»: حيث أن الاستفهام يأتي في القرآن الكريم يُراد به الأمر، يريد أن يأمر كقوله تعالى – والتي هي أداة الاستفهام دخلت على الجملة قلبتها إلى أمر –: **(فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ)**[3].
- «النهي»: مثل قوله تعالى: **(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)**[4] فهنا أداة الاستفهام وهي الهمزة دخلت على الجملة الفعلية وقلبت هذا الاستفهام إلى نهي، فالله تعالى نهاهم أن يخشوا هؤلاء الأعداء، فهنا الاستفهام خرج بصيغة النهي ولم يُرد منه الاستفهام. يعني لا تخشونهم وإنما الخشية تنحصر لله تعالى، ولكن من الناحية البلاغية إذا جاء النهي بصيغة «لا تخشوهم» تكون **(أَتَخْشَوْنَهُمْ)** التي فيها النفي ودخول الاستفهام وخروجها إلى النهي أبلغ في اللغة العربية أي أبلغ من أن يقول «لا تخشوهم» وبما أن القرآن يستعمل أبلغ الكلام في اللغة ويأخذ في كل مراتب وطبقات البلاغة أبلغ مافيها ولذلك استعمل هذا الأسلوب في الاستفهام.

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 241.
(2) الإسراء، 62.
(3) المائدة، 91.
(4) التوبة (براءة)، 13.

- «النفي»: كما في قوله تعالى: **(هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلا الْإِحْسَانُ)**[1]، وهنا أيضاً خرج الاستفهام إلى النفي حيث جاءت الجملة بصيغة الاستفهام، فيريد أن يقول «ليس جزاء الاحسان إلا الاحسان» ولكن جاء بهذه الصيغة البلاغية فخرجت من صيغة الاستفهام إلى معنى النفي.

- «التشويق»: كقوله تعالى: **(هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّن عَذَابٍ أَلِيمٍ)**[2]، فهنا أيضاً «هل» أداة الاستفهام والجملة الفعلية «أدلكم» التي دخل عليها أداة الاستفهام «هل»، ولم يُرد فيها الاستفهام، فكما ذكرنا سابقاً بما ان الاستفهام صادر من الخالق تبارك وتعالى فهو لا يطلب العلم لأنّه العالم بكل شيء فإذاً لابد أن تخرج إلى أغراض أخر ومعاني أخرى. وفي هذه الآية الكريمة يريد تعالى أن يشوقهم إلى هذه التجارة.

- «الاستئناس»: مثل قوله تعالى: **(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى أَلِيمٍ)**[3]، فالله تعالى يعلم أن بيد موسى (ع) هي العصا، ولكنه يريد أن يؤنس دهشة موسى (ع) واستغرابه في تلك الحالة التي يخاطبه فيها بطور سيناء حتى يهدّئ من روع موسى (ع)، ولذلك فإن موسى (ع) عندما أجاب أطال في الكلام وأسهب، وهذه الاطالة والاسهاب نابعة من رغبة موسى (ع) وشوقه في الكلام مع الله تبارك وتعالى: **(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)**[4]، وكان (ع) يستطيع أن يقول «عصا» ويكتفي ولكنه كرّر هذه الكلمات وأسهب وأطال والهدف من ذلك استئناسه بالكلام مع الله تعالى.

- «التهويل»: في قوله تعالى: **(الحَاقَّةُ* مَا الحَاقَّةُ* وَمَا أدرَاكَ مَا الحَاقَّةُ)**[5]، فهذه الصيغ الاستفهامية التي وردت في الآية الكريمة الهدف منها ليس الاستفهام وإنما هو التهويل، أي يهوّل عظم يوم

---

(1) الرحمن، 60.
(2) الصف، 10.
(3) طـه، 17.
(4) طـه، 18.
(5) الحاقة، 1 – 3.

القيامة وعِظم تلك الساعة، وكذلك في قوله تعالى: (**الْقَارِعَةُ* مَا الْقَارِعَةُ* وَمَا أَدرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**)[1].

- «التعجب»: قال تعالى – على لسان الكافرين –: (**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسوَاقِ**)[2]، فهنا هم يتعجبون وهي صيغة استفهام حيث أن «ما» أداة استفهام ولكنها خرجت إلى صيغة التعجب، فهم يتعجبون كيف أن هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فخرجت هذه الصيغة الاستفهامية إلى معنى التعجب.

- «التعظيم»: كقوله تعالى: (**مَن ذَا الَّذِي يَشفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذنِهِ**)[3]، فهنا صيغة استفهام ولكن الله لا يسأل «مَن الذي يشفع عند الله تعالى» ولكن يريد أن يعظّم مقام الخالق وتعظيم ذاته المقدسة، وأنّه لا يشفع عند الله تعالى إلا باذن الله، أي أن الشفاعة تأتي بعد أن الله تعالى. فاثبات للشفاعة وأنها باذن الله وأيضاً مقام تعظيم للذات الإلهية. فخرج الاستفهام في هذه الآية لغرض التعظيم.

- «الوعيد»: كما في قوله تعالى: (**أَلَم تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ**)[4]، فهنا أداة الاستفهام وأداة النفي، وذكرنا انّه عندما تدخل أداة الاستفهام الانكاري على أداة النفي يكون اثبات للأمر، فهنا أثبت حصول الفعل ولكن يريد من هذا أن يتوعد هؤلاء، أي أنّه كما فعل بقوم عاد وكما فعل بأصحاب الفيل: (**أَلَم تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصحَابِ الفِيلِ**)[5]. فهنا لا يريد الاستفسار أو الاستفهام، وإنما يريد أن يتوعد هؤلاء على فعلهم.

- «التنبيه على الخطأ»: قال تعالى: (**أَتَستَبدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدنَى بِالَّذِي هُوَ خَيرٌ**)[6]، إن قوم موسى طلبوا من موسى (ع) أن يستبدلوا المن والسلوى بأنواع من الطعام: (**وَإِذ قُلتُم يَا مُوسَى لَن نَّصبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ**

---

(1) القارعة، 1 – 3.
(2) الفرقان، 7.
(3) البقرة، 255.
(4) الفجر، 6.
(5) الفيل، 1.
(6) البقرة، 61.

وَاحِدٍ فَادعُ لَنَا رَبَّكَ يُخرِج لَنَا مِمَّا تُنبتُ الأَرضُ مِن بَقلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا)[1]، فأجابهم موسى (ع) – بصيغة الاستفهام –: **(أَتَستَبدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدنَى بِالَّذِي هُوَ خَيرٌ)**، فهو (ع) يريد أن ينبههم إلى خطأ هذا الفعل وخطأ هذا الاستبدال.

- «الافحام والرد»: مثل قوله تعالى: **(وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحنُ أَبنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم)**[2]، يعني إذا كنتم أبناء الله وأحباؤه فلم يعذبكم الله، فلو كنتم كذلك إذن لما حصل التعذيب لما اقترفت أيديكم، وأنتم ليس أبناء الله ولا أحباؤه لأنه أنتم اقترفتم الذنوب والله يعذبكم عليها. فدخلت أداة الاستفهام «لِمَ» أي «لماذا» على الجملة الفعلية فأثبت أنتم على خطأ وردت على ادعائهم بمعنى افحام ورد في آنٍ واحد وجاءت بصيغة الاستفهام.

- «إنكار التسوية»: أحياناً القرآن الكريم يأتي بصيغة الاستفهام ويثبت التسوية، وأحياناً أخرى القرآن الكريم يأتي بصيغة الاستفهام ولكن ينكر التسوية، فمما جاء في إنكار التسوية قوله تعالى: **(أَجَعَلتُم سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسجِدِ الحَرَامِ كَمَن آمَنَ بِاللّهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَستَوُونَ عِندَ اللّهِ)**[3]، فالهمزة للاستفهام دخلت على الجملة الفعلية، فهنا يريد تعالى أن يُنكر عليهم هذه التسوية، يعني استفهام انكاري هدفه أو غرضه إنكار هذه التسوية، أنه لا يستوي مَن آمن بالله واليوم الآخر مع الذي يعمر المسجد الحرام ويسقي الحجاج، فالإيمان لا يعادل ولا يساوى بعمارة المسجد وسقاية الحاج.

- «إنكار الوقوع إلى حد الاستحالة»: أنّه تأتي صيغة الاستفهام مثل قوله تعالى: **(وَإِذ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابنَ مَريَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَينِ مِن دُونِ اللّهِ)**[4]، إن الله يعلم بأنّ عيسى (ع) لم يقل ذلك ولكنه جاء بصيغة الاستفهام لإنكار الوقوع مثل هذا الفعل واستحالة أن

(1) البقرة، 61.
(2) المائدة، 18.
(3) التوبة (براءة)، 19.
(4) المائدة، 116.

يقول عيسى ذلك، والدليل على ذلك أن عيسى (ع) عندما أجاب الباري تبارك وتعالى قال: **(سُبحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أن أقُولَ مَا لَيسَ لِي بِحَقٍّ إن كُنتُ قُلتُهُ فَقد عَلِمتَهُ تَعلَمُ مَـا فِي نَفسِي وَلاَ أعلَمُ مَا فِي نَفسِكَ إنَّكَ أنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ)**[1]، بمعنى أنه ليس من حقي أن أقول ذلك ولا يمكن أن أقول ذلك، فإجابة عيسى (ع) تدلل على استحالة وقوع هذا الفعل. وكذلك قوله تعالى: **(أفَأنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ وَلَو كَانُوا لاَ يَعقِلُونَ)**[2]، وأيضاً **(أفَأنتَ تَهدِي العُميَ وَلَو كَانُوا لاَ يُبصِرُونَ)**[3]، فالأصم لا يسمع والأعمى لا يُبصر فهذا من المستحيل، فهنا الاستفهام جاء لانكار الوقوع إلى حد الاستحالة.

- «الاستغراب وظن الاستحالة»: الكفار عبر عنهم القرآن الكريم: **(وَكَانُوا يَقُولُونَ أئِذَا مِتنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أئِنَّا لَمَبعُوثُونَ)**[4]، فهنا الاستفهام خرج على لسان المنكرين للبعث بصيغة الاستغراب وظن الاستحالة، فهم يظنون أن هذا أمر مستحيل لا يمكن في ظنهم أن يجمع الله تبارك وتعالى هذه العظام وهذا التراب الذي تحولت إليه أجسادهم ويعيدها الله تعالى: **(أوَ آبَاؤُنَا الأوَّلُونَ* قُل إنَّ الأوَّلِينَ وَالآخِرِينَ* لَمَجمُوعُونَ إلَى مِيقَاتِ يَومٍ مَّعلُومٍ)**[5]، فيستدل عليهم القرآن أن القادر على الابتداء قادر على الاستعادة، ثم تذكرهم الآية بالنشأة الأولى: **(وَلَقَد عَلِمتُمُ النَّشأةَ الأُولَى فَلَولا تَذَكَّرُونَ)**[6]، يعني كما أنشأكم الله تعالى فإنّه هنا يُعيدكم. فالاستفهام الذي خرج على لسان منكري البعث جاء بصيغة الاستغراب وظن الاستحالة في هذا الموضوع.

- «استفهام تقريري لاشارة الانتباه إلى الحقائق»: مثل قوله تعالى: **(قُل أرَأيتُم إن أخَذَ اللهُ سَمعَكُم وَأبصَارَكُم وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّن إلَهٌ غَيرُ اللهِ يَأتِيكُم بِهِ انظُر كَيفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُم يَصدِفُونَ)**[7]، كثيراً ما

---

(1) المائدة، 116.
(2) يونس، 42.
(3) يونس، 43.
(4) الواقعة، 47.
(5) الواقعة، 48 – 50.
(6) القيامة، 62.
(7) الأنعام، 46.

وردت هذه الصيغة الاستفهامية بالقرآن الكريم بحيث تشكل ظاهرة بلاغية، يريد أن ينبّه إلى آيات الله في الكون، **(أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيفَ خُلِقَت* وَإِلَى السَّمَاء كَيفَ رُفِعَت* وَإِلَى الجِبَالِ كَيفَ نُصِبَت* وَإِلَى الأَرضِ كَيفَ سُطِحَت* فَذَكِّر إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ)**[1]. هذه الصيغة التذكيرية للتقرير وإثارة الانتباه أيضاً تشكل ظاهرة بلاغية في القرآن فتأتي بأجمل صور بلاغية تثير فيها الحس والانتباه إلى العقل، فهذه من الصيغ البلاغية التي تفرّد بها القرآن الكريم فبدل من أن يقول «انظر إلى كذا» يأتي بهذه الصيغة: **(قُل أَرَأَيتُم إِن أَخَذَ اللهُ سَمعَكُم وَأَبصَارَكُم وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّن إِلَهٌ غَيرُ اللهِ يَأتِيكُم بِهِ انظُر كَيفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُم يَصدِفُونَ)**.

- «الاستفهام للتسوية بين أمرين»: أي أن الغرض من الاستفهام يخرج إلى المساواة بين أمرين (بين حالتين)، قال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيهِم أَأَنذَرتَهُم أَم لَم تُنذِرهُم لاَ يُؤمِنُونَ)**[2]، يعني في حالة الإنذار وعدم الإنذار فهم في كلا الحالتين لا يؤمنون، فهذا النوع من الاستفهام للتسوية بين أمرين.

- «الترديد بين أمرين»: إنّ النفس الإنسانية تردّد بين أمرين، ولكن العقل يرجح أحد هذين الأمرين، فهنا في قوله تبارك وتعالى: **(أَأَنتُم أَشَدُّ خَلقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا* رَفَعَ سَمكَهَا فَسَوَّاهَا)**[3]، ظاهر الكلام يردّد السامع بين أمرين مَن هو الذي أشد خلقاً هل أنتم أم السماء ؟ العقل يقول إنّ السماء هي أشد خلقاً من خلق الإنسان، فبادئ الأمر الترديد بين أمرين ثم أنّ العقل يجزم ويقطع بترجيح أحد هذين الأمرين. فصيغة الاستفهام تخرج بهذه الصيغة البلاغية الترديد بين أمرين ثم ترجيح أحد هذين الأمرين على الآخر.

- «ابطال النقيض والحكم بصحة نقيضه»: مثل قوله تعالى: **(وَإِنَّا أَو إِيَّاكُم لَعَلَى هُدًى أَو فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)**[4]، عندما يختلف اثنان وينحصر

(1) الغاشية، 17.
(2) البقرة، 6.
(3) النازعات، 27 و28.
(4) سبأ، 24.

الحق فيهما فحتماً إذا كان أحدهما على الحق فالثاني بالضرورة على الباطل، ومعنى الآية إذا أثبتنا إنا على الحق فأنتم على ضلال وإذا أثبتنا أنكم على الحق فنحن في ضلال. وهنا في الحوار القرآني خرجت صيغة الاستفهام بهذه الصيغة البلاغية يساوي المحاورة في القرآن الكريم بين المؤمنين وبين الظالمين، فيساوي بادئ ذي بدء في ابتداء الحوار بينه وبين المقابل الذي يناقضه، بين الهدى وبين الضلال – باعتبار أنّ الهدى والضلال نقيضان – فإذا ثبت أحدهما وإذا حكمنا بصحة الهدى ومَن الفريق الذي على الهدى فيتبيّن انّ الفريق الثاني قطعاً يكون على الضلال. وهذا أيضاً من الأساليب القرآنية التي يستعملها القرآن الكريم. وفي هذه الآية المباركة لها معنى أخر تبيّن كيفية التنزّل في المحاورة حيث يبتدأ المؤمن المحاورة مع الإنسان غير المؤمن من أول خطوة فيساوي نفسه في الحوار مع المقابل ولا يفترض في المقدمة أنّه هو على الهدى والآخر في ضلال.

- «إثارة التعجب أو التعجيب»: مثل قوله سبحانه وتعالى: **(هَل أتَاكَ حَدِيثُ ضَيفِ إبرَاهِيمَ المُكرَمِينَ* إذ دَخَلُوا عَلَيهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قومٌ مُّنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهلِهِ فَجَاء بِعِجلٍ سَمِينٍ* فَقَرَّبَهُ إِلَيهِم قَالَ ألا تَأكُلُونَ* فَأوجَسَ مِنهُم خِيفَةً قَالُوا لا تَخَف وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ)**[1]، هنا في الآية الكريمة تثير في السامع التعجب، أي تريد أن تجعل السامع متعجباً من هذه القصة التي فيها حديث ضيف إبراهيم (ع) باعتبار أنهم ملائكة والملائكة لا يأكلون وكيف فاجأوا إبراهيم (ع) بهذه الزيارة، وذهب إبراهيم (ع) لاحضار الطعام حيث أنه كان كريماً ويُسمى أبو الضيفان، فجاءهم بعجل سمين فقرّبه إليهم فلما شاهدهم لا يأكلون تعجب من أمرهم، فهنا جاءت صيغة التعجيب للمخاطب بصيغة الاستفهام.

- «التنبيه إلى قدرة الله»: كما أن الاستفهام يأتي للتنبيه إلى قدرة الله تبارك وتعالى والدلائل على وجود الله تعالى وعلى حكمته في الخلق مثل قوله تعالى: **(قُل مَن يَرزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرضِ)**[2]، فهنا جاءت

(1) الذاريات، 24 - 28.
(2) يونس، 31.

الآية بصيغة الاستفهام و«مَن» هي أداة الاستفهام، والاجابة واضحة حيث أنّ المخاطبين يؤمنون بوجود الله تعالى وبقدرته، فيريد تعالى أن ينبّههم إلى قدرته وأنّه هو الرزاق والقادر على أن يرزقكم.

- «الحث والتحريض»: مثل قوله تعالى: **(ألاَ تُقَاتِلُونَ قوماً نَّكَثُوا أيمَانَهُم)**[1]، وقوله تعالى: **(فَاللهُ أحَقُّ أن تَخشَوهُ إن كُنتُم مُّؤمِنِينَ)**[2]، هنا «ألا» للحث والتحريض، فيريد أن يحث ويحرض المؤمنين على القتال، فالتحريض على القتال جاء بصيغة استفهامية، فالغرض من الاستفهام هنا لا يريد أن يطلب «هل تريدون أن تقاتلوا قوماً نكثوا أم لا تقاتلوا» فهو لا يريد الإجابة على ذلك وإنما يريد أن يحثهم ويحرضهم على القتال.
- «للتشويق وطلب ما نُفي»: قوله تعالى: **(ألَم يَأتِكُم نَبَأُ الَّذِينَ مِن قبلِكُم قومِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعدِهِم)**[3]، يريد أن يشوقهم إلى قصص هؤلاء الأقوام الذين سبقوهم بادئ الأمر نفى أنه «لم يأتكم» ولكن **(ألَم يَأتِكُم)** أثبت يعني اطلبوا مافي هذه القصة من العبر من نبأ الذين من قبلكم وكيف جاءتهم الرسل وكيف كان موقفهم مع الرسل، فهنا الاستفهام خرج للتشويق واثبات أمر قد نُفي في بادئ الأمر، ونفي النفي إثبات.

هذه هي الأغراض التي خرج إليها الاستفهام، وهناك أغراض كثيرة يخرج إليها الاستفهام وليس فقط هذه الأغراض التي ذكرناها، ونكتفي بهذه الأغراض التي ذكرناها وننتقل إلى موضوع جديد.

---

(1) التوبة (براءة)، 13.
(2) التوبة (براءة)، 13.
(3) إبراهيم، 9.

الفصل الثالث عشر
التشبيه وبلاغته
في القرآن الكريم

في القرآن الكريم يوجد بلاغة التشبيه بأعلى صورها باعتبار أن التشبيه له أيضاً درجات وله أيضاً أنواع حيث أن هناك تشبيه مقبول وتشبيه غير مقبول، فكل ما هو موجود في القرآن الكريم من التشبيهات هي في القمة من التشبيهات البلاغية وكلها جيدة ولا يوجد فيها من الأنواع غير المقبولة والرديئة.

التشبيه من حيث معناه اللغوي هو أن نقول «هذا شبه هذا» أو «مثيل هذا» يعني المماثلة، فالتشبيه تعني المماثلة في اللغة، وفي الاصطلاح البلاغي هو عقد مماثلة بين أمرين ولا نقول بين شيئين لأنه قد يكون أحياناً الذي يُراد له أن يُشبّه غير موجود (أمر عدمي)، فالأمر تشمل الأمر الوجودي والأمر العدمي.

فالتشبيه عقد مماثلة بين أمرين يراد أن يُثبت صفة مشتركة بينهما، يثبت للمشبّه صفة مشتركة بين الأمرين (بين المشبّه والمشبّه به) بأداة وغالباً ما تُحذف أداة التشبيه.

فالهدف من التشبيه إثبات صفة من الصفات الموجودة في المشبّه به بشكل واضح وقوي وبارز، ويريد المتكلم أن يُثبت هذه الصفة حتى يبرزها. وبعضهم عرّف التشبيه بأنه إظهار ما كان خافياً، يعني شيء مخفي وبعملية التشبيه نظهره.

علماء البلاغة واللغويون يقولون: إنّ أغلب كلام العرب هو بصيغة التشبيه لأنّ السامع عندما تعطيه أشياء تشبّهها بعضها ببعض – باعتبار ينتقل من المعلوم إلى المجهول – فيقيس السامع الشيء البارز المعلوم يقيسه على الشيء المخفي المجهول.

لذلك أسلوب التشبيه يعتبر من الأساليب البلاغية، لذا جاء طبعاً في طبقات التشبيه العليا حيث أن هناك درجات للتشبيه إلى أن يصل إلى تشبيه قبيح لا يصح.

وجميع التشبيهات الموجودة في القرآن الكريم جاءت في القمة من حيث البلاغة، فكل القضايا البلاغية التي جاءت في القرآن الكريم هي في القمة.

كما أن القرآن الكريم عندما يشبّه فإنّه يشبّه بقضايا صادقة وحقيقية، خلافاً لتشبيهات كلام المتكلمين حيث أن الشعراء أو الخطباء أو البلغاء عندما يتكلمون ويريدون أن يُشبّهوا شيئاً بشيء فيعمدوا أن يكون وجه الشبه[1] غير ظاهر في المشبّه وظاهر وقوي جداً في المشبّه به فمثلاً يقول «زيدٌ كالأسد» فيريد أن يشبّه زيد بالأسد، فأي شيء بارز في الأسد ؟ الشيء البارز هو الشجاعة، فهو يريد أن يقول «زيد شجاع» ولكن هذه العبارة لا بلاغة فيها ولكن عندما يقول «زيد أسد» (حذف أداة التشبيه) ففي الكلام بلاغة فيتصور السامع كيف أن زيد شجاع كالأسد. هذا النوع من التشبيه وجه الشبه فيه وهو الشجاعة والقوة ظاهر في الأسد، فعندما يأتي إلى زيد – وهو مجهول للسامع ولا يعرفه – فيُبرز هذه الصفة فيه، وقد يكون زيد هو ليس بمستوى الأسد، فهل يصح للقرآن الكريم أن تأتي التشبيهات بهذا الشكل ؟

إن الشاعر قد يشبّه حبيبته بالقمر وهي ليست كذلك، فبعض الأسماء لا تنطبق على مسمياتها، فمثلاً المتنبي مرّ على عبد أسود اسمه زيتون فأراد أن يهجوه فقال له:

سمّوك زيتوناً وما أنصفوا ... لو أنصفوا سمّوك زعرورا
لأن في الزيتون ناراً تضيء ... وأنت لا ناراً ولا نورا

الخطباء والشعراء يشبّهون ولكن تشبيهاتهم في أغلبها ليست حقيقية ولا صادقة بينما القرآن الكريم تشبيهاته صادقة وحقيقية، ومع صدقه وحقيقته أنّها ليست قضايا خيالية.

نأخذ أمثلة من القرآن الكريم حتى تتبيّن لنا أن القرآن الكريم مع أنه يُشبّه وبأعلى درجات التشبيه من حيث البلاغة حيث يعجز الناس عن تشبيهاته ومع هذا هي صادقة وحقيقية لا كما يشبّه الشعراء والخطباء حيث يشبه الشاعر حبيبته بالشمس أو بالقمر وما شاكل ذلك وربما تكون في نظر الشاعر فهي ليست كذلك في نظر الآخرين.

عندما يشبّه الله تعالى أعمال الكفار كالسراب فيقول تعالى: **(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعمَالُهُم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ)**[2]، باعتبار أن أعمال الكفار لا قيمة لها ولا

---

(1) كما هو معلوم أن التشبيه عناصره أربعة: المشبّه والمشبّه به ووجه الشبه وأداة التشبيه.
(2) النور، 39.

حقيقة لها فتأتي كالسراب، والسراب أمر وهمي وأعمال الكفار بما أنها لا قيمة لها فهي أيضاً أمر وهمي، فهم يحسبون

أن لها وجوداً ولها قيمة ولها حقيقة ولكن عندما يأتون إلى هذه الأعمال يجدونها سراباً، يراه الضمآن فيحسبه ماء ولما يأتي إليه يجده سراباً كما قال تعالى: **(يَحسَبُهُ الظَّمآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَم يَجِدهُ شَيئاً وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ)**[1]. فتشبيه أعمال الكفار بالسراب تشبيه حقيقي باعتبار أن وجه الشبه في السراب هو الوهم.

لابد أن نبيّن أنه في القرآن الكريم لا تأتي التشبيهات ولا يأتي المجاز ولا تأتي الاستعارة وبكل أنواعها في آيات الأحكام، فلو قرأنا بعض آيات الأحكام سوف لا نجد فيها هذه التشبيهات وإنما جميعها خالية من التشبيهات وذلك لأنّ آيات الأحكام يحتاجها الإنسان بشكل دقيق وواضح حيث لابد أن تعطي الحكم بشكل دقيق.

مع أن آيات الأحكام خالية من هذه التشبيهات ومن الاستعارة ومن المجاز فهي في القمة في البلاغة حيث أن البلاغة غير منحصرة بالمجاز والتشبيه والاستعارة فهناك أمور كثيرة أخرى كالايجاز والحذف والاطناب وصيغ الاستفهام التي ذكرناها سابقاً فكلها من وجوه البلاغة.

نذكر بعض آيات الأحكام الخالية من التشبيهات، مثل قوله تعالى: **(وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قد سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقتاً وَسَاء سَبِيلاً* حُرِّمَت عَلَيكُم أُمَّهَاتُكُم وَبَنَاتُكُم وَأَخَوَاتُكُم وَعَمَّاتُكُم وَخَالاَتُكُم وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُختِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرضَعنَكُم وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُم وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلتُم بِهِنَّ فَإِن لَّم تَكُونُوا دَخَلتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيكُم وَحَلاَئِلُ أَبنَائِكُمُ الَّذِينَ مِن أَصلاَبِكُم وَأَن تَجمَعُوا بَينَ الأُختَينِ إَلاَّ مَا قد سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً* وَالمُحصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَت أَيمَانُكُم كِتَابَ اللهِ عَلَيكُم وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُم أَن تَبتَغُوا بِأَموَالِكُم مُّحصِنِينَ غَيرَ مُسَافِحِينَ فَمَا استَمتَعتُم بِهِ مِنهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيكُم فِيمَا تَرَاضَيتُم بِهِ مِن بَعدِ الفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً* وَمَن لَّم يَستَطِع مِنكُم طَولاً أَن يَنكِحَ**

---

(1) النور، 39.

المُحصَنَاتِ المُؤمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَت أيمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ المُؤمِنَاتِ وَاللهُ أعلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعضُكُم مِّن بَعضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذنِ أهلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أجورهن بِالمَعرُوفِ مُحصَنَاتٍ غَيرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أخدَانٍ فَإِذَا أُحصِنَّ فَإِن أَتَينَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيهِنَّ نِصفُ مَا عَلَى المُحصَنَاتِ مِنَ العَذَابِ ذَلِكَ لِمَن خَشِيَ العَنَتَ مِنكُم وَأَن تَصبِرُوا خَيرٌ لَّكُم وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[1].

كما تلاحظون لا نجد في هذه الآيات الكريمة لا نجد تشبيهاً ولا مجازاً ولا استعارة وهكذا شأن آيات الأحكام. وعندما نتناول التشبيه في القرآن الكريم فلابد أن نعرف بأن القرآن الكريم في آيات الأحكام أو في الأمور التي يريد للسامع أن يفهمها بدقة لا يستعمل فيها التشبيه كما هو الحال في قضايا العقائد فلا يستعمل فيها التشبيه وذلك لأنّ هناك تفاوتاً بين المشبّه والمشبّه به، بينما القضايا التي يستعمل فيها التشبيه إضافة إلى أنها حقيقية حيث تسرد قضايا حقيقية فمثلاً عندما يُشبّه القرآن الكريم أعمال الكفار كسراب أيضاً يستمر فيقول: **(أو كَظُلُمَاتٍ فِي بَحرٍ لُّجِّيٍّ يَغشَاهُ مَوجٌ مِّن فَوقِهِ مَوجٌ مِّن فَوقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعضُهَا فَوقَ بَعضٍ إِذَا أَخرَجَ يَدَهُ لَم يَكَد يَرَاهَا وَمَن لَّم يَجعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ)**[2]، فهنا عندما يُشبّه هذا التشبيه **(كَظُلُمَاتٍ فِي بَحرٍ لُّجِّيٍّ)** هذا تشبيه حقيقي إضافة إلى ذلك أنّ الآية كاشفة عن معجزة علمية، فهو تشبيه.

قوله تعالى: **(مَوجٌ مِّن فَوقِهِ مَوجٌ)** فالناس في ذلك الزمان لا يعرفون أن في باطن البحر موجين يعرفون فقط على سطح البحر هناك أمواج وأما ما هو موجود في جوف البحر فلم يُكتشف إلا في العصر الحالي حيث أن العلم الحديث بعد اختراع الغواصات سنة 1906 باعتبار أن قدرة الإنسان على أن ينزل تحت الماء ربما إلى أكثر من 20م تحت الماء، ولكن بعد اختراع الغواصات ووصول الإنسان إلى عمق البحر وجدوا أن هناك أمواجاً بعمق البحر. فالآية بصراحة تقول أن هناك موجين موج داخلي وموج آخر فوقه، وتتكلم أيضاً عن **(بَحرٍ لُّجِّيٍّ)** وهو البحر العميق، فهذا تشبيه ولكن لم يأت هذا التشبيه غير واقع، فأيضاً العلم الحديث اكتشف أن هذا الأمر أمر واقعي وحقيقي وينطبق الوجود. فهذا الأمر محسوب في

---

(1) النساء، 22 - 25.
(2) النور، 40.

ميزان التشبيهات في القرآن الكريم، يعني ليس أمراً خيالياً أو مفترضاً أو لإبراز قوة الشبه بل هو فعلاً على وجه الحقيقة.

أيضاً إذا رجعنا إلى آيات أخرى من القرآن الكريم كآيات الإرث لا توجد فيها تشبيهات بينما آيات أخرى تتكلم عن أعمال الكفار نشاهد أن القرآن الكريم يتحدث عن هذه التشبيهات، ونذكر هنا آيات أخرى لا توجد فيها من التشبيهات والاستعارة والمجاز وذلك في قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً* فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً* وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً)**[1]، فعندما نقرأ هذه الآيات لا نجد فيها أي نوع من أنواع المجاز أو الاستعارة لأنه أحكام وحدود الله تعالى وكما ذكرنا إنّ أحكام الله لا يستعمل فيها التشبيهات والاستعارة.

بينما قوله تعالى: **(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ)**[2] نجد التشبيه لأنها ليست من آيات الأحكام ويريد تعالى ان يبيّن صفة أعمال الكفار وكيف أنهم يتوهمون أنّ لأعمالهم قيمة وفي الحقيقة هي لا قيمة لها، وكذلك قوله تعالى: **(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ)**، فهذه التشبيهات الواردة في القرآن الكريم إذا تأملناها نجد أنها تنطبق على الحقيقة **(فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ**

---

(1) الطلاق، 1 – 4.
(2) النور، 39.

يَشرَح صَدرَهُ لِلإِسلاَمِ وَمَن يُرِد أَن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجعَلُ اللهُ الرِّجسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ)[1].

نلاحظ وجود التشبيه في **(كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء)** حيث أن الإنسان الضال قلبه هكذا ضيق حرج، فجاءت صيغة التشبيه ولكن انطبقت على الواقع التكويني والحقيقي.

حيث يضيق نفس الإنسان في المرتفعات العالية لانخفاض الضغط وقلّة كثافة الهواء – وإذا قلت كثافة الهواء يصبح اختلاف بين الضغط المصمم به الإنسان على سطح الأرض وبين الطبقات العليا – فيخرج الدم من الآذان ومن العيون ومن الأنف وقد يموت الإنسان إذا استمر بالارتفاع.

فهنا في بدء الصعود في الجو تبدأ عملية الحرج بالتنفس، فهنا تشبيه وهذا التشبيه بالقرآن خرج إلى الانطباق على الحقيقة وإن كانت هذه الحقيقة كُشفت بعد حين، يعني الآن بعد ان اكتشف الضغط الجوي وضغط الإنسان وتعادل ضغط الانسان والضغط الجوي فكل هذه الأمور حديثة ولكن القرآن يشير إليها بصيغة التشبيه، ولكن تشبيهات القرآن تشبيهات حقيقية تنطبق على الواقع، وهذا من اعجاز القرآن البلاغي وكذلك العلمي.

عندما يتحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل وكيف أن الله تبارك وتعالى أراد منهم أن يأخذوا الكتاب وأن يأخذوا الأحكام التي في الكتاب، فهذا التشبيه الذي يريده القرآن الكريم، فيشبّه ما لم تجري به العادة بما جرت به العادة حيث أن هناك أشياء ألفها الناس وأشياء لم يألفها الناس، الأشياء التي يألفها الناس.

يريد أن يشبّه القرآن الكريم بها بعض الأشياء التي لم يألفها الناس فمثل قوله تعالى: **(وَإِذ نَتَقنَا الجَبَلَ فَوقَهُم كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِم خُذُوا مَا آتَينَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ)**[2]، فهنا أنّ الناس لم يألفوا ولم يعتادوا على أن يرتفع الجبل فوق رؤوسهم – هذا شيء غير مألوف – والقرآن الكريم يريد منهم أن يأخذوا ما في الكتاب وأحكامه وأن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه رجاءأن يصلوا إلى درجة التقوى. إن هذه

---

(1) الأنعام، 125.
(2) الأعراف، 171.

الآية العظيمة حيث أن الطور جبل يرتفع فوق رؤوسهم وظنوا أنّه واقع بهم–و«ظنّ» تأتي هنا بمعنى «عَلِمَ»– فهذه الآية لم يألفها الناس ولم يعتد الناس ذلك، فهنا هذه الآية التي لم يألفها الناس شبّهها القرآن الكريم بما ألفه الناس وهو المظلة تُظلّل الإنسان أو الغيمة التي تظلّل الإنسان من الشمس، وهكذا الجبل وهو مرتفع فوق رؤوسهم كأنه ظلة.

فهنا تشبيه ما لم تجري به العادة وهو ارتفاع الجبل كآية من آيات الله فوق رؤوسهم بما جرت به العادة وهو أن يرفع الإنسان فوق رأسه مظلة أو السحاب عندما يُظلّل الناس من الشمس، فيُشبّه الجبل بهذه الغمامة. وأيضاً أن السحاب هو كالجبل وهذا تشبيه ورد في القرآن الكريم حيث يصف السحاب كالجبال، قال تبارك وتعالى: **(أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ يُزجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَينَهُ ثُمَّ يَجعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الوَدقَ يَخرُجُ مِن خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ)**[1]، يشبّه القرآن الكريم الغيوم بالجبال، فنحن عندما ننظر إلى الغيمة على هذا البعد البعيد لا نتصوّر أن الغيمة كالجبل ولكن عندما يصعد الإنسان بالطائرة وتمر الطائرة بين الغيمة فتمر عليه عدة ثوانٍ وهو يجتاز الغيمة على سرعة الطائرة فكم حجم هذه الغيمة ؟!

فعلاً عندما يشبّه القرآن الكريم الغيوم بالجبال فقد لا يتصورها الإنسان بحجم الجبل ولكنها بحجم الجبل، فهذا تشبيه حقيقي وصادق وليس تشبيهاً خيالياً وغير حقيقي، ولكن الناس ألفوا الجبل وجرت به العادة ولكن الغيوم بواقعها الحقيقي لم يألفوها، والقرآن الكريم أعطاها الصورة الحقيقية الواقعية التي تنطبق على الواقع. فهنا تشبيه الجبل فوقهم بالغمام، ولكن الآية التي حدثت لبني إسرائيل أن الجبل الحقيقي ارتفع فوق رؤوسهم فإما أن تأخذوا هذا الكتاب أو يقع عليكم الجبل، فهناك آيات عظيمة جرت في بني إسرائيل (خرق للقوانين الطبيعية) كوقوف الماء وارتفاع الجبل فهذا يقاوم جاذبية الأرض. ففي هذا التشبيه يقول فيه العلماء ومنهم الرماني «ويقول في ذلك الرماني (في التعليق على التشبيه): فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، فقد اجتمع المشبه والمشبَّه به في

(1) النور، 43.

الهلاك وعدم الانتفاع، والعجز من الاستدراك لما فات، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة»[1].

نأخذ أيضاً تشبيهاً آخر من القرآن الكريم في قوله تعالى: **(إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنيَا كَمَاء أَنزَلنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاختَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرضِ مِمَّا يَأكُلُ النَّاسُ وَالأَنعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرضُ زُخرُفَهَا وَازَّيَّنَت وَظَنَّ أَهلُهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيهَآ أَتَاهَا أَمرُنَا لَيلاً أَو نَهَاراً فَجَعَلنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّم تَغنَ بِالأَمسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ)**[2].

هنا في هذه الآية المباركة يشبّه الله تبارك وتعالى الحياة الدنيا بماء أنزله من السماء ثم اختلط هذا الماء بنبات الأرض وما يخرج من هذا الاختلاط وما يخرج من هذا النبات طعام يأكله الناس وتأكله الأنعام، والأرض بهذه الحركة من النبات ومن الحيوان ومن الإنسان تتزيّن وتبلغ بهذه الزينة أنّ الإنسان يحسب أنّه قد هيمن على الأرض ولكنه في الحقيقية ليس كذلك هو غير مهيمن على الأرض فهو أضعف من أن يهيمن على أي شيء أو أن يكون له حول أو قوة في أي شيء، فهو ليس له قوة في ذلك ولا حول، فالقرآن الكريم يشبّه الحياة الدنيا بهذا الماء الذي ينزل على الأرض. فالماء عندما ينزل على الأرض هناك تدريج في عملية النمو، فنحن عندما نريد أن نفهم الحياة الدنيا نفهم من هذا الماء وينزل ويختلط بنبات الأرض وينمو هذا النبات ويكبر ثم ماذا يكون ؟ ثم يذبل ثم يصبح كالرماد.

الحياة الدنيا أيضاً لها بداية ولها نهاية كما النبات يبدأ بذرة ثم تنمو وتصبح نبتة ويصبح لها ساق ثم أوراق ثم ثمار ثم تسقط هذه الثمار وتذوب وتصبح رماداً، وهكذا الحياة الدنيا لها بداية ونمو ويصل بالإنسان الحالة بأنّه يظن أنّه قد هيمن على أمور الطبيعة وعلى هذه الأرض ولكن ليس الأمر كما ظن أهل الأرض.

في وقتنا الحاضر هذا الغرور العلمي الموجود عند الإنسان من التكنولوجيا والعلم وإلى ما شاكل ذلك، وكأنه هذه في أذهان البعض إله يُعبد من غير الله فحين يذكرون العلم والتكنولوجيا يذكرونها بانبهار وبقوة وبشكل كأنه إله يعبد من غير الله تعالى، ولكن مجرد زلزال واحد يشعر فيه

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 265.
(2) يونس، 24.

الإنسان بضعفه ومجرد جرثوم أو فايروس واحد يشعر أمامه الإنسان بضعفه أمام كائن لا يرى حتى بالعين المجردة.

هذا التشبيه الوارد في هذه الآية من أنواع التشبيه التمثيلي لأنّ فيه الصور متعددة، عندما يأتي التشبيه منتزع من صور متعددة فيسمى بـ«التشبيه التمثيلي»، فهنا في هذه الآية المباركة من هذا النوع من التشبيهات لأن هناك صورة متعددة ليس الحياة الدنيا كماء فقط وإنما **(كَمَاء أنزَلنَاهُ مِنَ السَّمَاء)** هذه هي الصورة الثانية، **(فَاختَلَط بِهِ نَبَاتُ الأَرضِ)** الصورة الثالثة، فنلاحظ وجود عدة صور انتزعت منها تشبيه الحياة الدنيا.

هنا ملاحظة مهمة نمر عليها في قوله تعالى: **(حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرضُ زُخرُفَهَا وَازَّيَّنَت وَظَنَّ أَهلُهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيهَآ أَتَاهَا أَمرُنَا لَيلاً أَو نَهَاراً فَجَعَلنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّم تَغنَ بِالأَمسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ)**، إن «أو» حرف عطف وتفيد التخيير مثل «كل التمر أو العنب»، وتفيد أيضاً الشك أو التشكيك، فمثلاً أقول «زيد في الغرفة أو عمر» أنا شاك فلا أدري هل زيد في الغرفة أم عمر ولكن أعلم أن أحدهما في الغرفة، فمرة أنا أشك ومرة أخرى أريد أن أشكّك السامع فأقول له: «زيد في الغرفة أو عمر» أنا أريد أن أشكّكه فلا أريد أن أعطيه الحقيقة.

فلماذا جاءت «أو» في قوله تعالى: **(أَتَاهَا أَمرُنَا لَيلاً أَو نَهَاراً)** فالله تعالى يعلم بقيام الساعة بليل أو نهار فلا يخفى على الله شيء، فلماذا قال **(لَيلاً أَو نَهَاراً)**؟

فالله تعالى لا يجوز عليه الشك، كما لا يريد تبارك وتعالى أن يُخير المخاطب أو أن يُشكّكه، ولكن هنا سر من أسرار القرآن الكريم وهو أنّ الساعة عندما تقوم والناس يتمتعون بكل اليوم 24 ساعة فناس تقوم عليهم وهم في ليل وناس تقوم عليهم وهم في نهار لأنّ الكرة الأرضية لا تنفك عن أوقات اليوم، وهذا إشارة إلى كروية الأرض.

عندما يستعمل القرآن الكريم تشبيهاته يستعملها بدقة واقعية وتنطبق على الواقع، وعندما يذكر شيئاً، يذكره بدقة أي ينطبق على الواقع ولا يذكر أموراً خيالية أو فيها شيء لا ينطبق على الحقيقة الكونية الواقعية، فهنا يبيّن أنّ الناس تصوّروا أنّهم قد هيمنوا على الأرض وامتلكوا وسائل التكنولوجيا والعلوم وما شاكل ذلك، **(حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرضُ زُخرُفَهَا وَازَّيَّنَت)** حيث

تصل الأرض القمة في التزين والقمة في الزخرفة والقمة بوسائل الترف حتى أنّ الإنسان يعتقد بأنّه قد هيمن على الأرض وعلى الطبيعة ولكن أمر الله تعالى فاجأهم **(وَظَنَّ أَهلُهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيهَآ أَتَاهَا أَمرُنَا لَيلاً أَو نَهَاراًفَجَعَلنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّم تَغنَ)** فالحياة تبدأ وتنتهي، فكما أن نبات الأرض ينتهي فيكون رماداً، فالأرض تنتهي وتكون حصيداً.

«إن التشبيه تصوير للحياة، فإن مثلها في بهجتها ومسراتها وهناءتها والسعادة فيها مهما تبلغ من المظهر البهي، والزينة الباهرة ليس لها بقاء، وإنما مآلها إلى الفناء، كمثل الماء ينزل من السماء فينبت النبات الذي يأكل منه الناس مستمتعين، والأنعام والدواب، وأنه إذ يبلغ أقصى زخرفه ونضرته ومتعته، وامتلاء أهل الأرض بالغرور، وظنوا أن كل شيء في قبضة أيديهم جاءهم أمر الله، فصار النبات هشيما، والإنسان رميما، كأن لم يغن أحد بالأمس»[1].

الهدف من كل ذلك **(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ)** فالذي يتفكر ويستقي العبرة من هذه الآيات ومن هذه التشبيهات ومن هذه الأمثلة فبالنتيجة يصل إلى الحقيقة ويعرف حقيقة الحياة الدنيا بهذه الآيات المباركة.

نأخذ أيضاً آية أخرى من الآيات التي تفيد هذا التشبيه، وهو قوله تعالى: **(إِنَّا أَرسَلنَا عَلَيهِم رِيحاً صَرصَراً فِي يَومِ نَحسٍ مُّستَمِرٍّ✐تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُم أَعجَازُ نَخلٍ مُّنقَعِرٍ)**[2].

التشبيه في الآية الكريمة أيضاً مما يذكره البلاغيون في موضوع التشبيه الذي يُراد به على غرض ما لم تجري به العادة بما جرت به العادة، حيث أنّ الذي جرت به العادة أنّ النخل عندما تهب الريح العاتية تقلع أعجاز النخل (جذع النخل) الخاوي الذي لا يقاوم الريح، وهذا أمر قد ألفه الناس واعتاده وجرت به العادة، ولكن كيف تأتي الريح وتنزع الناس وتأخذهم وتهوي بهم في مكان آخر؟! فكيف تقلع الناس حيث أن الناس لم يألفوا ريحاً تقلع الناس ولكنهم ألفوا ريحاً تقلع أعجاز النخل. إنّ الله تبارك وتعالى في هذه الآية المباركة يُشبّه ما جرت به العادة وهو أن تقلع الريح العاتية أعجاز النخل بما لم تجري به العادة وهو أن الريح تنزع الناس

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 266.
(2) القمر، 19 و20.

وتقلعهم. «ويقول الرماني في بيان وجه التشبيه: وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة، وقد اجتمعا في قلع الريح لهما وإهلاكه إياهما، وفي ذلك توحد الآية الدالة على عظم القدرة، والتخويف من تعجيل العقوبة»[1].

المبحث الأول: أقسام التشبيه باعتبار طرفيه

نذكر بعض أنواع التشبيه وكيف أنّ التشبيه يخرج إلى أنواع مختلفة وكيف يُقسّم. إنّ التشبيه نقسّمه باعتبار طرفيه، وطرفاه هما المشبّه والمشبّه به فعندما أقول «زيدٌ كالأسد» فـ«زيد» هو المشبّه والمشبّه به هو «الأسد» وأداة التشبيه هي الكاف ووجه الشبه هو الشجاعة. هذه العناصر الأربعة والأطراف الأربعة تشكل عملية التشبيه، ولكن عندما نريد أن نبيّن أقسام التشبيه فمن أي حيثية نريد أن نبيّن أنواع التشبيه، فمرة يقسّمه البلاغيون من حيث طرفيه (المشبّه والمشبّه به):

1- يكون المشبّه والمشبّه به كلاهما حسّيين: فعندما أقول مثلاً «أنتَ كالشمس» فـ«أنت» حسي وكذلك «الشمس» أمر حسي فكلاهما ممّا نحسُّهُ أي تقع عليه الحواس.

2- مرة يكون كلاهما (المشبّه والمشبّه به) عقليان: مثلاً أقول «الجهل كالموت» أو «العلم كالحياة» فـ«الجهل» أو «العلم» ليسا أمراً حسياً وإنما أمر معنوي وكذلك «الموت» أو «الحياة» ليسا أمراً حسياً وإنما هما أمر معنوي.

3- أن يكون المشبه حسي والمشبه به عقلي: مثلاً أقول «الطبيب السوء كالموت».

4- أن يكون المشبه عقلي والمشبه به حسي: مثل «العلم كالنور».

فالسؤال المتبادر هنا: أي هذه الأقسام يأتي بها القرآن الكريم ؟ هل كل هذه الأقسام من التشبيهات ؟

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 267.

إن أغلب البلاغيين يقولون بأنّ القسم الثالث (المشبه حسي والمشبه به عقلي) لا يوجد في القرآن الكريم بينما الأقسام الأخرى كلها موجودة في القرآن الكريم. وأما القسم الثالث فقد أختلف فيه حيث أنّ أغلب البلاغيين يقولون أنّه لا يوجد في القرآن الكريم، والبعض الآخر أورد قوله تعالى: **(هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ)**(1)، ولكن الرأي الراجح هو لا ينطبق حيث أن اللباس أمر حسي والنساء أيضاً أمر حسي.

التشبيهات موجودة بكثرة في القرآن الكريم في كون المشبّه عقلي والمشبه به حسي، في قوله تبارك وتعالى: **(مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)**(2)، فأعمال الكفار أمر معنوي وأمر عقلي واشتداد الريح بالرماد فهذا أمر حسي فشبّه الأمر المعنوي بالأمر الحسي، وهذا من أنواع التشبيه التمثيلي في القرآن الكريم.

وكذلك قوله تعالى: **(وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)**(3)، مثال على أن يأتي المشبّه والمشبّه به كلاهما حسيان حيث أن القمر أمر حسي والعرجون القديم – هو عذق النخلة الذي يحمل التمر ويلتوي كالهلال – أمر حسي.

إنّ هذه الأقسام التي جاءت في القرآن الكريم مع أنها القمة في البلاغة ولا تضاهى ولا تجارى فإنّها تخرج إلى قضايا حقيقية عبر التشبيه وواقعية حيث تنطبق على الواقع التكويني فتذكر حقائق ولا تأتي – نؤكد على هذه القضية – في آيات الأحكام ولا في الاستدلال على العقائد ولا بالقضايا الخاصة بالقصص. وذلك لأنّه يحدث اللبس في ذهن السامع والقرآن الكريم منزّه عن كل ما فيه لَبْس، حيث أن القرآن الكريم كلام عربي مبين فلا يوجد فيه لَبْس ولا يوجد فيه إيهام في قضايا الأحكام لأنه يراد من قضايا الأحكام الأمور على وجه الدقة للسامع.

---

(1) البقرة، 187.
(2) إبراهيم، 18.
(3) يــس، 39.

المبحث الثاني: أقسام التشبيه من حيث وجه الشبه

أولاً – التشبيه المركب: تنتزعفيه الصورة التشبيهية من صور متعددة ومن معانٍ متعددة باعتبار أن وجه الشبه يتعدد في هذه الحالات فتأتي عدة معاني، ومثاله في قوله تعالى: **(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّورَاةَ ثُمَّ لَم يَحمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحمِلُ أسفَاراً)**(1).

فهنا وجه الشبه متعدد لأنّ حالات الحمار – المشبه به – متعددة، فالحمار الذي يحمل الكتب النافعة لا ينتفع بها فهناك صور متعددة: انه حمار وأنه يحمل كتب متعددة نافعة، وأنه لا ينتفع بها، فيكون وجه الشبه من أمور متعددة إذ لا نستطيع أن نفكّك بينها بل لابد أن تأتي هذه الأمور المتعددة مجتمعة حتى تعطينا صورة وجه الشبه.

مثال آخر في قوله تعالى: **(مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنيَا كَمَاء أنزَلنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاختَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرضِ فَأَصبَحَ هَشِيماً تَذرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ مُّقتَدِراً)**(2). إنّ وجه الشبه هنا منتزع من صورة الماء وهو نازل إلى الأرض ويختلط بنبات الأرض ثم يصبح هذا النبات هشيماً تذروه الرياح. فلا تستطيع أن تفكّك وجه الشبه بل لابد أن نذكر الصورة كاملة ومن هذه الجمل يتكون وجه الشبه، ووجه الشبه هنا يأتي مركباً من عدة معاني وبالتآمها وانسجامها يكوّن هذا المعنى التركيبي وجه الشبه. ووجه الشبه عندما يُنتزع من متعدد نقول أنّ التشبيه جاء مركباً.

ثانياً – التشبيه المفرد: تنتزع فيه الصورة التي يقام فيها التشبيه من معنى واحد غير مركب، ويقتصر على صورة واحدة وعلى معنى واحد كما في قوله تعالى: **(هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُم وَأَنتُم لِبَاسٌ لَّهُنَّ)**(3)، فهنا يُشبّه النساء باللباس للرجال والرجال باللباس للنساء، فوجه الشبه هنا ليس منتزعاً من متعدد وإنما من صورة واحدة.

---

(1) الجمعة، 5.
(2) الكهف، 45.
(3) البقرة، 187.

المبحث الثالث: أقسام درجات البلاغة من حيث ذكر أداة التشبيه ووجه الشبه وحذفهما

إنّ وجه الشبه يُضاف إليه أحياناً أداة التشبيه، فإذا ذُكر وجه الشبه بالصورة التشبيهية فالظاهرة البلاغية من حيث التشبيه له اسم وله عنوان، وأداة التشبيه أيضاً إذا ذُكرت في الكلام فلها درجة من درجات البلاغة وإذا حُذفت لها درجة من درجات البلاغة، ووجه الشبه إذا ذُكر له درجة من درجات البلاغة وإذا حُذف أيضاً له درجة من درجات البلاغة.

من هذه الناحية من حيث ذكر وجه الشبه في العبارة وذكر أداة التشبيه في العبارة ومن حيث حذفهما، بمعنى آخر إنّ درجات البلاغة تنقسم هنا إلى ثلاث درجات: عالية ووسطى ودنيا. ونذكر أمثلة لنبيّن كيفية انقسام هذه الدرجات الثلاث من حيث ذكر الأداة ومن حيث ذكر وجه الشبه وعدم ذكره.

إذا ذُكر وجه الشبه والأداة في العبارة والجملة فهذا يعني أن درجات البلاغة لهذا التشبيه في أقل مراتب البلاغة. وأما إذا حُذف وجه الشبه وحُذفت الأداة فحينئذ يكون أعلى درجات البلاغة. أما الحالة المتوسطة هي إذا حُذف أحدهما كما لو حُذفت الأداة وذُكر وجه الشبه أو إذا حُذف وجه الشبه وذُكرت الأداة.

مثلاً نقول «عليٌ أسدٌ» فعندما نشبّه علي بالأسد لم نذكر أداة التشبيه ولم نذكر أيضاً وجه الشبه، فهذا يُعتبر أعلى درجات أو أعلى مراتب التشبيه لأن العبارة جعلت اتحاداً بين المشبّه والمشبّه به كأنهما وجود واحد، وهذا أبلغ درجات التشبيه.

أما إذا ذكر أحدهما (أداة التشبيه أو وجه الشبه) فحينئذ ينصرف الذهن إلى المعنى الآخر، بمعنى لا مجال للخيال بهذا التشبيه، فمثلاً إذا حذف أداة التشبيه وقال «عليٌ أسدٌ شجاعةً» وشجاعة هي وجه الشبه وذُكرت في الجملة ولم تذكر أداة التشبيه، فهذه هي المرتبة المتوسطة من مراتب التشبيه.

كذلك من الممكن أن نذكر أداة التشبيه ولا نذكر وجه الشبه فمثلاً نقول «عليٌ كالأسد» فنشبّهه بالأسد ولكن لا نذكر وجه الشبه وهو الشجاعة. وتبقى الحالة الثالثة وهي أدنى مراتب التشبيه فنذكر أداة التشبيه وكذلك وجه الشبه فنقول «عليٌ كالأسد شجاعة».

هذا تقسيم من حيث ذكر وجه الشبه وعدم ذكره وذكر أداة التشبيه وعدم ذكرها يُبيّن لنا مراتب التشبيه وما هي أعلى مراتب البلاغة في التشبيه وما هي أدناه.

وعليه فإنّ أداة التشبيه لها دخل في بيان المرتبة البلاغية للكلام وعدم ذكر الأداة أيضاً لها دخل في بيان المرتبة البلاغية، وكذلك ذكر وجه الشبه أو عدمه له دخل في ذلك.

فما هي أدوات التشبيه؟ أدوات التشبيه تنقسم إلى ثلاثة أقسام: حروف، أفعال، أسماء. فمن الممكن أن نقوم بعملية التشبيه بذكر الحروف مثل الكاف وكأن، أو نذكر الأفعال مثل شابه، يشبه، يساوي، مثل، يمثل، فكل هذه أفعال أو استخدام أسماء الأفعال من هذه الأفعال «اسم الفاعل».

فمتى يأتي التشبيه حسن ؟ ومتى يأتي التشبيه مردود ؟

إذا كان الغرض بيان حال المشبّه أو بيان المقدار أو أتم شيء في وجه الشبه إذا قُصد إلحاق الناقص بالكامل أو يكون في بيان الإمكان، وهذا الأمر معروف عند المخاطب فحينئذ يكون التشبيه بغاية من الجمال والرشاقة وفيه دقة، وإذا تساوى الطرفان في وجه التشبيه عند بيان المقدار كان التشبيه كاملاً وليس كمرتبة المقبول أو كاملاً في القبول.

أما إذا لم يكن كذلك (إذا لم يف بالغرض المطلوب) أي عدم وجود وجه بين المشبّه والمشبه به فحينئذ يكون التشبيه قبيحاً، فلو كان هناك وجه الشبه موجوداً وينصرف إليه ذهن السامع حينما يسمع الكلام ويعقد المماثلة والمشابهة بين المشبّه والمشبّه به فحينئذ يكون التشبيه حسن وأما إذا لم يكن هناك وجه شبه فيكون التشبيه قبيحاً أو مردوداً. وإذا كان الذهن يصعب عليه الحصول أو الوصول إلى وجه الشبه فحينئذ يكون التشبيه درجة أقل من التشبيه الحسن.

وعليه فإن وجه الشبه واكتشاف العلاقة من خلال المماثلة بين المشبّه والمشبّه به هي التي تبيّن لنا مرتبة هذا التشبيه.

وهناك أيضاً ذكر أداة التشبيه وحذف الأداة له دخل في نوع التشبيه وينقسم الى قسمين:

1- التشبيه المرسل: فإذا كان التشبيه مرسلاً تُذكر فيه الأداة فمثلاً نقول «زيدٌ كالأسد» فهنا التشبيه ذُكر فيه الأداة وهي الكاف وهو تشبيه مرسل.

2- التشبيه المؤكد: فإذا أردنا أن يكون التشبيه مؤكداً فنحذف منه الأداة فنقول «زيدٌ أسدٌ»، فلم نذكر وجه الشبه ولم نذكر الأداة.

فمن حيث ذكر الأداة وعدم ذكرها ينقسم التشبيه إلى قسمين: فإذا ذُكرت أداة التشبيه كان التشبيه مرسلاً وإذا لم تذكر كان التشبيه مؤكداً.

كذلك من حيث ذكر وجه الشبه وعدمه، فإذا ذكرنا وجه الشبه يكون التشبيه مفصّلاً مثلاً أقول «زيدٌ أسدٌ شجاعةً»، وإذا لم أذكر وجه الشبه فيكون التشبيه مجملاً، وهذا قسم آخر من أقسام التشبيه. وكذلك إذا حُذفت الأداة ووجه الشبه فيكون هذا التشبيه تشبيهاً بليغاً وهو أرقى أنواع التشبيه.

أما التشبيه الضمني فهو تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، أي ليست كالأقسام التي ذكرناها[1] بل يُلمح إلى المشبّه والمشبه به ويُفهمان من المعنى، أي أنّ المخاطب هو الذي يكتشف العلاقة بين المشبّه والمشبّه به عن طريق التلميح لا عن طريق التصريح، فيضربون مثالاً على ذلك:

---

(1) 1- التشبيه المرسل: تذكر فيه أداة التشبيه.
2- التشبيه المؤكد: تغيب فيه أداة التشبيه.
3- التشبيه المفصل: هو ما ذكر فيه وجه الشبه.
4- التشبيه المجمل: هو ما غاب فيه وجه الشبه.
5- التشبيه البليغ: هو الذي تغيب فيه الأداة ووجه الشبه.
6- التشبيه التام: هو الذي تذكر فيه الأداة ووجه الشبه.

عـــلا فـــمـــا يستـــقـــر الـــمـــالُ في يـــده   وكيف تمسك ماء قمّة[1] الجبل ؟[2]

فهنا لم يذكر وجه الشبه ولكن الشاعر يريد أن يُلمح إليه أن وجه الشبه هو العلو والسمو والارتفاع ولكن من باب آخر يريد أن يذكر أنّ ممدوحه كريم، فذكر العلو وهو يُلمح إلى صفة أخرى. فهذا التشبيه حُذف منه أداة التشبيه كما حُذف وجه الشبه فهو تشبيه ضمني.

(1) كما أن قمة الجبل لا يستقر عليها الماء لارتفاعها كذلك فإن الشاعر يشبه الإنسان الكريم أن المال لا يستقر بيده لأنّه عالٍ كالجبل.
(2) الهاشمي، السيد أحمد: جواهر البلاغة، دار أميريان، ط1، قم، 2009م. ص 226.

الفصل الرابع عشر

المجاز والاستعارة والكناية

المجاز معناه «أن ينقل اللفظ من دلالته على المعنى الذي وضع له إلى معنى آخر، ولعلاقه بينهما، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي»[1]. أي استعمال اللفظ في غير ما وُضع له بوجود علاقة بين المعنى المنقول والمعنى المستعمل ووجود قرينة تصرف اللفظ عن المعنى الأصلي إلى معنى آخر.

فعندما أقول مثلاً كلمة «أسد» ينصرف الذهن إلى أن الأسد هو الحيوان المفترس ولكن أحياناً أريد أن أصرف هذا المعنى الموضوع له إلى معنى آخر فأقول «دخل الأسد إلى المدرسة ليطلب العلم» فهنا ليس المقصود بأن الأسد دخل المدرسة ليطلب العلم وإنما السامع يفهم من قرينة دخول المدرسة أو قرينة طلب العلم أنّ هذا الإنسان وهذا الرجل معروف بالشجاعة كالأسد فدخل ليطلب العلم، فهناك قرينة تصرف الأسد من معناه الأصلي إلى المعنى المنقول إليه فلابد من وجود قرينة.

المجاز بالاصطلاح هو اللفظ المستعمل في غير ما وُضع له في اصطلاح التخاطب لوجود علاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

فإذا كانت العلاقة للمشابهة بين المعنى المنقول إليه والمعنى المنقول منه فحينئذ نسمي هذا بالاستعارة، فالاستعارة هي مجاز مبني على التشبيه.

الاستعارة هي مجاز ولكن مبني على التشبيه، وفي القرآن الكريم هناك آيات كثيرة ذكر ولا يقصد بها المعنى الحقيقي للكلمات وإنما يُقصد بها المعنى المجازي لأنّه لو استعمل المعنى الحقيقي لما صحّ المعنى الظاهري للكلام، فعندما يقول تبارك وتعالى: **(يَدُ اللهِ فَوقَ أيدِيهم)**[2]، فلا يُقصد بكلمة «يد» أن الله تعالى له يد – جل وعلا – لأنّ الله ليس بجسم، وعليه فلابد من صرف هذا المعنى إلى معنى آخر وهو «أمر الله فوق أمرهم» أو «قدرة الله تعالى فوق قدرتهم» أو «حكم الله فوق حكمهم» .. الخ، فلابد من صرف هذا المعنى الحقيقي إلى معنى آخر. وكذلك في قوله تعالى: **(وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أعمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أعمَى وَأضَلُّ سَبِيلاً)**[3]، فإذا كان المعنى الأصلي من كلمة «أعمى» هو عمى البصر فيعني أن

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن، مصدر سابق، ص 286.
(2) الفتح، 10.
(3) الإسراء (بني إسرائيل)، 72.

جميع العميان في هذه الدنيا هم في النار، وهذه لا أحد يقول بها من المسلمين ولا أحد يقول بها من الأديان السماوية، وعليه فالمقصود من كلمة «أعمى» في الآية الكريمة وبوجود قرينة تصرف هذا المعنى الأصلي إلى معنى آخر ألا وهو عمى القلب وليس عمى البصر.

حتى كلمة «قلب» فلا يراد بها في بعض الآيات الكريمة هذه المضخة في جسم الإنسان التي تضخ الدم وإنما يُقصد بها العقل.

إذاً هذه التعبيرات المجازية كثيرة بالقرآن الكريم، ومع الأسف الشديد المذهب الظاهري يأخذ بالمعاني الظاهرة الموضوعة بالأصل من هذه الألفاظ ويترك المعنى المجازي، ونتيجة لهذا الأمر وقعوا في إشكالات سواء في الحديث الشريف أو في الآيات الكريمة فأدى ذلك إلى انحرافهم بالعقيدة فجوّزوا الرؤية على الباري تبارك وتعالى نتيجة لتأويل هذه الآيات الكريمة وأخذها على الظاهر بدون تأويل وعدم الايمان بالمجاز في القرآن الكريم، وكذلك أدى بهم إلى تجسيم الخالق تبارك وتعالى فجعلوا له يداً ورجلاً وعيناً وبعضهم وصّفه بكل حالة يصعد وينزل حتى أن بعضهم يقول ينزل من المنبر كنزولي هذا ويصعد كصعودي هذا، وكل متحرك فهو جسم وكل جسم فهو حادث لأنه محتاج وحال في المكان. هذا كله نتيجة لعدم إيمانهم بالمجاز.

المجاز هو استعمال اللفظ لغير ما وُضع له لوجود علاقة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، فإذا وُجدت قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي فهو المجاز وإذا بُني هذا المجاز على تشبيه، أي إذا كانت العلاقة للتشبيه فهو استعارة.

وإذا كانت القرينة ليست مانعة من المعنى الأصلي فهي كناية.

وعليه سنتحدث عن الظواهر البلاغية التالية: المجاز والاستعارة والكناية.

المبحث الأول: المجاز

هو أن نستعمل لفظ بغير ما وُضع له بوجود علاقة ووجود قرينة صارفة عن المعنى الذي وُضع له اللفظ (الأصلي)، فعندما أقول: «ذهبتُ إلى البحر» فهنا المفهوم من البحر هو هذا البحر المالح الذي فيه الماء الممتد والواسع، ولكن عندما أقول: «ذهبتُ إلى البحر لأغترف من علمه» فهنا دخل في الكلام معنى جديد، «البحر لأغترف من علمه» فمعنى أنه أتتلمذ على يد البحر، فهنا ليس المقصود البحر الذي فيه ماء وإنما هناك عالم علمه واسع كالبحر فأريد أن أشبه هذا العالم بالبحر. فصُرف البحر من معناه الذي وُضع له وهو البحر الحقيقي الذي فيه ماء إلى معنى آخر وهو رجل واسع العلم كالبحر في علمه لقرينة لأغترف من علمه.

لابد أن نبيّن بأن المجاز مرة يأتي مجاز مفرد مرسل ومرة يأتي مجاز مفرد بالاستعارة وأخرى يأتي مجاز مركب مرسل ومرة يأتي مجاز مركب بالاستعارة، فهذه هي الأقسام الأربعة.

المجاز المفرد المرسل: هو الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي لملاحظة علاقة غير المشابهة مع قرينة دالّة على عدم إرادة المعنى الوضعي. وله علاقات كثيرة هي[1]:

1- السببية: هي كون الشيء المنقول عنه سبباً، ومؤثراً في غيره، وذلك فيما إذا ذكر لفظ السبب، وأريد منه المسبب، نحو: رعت الماشية الغيث - أي النبات، لأن الغيث أي المطرسبب فيه.

2- المسببية: هي أن يكون المنقولُ عنه مسبباً، وأثراً لشيء آخر وذلك فيما إذا ذكر لفظ المسبب وأريد منه السبب نحو **(وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقاً)**[2] أي مطراً يسبِّب الرزق.

3- الكلية: هي كون لاشيء متضمناً للمقصود ولغيره، وذلك فيما إذا ذكر لفظ الكل، وأريد منه الجزء، نحو **(يَجعَلُونَ أَصابِعَهُم فِي آذَانِهِم)**[3]

---

(1) جواهر البلاغة، مصدر سابق، ص 254 .
(2) غافر، 13.
(3) البقرة، 19.

أي أناملهم، والقرينة «حالية» وهي استحالة ادخال الأصبع كله في الأذن ونحو: «شربتُ ماء النيل» والمراد بعضهُ بقرينة شربت.

4- الجزئية: هي كون المذكور ضمن شيء آخر، وذلك فيما إذا ذكر لفظ الجزء، وأريد منه الكل، كقوله تعالى: **(فَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤمِنَةٍ)**[1] ونحو: «نشر الحاكم عيونه في المدينة»، أي الجواسيس، فالعيون مجاز مرسل، علاقته (الجزئية) لأن كل عين جزء من جاسوسها - والقرينة الاستمالة.

5- اللازمية: هي كون الشيء يجب وجوده، عند وجود شيء آخر، نحو: «طلع الضوء»، أي الشمس، فالضوء مجاز مرسل علاقته (اللازمية) لأنه يوجد عند وجود الشمس، والمعتبر هنا اللزوم الخاص، وهو عدم الانفكاك.

6- الملزومية: هي كون الشيء يجب عند وجوده وجود شيء آخر، نحو: ملأت الشمس المكان، أي الضوء فالشمس مجاز مرسل علاقته (الملزومية) لأنها متى وجدت وجد الضوء، والقرينة «ملأت».

7- الآلية: هي كون الشيء واسطةً لإيصال أثر شيء إلى آخر وذلك فيما إذا ذكر اسم الآلة، وأريد الأثر الذي ينتج عنه، نحو **(وَاجعَل لِّي لِسَانَ صِدقٍ فِي الآخِرِينَ)**[2] أي ذكراً حسناً، فـ«لسان» بمعنى ذكر حسن مجاز مرسل، علاقته «الآلية» لأن اللسان آلة في الذكر الحسن.

8- التقييد ثم الاطلاق: هو كون الشيء مقيداً بقيد أو أكثر نحو: «مِشْفر زيد مجروح» - فان المشفر - لغة: شفة البعير، ثم أريد هنا مطلق شفة، فكان في هذا منقولا عن المقيد إلى المطلق، وكان مجازا مرسلا، علاقته التقييد، ثم نقل من مطلق شفة، إلى شفة الانسان، فكان مجازاً مرسلا: بمرتبتين، وكانت علاقته (التقييد والإطلاق).

9- العموم: هو كون الشيء شاملاً لكثير نحو قوله تعالى **(أم يَحسُدُونَ النَّاسَ)**[3] أي النبي محمد وآل محمد (ص)، فالناس مجاز مرسل،

---

(1) النساء، 92.
(2) الشعراء، 84.
(3) النساء، 54.

علاقته العموم، ومثله قوله تعالى **(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ)**[1] فان المراد من الناس واحد، وهو «نعيم بن مسعود الاشجعي».

10- الخصوص: هو كون اللفظ خاصاً بشيء واحد، كاطلاق اسم الشخص على القبيلة - نحو ربيعة - وقريش.

11- اعتبار ما كان: هو النظر إلى الماضي: أي تسمية الشيء باسم ما كان عليه، نحو: **(وَآتُوا الْيَتَامَى أَموَالَهُم)**[2] أي الذين كانوا يتامى ثم بلغوا، فاليتامى: مجاز مرسل، علاقته «اعتبار ما كان» وهذا إذا جرينا على أن دلالة الصفة على الحاضر حقيقة، وعلى ما عداه مجاز.

12- اعتبار ما يكون: هو النظر إلى المستقبل، وذلك فيما إذا أطلق اسم الشيء على ما يؤول إليه، كقوله تعالى: **(إِنِّي أَرَانِي أَعصِرُ خَمراً)**[3] أي: عصيرا يؤول أمره إلى خمر، لأنه حال عصره لا يكون خمراً، فالعلاقة هنا: اعتبار «ما يؤول إليه» ونحو: **(وَلا يَلِدُوا إلا فَاجِراً كَفَّاراً)**[4] والمولود حين يولد، لا يكون فاجراً، ولا كافراً، ولكنه قد يكون كذلك بعد الطفولة، فاطلق المولود الفاجر، وأريد به الرجل الفاجر، والعلاقة، اعتبار «ما يكون».

13- الحاليّة: هي كون الشيء حالا في غيره، وذلك فيما إذا ذكر لفظ الحال، وأريد المحل لما بينهما من الملازمة، نحو: **(فَفِي رَحمَةِ اللهِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ)**[5] فالمراد من «الرحمة» الجنة التي تحل فيها الرحمة، فهم في جنة تحل فيها رحمة الله، ففيه مجاز مرسل، علاقته «الحالية» وكقوله تعالى **(خُذُوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسجِدٍ)**[6] أي لباسكم، لحلول الزينة فيهن فالزينة حال واللباس محلها، ونحو: «أرى بياضاً يظهر ويختفي»، و«أرى حركة تعلو وتسفل».

---

(1) آل عمران، 173.
(2) النساء، 2.
(3) يوسف، 36.
(4) نوح، 27.
(5) آل عمران، 107.
(6) الأعراف، 31.

14- المحلية: هي كون لاشيء يحلُّ فيه غيره، وذلك فيما إذا ذكر لفظ المحل، واريد به الحال فيه - كقوله تعالى: **(فَلْيَدعُ نَادِيَه)**[1] والمراد مَن يحل في النادي.

15- البدلية: هي كون الشيء بدلاً عن شيء آخر، كقوله تعالى: **(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ)**[2] والمراد: الأداء.

16- المبدلية: هي كون الشيء مبدلاً منه شيءٌ آخر، نحو «أكلتُ دم زيد»، أي ديتهُ، فالدم «مجاز مرسل» علاقته «المبدلية» لأن الدم: مبدل عنه الدية.

17- المجاورة: هي كون الشيء، مجاوراً لشيء آخر، نحو «كلمتُ الجدار والعامود»، أي الجالس بجوارهما، فالجدار والعامود مجازان مرسلان «المجاورة».

18-التعلق الاشتقاقي: هو إقامة صيغة مقام أخرى، وذلك:

(أ) كإطلاق المصدر على اسم المفعول، في قوله تعالى: **(صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتقَنَ كُلَّ شَيءٍ)**[3]، أي مصنوعه.

(ب) كاطلاق اسم الفاعل على المصدر، في قوله تعالى: **(لَيسَ لِوَقعَتِهَا كَاذِبَةٌ)**[4]، أي تكذيب.

(ج) كإطلاق اسم الفاعل على اسم المفعول، في قوله تعالى: **(لاَ عَاصِمَ اليَومَ مِن أمرِ اللهِ)**[5]، أي لا معصوم.

(د) كإطلاق اسم المفعول على اسم الفاعل، في قوله تعالى: **(حِجَاباً مَّستُوراً)**[6]، أي ساتراً[6] .

---

(1) العلق، 17.
(2) النساء، 103.
(3) النمل، 88.
(4) الواقعة، 2.
(5) هود، 43.
(6) الإسراء (بني إسرائيل)، 45.
(6) جواهر البلاغة : ص 254-258 .

المبحث الثاني: الاستعارة

هي كثيرة الاستعمال في القرآن الكريم وجاءت في أعلى صورها البلاغية، كما ذكرنا بأن المجاز أن نستعمل اللفظ بغير ما وُضع له بوجود علاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المنقول ووجود قرينة صارفة تصرف الذهن عن المعنى الأصلي إلى المعنى الجديد.

إذا كانت العلاقة غير المشابهة فنسميها بالمجاز، وأما إذا كانت العلاقة لوجود المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي (بين المعنى المنقول منه وبين المعنى المنقول إليه) فحينئذ نسميها بالاستعارة. فنستعير لفظاً من الألفاظ ونستعمله بغير ما وُضع له لوجود علاقة المشابهة بين المعنى المنقول والمعنى الجديد، وبوجود قرينة تصرف الذهن من المعنى الموضوع له إلى المعنى الجديد.

من الاستعارات في القرآن الكريم، قوله تعالى: **(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيَباً)**[1]، إن شعر الرأس إذا اشتعل بمعنى احترق فهل المقصود هنا بأن الرأس يحترق ؟!

قطعاً لا، فلابد من معنى آخر حيث أن كلمة «اشتعل» لا يُراد منها المعنى الحقيقي وهو الاحتراق، فكلمة «الشيب» صرفت كلمة «اشتعل» من معناها الحقيقي إلى معنى آخر وهو البياض حيث أنّ النار عندما تشتعل فيكون اللون الشائع هو هذا البياض، فيُشبّه شعر الرأس مثل النار المشتعلة من حيث انتشار الشيب في الرأس كما أن النار تشتعل في الفحم فهناك سواد وبياض أو النار تأكل الحطب كله فيكون البياض كله منتشراً في الرأس، فهنا استعار هذه اللفظة واستعملها في غير معناها الحقيقي ووجود قرينة تصرف معنى الاشتعال من معناه الأصلي إلى المعنى المجازي ووجود مشابهة، حيث أن العلاقة هنا علاقة مشابهة بين اشتعال النار في الحطب وبين انتشار الشيب في شعر الرأس.

---

(1) مريم، 4.

إنّ الاستعارة تتكون من ثلاثة أركان: الأول مستعار منه وهو لفظ المشبّه به، والثاني مستعار له وهو المشبه، والثالث المستعار وهو اللفظ المنقول.

مثلاً نقول «رأيتُ أسداً في المدرسة» فلا أقصد بالأسد هو الأسد المفترس الحقيقي وإنما أقصد طالباً من طلاب العلم هو كالأسد رأيته في المدرسة، أو رأيتُ رجلاً شبّهته بالأسد بقرينة في المدرسة، فكلمة «أسد» فهذا اللفظ هو المشبه به (المستعار)، فأنا استعرت هذا اللفظ واستعملته بغير معناه الحقيقي حيث أن أصل الكلام «رأيتُ رجلاً كالأسد في المدرسة» فنحن قلنا بالاستعارة وأصل الاستعارة مجاز ولكن لأن العلاقة ليست سببية أو الأنواع الأخرى التي عدّدناها وإنما هي علاقة المشابهة وذلك لوجود مشابهة بين المستعار منه (المشبه به) وبين المستعار إليه (لفظ المشبّه)، فهنا شبّهنا الرجل بالأسد، والمشبه به هو «الأسد» والمشبّه هو «الرجل» فعندما نقول: «رأيتُ أسداً» ينصرف الذهن إلى الأسد الحقيقي ولكن إذا قلت «رأيتُ اسداً في المدرسة أو في الصف أو جالساً يدرس» فمعنى ذلك ليس المقصود بالأسد هو الأسد الحقيقي ولكن أنّ هناك رجلاً كالأسد في المدرسة، فهذه القرينة التي هي «في المدرسة» صرفت اللفظ عن معناه الذي وُضع له (المعنى الحقيقي) إلى المعنى المجازي الجديد. كما أن هناك علاقة المشابهة بين الرجل (الذي هو المشبّه والمستعار إليه) وبين الأسد (الذي هو المشبه به والمستعار منه) حيث أن هناك تشابه بينهما من حيث الشجاعة.

إذاً كل مجاز بُني على التشبيه فهو استعارة. فالخلاصة يمكن القول بأن الاستعارة: هو مجاز مبني على التشبيه. المستعار منه هو الأسد الحقيقي، والمستعار إليه هو «الرجل»، والمستعار هو لفظة الأسد الذي صرفناه من معناه الحقيقي إلى معناها المجازي، وقلنا أن هذه اللفظة لا تُصرف من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي الجديد إلا بوجود قرينة، حيث أن كلمة «في المدرسة» هي القرينة الصارفة من المعنى الأصلي إلى المعنى المجازي.

هناك في الاستعارة قد يُحذف المشبه الذي هو «الرجل» فهذه الكلمة لا توجد في قولنا «رأيتُ أسداً في المدرسة» وكذلك تُحذف أداة التشبيه. ففي التشبيه قد تُذكر الأداة ويُذكر المشبه به أحياناً ولكن في الاستعارة لا تُذكر

الأداة ولا يُذكر المشبه حيث أن المشبّه هو «الرجل» لم يُذكر هنا وكذلك الأداة لم تذكر وهي الكاف حيث أن أصل العبارة «رأيتُ رجلاً كالأسد».

فالاستعارة يُحذف فيها المشبه وتُحذف فيها أداة التشبيه. ونذكر مثالاً في قول الشاعر:

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقتْ ورداً ، وعَضَّتْ على العِنابِ بِالبـردِ

فهنا عدة ألفاظ استعيرت لمعاني أخرى مجازية وهنا أيضاً وجود قرينا. فقوله «فأمطرت لؤلؤاً» واللؤلؤ – كما هو معلوم – لا تمطره الدنيا وإنما يُستخرج من صدف المحار في البحر، فهنا يتكلم عن محبوبته فماذا يُقصد بـ«فأمطرت لؤلؤاً» ؟

معنى ذلك أن هناك دموع وهذه الدموع صافية بصفاء اللؤلؤ، وهذه الدموع سقطت على الخد الذي هو كالورد، وهذا اللؤلؤ انحدر من عيون هي كالنرجس، فسقت هذه الدموع على الورد وهي الخدود. وعلاقة التشبيه موجودة حيث أنّه شبّه الدموع باللؤلؤ والعيون بالنرجس والخدود بالورد.

ثم قال «وعَضَّتْ على العِنابِ بِالبـردِ» ويقصد بـ«العناب» أطراف الأنامل، و«البرد» الذي هو الحبات الصغيرة من الثلج فيُشبّه الأسنان بحبات الثلج الصغيرة لبياضها.

ففي كل هذه الألفاظ استعارة ووجود علاقة المشابهة ووجود قرينة وهي «عضّت» و«أمطرت» فأخرجت هذه الألفاظ من معناها الحقيقي إلى معناها المجازي.

المطلب الأول: أقسام الاستعارة

الاستعارة تُقسم إلى قسمين: الأولى تصريحية: إذا ذُكر المشبّه به فقط – كما في هذا البيت – فهنا المشبه وهي المرأة أو الفتاة الباكية لم تُذكر وإنما المذكور فقط المشبّه به وهو «اللؤلؤ» و«النرجس» و«الورد» و«العناب» و«البرد». فذُكر فقط المشبّه به ولم يُذكر المشبه فمعنى ذلك أنّ الاستعارة تصريحية أن يُذكر المشبه به فقط ولا يُذكر المشبه.

الثانية الاستعارة المكنية: هو أن يُذكر المشبّه فقط ولا يُذكر المشبّه به، كما في قول الشاعر:

وإذا المنيّةُ أنشبت أظفارها ألفيتَ كلَّ تميمة لا تَنفعُ

هنا استعار للفظة «المنيّة» لفظة الحيوان المفترس ودلّ عليه بكلمة «الأظفار»، فهذا يعني أنّ الشاعر ذكر المشبه وهو «المنيّة» وشبّهها بحيوان مفترس، فكما أن المنية (بمعنى الموت) يفترس الإنسان ويقضي عليه ولم يذكر المشبه به وهو «الحيوان المفترس» ولكن لمّح إليه ببعض ما يدل عليه وهو كلمة «الأظفار» فهذه الكلمة دلّت على المشبه به.

الشاعر استعار هذا اللفظ واستعمله، والجامع بينهما هو الاغتيال فكما الموت (المنية) يغتال الإنسان فكذلك الحيوان المفترس يغتال الإنسان وينشب فيه أظافره. فهذا التشبيه بذكر المشبّه واستعمال اللفظ بغير ما وضع له وبوجود قرينة، فهذا المجاز المبني على هذا التشبيه (تشبيه المنية بالحيوان المفترس) وذُكر المشبه فقط وعليه تكون الاستعارة مكنية.

يمكن تقسم الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار: فمرة يكون اللفظ جامد مثل «قمر»، «شمس»، «ماء» هذه ألفاظ جامدة ليست مشتقة، ولكن عندما أقول «كاتب»، «جالس»، «قائم»، «قاعد» فهذه أسماء مشتقة. فالاستعارة بناء على ذلك مرة يكون اللفظ المستعار من لفظ جامد كأن يشبه إنسان إنساناً بالقمر، ومرة يكون اللفظ المستعار لفظ مشتق وهذا المشتق مرة يكون اسم فاعل، اسم مفعول، اسم فعل، مصدر .. الخ، ومثال ذلك «نامت همومي عني» أو مثلاً تقول للمخاطب «صه» وهو اسم فعل، أو «مه» أو «حذاري» وهي أسماء الأفعال.

بناء على ذلك الاستعارة مرة تكون أصلية إذا كان اللفظ المستعار جامداً، وأما إذا كان اللفظ المستعار مشتقاً بكل أنواع الاشتقاق فحينئذ تكون الاستعارة تبعية.

المطلب الثاني: الاستعارة في القرآن الكريم

نذكر بعض الآيات الكريمة التي تبيّن أنواع الاستعارة، مثل قوله تعالى: **(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَريَةً كَانَت آمِنَةً مُّطمَئِنَّةً يَأتِيهَا رِزقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَت بِأَنعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوفِ بِمَا كَانُوا يَصنَعُونَ)**[1].

(1) النحل، 112.

فكلمة «لباس» يُلبس ويُتحسس ولا يُتذوق باللسان ولكن هناك قرينة الجوع والخوف، فكأن الإنسان نتيجة للجوع ذاق طعم الجوع، وشبّهت الآية الجوع والخوف بلباس قد أحاط ببدن الإنسان، وبدأ يتذوق هذا الإنسان طعم الجوع وطعم الخوف. فهذا النوع من التشبيه استعمل لفظة «الذوق» بغير المعنى الموضوع له لأن الذوق باللسان وليس باللباس ولا ببقية أجزاء البدن، وهنا تشبيه أن الخوف والجوع قد أحاط بهم إحاطة اللباس بالبدن.

والاستعارة في هذه الآية هي تصريحية لأنّه ذُكر المشبه به ولم يُذكر المشبه، وهذه الاستعارة التي استعملها القرآن الكريم في أعلى درجات الاستعارة.

كذلك في قوله تعالى: **(وَاخفِض لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحمَةِ)**[1]، فيخاطب تعالى الأبناء وكيف يتعاملون مع الآباء وكيف أنهم مطالبون بأن يتذللوا إليهم، ويشبه هذا الذل مثل الطائر الذي يخفض جناحه تذللاً، فالابن مطالب أن يتذلّل لوالديه كما أن الطائر يخفض جناحه من الذل فيشبه الذل بطائر خافض لجناحيه.

فذُكر المشبّه وحُذف المشبه به وهو «الطائر»، وكما ذكرنا أنّه كلما ذُكر المشبه وحُذف المشبه به فالاستعارة تكون مكنية.

مثال على الاستعارة الأصلية في قوله تعالى: **(كِتَابٌ أنزَلنَاهُ إِلَيكَ لِتُخرجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور)**[2]، فكلمتي «الظلمات» و«النور» هنا تشبيه حيث يشبه الضلال بالظلمات والنور بالهدى، ولكن اللفظ الذي أستعير وهو كلمة «الكتاب» فهو لفظ جامد.

مثال على الاستعارة التبيعة في قوله تعالى: **(وَآيَةٌ لَّهُم اللَّيلُ نَسلَخُ مِنهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظلِمُونَ)**[3]، «حيث استعير في الآية الكريمة«نسلخ» من«السلخ» وهو كشط الجلد عن الشاة ونحوها لإزالة ضوء النهار عن الكون قليلاً قليلاً، بجامع ما يترتب على كل منهما من ظهور شيء كان

---

(1) الإسراء (بني إسرائيل)، 24.
(2) إبراهيم، 1.
(3) يـــس، 37.

خافياً، فبكشط الجلد يظهر لحم الشاة، وبغروب الشمس تظهر الظلمة التي هي الأصل والنور طارئ عليها، يسترها بضوئه»[1].

وأحياناً حرف أيضاً وتكون فيه الاستعار تبعية مثل قوله تعالى: **(فَالتَقَطَهُ آلُ فِرعَونَ لِيَكُونَ لَهُم عَدُوّاً وَحَزَناً)**[2]، فهنا اللام في هذه الآية الكريمة هي للعاقبة وليست للغاية، يعني آل فرعون عندما التقطوا موسى (ع) ليس هدفهم من الالتقاط أن يكون لهم عدواً وإنما التقطوه ليكون عاقبة أمره – أي الغاية النهائية – أن يكون لهم عدواً، أما هم (آل فرعون) فكانت غايتهم من التقاط موسى (ع) ليكون لهم ابناً **(وَقَالَتِ امرَأَتُ فِرعَونَ قُرَّتُ عَينٍ لِّي وَلَكَ لا تَقتُلُوهُ عَسَى أن يَنفَعَنَا أو نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُم لا يَشعُرُونَ)**[3]، فهناك قرائن بيّنت وجود هذه اللام وأنها ليست لام التعليل وإنما لما يكون عليه مآل موسى (ع).

---

(1) من روائع الاستعارة في لغه القرآن، موقع على الانترنت: **http://www.alfaseeh.net/vb/showthread.php?t=7044**
(2) القصص، 8.
(3) القصص، 99.

الفصل الخامس عشر

المحكم والمتشابه

بالنسبة للمحكم فهناك آيات كريمة فيها ألفاظ لا تحتمل أكثر من معنى واحد، وعليه فإنّ اللفظ المحكم هو الذي لا يحتمل أكثر من معنى ولا يحصل فيه الاشتباه، حيث أن اللفظ المشترك: هو الذي يحتمل فيه أكثر من معنى مثل كلمة «عين» فقد يُراد منها عين الماء أو عين الإنسان أو عين المادة أو يراد بها الجاسوس، فهذا لفظ مشترك يحتمل عدة معاني فإذا ورد في عبارة لابد من وجود قرينة وعينة لمعرفة المراد أي من هذه المعاني.

أما اللفظ المختص فهو الذي لا يمكن أن نأخذ منه إلا معنىً واحداً إذا كان هناك قرينة معه تصرفه عن المعنى الموضوع له، كما في الاستعارة والتشبيه.

أما المتشابه فهو الذي ممكن أن نحتمل منه عدة معاني، وفي هذه المسألة هناك آراء للعلماء وتدخل قضية التأويل ومَن هم المؤّلون ؟ ومَن الذين رزقهم الله تعالى علم التأويل ؟ حيث قال تعالى: (**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ..**)[1].

كلمة (**تَأْوِيلَهُ**) تعني ما تؤول إليه الآية من المعنى حيث أن هناك معنى ظاهراً ومعنى باطناً وكم بطن من المعاني.

الغاية من بحث هذا الموضوع أنّ القرآن الكريم الذي أنزله الله تبارك وتعالى تبياناً لكل شيء ألفاظه محدودة ومعدودة مايقارب 51 ألف لفظٍ، والحوادث والأشياء والوقائع ليست متناهية وكثيرة جداً تفوق هذه الألفاظ وتفوق هذا العدد فكيف يستوعب هذا العديد القليل هذه الأحداث الكثيرة ؟! وكيف يستوعب هذا العدد المحدود من الألفاظ هذا الكون وهذه العلوم وهو تبيان لكل شيء ؟!

إنّ تفسير المحكم والمتشابه بما يذكره السيد الدكتور محمد علي الشهرستاني (ره) في كتابه «المدخل إلى علم الفقه» يذكر رأي الشيخ الطوسي ويذكر رأي السيد الطباطبائي ثم يورد عليهما بعض الكلام حيث يناقش نظريتهما في المحكم والمتشابه ثم يبيّن أن المحكم الذي لا يحتمل إلا

---

(1) آل عمران، 7.

معنى واحداً وهذا في الآيات المحكمة، وهناك المتشابه الذي يحتمل أكثر من معنى.

في هذه المسألة يقول السيد الدكتور الشهرستاني– في ما معناه –: «هناك ثابت وهناك متغير، الثابت هو الذي تدل عليه الآيات المحكمة وغير قابل للتغيير، وهناك المتغير الذي تدل عليه الآيات المتشابهة حتى تستوعب التغيرات إلى ما يشاء الله تعالى لأن حلال محمد حلال إلى أن تقوم الساعة فلابد من آيات تستوعب كل هذه المعاني وهذا من حيث العلم وليس من حيث الظن والاجتهاد حيث أن اجتهاد المجتهدين يصلون في أغلب أحكامهم إلى قضايا ظنية، بينما التأويل وعلم القرآن إلى قضايا قطعية يقينية، وهذا لا يمكن حلّه إلا بالرجوع إلى أهل الذكر والراسخين في العلم. فالقرآن معجز من هذه الناحية من حيث كونه فيه المحكم وفيه المتشابه»[1].

إنّ المحكم أو الآيات المحكمة تغطي العنصر الثابت في الأحكام والأشياء والعقائد، والمتشابه يغطي العنصر المتغير. ويضرب السيد الدكتور الشهرستاني (ره) أمثله على ذلك في كتابه مثل قوله تعالى: **(فَمَن حَجَّ البَيتَ أَوِ اعتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيهِ أن يَطَّوَّفَ بِهِمَا)**[2] ويقول (ره): «يفهم القارئ من كلمة **(فَلاَ جُنَاحَ عَلَيهِ)** الاختيار في الطواف عند حج البيت ولم يفهم الوجوب من ذلك ولكن اتفق فقهاء الإسلام بجميع طوائفهم ومذاهبهم أن الطواف ركن من أركان الحج ولم يكن المقصود هنا الاختيار أو الاستحباب بل المقصود هو الوجوب وذلك لأن رسول الله (ص) قال: «حجوا كما رأيتموني أحج» واعتبر رسول الله الطواف ركناً واجباً من أركان الحج ...»[3].

مثال آخر يذكره الشهرستاني (ره): «وقال عزّ من قائل في حكم الوضوء: **(فَاغسِلُوا وُجُوهَكُم وَأَيدِيَكُم إِلَى المَرَافِقِ)**[4]، لقد اختلف فقهاء المسلمين في فهم المقصود من **(إِلَى المَرَافِقِ)** ولذا كان استنباطهم لحكم

---

(1) الشهرستاني: السيد د. محمد علي: المدخل إلى علم الفقه، منشورات الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، دار النصر، ط1، بيروت – لبنان، 1996. ص 96 – 99.
(2) البقرة، 158.
(3) الشهرستاني: المدخل إلى علم الفقه، مصدر سابق، ص 100.
(4) المائدة، 6.

الموضوع متغايراً، فمنهم من أخذ بظاهر الآية وقال غسل اليدين من مقدمة الأصابع إلى المرافق، وهو ما يسمى بالاصطلاح الفقهي بالمنكوس كأبي حنيفة ومالك، وقد خالفهما ابن حزم بقوله في المحلى: «ومن نكس وضوءه أو قدم عضواً على المذكور قبله في القرآن عمداً أو نسياناً لم تجزه الصلاة أصلاً»، لان ابن حزم من الفقهاء الذين يعتبرون «إلى» هنا انتهاء الغاية، وليست البداية، أما الإمامية فيعملون بالحديث المنقول عن الإمام الصادق (ع) كما جاء في الكافي عن الهيثم بن عروة التميمي، قال سألتُ أبا عبد الله (ع) عن قوله تعالى: **(إِذَا قُمتُم إِلَى الصَّلَاةِ فاغسِلُوا وُجُوهَكُم وَأيدِيَكُم إِلَى المَرَافِقِ)**؟ قال (ع): «ليس هكذا تنزيلها إنما هي فاغسلوا وجوهكم وأيديكم من المرافق» ثم مرّر يده من مرفقه إلى أصابعه. لا يريد الإمام الصادق (ع) في هذا الحديث أن يقول إن القرآن محرّف والعبارة واللفظ الصحيح من المرفق، إنما أراد أن يقول إن مقصود الشارع لم يكن في «إلى» انها الغاية فحسب، بل المراد الواقعي هو من المرافق إلى الأصابع»[1].

الحكم الشرعي كما ورد عن أهل البيت (ع) كما ورد حتى بعض أهل السنة حيث يرون بأنّ الغسل هو من المرافق قبل الأصابع وليس منكوساً، فاهل البيت (ع) يقرأون الآية بمعنى التأويل لا بمعنى التنزيل ولو كانت «من» موجودة في الآية لما وجب غسل المرفق ولكن بوجود «إلى» فتكون المرافق داخلة في الغسل.

هناك قضية في النحو أن الحروف ينوب بعضها مناب بعض، كما في قوله تعالى: **(قَالَ مَن أنصَارِي إِلَى اللهِ)**[2]، فهنا **(إِلَى اللهِ)** ليست معناها «إلى» بمعنى الغاية وإنما معناها «مع» أي قامت مقام «مع» فتكون العبارة «مَن أنصاري مع الله» حيث أن الله تعالى ناصر أنبيائه، وكذلك قوله تعالى **(فاغسِلُوا وُجُوهَكُم وَأيدِيَكُم إِلَى المَرَافِقِ)** معناها «من المرافق»، وهناك مَن يؤول«إلى» بمعنى «مع» يعني «اغسلوا وجوهكم وأيديكم مع المرافق» ولو لم تأت هنا «مع المرافق» لما تمكنا أن نستحصل وجوب غسل المرافق، ولم يكن هناك دليل على ضم المرافق في الغسل.

---

(1) الشهرستاني: المدخل إلى علم الفقه، مصدر سابق، ص 100 – 101.
(2) آل عمران، 52.

هذا باختصار شديد موضوع المحكم والمتشابه، وأنه معجزة من معجزات القرآن الكريم ولذلك نجد أنه لا توجد في آيات الأحكام الكريمة استعارة وما شاكل ذلك ولا توجد الأمور البلاغية فيها استعمال غير الحقيقة حيث أن آيات الأحكام تأتي خالية من الخيال.

والقرآن الكريم فيه المتشابه ولولا هذا المتشابه لما استوعب القرآن الكريم كل أحكام الحياة وما تحتاجه البشرية إلى قيام الساعة.

الفصل السادس عشر

أشهر من ألف في الإعجاز البلاغي

من أشهر مَن ألف في الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم هم كالتالي:

- الجاحظ أبو عثمان بن بحر بن محبوب الكناني المعتزلي (ت 255هـ) ومن مؤلفاته: «البيان»، «الحيوان»، «رسالة في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» وله كتب أخرى ولكن الذي يعنينا من هذه المؤلفات هو كتاب «البيان».
- ابن قتيبة الدينوري أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم (ت 276هـ) له «تأويل مشكل القرآن».
- الرماني المعتزلي أبو الحسن علي بن عيسى (ت 384هـ) وله كتاب «النكت في إعجاز القرآن».
- القاضي الباقلاني أبو محمد بن الطيب بن محمد (ت 403هـ) له كتاب «اعجاز القرآن».
- الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت 471هـ) وهو أشهر هؤلاء وأكثرهم تعمقاً وتوسعاً وتقعيداً في موضع اعجاز القرآن، له كتاب «أسرار البلاغة» وكتاب «دلائل الاعجاز».

طبعاً لا يعني أن ذكر هؤلاء أنّ غيرهم لم يؤلفوا بل هناك أيضاً مَن ألّف في هذا المجال، وهناك كثيرون غير هؤلاء ولكننا نأخذ أشهر مَن ألّف.

الفصل السابع عشر

نماذج من الأسئلة الامتحانية

نبتدىء الآن بكتابة نماذج عامة من الأسئلة التي تغطي هذه المادة، وهي كما يلي:

س1: عرّف المعجزة وبيّن من خلال تعريفك عناصر الاعجاز.

س2: الاعجاز خارق للعادة وليس خارقاً للعقل، اشرح ذلك.

س3: ما هو الفرق بين السحر والمعجزة ؟ (تكون الإجابة عن طريق نقاط أو شرح).

س4: اشرح حالة العرب حين نزول القرآن الكريم.

س5: ما هو السر في نزول القرآن الكريم منجماً ؟

س6: تكلم عن مآثر العرب في البلاغة والبيان.

س7: بيّن ردود الفعل التي قابلت بها العرب نزول القرآن الكريم.

س8: اندهش العرب حين سمعوا آيات القرآن الكريم وعجزوا عن الاتيان بمثله. فما هو السر في ذلك الاعجاز ؟

س9: سلكت قريش ثلاث طرق في الصد عن سماع القرآن. اذكر هذه الطرق واشرحها مفصلاً.

س10: لماذا لم يحاول أحدٌ من أهل البيان مجاراة القرآن الكريم ؟

س11: اذكر بعض المنقولات التي نُقلت في معارضة القرآن الكريم وانقدها. (بغض النظر عن كون هذه المنقولات دقيقة أم غير دقيقة، محققة أم غير محققة، فعليك مناقشة هذه المنقولات ونقد هذه المنقولات من حيث نسبتها إلى أصحابها أو إلى مَن تُنسب إليهم، هل يصح ذلك وهل هم بهذا المستوى من هذا المنقول أو لا).

س12: بيّن الفرق بين المعجزة المادية والمعجزة المعنوية. وبين المعجزة المؤقتة والمعجزة الدائمة.

س13: اذكر نبذة عن نزول القرآن الكريم وتواتره.

س14: ما هو الأساس في بلاغة القرآن الكريم ؟ (طبعاً إذا كانت هناك عدة آراء للبلاغيين في أساس بلاغة القرآن الكريم، فعليك ذكر هذه الآراء).

س15: اذكر وجوه الاعجاز البلاغي.

س16: ما هي نظرية الجرجاني في البلاغة في الأسلوب ؟

س17: اشرح نظرية الباقلاني في فصاحة الكلمات ؟

س18: هناك من البلاغيين مَن جمع بين نظرية الباقلاني ونظرية الجرجاني في الاعجاز البلاغي، اشرح ذلك مفصلاً.

س19: تكلّم عن فصاحة الألفاظ وبلاغتها من خلال قوله تعالى: (**وَقِيلَ يَا أَرضُ ابلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقلِعِي**).

س20: بيّن فصاحة الألفاظ وبلاغتها في قوله تعالى: (**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَريَةً كَانَت آمِنَةً مُّطمَئِنَّةً يَأتِيهَا رِزقُهَا رَغداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَت بِأَنعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوفِ بِمَا كَانُوا يَصنَعُونَ**) من خلال دراستك للآية الكريمة.

س21: بيّن جوانب الفصاحة والبلاغة من خلال دراستك البلاغية لسورة الكوثر.

س22: ما هو رأي القاضي عبد الجبار في فصاحة الكلمة المنفردة ؟ وما هي نظرته في بلاغتها ؟

س23: للفظ المفرد بلاغة خاصة من الأسلوب، بيّن نظرية الجرجاني في الأسلوب بما يخص الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

س24: تكلّم عن التآلف في الألفاظ والمعاني، ذاكراً في كلامك رأي الباقلاني في هذا الموضوع. واذكر ما تحفظه من شواهد على ذلك.

س25: قال تعالى: (**إِنَّا بَلَونَاهُم كَمَا بَلَونَا أَصحَابَ الجَنَّةِ إِذ أَقسَمُوا لَيَصرِمُنَّهَا مُصبِحِينَ* وَلَا يَستَثنُونَ* فَطَافَ عَلَيهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُم نَائِمُونَ* فَأَصبَحَت كَالصَّرِيمِ* فَتَنَادَوا مُصبِحِينَ* أَنِ اغدُوا عَلَى حَرثِكُم إِن كُنتُم صَارِمِينَ* فَانطَلَقُوا وَهُم يَتَخَافَتُونَ* أَن لَا يَدخُلَنَّهَا اليَومَ عَلَيكُم مِّسكِينٌ* وَغَدَوا عَلَى حَردٍ قَادِرِينَ* فَلَمَّا رَأَوهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ* بَل نَحنُ مَحرُومُونَ* قَالَ أَوسَطُهُم أَلَم أَقُل لَّكُم لَولَا تُسَبِّحُونَ* قَالُوا سُبحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَأَقبَلَ بَعضُهُم عَلَى بَعضٍ يَتَلَاوَمُونَ* قَالُوا يَا وَيلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ* عَسَى رَبُّنَا أَن يُبدِلَنَا خَيرًا مِّنهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ* كَذَلِكَ العَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكبَرُ لَو كَانُوا يَعلَمُونَ**).
اذكر الصور البيانية الواردة في هذه الآيات الكريمة والتآلف بين الألفاظ والمعاني وتدرج ذلك.

س26: قال تعالى: (**إِنَّ فِرعَونَ عَلا فِي الأَرضِ وَجَعَلَ أَهلَهَا شِيَعاً يَستَضعِفُ طَائِفَةً مِّنهُم يُذَبِّحُ أَبنَاءهُم وَيَستَحيِي نِسَاءهُم إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفسِدِينَ* وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ استُضعِفُوا فِي الأَرضِ وَنَجعَلَهُم أَئِمَّةً وَنَجعَلَهُمُ الوَارِثِينَ**).
أعطت هذه الآية الكريمة وصفاً للنفس الفرعونية بصورة بلاغية منقطعة النظير، تكلّم عن البيان الوارد في هذه الآية الكريمة.

س27: قال الخطابي: «اعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف متضمناً أصح المعاني»، هذا نص كلام الخطابي في ضوء نظرية الخطابي في قوة البلاغة والأسلوب القرآني. اشرح هذا الموضوع، واذكر الأجناس الثلاثة للكلام البليغ التي ذكرها الخطابي.

س28: يبدع الكثير من البلغاء في جانب واحد أو جانبين ويتفاوتون في مستوى كل جانب، في حين أبدع القرآن الكريم في كل الجوانب البلاغية وفي أعلى مستويات البلاغة. تكلّم بالتفصيل عن هذه الحقيقة من خلال قوله تعالى: (**وَلَقَد صَرَّفنَا فِي هَذَا القُرآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكثَرَ شَيءٍ جَدَلاً**).

س29: تكلّم عن تصريف القرآن في المعاني وتصريفه في الألفاظ.

س30: تكلّم عن تصريف القرآن في طول السور وقصرها.

س31: قال الجاحظ: «رأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام». ناقش هذه المقولة (هل هي صحيحة أم خاطئة ؟ وما هو الرد إذا كنتَ ترد ؟ وما هو الشيء الصحيح إذا كان صحيحاً في هذه المقولة ؟).

س32: اذكر باختصار مميزات القصة في القرآن الكريم.

س33: كيف ترد على الشبهة القائلة أن التكرار في القصة أمر معيب، وقد تكرّرت قصص بعض الأنبياء (ع) في القرآن الكريم، فما هي الحكمة من هذا التكرار ؟ وكيف يكون الكلام بليغاً مع التكرار والاطناب ؟

س34: بيّن العِبَر والصور البيانية في تكرار قصة إبراهيم (ع) باختصار.

س35: تتبع باختصار قصة موسى (ع) مبيّناً الميزات التي تظهر في كل مرة تكرّر فيها القصة.

س36: ذكرت الآيات الكريمة هجرة بني إسرائيل وموسى (ع) من مصر، وورد في ذلك عدة صور بيانية وعِبَر مع التكرار في القرآن الكريم، فالقرآن في قمة البلاغة.
فصّل في هذه المسألة من خلال قصة الهجرة

س37: بيّنت الآيات الكريمة تجاوزات بني إسرائيل في تعاملهم مع موسى (ع) في مواضع كثيرة. اذكر ثلاثة مواضع من ذلك موضحاً الصور البيانية وحصول البلاغة في أوجها مع التكرار.

س38: تفرّد القرآن الكريم في استعمال الاستفهام التقريري والانكاري إلى معاني وأغراض مختلفة حتى شكّل ظاهرة قرآنية متفردة. اذكر تلك الأغراض مع الأمثلة.

س39: قال تعالى: (**وَمِن آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحرِ كَالأعلامِ)**، تميّزت هذه الآية عن كلام البشر بميزات من فصاحة أبنيتها وعذوبة تركيب أحرفها. بيّن ذلك مفصلاً.

س40: من بدائع القرآن وغرائبه بأن يكرّر الحرف الثقيل في آية واحدة ويلطّفه بحروف خفيفة بنحو يعلو مجموعه العذوبة والخفة، بيّن ذلك من خلال الآيات التالية:

- **(قِيلَ يَا نُوحُ اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُم ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ).**
- **(قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ المُلكِ تُؤتِي المُلكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ المُلكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الخَيرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ).**
- **(وَاتلُ عَلَيهِم نَبَأَ ابنَي آدَمَ بِالحَقِّ إِذ قَرَّبَا قُربَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَم يُتَقَبَّل مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ).**

س41: تكلّم عن بلاغة سورة والضحى.

س42: اختلاف التعبير ينشأ من اختلاف المقتضيات، بيّن ذلك من خلال قوله تبارك وتعالى: **(وَلاَ تَقتُلُوا أولادَكُم مِّن إملاَقٍ نَّحنُ نَرزُقُكُم وَإِيَّاهُم)**، وقوله تعالى: **(وَلاَ تَقتُلُوا أولادَكُم خَشيَةَ إملاقٍ نَّحنُ نَرزُقُهُم وَإِيَّاكُم)**.

س43: اختلاف التعبير ينشأ من اختلاف المقتضيات، بيّن ذلك من خلال قوله تبارك وتعالى: **(يَومَ يَفِرُّ المَرءُ مِن أَخِيهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ**

وَبَنِيهِ* لِكُلِّ امرِئٍ مِّنهُم يومَئذٍ شَأنٌ يُغنِيهِ)، وقوله تعالى: **(يَوَدُّ المُجرِمُ لَو يَفتَدِي مِن عَذَابِ يومِئذٍ ببَنِيه* وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ* وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤوِيهِ* وَمَن فِي الأرضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ)**.

س44: تكلّم عن سمو المعاني والمعارف العليا ضمن البلاغة القرآنية.

س45: يصوغ القرآن الكريم المعاني العالية في قالب التجسيم والتمثيل والصور الذهنية التجريدية بمشاهد حسية من خلال الألفاظ. اشرح مع التمثيل هذه الظاهرة.

س46: يشتمل القرآن على أكثر من خمسين مثلاً جاءت غزيرة المعاني وعالية المضامين. اذكر مثالاً من الآيات الكريمة على ذلك مبيّناً تناسق العبارات مع قلة الألفاظ.

س47: جعل الجرجاني النظم هو السبب الوحيد لتحقيق القسط الأوفر من الاعجاز القرآني. عرّف النظم واشرح رأي الجرجاني في ذلك.

س48: قال تعالى: **(وَقِيلَ يَا أَرضُ ابلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقلِعِي وَغِيضَ المَاء وَقُضِيَ الأمرُ وَاستَوَت عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعداً لِّلقَومِ الظَّالِمِينَ)**، وهذه الآية الكريمة من بدائع آيات القرآن، وحين نزولها أنزلت قريش معلقاتها عن جدار الكعبة.

اذكر عشراً من المحسنات البديعية الواردة فيها.

س49: قال تعالى: **(وَأَوحَينَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَن أَرضِعِيهِ فَإِذَا خِفتِ عَلَيهِ فَأَلقِيهِ فِي اليَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرسَلِينَ)**، جمعت هذه الآية المباركة فعلين من الماضي وآخرين من الأمر وأمرين في النهي وأمور كثيرة من اسم الفاعل واسم المفعول، اذكر هذه الأمور وفصل في بلاغة القرآن الكريم في هذه الآية.

المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم
2- ابن المغازلي، ابي الحسن علي بن محمد الشافعي: مناقب علي بن أبي طالب (ع)، ط3، دار الأضواء للطباعة، بيروت، 2003.
3- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله: الإشارات والتنبيهات، شرح نصير الدين الطوسي، تحقيق د. سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة الثالثة، مصر.
4- ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري: السيرة النبوية، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت – لبنان، 1411هـ.
5- أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى: المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة - مصر، 2010.
6- الآمدي التميمي، عبد الواحد: غرر الحكم ودرر الكلام، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، قم – إيران، 1410هـ.
7- الباقلاني، محمد بن الطيب: إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، ط5، القاهرة، 1997.
8- الباقلاني، محمد بن الطيب: إعجاز القرآن، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1971.
9- البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، ط3، 1987م.
10- بنت الشاطئ، د. عائشة عبد الرحمن: الاعجاز البياني للقران ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، ط3، القاهرة، 2004.
11- الحكيمي، محمد رضا: سلوني قبل أن تفقدوني، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، 2006.
12- الخطابي، الرماني، الجرجاني: ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط3، القاهرة – مصر، 1976.
13- الخوئي، السيد أبو القاسم الموسوي: البيان في تفسير القرآن، تحقيق السيد جعفر الحسيني، دار الثقلين، الطبعة السادسة، طهران – إيران، 1429هـ.
14- ديوان حافظ إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1987.
15- الأميني، العلامة عبد الحسين: الغدير في الكتاب والسنة والأدب، مركز الغدير للدراسات الإسلامية – قم، ط1، 1416 هـ.
16- الرافعي، مصطفى صادق: اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط9، 1973.

17- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت – لبنان، 1407هـ.
18- السبحاني، العلامة الشيخ جعفر: الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، مؤسسة الإمام الصادق (ع)، الطبعة السابعة، قم – إيران، 1430هـ.
19- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان، 1987.
20- السيوطي، جلال الدين: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ط1، دار الفكر - بيروت، 1993.
21- الشهرستاني: السيد د. محمد علي: المدخل إلى علم الفقه، منشورات الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، دار النصر، ط1، بيروت – لبنان، 1996.
22- الشهرستاني، السيد هبة الدين: المعجزة الخالدة، مطبعة المعارف، ط1، بغداد، 1951.
23- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، ط2، لبنان، 1992.
24- الصدوق، الشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي: الامالي، مؤسسة الاعلمي، ط1، بيروت، 1400هـ.
25- الصدوق، الشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي: معاني الأخبار، دار المعرفة للطباعة والنشر، تصحيح علي أكبر الغفاري.
26- الطبرسي، الشيخ أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب: الاحتجاج، النجف الأشرف.
27- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988.
28- الطبري، محمد بن جرير: تفسير الطبري، دار المعارف، الطبعة الأولى، القاهرة – مصر.
29- الطبطبائي، العلامة السيد محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، منشورات دار الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الخامسة، بيروت – لبنان، 1983.
30- الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن: الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، مكتبة جامع جهلستون – طهران، 1400هـ.

31- الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن: تمهيد الأصول في علم الكلام، (شرح القسم الأول من رسالة «جمل العلم والعمل» للشريف المرتضى)، دار رائد، ط1، قم، 1394هـ.
32- عاشور، قاسم: 1000 سؤال وجواب في القرآن الكريم، دار ابن حزم، ط1، بيروت، 2001.
33- العياشي، محمد بن مسعود: تفسير العياشي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1991.
34- عياض، القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 2008.
35- الكلبايكاني، لطف الله الصافي: منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر، مؤسسة الوفاء، ط2، بيروت – لبنان، 1983.
36- الكليني، ثقة الإسلام الشيخ محمد بن يعقوب: أصول الكافي، دار الأضواء، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، 1985م.
37- المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر: بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، بيروت – لبنان، 1983م.
38- المحص، د. عبد الجواد محمد: الجمال في القرآن الكريم، الإسكندرية، 2006.
39- المعتزلي، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، دار الكتاب العربي، ط1، بغداد، 2007م.
40- المقرم، السيد عبد الرزاق: مقتل الحسين (ع)، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ط7، 2007م.
41- النسائي، أحمد بن شعيب: تهذيب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، تهذيب وترتيب: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، 1983.
42- النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم: صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت.
43- الهاشمي، أحمد: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى، مصر 1969.
44- الهاشمي، السيد أحمد: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، الطبعة الأولى، أميريان، قم، 2009م.

فهرس الموضوعات

الموضـوع	الصفحة

المقدمة.. 5

الفصل الأول: نزول القرآن... **7**

المبحث الأول: أحوال العرب قبل نزول القرآن الكريم................ 8

المبحث الثاني: أحوال العرب بعد نزول القرآن الكريم................ 9

المبحث الثالث: الوسائل التي اتخذتها قريش للصد عن سماع القرآن 16

الاتجاه الأول: منع الناس من سماع القرآن الكريم............. 17

الاتجاه الثاني: عزو القرآن إلى السّحر........................... 19

الاتجاه الثالث: دعوة القصاص لسرد الأساطير................. 21

الفصل الثاني: المعجزة وعناصرها.. **23**

المبحث الأول: عناصر الاعجاز.. 27

المبحث الثاني: الاعجاز لا يخالف قانون العلية.......................... 28

الفصل الثالث: هل عُورض القرآن الكريم ؟.................................... **35**

المبحث الأول: مسيلمة الكذاب.. 36

المبحث الثاني: طليحة بن خويلد الأسدي.................................. 41

المبحث الثالث: سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية................. 42

المبحث الرابع: الأسود العنسي.. 42

الفصل الرابع: دلالة الاعجاز على صدق دعوى النبوة........................ 47

المبحث الأول: البيان الأول لوجود الرابطة المنطقية.................. 49

المبحث الثاني: البيان الثاني لوجود الرابطة المنطقية................... 52

الفصل الخامس: نبذة عن نزول القرآن الكريم.................................. 58

المبحث الأول: حكمة نزول القرآن منجماً (مفرقاً)...................... 59

المبحث الثاني: مميزات الآيات المكية والآيات المدنية................ 61

المبحث الثالث: حفظ القرآن الكريم وترتيب السور والآيات.......... 62

الفصل السادس: تحليل سر بلاغة القرآن الكريم................................ 71

المبحث الأول: السر في الاعجاز البلاغي................................ 72

المبحث الثاني: أركان ودعائم سر الاعجاز البلاغي....................... 74

المطلب الأول: تعريف الفصاحة................................. 75

المطلب الثاني: تعريف البلاغة.................................. 78

المطلب الثالث: اتقان المعاني وسمو المضامين.............. 80

المطلب الرابع: بداعة الأسلوب ورقيّه 82

أولاً: فصاحة ألفاظه وجمال عباراته.................... 82

ثانياً: بلاغة معانيه وسموّالمضامنين.................... 89

1- سورة الكوثر..................................... 91

2- سورة الضحى.................................... 94

3- آيات من سورة الانشراح........................ 98

ثالثاً: سموّ المعاني... 103

رابعاً: بداعة التصوير والتعبير 114

الفصل السابع: النظم.. 129

المبحث الأول: نظرية عبد القاهر الجرجاني............................ 132

المبحث الثاني: نظرية الباقلاني.. 137

المبحث الثالث: الجمع بين نظرية الجرجاني ونظرية الباقلاني...... 138

الفصل الثامن: النقد الأدبي عند العرب...................................... 143

الفصل التاسع: الكلمة مع أخواتها والعبارات مع رفيقاتها 175

المبحث الأول: الأسلوب القرآني... 178

المبحث الثاني: التآلف في الألفاظ والمعاني 183

المبحث الثالث: قوة البلاغة في الأسلوب من كلمات متآلفة............ 212

المبحث الرابع: التلاؤم.. 217

المبحث الخامس: تصريف البيان 218

المبحث السادس: التكرار في القرآن الكريم.............................. 224

المبحث السابع: قصص القرآن من الناحية البيانية.................... 227

أولاً – قصة إبراهيم الخليل (ع)......................... 229

ثانياً – قصة موسى الكليم (ع)........................... 242

الفصل العاشر: التصريف القرآني في قصص القرآن......................... 275

المبحث الأول: العبرة في القرآن الكريم.................................. 277

المبحث الثاني: مؤهلات الإمامة في القرآن الكريم.......... 282

المبحث الثالث: ميزان العدالة في الحكم........ 288

الفصل الحادي عشر: الصرفة...... **293**

الفصل الثاني عشر: الاستفهام وبلاغته في القرآن الكريم....... **303**

الفصل الثالث عشر: التشبيه وبلاغته في القرآن الكريم....... **315**

المبحث الأول: أقسام التشبيه باعتبار طرفيه 326

المبحث الثاني: أقسام التشبيه من حيث وجه الشبه........ 328

المبحث الثالث: أقسام درجات البلاغة من حيث ذكر أداة التشبيه ووجه الشبه وحذفهما........ 329

الفصل الرابع عشر: المجاز والاستعارة والكناية........ **333**

المبحث الأول: المجاز 336

المبحث الثاني: الاستعارة........ 340

المطلب الأول: أقسام الاستعارة........ 342

المطلب الثاني: الاستعارة في القرآن الكريم........ 343

الفصل الخامس عشر: المُحكم والمُتشابه........ **347**

الفصل السادس عشر: أشهر مَن ألّف في الاعجاز البلاغي **353**

الفصل السابع عشر: نماذج من الأسئلة الامتحانية........ **355**

المصادر والمراجع........ **361**

تنسيق الكتاب

المركز الاستشاري للإحصاء ونظم المعلومات الجغرافية

جمهورية مصر العربية - المنصورة - ت/ 01221484973

drmaadawy@yahoo.com

المركز الاستشاري للإحصاء ونظم المعلومات الجغرافية

سلسلة إصدارات جلوبال المتخصصة

الاستاذ الدكتور / حميد النجدي

نبذة عن الكتاب

يتناول الكتاب الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، من خلال سبعة عشر فصلاً، تبدأ بنزول القرآن الكريم، ثم المعجزة وعناصر الإعجاز، وهل عورض القرآن الكريم، ويليه تحليل بلاغي لدلالة الإعجاز على صدق دعوى النبوة، ثم نبذة عن نزول القرآن الكريم، وتحليل سر بلاغة القرآن الكريم، والنظم، والنقد الأدبي عند العرب، والكلمة مع أخواتها والعبارات مع رفيقاتها، والتصريف القرآني في قصص القرآن، ثم يتناول الكتاب الصرفة، والاستفهام وبلاغته في القرآن الكريم، والتشبيه وبلاغة التشبيه في القرآن الكريم، والمجاز والاستعارة والكناية، والمحكم والمتشابه، ثم يقدم الكتاب عرضاً موجزاً لأشهر من ألف في الإعجاز البلاغي، ويختتم بنماذج من الأسئلة الامتحانية.

نبذة عن المؤلف

•ولد في العراق سنة 1948م، وتخرج في جامعة بغداد كلية الآداب سنة 1977م، وحصل على الماجستير في جامعة القاهرة كلية دار العلوم سنة 1980م، ثم الدكتوراه من الجامعة نفسها سنة 1984 م، وحصل على لقب استاذ سنة 2008م، وتولى منصب رئيس جامعة اهل البيت عليهم السلام منذ عام 2020 م وحتى الان.

•شارك في العديد من المؤتمرات الدولية والمحلية والندوات العلمية والثقافية، وله العديد من البحوث والمؤلفات والكتب المنهجية التي اقرتها وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

•من مؤلفاته: الاعجاز العلمي في القرآن الكريم. الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم. من الاعجاز البلاغي والعددي في القرآن الكريم. الشهادة والاشهاد في امامة اهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم. الديمقراطية في تفكير الاسلاميين. الإرهاب المعاصر. جذور الإرهاب المعاصر. فلسفة التوحيد. الاتجاهات النحوية والصرفية للطوسي. الاتجاهات النحوية للرازي. علم الأصوات.

دار ميتا بوك للطباعة والنشر والتوزيع
Meta book Publisher
9 789776 990456